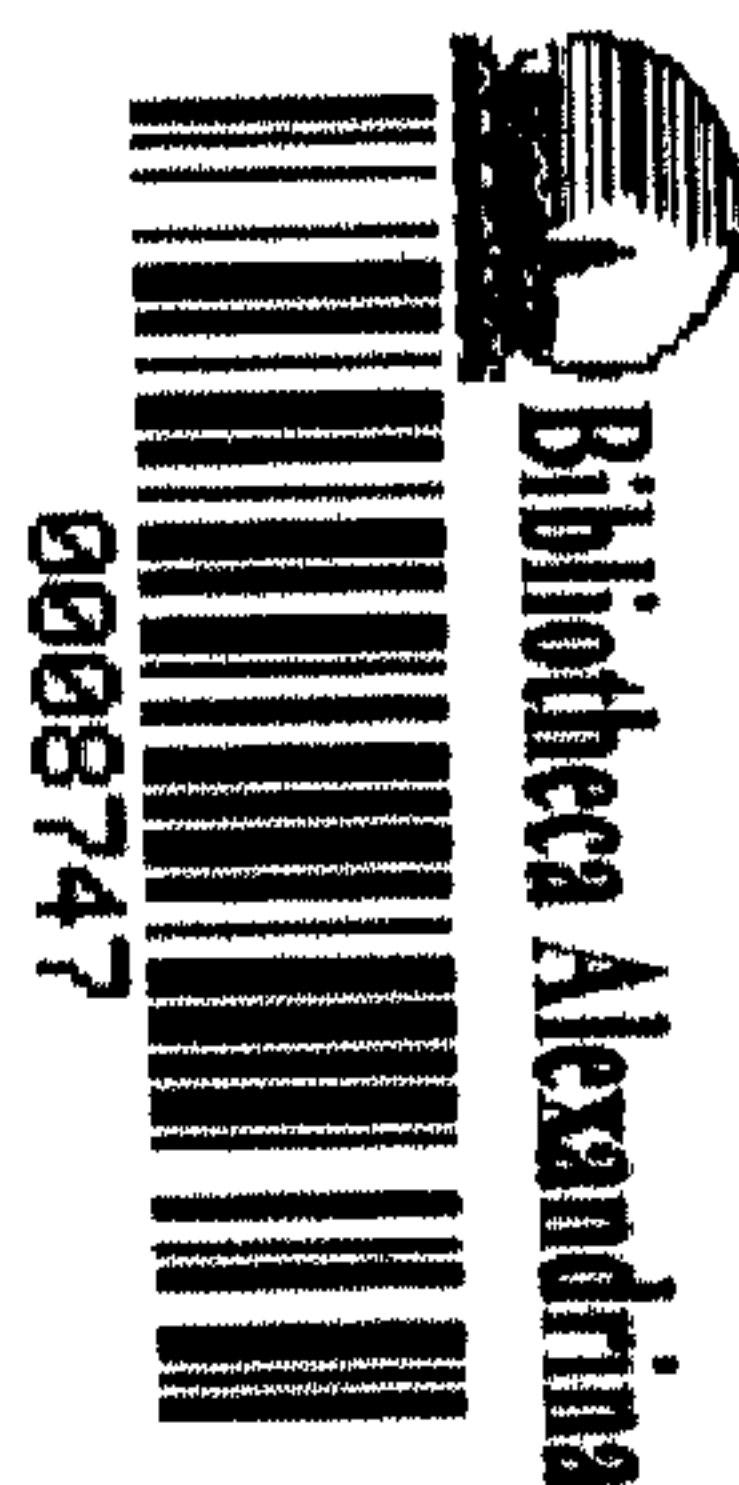


المُسْلِمُونَ فِي قُلُوبِ الْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ

دكتور

محمد محمد زيتون

١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م



المهنية العامة مكتبة الاسكندرية
رقم التصنيف : <u>٥٠٠</u>
رقم التسجيل : <u>٩٩٥</u>

المُسْلِمُونَ فِي مَلْغَزَةِ الْإِسْلَامِ

دكتور
محمد محمد زيتون

١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله :

وبعد

فهذه دراسة أردت بها بيان حال المسلمين في المغرب والأندلس في الفترة المبكرة من تاريخهم المديد . وكيف استطاعوا أن يقيموا دولة للإسلام في هذه البلاد وبلغوا دعوتهم وينشروا رسالتهم ويبشروا حضارتهم الزاهرة . مع توجيه جهد خاص لإلقاء الضوء على ما يثار حول بعض الشخصيات الإسلامية للتقليل من مكانتها أو النيل منها . ثم توضيح المواقف الفاصلة ومحاولة بيان الدوافع إليها والنتائج التي ترتبت عليها . حتى يتسنى لنا تخلص التاريخ الإسلامي في هذه الفترة من الترهات والأقاصيص والدهاوى الكاذبة التي ألصقت به مما يوجه إلى المسلمين عامة وإلى قوادهم العظام أو إلى الأهداف التي دفعتهم للوصول إلى هذه البلاد .

ثم إن هناك أمرا يتعلق بدراسة تاريخ المسلمين في الأندلس وذلك أن هذا التاريخ كان له جانب معنوي ومؤثر في الحضارة الانسانية عامة وفي النهضة الأوروبية الحاضرة بوجه خاص ، ومع ذلك لا يذكر من هذا الفضل إلا القدر اليسير .

والأمر الثاني : هو محاولة تقصي حقيقة الوضع الذي أدى إلى خروج المسلمين من الأندلس وعودتها إلى أحضان المسيحية وحل أهلها هل التنصر .

وذلك أيضا أمر مهم وخطير . ومن الواجب على المسلمين أن يعرفوا الدوافع والأسباب التي أدت إلى هذه النتيجة المؤلمة لأنه مازال وسيطل هناك أقطار أو أقليات إسلامية تتعرض أو قد تتعرض لمثل هذا الموقف المحزن ، ومن الواجب على المسلمين تجاه أنفسهم وتجاه أبنائهم وأحفادهم وأجيالهم القادمة أن يأخذوا حذرهم من مثل هذا المصير الحزين . وما ذلك إلا بالوقوف على ما حدث في الأندلس حتى يأخذوا حذرهم ويحصنوا أنفسهم ضد ما يحدث لبعض الأقليات المسلمة وربما يحدث في أقليات أخرى ، ثم عليهم أن يتخذوا الوسائل والمقومات المضادة للوقوف في وجه هذه المحاولات ووأدها في مهدها . وسنقصر الحديث في هذا الجزء عن المغرب على فتح أفريقية وعصر الولاة من بني أمية وبني العباس وعصر الأغالبة وعن فتح الأندلس : على فتح الأندلس وعصر الولاة وقيام الدولة الأموية إلى عهد عبد الرحمن الناصر .

والله الموفق والهادي إلى سواء السعراط

مدينة نصر رجب سنة ١٤٠٣ هـ مايو سنة ١٩٨٣ م

دكتور / محمد زيتون

تمهيد

معنى لفظ إفريقية والمغرب وحدودهما

سمى الساحل الشمالى من قارة إفريقيا منذ القدم عدا مصر بأسماء مختلفة فكان هيرودوت يطلق لفظ إفريقيا على كل ما يلى مصر غربا من البلاد حتى المحيط الأطلسى . وعندما تغلب الرومان على الفينيقيين أطلقوا اسم إفريقيا على قرطاجنة وما حولها وهى (بلاد تونس الحالية) ثم أطلقوا على ما يلىها غربا اسم نوميديا (الجزائر الحالية) وأطلقوا على ما يلى الجزائر غربا اسم مرطانية (وهى تشمل المغرب وموريتانية الحالية) ثم اتسع لفظ إفريقية فشمل ما دخل تحت سيطرة الروم من برقة إلى طنجة .

وعندما بدأ المسلمون فتوحهم للشمال الإفريقى أطلقوا لفظ إفريقية على ما يلى طرابلس غربا ثم تحدد ذلك بعد الفتح فأصبح يشمل الإقليم الذى تتوسطه القيروان ويتسع من طرابلس حتى بجاية .

أما لفظ المغرب ، فهو عند الإصطخري يشمل كل ما يلى مصر غربا ويقسمه إلى قسمين : شرقى ، ويشمل برقة وإفريقية وتاهرت وطنجة والسوس وزويلة . وغربى وهو الأندلس^(١) .

وإذا كان الإصطخري يدخل الأندلس فى المغرب فإننا نجد المقدس يدخل مصر كذلك فى المغرب . على اعتبار أن المغرب ما يقابل المشرق من البلاد^(٢) فهو يشمل مع ذلك صقلية وكل بقعة حل فيها المسلمون فى أوربا الغربية^(٣) .

(١) المسالك والممالك للإصطخري ص ٣٣ .

(٢) أحسن التقاسيم للمقدس ص ٢١٧ — ٢١٨ .

(٣) التعريف بالمغرب لمحمد القاسى ص ٧ .

ثم إذا أرادوا تحديد جزء من هذا الكل قالوا : رقة للقسم الشرقي من ليبيا الحالية وطرابلس للقسم الغربي منها . وقالوا : إفريقية لتونس الحالية مع الناحية الشرقية من القطر الجزائري وقالوا : المغرب لما يلي ذلك من إفريقية الشمالية ، وسموا أسبانيا والبرتغال الأندلس .

وعندما أخرج المسلمون من الأندلس صار لفظ المغرب يطلق على القطر التونسي ويسمى المغرب الأدنى وعلى القطر الجزائري ويسمى المغرب الأوسط وعلى القطر المغربي ويسمى المغرب الأقصى ثم صار المغرب الأدنى يسمى : تونس ، والأوسط : الجزائر ، والأقصى : المغرب بدون نعت ولا وصف (١) .

(١) أنظر : فتح العرب للمغرب د . حسين مؤنس ص ٤ ، المغرب الكبير د . عبد العزيز سالم ص ١٢٥ ، والمرجع السابق نفس الصفحة .

الفصل الأول

الفتح الاسلامى فى أفريقيا

فتح برقة (١) :

لم يذكر أحد من المؤرخين القدامى أو المحدثين سوى الواقدي استعانة حاكم الاسكندرية بحاكم برقة حين الفتح العربى فقد أرسل أرسطورايس (٢) هدية إلى الملك صاحب برقة وأرسل إليه يعلمه بما فعله العرب فى مدة قبضهم دوانهم قد أتونا . . . وأخذوا مصر منا وأخذوا ملكنا وحكموا فى بلادنا بعدنا ولا بد لهم منك ولا غنى لهم عنك والصواب أن تشمر لهم عن الهمة وتنجدنا على من بغى وأجرم فنحن جيرانك وكلنا جندك وأهوانك والسلام ، (٣) .

ثم يصور الواقدي موقف صاحب برقة من هذه الهدية والرسالة بأنه عرض الأمر على أرباب دولته وقال لهم ماترون فيما كاتبكم به صاحب مصر والاسكندرية ؟ فقالوا له أيها الملك ما زالت الملوك يستنصر بعضها ببعض والذى أشار به هو الحق وإن العرب إذا ملكت ملك القبط فلا بد لهم منا والعبور إلى بلادنا فابعث إليه بنجدة ونسكون نحن وهو يدا واحدة فالسيح يعطى النصر لمن يشاء فأجابه إلى ذلك وأمر ابن أخيه اسطفانوس

-
- (١) - قة : كانت قبل الفتح العربى تسمى انطاباس وهى كلمة رومية ومعناها خمس مدن وأسمائها الآن طوكرة ، شعيات ، وبنغازى ، وسوسة ، والمرج وكانت لها أسماء أخرى يونانية أنظر الطاهر الزاوى تاريخ فتح العرب فى ليبيا ص ٣٢ .
- (٢) حاكم الاسكندرية وهو ابن المقوقس فتوح الشام ص ٢ - ص ٥٤ . الواقدي
- (٣) فتوح الشام الواقدي ص ٢ - ص ٥٢

أن يمضى فى أربعة آلاف وأمره أن يسير لمعاونة صاحب الاسكندرية^(١).

ومن هنا نرى أن إصرار عمرو بن العاص على مواصلة الفتح غربا بعد فتح مصر والاسكندرية أمر كانت تدعو إليه ضرورة تأمين فتح مصر لاسيما وقد ثبتت الاتصالات بين حاكم الاسكندرية وحاكم برقة وتعاونهما لأجل صد جيش المسلمين ومدافعهم عن البلاد .

يضاف إلى ذلك رغبة عمرو بن العاص فى مواصلة الفتح نشرا للدين الذى يؤمن به وتبليغا للدعوة التى خرج من أجلها هو ومن معه من الجزيرة العربية . ولم يكن إصرار عمرو على مواصلة الفتح التماسا للبغام التى تعود عليه وعلى جنده من الغزو كما يردد ذلك بعض المستشرقين ومن يرى رأيهم من المؤرخين^(٢) فالخوف من احتمال مهاجمة الروم للمسلمين من الغرب برأى مع ثبوت الاتصال بين الحاكمين ثم ما يتسم به عمرو من الحذر جعله يعجل باستطلاع حالة الأقاليم المجاورة لمصر والاسكندرية غربا وإرسال الطلائع لمناوشته وجمع الأخبار والتقارير عنه فوجه عقبة^(٣) بن نافع الفهرى إلى زويلة^(٤) وبرقة فافتتحهما ثم توجه عمرو بنفسه إلى برقة فصالح

(١) فتوح الشام للواقدي ٢ ص ٥٢ .

(٢) أنظر المغرب الكبير ٢ ص ١٤٢ .

(٣) ولد قبل الهجرة بسنة واحدة فتح المغرب لحسين مؤنس ص ١٣٠ عن أسد الغابة لابن الأثير ٣ ص ٤٢٠ — ٤٢١ .

(٤) زويلة : مدينه من مدن فزان القديمة وتقع فى الجنوب الشرقى من مرق بنحو ١٥٠ كم وتبعد عن مدينة طرابلس إلى الجنوب الشرقى بنحو ٧٧٠ كم . مظاهر الزاوى تاريخ الفتح ص ٣٥ .

أهلها^(١)،

وقد أقبل كثير منهم على الإسلام بل أسلم سكان برقة بقيادةهم للمسلمين مما جعل عمرو يرسل تقريراً إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يقول فيه «إنه قد ولي عقبة بن نافع الفهري المغرب فبلغ زويلة وأن ما بين زويلة وبرقة كلهم حسنة طاعتهم قد أدى مسلمهم الصدقة وأقر معاهدتهم بالجزية وأنه قد وضع على أهل زويلة ومن بينه وبينها ما رأى أنهم يطيقونه^(٢)، وبذلك صار ما بين برقة وزويلة سلم للمسلمين^(٣)».

والذي يبدو لي أن أهل برقة التي كان أكثر أهلها لواته البربرية^(٤) كانوا ساخطين على حكامهم البيزنطيين لعسفهم وظلمهم^(٥) ورأوا في قدوم العرب إليهم ما يخلصهم من البيزنطيين كما أن منهم من قبل الإسلام وآمن به ولن نجد في تاريخ الفتح لأفريقية الذي استغرق أكثر من نصف قرن أن برقة قد انتقضت على المسلمين.

ورغم عسف البيزنطيين بهم فيبدو أن سلطتهم لم تكن قوية على أهل البلاد في ذلك الوقت فنراهم قد أرخروا عنانهم لعقبة ثم قدم عمرو فعقد

(١) للبيان المغرب لابن عذارى ج ١ ص ٨ وفي النسخة تخفيق لبني مرو وفسال : ووجه منها (أى مصر) عقبة بن نافع الفهري إلى لوبية وأفريقية فأنتحما . ثم توجه عمرو بنفسه إلى برقة فصالح أهلها على الجزية .

(٢) البلاذرى فتوح ص ٢٦٤ ، ٢٦٥ .

(٣) تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٣٥٠ .

(٤) كتاب العبر لابن خلدون ج ٢ ص ١٢٨ .

(٥) أنظر فتح العرب المغرب لحسين مؤنس ص ١٦ — ٢١ المغرب الكبير

السيد عبد العزيز سالم ص ١٤٣ ج ٢ ص ١٢٨ .

بنفسه الصالح مع أهل برقة حيث «صالح أهلها على الجزية وهي ثلاثة عشر ألف دينار يبيعون فيها من أبنائهم»^(١) من أحبوه ببعه^(٢).

وقد بدأ فتح برقة في سنة إحدى وعشرين هجرية كما يذكر ذلك اليعقوبي^(٣) والطبري^(٤) وتم خلال عام اثنين وعشرين وفقا لابن عبد الحكم^(٥) وابن الأثير^(٦).

فتح طرابلس^(٧) :

بعد أن انتهى عمرو من عقد الصالح مع أهل برقة واصل السير غربا متجها نحو طرابلس ولكنه التزم الحذر فسار بالطريق الساحلي بمباشرة ليستولى على مافي طريقه بما بين برقة وطرابلس ثم أرسل عقبة إلى فزان^(٨) ففتحها ونجح في مهمته وأصبحت المنطقة الداخلية مأمونة العواقب لا خوف على الجيش الإسلامي أن يؤتى من قباها بعد أن استوثق من طاعة أهلها

(١) والظاهر أن هذه كانت هادتهم في أداء ما عليهم من ضرائب بالنسبة للروم فوافق عليها عمرو بالنسبة للجزية .

(٢) فتوح البلدان للبلاذري القسم الأول ص ٢٦٤ .

(٣) تاريخ اليعقوبي ص ١٧٩

(٤) تاريخ الطبري ص ٤٠٠ .

(٥) فتوح مصر لابن عبد الحكم ص ١٧١

(٦) تاريخ ابن الأثير ص ٣٠٠ .

(٧) مدينة قديمة فينيقية على أرجح الأقوال أو قرطاجنية . تاريخ الفتح

العربي في ليبيا الطاهر الزاوي ص ٤٥ .

(٨) فزان : واحدة من واحات طرابلس الجنوبية ومساحتها أكثر من ٣٠٠ ك

م ٢ أنظر الزاوي تاريخ الفتح العربي ص ٨٩ .

وحياهم^(١) وقد استولى عمرو وهو متجه نحو طرابلس على سرت^(٢) ولبده^(٣) ثم انتهى إلى طرابلس وكانت حصينة مصورة فحضر الحصار عليها لا متناعها عليه . وبعد شهر من حصارها تمكن الجيش الإسلامي من فتحها بعد أن اقتحم بعض المسلمين المدينة من ناحية^(٤) البحر^(٥) .

وعندما تم فتح طرابلس أرسل عمرو حملة لتستولى على صبراتة^(٦) وكان أهلها قد تحصنوا وأخذوا حذرهم عندما سمعوا بوصول جيش المسلمين إلى طرابلس ولكن عندما امتنعت طرابلس عليه وحضر عليها الحصار شعروا بالآمان ولم يعيثوا بحبش المسلمين ويبدو أن عمرا كان يتحسس أخبارهم أثناء الحصار فعندما انتهى من فتح طرابلس عاجلهم بجنده واتصر المسلمون

(١) فتح العرب للمغرب حسين مؤنس ص ٦٠ .

(٢) سرت : بضم السين مدينة قديمة تقع على الخليج المسمى بها الآن وهي تبعد عن البحر إلى الجنوب بنحو ٤ كم وتقع في الجنوب الشرقي من مدينة طرابلس بنحو ٥٥ كم وكانت محاطة بسور من القراب وهي غير سرت المعروفة الآن سرت الحالية انشئت في العهد التركي سنة ١٣٠٣ هـ الزاوي تاريخ الفتح العربي ص ٣٩ .

(٣) لبدة : مدينة عظيمة أسسها الفينيقيون أوائل القرن العاشر قبل الميلاد . وتقع شرق مدينة طرابلس بنحو تسعين كم وقد أكل البحر جزءا كبيرا منها وبنيت مدينة الخمس في أوائل القرن التاسع عشر على جزء منها وبأنقاضها . نفس المرجع السابق ص ٣٩ ، ٤٠ .

(٤) لم تكن مصورة من ناحية البحر . تاريخ الفتح العربي في ليبيا طاهر الزاوي ص ٤٧ .

(٥) كتاب العبر لابن خلدون ج ٢ ص ٢٨ وفتوح البلدان . للبلاذري ص ٢٦٦ .

(٦) صبراتة : مدينة قديمة ذات آثار تقع غربي مدينة طرابلس بنحو ٦٧ كم على ساحل البحر أنظر طاهر الزاوي تاريخ الفتح العربي ص ٥٢ .

عليهم وغنموا ما في بلدكم^(١). كما بعث عمرو أثناء حصاره لطارابلس قائده بسر ابن أراطاه إلى ودان^(٢) فافتتحها وبذلك يكون عمرو قد أمن جنوب طرابلس كما أمن جنوب برقة حين استولى على فزان وزويلة.

ولقد بعث عمرو بعد أن أتم فتح طرابلس إلى عمر بن الخطاب رضى عنه يستأذنه في فتح أفريقية ومواصلة الفتح غربا وكأنه كان يرى أن فتح برقة وطرابلس متمم لفتح مصر أو أن ذلك كان أمرا واجبا لأمن مصر لاسيما بعد أن ثبت استعانة حاكم الاسكندرية بحاكم برقة كما روى الواقدي.

ولذلك كتب عمرو إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يخبره بفتح طرابلس ثم يطلب منه إبداء الرأي في مواصلة الفتح إلى أفريقية يقول ابن عبد الحكم: أراد عمرو أن يوجه إلى المغرب فكتب إلى عمر بن الخطاب: إن الله قد فتح علينا طرابلس وليس بينها وبين أفريقية إلا تسعة أيام فإن رأى أمير المؤمنين أن يغزوها ويفتحها الله على يديه فعل^(٣). ولكن حديث ابن عذاري عن مضمون هذا الكتاب يضيف الكثير عن حالة أفريقية وحكامها وعدد سكانها ثم وسائل دفاعهم ومقدرات استعدادهم وما يتصفون به من القوة وركوب الخيل فليس أمام عمرو إلا بلاد أفريقية وملوكها كثير وأهلها في عدد عظيم وأكثر ركوبهم الخيل^(٤).

وفي مضمون هذا الخطاب عن وصف استعداد أفريقية ما يوحى بأن

(١) ارجع إلى الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ١٢.

(٢) ودان: مدينة قديمة من مدن البربر الجنوبية في الجنوب الشرقي من مدينة طرابلس بشعر ٧٦٩ كم وإلى جنوب سرت نحو ٢٨٠ كم الزاوي تاريخ الفتح العربي ص ٦٠.

(٣) فتوح مصر لابن عبد الحكم ص ١٧٢.

(٤) ابن عذاري البيان المغرب ج ١ ص ٨.

مواصلة الفتح يقتضى مددا جديدا لاسيما وأن أمامهم كثير من الملوك
الحاكمين لإعداد بشرية كثيرة ذات خبرة ودراية على ركوب الخيل . ولما
عمر بن الخطاب رضى الله عنه الذى قد طالت المسافة بينه وبين خط القتال
غربا فى فترة لا تتجاوز عشر سنوات استولت جيوش المسلمين خلالها على
الشام وفلسطين ومصر ثم برقة فطرابلس فى هذا الزمن الوجيز ، رأى التوقف
ولذلك لم يأذن لعمر بن العاص فى مواصلة الفتح إلى أفريقية وكتب إليه إنهاء عنها
ويقول : ماهى بأفريقية ولما كنا مفرقة غادرة مغدور بها . وذلك أن أهلها
كانوا يؤدون إلى ملك الروم شيئا فكانوا يغدرون به كثيرا ، وكان ملك
الاندلس صالحهم ثم غدر بهم^(١) ويضيف ابن عبد الحكم بأن عمر ذكر فى
كتابه أنه سوف لا يسمح لأحد بغزوها مدة حياته ، ولا يغزوها أحد
مابقيت ،^(٢) .

فأمر عمرو العسكر بالرحيل قافلا إلى مصر^(٣) ويضيف ابن عبد الحكم
سببا آخر حمل عمر على سرعة العودة إلى مصر وهذا السبب يقوى وجهة
نظر عمر بن الخطاب بعدم السرعة فى مواصلة الفتوح ومحاولة تثبيت الفتح فى
البلاد المفتوحة أولا : فقد أتى إلى عمرو بن العاص كتاب المقوقس يذكر له فيه
أن الروم يريدون نكث العهد ونقض ما كان بينهم وبينه وكان عمرو قد
عاهد المقوقس على أن لا يكتسه أمرا يحدث فانصرف عمرو راجعا مبادرا
لما أتاه^(٤) ، وإن كان ابن عبد الحكم يضيف إلى ذلك أن عمرا كان يواصل

(١) البلاذرى فتوح البلدان ص ٢٦٦ ولا شك أن ذلك يجعل لأهلها طبيعة
خاصة فى الحكم وفى سياستهم .

(٢) ابن عبد الحكم فتوح ص ١٧٢ .

(٣) ابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ٨ .

(٤) ابن عبد الحكم فتوح ص ١٧٣ .

استطلاع الأماكن المجاورة لطرابلس وسبراته فيقول : وقد كان عمرو يبعث الجريدة من الخيل فصيبيون الغنائم ثم يرجعون^(١) .

ونستخلص من ذلك أن الأسباب التي حملت عمرا على الرجوع هي :

١ - عدم رغبة عمر بن الخطاب في التوسع في الفتح غربا بعد أن طالت المسافة وبعد خط القتال .

٢ - ما عرف عن أهل أفريقية من الغدر .

٣ - نقض الروم عهد عمرو بن العاص في مصر .

من أجل هذه العوامل مجتمعة عاد عمر إلى مصر بعد أن ترك عقبة بن نافع ببرقة يدعو إلى الإسلام حيث تمكن من كسب كثير من سكان البلاد من قبائل لواته ونفوسة ونفزاوة وهراوة وزواغة فدخلوا في الإسلام وأصبحت برقة قاعدة لجيش المسلمين في غرب مصر^(٢) .

فتح أفريقية :^(٣)

غزوة عبدالله بن سعد بن أبي السرح :

عندما انصرف عمرو بن العاص عن طرابلس لم يهتمل شأن هذه البلاد ولم يهرف النظر عن الاتصال بأحوالها وإنما كان يبعث الجريدة من الخيل فيصيبيون الغنائم ثم جمعون^(٤) .

ولم يكن المقصد من هذه الطلائع هو الغنائم كما يعلن ذلك بعض

(١) نفس المرجع ص ١٧٣ .

(٢) السيد عبد العزيز سالم المغرب الكبير ٢٣ - ١٥٢ .

(٣) نعى بأفريقية هنا ما يسمى تونس .

(٤) ابن عبد الحكم فتوح ص ١٧٢ .

المؤرخين وإنما هو إشعار البلاد بقوة المسلمين ثم استطلاع الأخبار ومعرفة الأسرار حتى يتأتى أخذ الاستعداد الكامل لمواصلة الفتح .

ولكن بعد أن توفي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين وباع المسلمون أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه وفد عليه عمرو بن العاص وسأله عزل عبدالله بن سعد بن أبى السرح العامرى عن صعيد مصر وكان عمر ولاء الصعيد قبل موته فامتنع عثمان من ذلك وعقد لعبدالله بن سعد بن أبى السرح على مصر كلها (١) وقد تابع عبدالله بن أبى السرح خطة عمرو السابقة فكان يبعث المسلمين فى جرائد الخيل كما كانوا يفعلون فى أيام عمرو فيصيبون من أطراف أفريقية وبخنمون (٢) .

ويزيد ابن خلدون أمر هذه الطلائع والجرائد توضيحاً فيذكر أنها كانت بأمر من عثمان وأن بعضها قد بلغ تعداده عشرة آلاف جندي ولكنها لم تقدر على التوغل فى أفريقية لكثرة أهلها وأن نتائج ما حصلت عليه هذه الطلائع من معلومات توضح أن هذا الأمر فى حاجة إلى استعداد أكثر . وهنا نلاحظ أن سياسة أمير المؤمنين عثمان بن عفان تختلف عن سياسة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فيما يتعلق بسير الفتوح نحو الغرب لأن عمر رضى الله عنه كان يرى الوقوف عند الحد الذى وصلت إليه الفتوح فى عهده وهو أفريقية حتى تستقر الأمور .

ووجد عثمان أن ظروف الدولة تمكنه من مواصلة الفتوح فأمر باستئناف الفتوح من جديد وأصدر أوامره إلى عبدالله بن أبى السرح بزيادة نشاط

(١) السكندى القضاة والولاة ص ١٠ .

(٢) ابن عبد الحسك فتوح ص ١٨٣ .

الطلائع على أفريقية فأرسل عبدالله بن أبي السرح عقبة بن نافع بن عبد القيس على جند وعبدالله بن الحارث على آخر وسرحهما فخرجوا إلى أفريقية في عشرة آلاف وصالحهم أهلها على مال يؤدونه ولم يقدرُوا على التوغل فيها لكثرة أهلها^(١) ويتفق ابن خلدون مع ابن الأثير في إرسال الجرائد إلى أطراف أفريقية بأمر عثمان وإن كان يضيف إلى ذلك أن بعض هذه الجرائد كان على رأسها عبدالله بن أبي السرح وكان المسير له عمرو بأمر عثمان يقول دوفي منه خمس وعشرين سير عمرو بن العاص عبدالله بن سعد بن أبي سرح إلى أطراف أفريقية غازيا بأمر عثمان وكان عبدالله من جند مصر فلما سار إليها أمده عمرو بالجنود فغنم هو وجنده فلما عاد عبدالله كتب إلى عثمان يستأذنه في غزو أفريقية^(٢).

وبعد أن تأكد عبدالله من قدرته على فتح أفريقية بعد توفر وجود الجند الكافي لغزوها كتب إلى عثمان وأخبره بقربهم من حوز المسلمين ويستأذنه في غزوها فندب عثمان الناس لغزوها بعد المشورة منه في ذلك^(٣) ويصور صاحب رياض النفوس عزم عثمان على الغزو باستخارة عثمان لله وصلاته في المسجد بليل ثم استشارته للمسلمين فقد قال المسور، خرجت من منزلي بليل طويل أريد المسجد

(١) ابن خلدون كتاب العبر ج ٢ ص ١١٩ .

(٢) الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ٤٢ ومن هنا نفهم أن عبدالله بن أبي السرح خرج في هذه الطلائع عندما كان أمر مصر إلى عمرو بن العاص وعندما هاد من هذه الطلائع وكان أمر مصر قد أسند إليه كتب إلى عثمان يحبذ له فتح أفريقية بعد أن كان يغزوا أطرافها .

(٣) ابن الحكم موح ص ٢٨٣ .

فإذا عثمان رضى الله تعالى عنه فى مصلى النبى صلى الله عليه وسلم يصلى فصليت خلفه ثم جلس فدعا ليلا طويلا حتى أذن المؤذن ثم قام منصرفا إلى بيته فقامت فى وجهه فسلمت عليه فقال : يا ابن مخزومة واتكأ على يدي أنى استخرت الله تعالى فى ليلتى هذه فى بعث الجيوش إلى إفريقية وقد كتب إلى عبد الله بن سعد يخبر بخبره مع المشركين وغلامهم وقرب حوزهم من المسلمين فمات خا لله لأمير المؤمنين قال فما رأيك يا ابن مخزومة ؟ قلت اغزهم قال أجمع اليوم الأكابر من صحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم واستشيرهم فما اجمعوا عليه فعلته أو ما اجمع عليه أكثرهم فعلته إبت عاليا وطلحة والزبير والعاس و ذكر رجالا فخلا بكل واحد منهم فى المسجد . . . فلم يختلف أحد من شاوره (١) غير الأعور سعيد بن زيد .

وقد تحمس الخليفة لهذه الغزوة واعان المسلمين من ماله الخاص بألف بعير يحمل عليها ضعفاء الناس وفتح بيوت السلاح التى كانت المسلمين فلما توافى الناس جدوا السير وذلك فى المحرم من هذه السنة (٢) سنة سبع وعشرين

ويصور أبو العرب سرعة استجابة كثير من الصحابة لنداء عثمان بأن عبد الله خرج إلى إفريقية فى جيش أكثرهم أصحاب رسول الله ﷺ واستخلف على مصر عقبة بن عامر الجهنى (٣) .

(٣) المالسكى رياض النفوس ص ٩ .

(٤) ابن عذارى البهار المغرب ص ٥ .

(١) أبو العرب تمام طبقات عطاء إفريقية ونونس ص ٧٠ .

وعندما اجتمع المجاهدون في المدينة أمر عليهم عثمان الحارث بن الحكم إلى أن يقدموا على عبد الله بن سعد مصر فيكون إليه الأمر^(١).

سار الجيش من المدينة متوجها إلى مصر حيث انضم إليه جند مصر وتولى عبد الله بن أبي السرح قيادته وفي طريقه إلى أفريقية انضم إليهم عقبة بن نافع فيمن معه من المسلمين بركة ثم ساروا إلى طرابلس فنهبوا^(٢) الروم عندها،^(٣).

وكانت طرابلس قد فقدت العمدة بعد فتح عمرو بن العاص لها وتمحصنت فلم يقف عندها ابن أبي السرح لأنه يريد منازلة صاحب أفريقية والقضاء عليه وكان صاحب أفريقية آنذاك بطريق يسميه العرب جرجير ويصفون صفة ملائكة بأنه يملك ما بين طرابلس إلى طنجة^(٤)، ولكن المؤرخين اختلفوا في تبعية جرجير آنذاك لهرقل امبراطور الروم فإن عبد الحكم يذكر أنه خلع هرقل وضرب الدنانير على وجهه^(٥) وابن خلدون وابن الأثير يذكران أنه كان تحت ولاية هرقل ويحمل إليه الخراج كل سنة^(٦)، وي زيد صاحب الخلاصة النقية أنه : كان يستند إلى صاحب القسطنطينية ويستظهر

(١) ابن عبد الحكم فتوح ص ١٨٣ .

(٢) لاشك أن ابن خلدون يقصد بذلك أنهم استولوا عليها وإذا علمنا أنهم كانوا قد طردوا الوالي الذي خلفه عليهم عمرو بن العاص أثناء فتحه طرابلس كما أنهم تحصنوا دور ابن أبي السرح فالمسلمون في حل من حربيهم والاستيلاء على متاعهم.

(٣) ابن خلدون العبر ج ٢ ص ١٢٩

(٤) ابن عبد الحكم فتوح ص ١٨٣ ، ابن خلدون العبر ج ٢ ص ١٢٩

(٥) ابن عبد الحكم فتوح ص ١٨٣ .

(٦) ابن خلدون العبر ج ٢ ص ١٢٩ ، ابن الأثير الكامل ج ٢ ص ٤٣

بقى حروبه بجيرانه من البربر^(١) ،

والذى تميل إليه النفس أن جرجير لم يخرج على هرقل وإنما كان
انشغال الدولة الرومية بشأن المسلمين على الحدود الشرقية داعيا لانشغالهم
عن شئون افريقية بدليل أنهم عندما قتل جرجير وعقد الصالح مع العرب
على جزية كبيرة أرسل هرقل بطريقا آخر لكي يحصل على مال يعادل ما تعهد
بدفعه للعرب^(٢) .

ولاشك أن جرجير كان يستعد للقاء فاصل مع العرب منذ وصلت
جيوش المسلمين إلى برقة وطرابلس ويرى تتابع الطلائع العربية للأغارة
على افريقية ولذلك عندما قدم المسلمون بقيادة عبد الله بن أبي السرح إلى
افريقية سنة سبع وعشرين كان جرجير على أهبة الاستعداد حيث قد كون
جيشا من مائة وعشرين ألفا من الفرنج والروم والبربر وملوكهم .

يقول ابن خلدون متفقاً مع ابن الأثير ويتابعهما صاحب الخلاصة
النقية وصاحب تاريخ الجزائر في القديم والحديث : « فجمع لهم جرجير
ملك الفرنجة يومئذ بأفريقية من كان بامصارها من الفرنج والروم ومن
بضواحيها من جموع البربر وملوكهم وكان ملكه ما بين طرابلس وطنججة^(٣)
وكانت دار ملكه سبيطة فلقوا المسلمين في زهاء مائة وعشرين ألفا
والمسلمون يومئذ في عشرين ألفا^(٤) .

(١) الخلاصة النقية للباجي ص ٣ .

(٢) ابن خلدون عبر ج ٢ ص ١٣٠ ، ابن الأثير ج ٣ ص ٤٤ .

(٣) طنججة : مرفأ على مضيق جبل طارق شمال المغرب . فتح المغرب شيت

خطاب ج ١ ص ٥٦ .

(٤) ابن خلدون عبر ج ٢ ص ١٠٧ ، ابن الأثير الكامل ج ٣ ص ٤٣ .

الخلاصة النقية للباجي ص ٣ ، تاريخ الجزائر في القديم والحديث المبارك الميلي

ألتقى الجمعان في مكان يسمى عتوبة^(١) على يوم وليلة من سبيطة^(٢) وكانت دار ملكهم وكما هي عادة المسلمين عرضوا عليه الإسلام أو الجزية فأبى قبول أحدهما ونشب القتال ودارت المعركة واستمرت أياما كان ختامها في صالح المسلمين فقتل جرجير وهرب حبشه ومزق شر ممزق. وتبعهم خيول المسلمين إلى حصن سبيطة فنعمهم من دخوله وركبهم المسلمون يميناً وشمالاً في السهل والوعر فقتلوا انجادم وفرسانهم وأكثروا فيهم الأسارى^(٣).

وبث عبد الله السرايا فبلغت قصور قفصة^(٤) فسبوا كثيراً وغنموا ويعلق ابن عذارى على نتيجة هذه الواقعة ويبين أثرها في الروم بأفريقية وكيف أن جموعهم الكثيرة لم تكن عنهم من دون سيوف المسلمين شيئاً مما دعاهم آخر الأمر إلى طلب الصلح وقبول دفع جزية سنوية كبيرة المسلمين فقد أدلت هذه الواقعة الروم بأفريقية ورعبوا رعباً شديداً فلجأوا إلى الحصون والمعازل ثم طالبوا من عبد الله بن سعد أن يقبض منهم ثلاثمائة^(٥) فنظار من الذهب في السنة جزية على أن يكف عنهم ويخرج من بلادهم فقبل ذلك منهم وقبض المال وكان في شروط صلحهم أن ما صاب المسلمون

(١) البلاذري فتوح ص ٢٦٧ .

(٢) سبيطة : مدينة تبعد عن القيروان سبعين ميلاً وعن قفصة مرحلة واحدة وكانت عاصمة أفريقية القديمة عن قادة فتح المغرب العربي ج ١ ص ٨٠ اللواء شيت خطاب .

(٣) ابن عذارى البيان المغرب ص ١١ .

(٤) قفصة : بلد صغير في طرف أفريقية من ناحية المغرب بينها وبين القيروان ثلاثة أيام أنظر معجم البلدان (١٣٨/٧) .

(٥) ثلاثمائة فنظار = ألف وخمسمائة ألف دينار أنظر للبلاذري فتوح

قبل الصلح فهو لهم وما أصابوه بعد الصلح ردوه عليهم^(١) .

أما ابن خلدون فيعقب على الممركة بأن المسلمين قد جدوا كذلك في أثر البربر الذين تصدوا لهم بعد قتل جرجير وحصل بينهم زحرف ثم أسر لبعض ملوكهم الذين اشخصوا إلى الخليفة حيث أعلنوا اعتناق الإسلام وأنه عقد لهم على قريتهم فقد حصل في أسرهم يومئذ من ملوكهم وزمان ابن صقلاب جد بنى حزر وهو يومئذ أمير مغراة وسائر زناته ورفقون إلى عثمان بن عفان فأسلم على يديه ومن عليه وأطلقه وعقد له على قومه^(٢) .

هذه النتائج التي توصل إليها عبد الله من الاتصاف على جرجير وفتح سببيلة وقفصة وحصن الأججم^(٣) ثم اذلال الروم والبربر والأهم من ذلك هو قبول بعض ملوك البربر للإسلام ووفوده على الخليفة وعقده له على قومه : تعتبر من أهم النتائج لهذه الغزوة وكسب كبير بالنسبة للإسلام والمسلمين . ولكن عبد الله يمد أن يوقع الصلح يعود إلى مصر فلماذا يرجع عبد الله إلى مصر بدون أن يترك حامية ؟ أو أن يولى عليهم واليا من المسلمين ؟

إن من ينظر إلى نتيجة الحرب بين ابن أبي السرح وجرجير ويرى أن المسلمين قد انتصروا يقول لماذا لم يستغل عبد الله هذا النصر ويوطد أقدام المسلمين في هذه البلاد ؟

(١) ابن عذاري البيان المغرب ص ١٢ والمناخ الذي ذكره يتفق مع ما ذكره

للبلاذري فتوح ص ٢٦٨ .

(٢) ابن خلدون عبر ج ٦ ص ١٠٧ .

(٣) الأججم العجم الأعجام وكانت مركزا حريا طوال العهد البيزنطي ، أنظر

مفتح العرب المغرب لمؤنس ص ٨٢ .

ولكن من عمن النظر في هذا الرجوع يتجلى له أن عبد الله قد أرك أن فتح أفريقية لا يتم بموقعة واحدة ولا بهذا العدد القليل من الجيش لاسيما وهو لا يلتقي بجيش دولة لها كل السلطه على البلاد فإذا ما قضى على الجيش قضى على كل شيء وإنما يلتقى بجيش الروم في الشمال ثم بقبائل البربر في الجنوب حيث لها تقاليدها وطبائعها وما تتصف به من القوة والدفاع عن حماها وأن توطيد أقدام المسلمين يحتاج إلى إمدادات أخرى مع بعد خطوط هذه الإمدادات . ولذلك اكتفى بالانتصار في الموقعة التي خاضها ثم بفتح بعض الحصون والحصول على الصلاح والجزية الكبيرة التي يعبر عنها البلاذري في رواية عبد الله بن الزبير بثلاثمائة قنطار من ذهب على أن يكف عنهم ويخرج من بلادهم ، وفي رواية ابن كعب أن عبد الله بن سعد بن أبي السرح صالح بطريق أفريقية على ألفي دينار وخمسمائة ألف دينار . ويزيد المازني أنه رجع إلى مصر ولم يول على أفريقية أحدا ولم يكن لها يومئذ قيروان ولا مصر جامع (١) .

ولاشك أنه كان من الممكن أن يترك عبد الله ولو حامية استطلاعية تحمل إليه أخبار البلاد التي تغلب عليها وإن كان واضحا من قول البلاذري أنه قد اكتفى بالمعاهدة ولم يترك حامية استطلاعية وإعله اعتمد على ما بدا له من استعداد بعض قبائل البربر لقبول الإسلام والإيمان به .

ولذلك عاد إلى مقر ولايته في مصر بعد أن قضى خمسة عشر شهرا في هذه الغزوة فوصل إلى مصر في سنة ثمان وعشرين هجرية . غير أنه عاد لغزو أفريقية سنة ثلاث وثلاثين هجرية مرة ثانية حين نقض أهل المهد (٢) .

(١) البلاذري فتوح ص ٢٦٨ .

(٢) ابن عذاري البيان المغرب ج ١ ص ١٤ .

مما يدل على أن ابن أبي السرح حاول أن يحتفظ بأفريقية تابعة للمسلمين عن طريق المعاهدة معها فلما نقضت العهد غزاها ثانياً ،

وإذا اعتمدنا هذه الرواية الثانية لابن عذارى لتبين لنا أن ابن أبي السرح حاول الاحتفاظ بالانتصار الذي حققه عن طريق المعاهدة . غير أن ماجد من حوادث في مركز الخلافة قد حالت بين المسلمين وبين الاحتفاظ بما فتحوا علاوة على مواصلة الفتح حيث قد فر قرن الفتنة التي أحاطت بعثمان رضى الله عنه . وتوقفت بسببها الفتوح كما استمر ذلك التوقف خلال فترة الخلاف بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان رضى الله عن الجميع .

غزوة معاوية بن حديج :

استقر الأمر لمعاوية بن أبي سفيان بعد عام الجماعة وجمع شمل المسلمين وابتدأ المسلمون يستعيدون توجيه نشاطهم ثانياً إلى الخارج وبدأت موجة جديدة للفتوحات في أفريقية حيث أسند الخليفة معاوية بن أبي سفيان في سنة خمس وأربعين هجرية إلى معاوية بن حديج السكوني أمر مواصلة الفتوح في أفريقية وزوده بجيش مكون من عشرة آلاف جندي فيه بعض الصحابة والتابعين (١)

ويذكر المؤرخون أن بعض الظروف قد خدمت المسلمين ودفعتهم للإسراع باستئناف الفتح وذلك بسبب خلاف نشأ بين الحاكم الجديد الذي ولاه هرقل على أفريقية وبين رعاياه فيها حيث قد بالغ الحاكم الجديد في مطالبة رؤساء أفريقية بأن يقدموا إليه من الأموال مثل ما دفعوا لابن

(١) أنظر ابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ١٦ ، رياض النفوس للالك

أبى السرح في صلحهم معه مما أدى إلى تدمير أهل أفريقية وكثرة النزاع والخصام بينهم وبين الحاكم الجديد بما دعاه إلى حبسهم^(١) ولذلك تذكر بعض الروايات أن الحاكم الذى أقامه أهل أفريقية بعد جرجير لجأ إلى معاوية بن أبى سفيان واصفا له أمر أفريقية وطالبا منه إرسال جيش لفتح أفريقية^(٢).

وهكذا نرى أن أهل أفريقية قد ثاروا وغضبوا من حاكم هرقل الجديد كما نلاحظ أن الوالى السابق يذهب إلى دمشق لىكى يستنجد بالخليفة معاوية .

ولقد حاول الخليفة أن يستفيد من هذه الفرصة السانحة فسارع بإرسال معاوية بن حديج لاستئناف فتح أفريقية .

وقد سار معاوية بن حديج بالقوة التى أرسلها معه الخليفة حتى دخل بها أفريقية فنزل بجيشه على قونية وهى قيروان أفريقية^(٣) وغادرها إلى مكان يقال له القرن^(٤) حيث بعث إلى جلولا^(٥) عبد الملك بن مروان فى ألف رجل . . فدخلها المسلمون وغنموا ما فيها^(٦) .

(١) أنظر الطبرى ج ٥ ص ٥١ .

(٢) أنظر الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ٤٤ ، ابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ١٦ .

(٣) الدباغ معالم الإيمان ج ١ ص ٤٣ .

(٤) القرن جبل بأفريقية وهو المعروف الآن بجبل وسلات انظر قادة فتح المغرب شيت خطاب ج ١ ص ٨٠ .

(٥) جلولا قرية من القيروان الحالية على بعد ٢٤ ميلا منها انظر ماكتبه حسين مؤنس فى فتح العرب للمغرب ص ١٢٣ هامش .

(٦) ابن عبد الحكم فتوح ص ١٩٣ .

ولقد وصلت أنباء حملة معاوية بن حديج إلى صاحب القسطنطينية فأرسل جيشا في البحر مكونا من ثلاثين ألف مقاتل لرد جيش المسلمين غير أن المسلمين تمكنوا من هزيمتهم قرب قصر الأجم^(١) ويقال إن الجيش الرومي قد انسحب من غير أن يقاتل جيش المسلمين الذي أرسله معاوية ابن حديج بقيادة عبدالله بن الزبير للتصدي لجيش الروم ثم تمكن ابن الزبير بعد ذلك من فتح سوسة^(٢) ويفيدنا المالكى أن معاوية غزا بوزن وغنم غنائم كثيرة من نواحيها ورجع قافلا إلى قونية وبني بناحية القرن مساكن وسماها (قيروان) وموضع القيروان غير مسكون ولا معمور^(٣).

ومن هذا نرى أن معاوية بن حديج قد تمكن من فتح جلولا وسوسة وبنزوت وأن لم يخض معارك فاصلة ولعل ذلك يوضح لنا بعض آثار غزوة عبدالله بن أبي السرح وظهور ميل الأفريقيين لوجود المسلمين فيها كما بدأت تظهر فكرة إيجاد مصر إسلامي في أفريقية يكون مستقرا للجيش الإسلامي وقاعدة ارتكاز له ينطلق منها لتحقيق أهدافه بدون أن تكون المسافات الفاصلة قد استنفذت جهده وأضعفت من قوته . وإذا كانت فكرة إيجاد مدينة ومعسكر ليستقر فيه المسلمون قد ابتدأها معاوية بن حديج إلا أن الذي تولى تنفيذ فكرة هذه المدينة وتأسيسها وإعطائها طابعها الحقيقي فأما هو القائد الذي سيتولى أمر الفتوح من بعد معاوية بن حديج وهو عقبة بن نافع الذي سيسند إليه الخليفة في دمشق أمر أفريقية فاصلا بين

(١) الخلاصة البقية للباحي ص ٥٥ ، ٥٠ وتاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ١٤ وابن الأثير تاريخ الكامل ج ٣ ص ٤٥ .

(٢) انظر ابن عذارى ج ١ ص ١٦ وسوسة مينا على البحر وسار ميناء كبيرا أيام الأغالبة .

(٣) رياض النفوس للمالكى ص ١٩ .

الإمارة في مصر والقيادة في أفريقيه^(١) وحيث استقر ابن حديج واليا على مصر وحدها :

عقبة بن نافع في أفريقية :

وبما لاشك فيه أن اختيار عقبة بن نافع لقيادة الفتح في أفريقية كان اختيارا موفقا لرجل عاش قريبا من أفريقية أو فيها منذ توجه جند من المسلمين إلى المغرب وعاش كل هذه الفترة مشاركا في الفتح أو قريبا منه لقد عاش في برقة وتولى أمرها منذ فتحها المسلمون فكان خير داعية للإسلام وإسناد أمر أفريقية إليه معناه أن يجعل أفريقية أرضا إسلامية كما صارت برقة من قبل ولذلك ابتداء عقبة إقامته في أفريقية بتأمين الأماكن الداخلية ثم ابتداء يؤسس القيروان لتكون القاعدة الإسلامية والمدينة الإسلامية التي يزود عنها المسلمون والتي تنطلق منها الحملات للقضاء على الروم الذين لازالوا يقيمون في شمالها ثم لنشر الإسلام بين السكان : في الداخل أو على الساحل .

فقد خرج عقبة إلى أفريقية بعد معاوية بن حديج دافقيل حتى نزل بمغمداش^(٢) من سرت . . . خلف عقبة جيشه هنالك واستخلف عليهم عمر بن علي القرشي وزهير بن قيس البلوي ثم سار بنفسه وبمن خف معه أربعماية فارس وأربعماية بعير وثمانماية قرية حتى قدم ودان فانتحما . . ثم فزان ففتح قصورها . . ثم انصرف راجعا فساد حتى نزل بموضع زويلة اليوم ثم ارتحل حتى قدم على عسكره بعد خمسة أشهر وقد جرت خيولهم وظهرهم فساد متوجها إلى المغرب وجانب الطريق الأعظم : أخذ

(١) انظر حركة الفتح الإسلامي لشكري فيصل ص ١٦٢ .

(٢) مغمداش : بلد قريب من سرت بلبيبا .

إلى أرض مزاةة فافتتح كل قصر بها . . . ثم بعث خيلا إلى غدامس (١)
فافتتحت غدامس فلما انصرفت إليه خيله سار إلى قفصة (٢) فافتتحها وفتح (٣)
قسطيلية (٤).

وقد انضم إلى جيش عقبة المكون من عشرة آلاف جندي من أسلم
من البربر (٥) في تلك البلاد بما يدل على أن أهل البلاد قد اعتنق كثير منهم

(١) غدامس : واحة من واحات طرابلس الصحراوية وتقع في الجنوب
الغربي من مدينة طرابلس على بعد ٥٠٠ كم ، تاريخ الفتح العربي في ليبيا للطاهر
الزاوي ص ٨٧ .

(٢) قفصة : بلدة بتونس وكان لها شأن كبير في عهد الرومان بينها وبين
القيروان ثلاثة أيام .

(٣) قسطيلية : إحدى بلاد الزاب على حدود الصحراء .

(٤) ابن عبد الحكم فتوح ص ١٩٥ ، ١٩٦ بتصرف .

(٥) البربر : قسم النسابة قبائل البربر إلى مجموعتين كبيرتين هما : البرانس ،

البر وقالوا أن الجماعة الأولى أبناء برنس بن بر ، وأن الجماعة الثانية أبناء مادغيس
ابن بر الذي لقب بالابتر .

(أ) البرانس :

من قبائلهم المشهورة عشر : ازداجة ، ومصمودة ، أوربة ، هجيسة ،
كتامة ، صنماجة ، أوريفة ويضاف إليهم لحطة وهكسورة ، وجرولة . وهذه
الأصول تنقسم إلى فروع صغيرة فقبيلة هواة تنحدر من أوريفة وقبيلة مليلة
تنحدر من هواة وقبيلة غمارة تنحدر من مصمودة .

(ب) البستر :

من قبائلهم المشهورة أربعة : ادارسة ونفوسة وحريسة وبنولوا الأكبر ومن
قبيلة لوا قبيلتا نفزارة ولوانة ومن قبيلة نفزارة تنحدر قبيلة ولحاصة ومن

الإسلام وحسن إسلامه فانضم إلى الكتائب المدافعة عن الإسلام
ولكثرة ارتداد بعض البربر في مداخل أفريقية عن الإسلام حل ذلك
عقبه على الشدة معهم فد وضع السيف في أهل البلاد لأنهم كانوا إذا دخل
إليهم أدير أطاعوا وأظهر بعضهم الإسلام فإذا عاد الأمير عنهم نكثوا
وارتد من أسلم (١)

ولقد كان لهذه الغزوة أثر عميق في الروم والبربر حيث تمكن عقبة
من الاستيلاء على بعض الحصون والقلاع كما شعر الروم والبربر بقوة
المسلمين علاوة على تأسيس القيروان ويعبر الدهاغ عن ذلك بأنه «افتتح
كثيراً من حصونها - أي أفريقية - واثخن في قتل الروم والبربر واختط
مدينة القيروان وتجول بها أياماً . ثم قدم أبو المهاجر دينار مولى مسلمة بن
مخالد الأنصاري إلى أفريقية سنة خمس وخمسين فعزل عقبة وقيدته وحبسها
وخرب ما كان اختطه وبناء بالقيرون» (٢) .

ورغم أن عقبة لم يقم خلال هذه الفترة التي تولى فيها أمر أفريقية
إلا بتطهير الداخل ثم ش بعض الحملات خلال قيامه بتأسيس القيروان
إلا أن كارل بروكلمان يعمد المؤسس الحقيقي للحكم العربي في أفريقية الشمالية
ويبالغ فيذكر أنه وفق للقضاء على الحكم النصراني في شمال أفريقية جملة فهو
يعتبره «المؤسس الحقيقي للحكم العربي في أفريقية الشمالية . . . ووفق
بمعاونة البربر إلى القضاء على الحكم النصراني في شمال أفريقية جملة واحدة
ثم عزل بعد أن أنشأ مستعمرة عسكرية في القيروان» (٣) .

== وخاصة تزحدر قبيلة إيرغاش ومن إيرغاش تزحدر قبيلة ورفجومة انظر قادة

فتح المغرب شيت خطاب ج ١ ص ١٦ .

(١) الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ٢٢٤ .

(٢) الدباع معالم الإيمان ج ١ ص ١٦ ، ٤٧ .

(٣) تاريخ العرب الإسلامية - كارل بروكلمان ج ١ ص ١٥٢

ولاشك أن عقبة أثناء قيامه ببناء مدينة القيروان كان يواصل تحسس أخبار عدوه بإرسال الطلائع والحلات السريعة التي تثبت قوة المسلمين كما تقوم بالدور المهم الذي يملأ شغاف قلب عقبة وأصحابه وهو نشر الإسلام وتبينه للناس وبذلك تدخل كثير من البربر في الإسلام واتسعت خطة المسلمين وقوى جنان من هناك من الجنود بمدينة القيروان واطمأنوا على المقام فثبت الإسلام فيها^(١).

وبهذا يتبين لنا أن بناء القيروان كان ذا أثر عميق لتقوية جنان الجنود وبعث الاطمئنان إلى النفوس اترضى بالمقام ثم تثبت بذور الإسلام في أفريقية.

وبعد أن مكث عقبة في ولايته هذه خمس سنوات قضى معظمها في تأسيس القيروان ونشر الإسلام في النواحي القريبة منها عزل عنها بأبي المهاجر دينار سنة خمس وخمسين هجرية^(٢).

أبو المهاجر دينار :

عندما أوشك عقبة على الانتهاء من تأسيس القيروان اكتمل يواصل الفتح فيزبل سلطان الروم من الشمال ثم يستمر في نشر الإسلام بين البربر حسب خطته فوجيء بعزله بأبي المهاجر دينار في سنة خمس وخمسين هجرية والبلاذري يشير إلى ولاية أبي المهاجر دون أي ذكر لأعماله فقد عزل معاوية بن أبي سفيان معاوية بن ابن حديج وولى مصر والمغرب مسلمة بن مخلد الأنصاري فولى المغرب أبا المهاجر دينار وولاه فلما ولى يزيد بن معاوية رد عقبة

(١) ابن الأثير اسد الغابة ج ٣ ص ١٨٤ عن فتح العرب للمغرب حسين مؤنس ص ١٤٦ .

(٢) الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ٢٣٤ .

من نافع على عمله (١) . وهكذا لا يسند إليه البلاذري أى عمل قام به سوى الإشارة إلى ولايته وعزله . أما ابن عبد الحكم فيسند إليه أنه أقام بأفريقية واتخذها منزلا لا يمارقها إلى الفسطاط وإن كان قد كره أن ينزل في القيروان عقبة ، ومضى حتى خلفه بميلين فابتنى ونزل ، وكان الناس قبل أبي المهاجر يغزون أفريقية ثم يقفلون منها إلى الفسطاط . وأول من أقام بها حين غزاها أبو المهاجر مولى الأنصار أقام بها الشتاء والصيف واتخذها منزلا (٢) .

ولكننا نعلم أن عقبة قد أقام في أفريقية أربع أو خمس سنوات حين كان يبنى القيروان فكيف يرى ابن عبد الحكم أن أبا المهاجر هو أول من أقام بأفريقية فترة الشتاء والصيف ؟

ولعله يقصد بذلك الفترة التي قضاها أبو المهاجر في حملته على المغرب الأوسط التي انتهى فيها إلى العيون المعروفة بأبي المهاجر نحو تلمسان (٣) ولبت فيها هنا نحو عامين أو ثلاثة (٤) وفي خروجه هذا افتتح أبو المهاجر المذكور ميلة (٥) (مدينة صغيرة بينها وبين بجاية (٦) ثلاثة أيام) وكانت

(١) البلاذري فتوح ص ٢٧٠ .

(٢) ابن عبد الحكم فتوح ص ١٩٧ .

(٣) تلمسان : مدينة بالمغرب اسمها القديم اقادير على بعد مرحلة من وهران .

انظر التفاصيل معجم البلدان (٤٠٩/٢)

(٤) المالكي رياض النعوس ص ٢١ .

(٥) ميلة : مدينة صغيرة بينها وبين بجاية ثلاثة أيام .

(٦) بجاية : مدينة على ساحل البحر بين أفريقية والمغرب . التفاصيل في معجم

البلدان (٦٢/٢) .

اقامته في هذه الغزوة نحرا من سنتين^(١) .

ويحدثنا المالكي عن الجند الذي صحب أبا المهاجرين بأنهم من أهل الشام ومصر وأنه حارب بهم قرطاجنة ثم يشير اشارة مهمة إلى أنه قد وجه حسين بن عبد الله الصنهاجي بجيش إلى الجزيرة^(٢) فافتتحها . ومن هنا يظهر لنا أن بعض القيادات من البربر من صنهاجة قد ظهر منذ زمن مبكر . ذلك أن أبا المهاجر قد د نزل بفحص تونس ويقال إنه نزل بسبخة وبنيها ومنها حارب أهل قرطاجنة ووجه حسين بن عبد الله الصنهاجي بجيش إلى الجزيرة فافتتحها وكتب إلى أبي المهاجر بذلك فرحل إليه واجتمع معه وقسم الفيء . هنالك بين جميع الجيش ثم انصرف فنزل بكرة ومدينة البربر بالقرب من موضع القيروان ووجه بالخمسة إلى مصر^(٣) . ويقال : أن أبا المهاجر عقد صلحا مع أهل قرطاجنة أن يخلو جزيرة شريك^(٤) .

ومن هنا نرى أن أبا المهاجر قد قاتل الروم في قرطاجنة واستطاع أن يستخلص جزيرة شريك منهم ويعقد صلحا معهم ليتوجه بجيوشه إلى البربر متوغلا إلى المغرب الأوسط حيث يقايل البربر في عقر دارهم ويتغلل عليهم ثم هو يتألفهم حتى يعتنقوا الإسلام ويكون ذلك نصرا لنشر الإسلام في أماكن لم ينشر فيها من قبل ويشير إلى ذلك ابن عذارى ضمن حديثه عن عقبة وموقفه من كسييلة ابن لمزم الأوربي . بأن أبا المهاجر في ولايته

(١) أبو المحاسن النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٥٧

(٢) جزيرة شريك .

(٣) المالكي رياض النفوس ص ٢٠ .

(٤) انظر قادة فتح المغرب شيت خطاب ج ١ ص ١٣٩ .

لأفريقية كان نهض إلى المغرب فنزل عيوننا عند تلمسان تعرف الآن بعيون
أبي المهاجر فزحف منها إلى كسيلة وهو في عدة من قبائل البرانس فظفر به
أبو المهاجر وعرض عليه الإسلام فأسلم وأحسن إليه أبو المهاجر
واستبقاه (١) .

ويزيد ابن خلدون الأمر وضوحاً بأن كسيلة كان على دين النصرانية
وأما كان رئيساً لأوربة التي كانت تزعم البربر آنذاك وقد اجتمع إليه
البرانس فزحف إليهم أبو المهاجر وانتصر عليهم و فظفر بكسيلة فأسلم
واستبقاه (٢) ، وبذلك استطاع أبو المهاجر خلال فترة ولايته أن يتعمق
في الداخل بين البربر إلى أن وصل إلى تلمسان في المغرب الأوسط وإذا كان
لم يستطع أن يتغلب على قرطاجنة فقد استولى على جزيرة شريك ووصل
من ناحية الساحل إلى ميلة ثم عاد إلى المكان الذي بناه ليجد أن الخليفة يزيد
ابن معاوية قد أعاد عقبة لكي يتولى أمر أفريقية مرة أخرى

عقبة بن نافع في أفريقية ثانياً :

لقد قضى عقبة وقتاً طويلاً في برقة وعندما أسند إليه أمر أفريقية
اختط القيروان لتكون قاعدة للمسلمين لكي يواصل تبليغ الدعوة إلى
الشيء الأفريقي كله ولا يمكنه بعد أن أتم بناء القيروان عزل عن إمارة أفريقية
ولذلك ذهب إلى دمشق لكي يوضح للخليفة خطته ويبين ما يرى إليه من
نشر الإسلام وفتح البلاد كما يوضح ما قد تم في فترة ولايته السابقة
ويورد ابن الحكم أن عقبة قدم على معاوية بن أبي سفيان فقال له فتحت
البلاد وبنت المنازل ومسجد الجماعة ودانت لي ثم أرسلت عبد الانصار

(١) ابن عسار البيان المغرب ج ١ ص ٢٨٠ - ٢٩٠ .

(٢) ابن خلدون عبر ج ٦ ص ١٠٧ .

فأساء عزلى فاعتذر إليه معاوية (١) .

بينما يذكر المالكي : أنه قدم على معاوية بن أبي سفيان فوجده قد توفى إلى رحمة الله وتولى بعده يزيد فدخل عليه فأخبره بما صنع أبو المهاجر وما دخل عليه منه وقال له : لما افتتحتم أفريقية بنيت مسجد الجماعة ثم بعثتم عبد الأنصار فأهانني وأساء عزلى فغضب يزيد وقال : ادركوها قبل أن يخرجوا ، ورد عقبة ، وأزال مسلمة عنها وأقره بمصر وذلك سنة اثنين وستين وقدم عقبة إلى القيروان بعشرة آلاف فارس (٢) ، ورأى المالكي هذا يتفق مع رواية ابن عبد الحكم الثانية في أنه قدم على يزيد لأعلى معاوية .

ابتدأ عقبة عمله من حيث تركه فبدأ بتعمير القيروان واعادتها إلى سابق عهدها وجعلها موطنًا ومقرًا للمسلمين ، فجدد بناء القيروان وشيدها ونقل الناس إليها فعمرت وعظم شأنها ، (٣) .

وبادر عقبة عقب ذلك بحملة كبرى على المغرب وهي حملة طويلة وسريعة وصل فيها إلى المحيط وقاتل فيها الروم والبربر وانتصر على كل من لاقاه وفرضهم حيث استفتح حصون الفرنجة مثل باغاية (٤) ولميس ولقيه ملوك البربر

(١) ابن عبد الحكم فتوح ص ١٩٧ .

(٢) المالكي رياض النفوس ص ٢٢ . ويذكر الدباغ كذلك أن جند عقبة كان عشرة آلاف ولكن الدكتور حسين مؤنس يقول نقلاً عن الدباغ أنهم كانوا خمسة عشر ألفاً . فتح العرب للمغرب ص ١٨١ ويتابعه د / سيد عبد العزيز سالم المغرب الكبير ص ٢٢٢ .

(٣) رياض النفوس المالكي ص ٢٢ .

(٤) باغاية : مدينة كبيرة في أقصى أفريقية بين بجاية وقسنطينة وهي حصن بربري قديم وكان سكانها من البربر والروم شييت خطب قادة فتح المغرب ج ١ ص ٩١ .

بالزاب^(١) وتاهرت^(٢) ففضهم جمعا بعد جمع ودخل المغرب الأقصى واطاعته غمارة ، ثم اجاز إلى بلاد السوس لقتال من بها من صنهاجة أهل اللثام وهم يومئذ على دين المجوسية ولم يدينوا بالنصرانية فأنخن فيهم وانتهى إلى تارودانت وهزم جموع البربر وقاتل مسوفة من وراء السوس وساسهم وقفل راجعا^(٣) .

وبعض المؤرخين يذكران أنه ترك بالقيروان جندا واستخلف عليها زهير بن قيس البلوى كما أنه عندما هزم الروم عند باغاية كره المقام عليها فسار إلى الزاب وقتل النصارى في مدينتها أربة^(٤) وقد استعان الروم بالبربر في تاهرت ولكنه تغلب عليهم وغنم المسلمون المال والسلاح كما نزل بطريق طنجة على حكمه فاستفهم منه عن حالة الأندلس وهنا نرى أن عقبة كان يتطلع إلى فتح الأندلس ولكن البطريق عظم الأمر عليه فسار

-
- (١) بلاد الزاب : بلاد واسعة من مدنها بسكرة وقسنطينة وقفصة وهي كورة عظيمة ونهر جرار بأرض المغرب على البر الاعظم عليه بلاد واسعة وقرى متواطئة بين تلسان وسجلمان والنهر متسلط عليها . وفي تاريخ المغرب الكبير (٤٢/٢) أن بلاد الزاب يطلق عليها اليوم ولاية قسنطينة المرجع السابق ص ٩١ .
- (٢) تاهرت : اسم لمدينتين متقابلتين بأقصى المغرب يقال لاحدهما : تاهرت القديمة واللاخرى : تاهرت المحدثه المرجع السابق ص ٩ .

(٣) ابن خلدون عبر ج ٦ ص ١٠٧ .

- (٤) أربة : مدينة بالمغرب من أعمال الزاب وهي أكبر مدينة بالزاب شيت خطاب قادة فتح المغرب ج ١ ص ١٠٨ .

إلى السوس^(١) الأدنى ثم السوس^(٢) الأقصى فقتل في البربر قتلا ذريعا وسار حتى بلغ ماليان^(٣) ورأى البحر المحيط فقال « يارب لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهدا في سبيلك ثم عاد فنفر الروم والبربر عن طريقه خوفا منه^(٤) » .

ويذكر ابن عذارى^(٥) أن صاحب سبته سأل عقبة المسالمة وأن ينزل على حكمه فقبل منه واجتمع به^(٦) ، حيث صالحه وأقره على بلاده^(٧) .

ويعلق الرقيق القيرواني على موقعة من المواقع التي خاضها عقبة في حملته على المغرب وهي موقعة أدنة^(٨) بقوله « فانهزم القوم وقتل فيها أكبر فرسان البربر فذهب عزم من الزاب وذلوا آخر الدهر^(٩) » كما كان لهذه

(١) السوس الأدنى : كورة كبيرة بالمغرب مدينتها طنجة والسوس مدينة بالمغرب كانت الروم تسميها : قونية وبين السوس الأدنى والسوس الأقصى مسيرة شهرين المرجع السابق ص ٩١ .

(٢) السوس الأقصى : أقصى بلاد البربر على المحيط والسوس الأقصى اسم مدينة ألا أنها كورة عظيمة ذات مدن وقرى وسعة وخصب يختلف بها طوائف من البربر نفس المرجع ص ٩١ .

(٣) ماليان : بلد في أقصى بلاد المغرب ليس وراءه غير البحر المحيط ، منهم البلدان (٣٦٧/٧) .

(٤) الكامل لابن الأثير بتصرف ج ٤ ص ٥٣ .

(٥) ابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ٢٦ .

(٦) تاريخ أفريقية والمغرب للرقيق القيرواني ص ٤٣ .

(٧) أدنة : بلد كثيرة الأنهار والعيون العذبة تبعد عن المسيلة بأربعة مراحل

الظاهر الرقيق تاريخ إفريقية ص ٤٢ .

(٨) المؤنس لابن أبي ديفار ص ٣٠ .

الموقعة اثر كبير بالنسبة للروم حيث ذهب عز الروم من الزاب وذلوا^(١) وتحصنوا^(٢).

ومن هنا يتبين لنا أن عقبة قد نجح في التغلب على كل الجموع التي تصدت له إلى أن قفل راجعاً ولو لم ينته إلى الغاية التي سبقت إليها من الاستشهاد لكان لتلك الغزوة اثر كبير في عدم انتفاض الشمال الأفريقي كله بعد استشهاد .
ولكن الدكتور حسين مؤنس يعلق على نتيجة هذه الغزوة بقوله : ثم انقلب بعد ذلك عائداً ادراجة ليعود إلى القيروان دون أن يترك بأى ناحية مربها اثر يذكر^(٣) ثم يقول : بل لم يكن نشر الإسلام غاية واضحة في ذهن عقبة إذ لو كان يطلب هذا فليس تلك هي السبيل التي تؤدي إلى إدراك هذه الغاية إنما تدرك بالوقوف بكل قوم وبلد وعرض الإسلام وتخيير الناس بينه وبين الحرب والجزية فإن أبو اكانت الحرب هكذا كان الفاتحون في الشام ومصر يفعلون ، بل هكذا فعل عبد الله بن سعد مع جرجير . أما عقبة فكان ينقض على المدائن محارباً مقاتلاً ويلبث على ذلك فترة ثم ينصرف دون أن ينتهي مع أهل البلد إلى شيء معلوم بل لو كان يرجو نشر الإسلام لخلف فيها مربيه من البلاد نفراً يعلم أهله الإسلام^(٤) .

ولا شك أن هذا فيه تبحر كبير على عقبة رضى الله عنه فلقد كان عقبة يعرض الإسلام قبل الحرب شأن كل قادة المسلمين كما أقام المساجد في كثير من الأماكن التي مازالت تنطق بأثر عقبة وتعطينا الدليل الباقى شاهداً على ما كان لهذه الغزوة من تأثير مازال مستمراً إلى الآن حيث أن أهل البلاد مازالوا يعظمون تلك المساجد انشأها عقبة أثناء غزوته التي وصل فيها

(١) المالكي رياض النفوس ص ٢٣ .

(٢) فتح العرب المغرب حسين مؤنس ص ١٩٥ .

(٣) فتح العرب المغرب حسين مؤنس ص ٢٠٢ ، ٢٠٣ .

إلى مائة بمكان من السوس الأقصى فبنى بها مسجداً (١) .

كما يذكر ابن عذارى أنه « سار حتى نزل إيجلى بالسوس وبنى فيه مسجداً . وأنه لم يصح عنده أن عقبة رضى الله عنه حضر ببيان شيء من المساجد بالمغرب إلا مسجد القيروان ، ومسجداً بدرعة ومسجداً بالسوس الأقصى . وأما غير ذلك من المساجد المسماة باسمه فإن الناس والله أعلم بنوها بموضع نزوله » (٢) .

وهكذا نرى أن عقبة حتى في أثناء قيامه بالغزوة كان يبنى المساجد وهذا يعطى دليلاً على أنه كان هناك من يدخل في الإسلام من أهل هذه النواحي وأنه كان يهتم بالدعوة إلى الله ونشر الإسلام قبل أى شيء آخر . وأن المساجد الكثيرة التي تحمل اسمه والتي بناها الناس بعد ذلك بالمواضع التي كان ينزل فيها . يعطى الدليل الواضح على الأثر الذي تركه عقبة في المغرب ثم يزيد ابن عذارى موضعاً أنه ترك في المغرب صاحبه شاكرًا وبين أنه كان يعرض الإسلام ويدعو إليه قبل أن يشهر السيف . يقول : « ثم رجع عقبة قافلاً إلى المغرب الأوسط وسلك على إيغيران يطوف ثم إلى تارنا ثم إلى موضع شاكر وترك به صاحبه شاكرًا فسمى باسمه . ثم رحل منه إلى بلاد دكالة فوجد فيها قوماً فدعاهم إلى الإسلام فامتنعوا فقاتلهم فقتلوا جملة من أصحابه فسمى ذلك الموضع مقبرة الشهداء إلى الآن . ثم رجع من دكالة إلى بلاد هسكورة إلى موضع يقال له إطار فوجد فيه أقواماً فدعاهم إلى الإسلام فامتنعوا فقتلهم حتى فروا أمامه فلم يقاتله بعد ذلك أحد من أهل المغرب » (٣) . كما يعبر ابن عذارى في مكان آخر بأنه

(١) المالكي رياض النفوس ص ٢٦ .

(٢) ابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ٢٧ .

(٣) البيان المغرب لابن عذارى ج ١ ص ٢٧ ، ٢٨ .

ترك في المغرب الأقصى أكثر من معلم غير شاكر كما يذكر أن كثيرا من المصامدة أسلموا على يديه يقول، وقد كان عقبة بن نافع ترك فيهم بعض أصحابه يعلمونهم القرآن والإسلام ومنهم شاكر صاحب الرباط وغيره ولم يدخل المغرب الأقصى أحد من ولادة خلفاء بني أمية بالشرق إلا عقبة بن نافع الفهري ولم يعرف المصامدة غيره وقيل أن أكثرهم أسلموا طوعا على يديه، (١).

ولذلك يعود الدكتور حسين مؤنس بعد إنكاره لآثار عقبة في تلك الغزوة إلى الاعتراف ببعض آثاره فيقول: لهذا لم يكن موت عقبة وأصحابه بقاض على كل أثر المسلمين فيما فتحوه من البلاد ولما كان قاضيا على بعض الأثر السياسي لأن عمل عقبة لم يكن سياسيا وإنما كان دينيا (٢) وقفل عقبة بعد وصوله إلى البحر المحيط قاصدا القيروان فلما انتهى إلى ثغر أفريقية إذن لمن معه من أصحابه أن يتفرقوا ويقدموها فوجا فوجا وعند طنبجة (٣) إذن لمن بقي معه بالانصراف إلى القيروان ومال في خيل يسير يريد (٤) تهودة (٥) وكان عقبة بن نافع قد أساء إلى كسيلة بن لزم الزعيم البربري ولم يحفل به عندما تولى إمارة أفريقية للمرة الثانية وتبالح المصادف في هذه الإساءة التي وجهها إلى كسيلة غير أن الشيء الذي لاشك فيه أن كثيرا من

(١) البيان المغرب لابن عذارى ج ١ ص ٤٢ .

(٢) فتح العرب للمغرب حسين مؤنس ص ٢٠١ ، ٢٠٢ .

(٣) طنبجة : بلدة في طرف أفريقية مما يلي المغرب على ضفة الزاب انظر معجم

البلدان (٢٨/٦) .

(٤) تهودة : مدينة في جنوب جبال أوراس وفي الجنوب الشرق لمدينة

طنبجة وتبعد عنها ٣٧ ميل . شيت خطاب فتح المغرب ج ١ ص ١١١ .

(٥) المالكي رياض النفوس ص ٢٥ .

البربر والروم كانوا يتحينون الفرصة التي يتمكنون فيها من القضاء على عقبة بعد فل جموعهم وشتت شملهم وانتصر عليهم في كل المواقع التي خاضها ضدّهم فما زالوا يتربصون به حتى واتتهم الفرصة عندما انفرد بعيدا عن جيشه فتمكنوا من القضاء عليه .

فقد عرض له كسيلة بن لزم في جمع كثير من الروم والبربر وقد كان بلغه افتراق الناس عن عقبة فاقتتلوا قتالا شديدا فقتل عقبة ومن معه^(١) .

وهكذا كان عدم الحذر حتى بعد الانتصار هو السبب الذي مكن الروم والبربر للتجمع واغتنام الفرصة للقضاء على عقبة وحمل الجيش الإسلامي على مغادرة أفريقية وترك القيروان حيث حاول كسيلة اغتنام كل أبعاد الفرصة التي واثته فجمع أهل المغرب وزحف إلى القيروان ، فانقلبت أفريقية نارا وعظم البلاء على المسلمين فخرجوا هاربين لعظم ما اجتمع من البربر والروم مع كسيلة^(٢) ويعمل الرقيق القيرواني خروج جيوش المسلمين من القيروان وعدم تصديهم لكسيلة والدفاع عن القيروان . بعدم القدرة على مواجهته مع جموعه الغفيرة واعتقادهم بأن الهزيمة ستحل بهم حيث لم يكن لهم بقتاله طاقة لعظم ما اجتمع معه من البربر والروم وأسلموا القيروان وبقي بها أصحاب الذاردي والأثقال فأرسلوا إلى كسيلة يسألونه الأمان فأمنهم وأجابهم وأقام كسيلة حتى نزل القيروان وأقام أميرا على أفريقية وقد بقي من بقي من المسلمين تحت يده^(٣) .

وبذلك تحقق لكسيلة بعد أن تمكن من اغتيال عقبة من أن يكون

(١) ابن عبد الحكم فتوح ص ١٩٨ .

(٢) رياض النفوس للباليكي ص ٢٨ .

(٣) تاريخ أفريقية والمغرب للرفيق القيرواني ص ٤٦ .

أميرا على كل أفريقية حيث أمن كسيلة من بقى القيروان من المسلمين وأقام
بالقيروان أميرا على سائر أفريقية والمغرب وعلى من فيه من المسلمين إلى أن ولى
الخليفة عبد الملك بن مروان . ولقد حاول خليفة عقبة على القيروان زهير
ابن قيس البلوى أن يقاتل كسيلة بمن بقى من الجيش مع الحامية التي تركها
عقبة عند مغادرته القيروان وأن يدافع عن القيروان ذير أن أثر قتل عقبة
وما اجتمع حول كسيلة من الأعداد السكينة من الروم والبربر حمل حنش
الصنعاني^(١) أن يجاهر بتفضيل الانسحاب من القيروان على لقاء كسيلة
بمجموعه ولا عمل أفضل من النجاة بهذا العصابة من المسلمين إلى مشرقهم^(٢) .
واضطر زهير خليفة عقبة إلى مغادرة القيروان تحت هذه الظروف القهرية
الخارجية عن إرادته بالنسبة للعدو وللحامية التي معه حيث خالفه حنش^(٣)
الصنعاني وعاد إلى مصر فتبعه أكثر الناس فاضطر زهير إلى العودة معهم
فسار إلى رقة وأقام بها^(٤) .

ولاشك أن قتل عقبة في تهودة كان مأساة حقيقية كما يقول الدكتور

(١) حنش الصنعاني : هو حنش بن عبد الله بن عمرو بن حنظلة تابعي كبير
ثقة روى عن ربيعة بن ثابت ، وأبي هريرة غزا المغرب ومكن أفريقية وهو أول
من ولى عشور أفريقية في الإسلام ، غزا الأندلس مع موسى بن نصير توفي
سنة ١٠٠ هـ شيت خطاب قادة فتح المغرب ج ١ ص ١٥٢ .

(٢) ابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ٣١ .

(٣) يذكر اللوام محمود شيت خطاب في قادة فتح العرب المغرب أن الصحيح
هو حنش لا جيش ج ١ ص ١٥٢ وهو حنش في البيان المغرب لابن عذارى
ج ١ ص ٣١ .

(٤) ابن الأثير الكامل ج ٤ ص ٥٤ .

شكري فيصل^(١) وإن كان لم يفتن الجيش كله في تهودة وإمّا استشهاد عقبة والعدد القليل الذي كان معه ثلاثمائة مقاتل . ولقد قتل النعمان بن مقرن في موقعة نماوند وإن كان النصر في المعركة .

ولذلك فإنني ألقى ببعض المسؤولية في خروج البلاد من طنبجة إلى القيروان على بقية قوات الجيش التي آثرت الانسحاب ولم تمل إلى رأى زهير في مقاومة كسيلة ولو حدث وانصبت القوات المقاتلة إلى حديث زهير وهو يناديهم ، يا معشر المسلمين إن أصحابكم قد دخلوا الجنة وقد من الله عليهم بالعقادة فاسلكوا سبيلهم ويفتح الله لكم دون ذلك^(٢) ، إن كان لهم النصر على هذه القوات التي انتصروا عليها من قبل وسينصرون عليها بعد ذلك ولم يفضلوا الانسحاب على المواجهة .

زهير بن قيس البلوي : يسترد القيروان :

لا شك أن مدينة القيروان قد أسست لتكون مدينة إسلامية على هلى المسلمين أن يقطنوها ويدافعوا عنها ويضطلعوا بحمايتها ، ولقد كان تغلب كسيلة واضطراره الجيش الإسلامى إلى الرحيل عنها خلفا . أصحاب العيال وكل مشغل من النجار وأهل الذمة^(٣) ، دافعا للمسلمين لاستردادها ثم بعد ذلك متابعة الفتح ، وهكذا نرى مركز القيروان ومكانتها تطالب المسلمين جميعا بأن يدافعوا عنها فيحدث بشأنها أكابر المسلمين إلى الخليفة مطالبين باستردادها فيستشير الخليفة وزراره فيجتمع الرأى على تعيين زهير ابن قيس البلوي ليتولى استخلاص القيروان واسترجاع هيبة المسلمين والأند

(١) حركة الفتح الإسلامى ص ١٧٠ .

(٢) ابن عشارى البيان المغرب ج ١ ص ٣١ .

(٣) الدباغ معالم الايمان ج ١ ص ٥٥ .

بشار عقبة بن نافع د ففى سنة ٦٥ من الهجرة ولى عبد الملك ابن مروان فلما اشد سلطانة واجتمع اكابر المسلمين عليه سألوه تخليص أفريقيا ومن بها من المسلمين من يدكسيلة اللعين فقال : لا يصلح للطلب بدم عقبة من الروم والبربر الا من هو مثله دينار وعقلا ، فاستشار وزراءه فاجتمع رأيهم على تقديم زهير بن قيس البلوى وقالوا : هذا صاحب عقبة وأهل الناس بسيرته وتديبره وأولاهم بطلب دمه فوجه عبد الملك إلى زهير بركة فأمره بالخروج على أعنة الخيل إلى أفريقية ليستنقذ من بالقيروان فيكتب إليه زهير يعرفه بكثرة من اجتمع على كسيلة من البربر والروم فأمدد عبد الملك ابن مروان بالخيال والرجال والأموال وحشد إليه وجوه العرب وبعثهم إليه فوفدت الجيوش على زهير وتسرع الناس معه إلى أفريقية ،^(١)

ولقد كان لكل من الشام ومصر أثر واضح فى هذا البحث الذى أسند إليه استرداد القيروان حيث قامت مصر بتقديم الأموال والشام بتقديم الرجال فقد أرسل عبد الملك إلى أشراف العرب ليحشدوا إليه الناس من الشام وأفرغ عليهم أموال مصر فسارع الناس إلى الجهاد ،^(٢)

أما زهير فقد قضى هذه الفترة — منذ غادر القيروان بعد قتل عقبة إلى أن وجهه الخليفة عبد الملك بن مروان لاستنقاذ القيروان — مرابطا فى بركة يذود عنها من يريد بها سوءا وخاض كثيرا من المواقع هو ومن معه من الجيش الأفريقى^(٣) . فكانت له بها وقائع كبيرة .^(٤)

(١) البيان المغرب لابن عذارى ج ١ ص ٣١ .

(٢) رياض النفوس للمالكى ص ٢٩ ، ٣٠ .

(٣) تاريخ أفريقيا والمغرب الرقيق القيروانى ص ٤٧ .

(٤) رياض النفوس للمالكى ص ٣٠ .

واقـد استـمر حـكم كـسـيـلة للـقـيـروان خـمـس سـنـين اتـسع فـيـها سـلـطـانـه وأعطى
الـأـمـان للـعـرب الـذـين تخـلفـوا عـن الـلـهـاق بـالجـيـش مـن أهـل الـذـراري والـأـتـقال
وعـظـم خـلالـها سـلـطـانـه عـلى الـبـربر^(١).

وكان إسناد عبد الملك ولاية أفريقية إلى زهير الكي يستنقذها من يد
كسيلة سنة ٦٩ ووجه إليه جيشا كبيرا قدره صاحب تاريخ المغرب الكبير
بعشرة آلاف جندي^(٢). وعندما أحس كسيلة بقدوم جيش المسلمين
أحضر أشرف أصحابه وعرض عليهم اختيار مـس^(٣) مكانا للمعركة
بـهـيـث يـكـون آمـنـا مـن عـدـو المـسـلـمـين فـي القـيـروان ثم إذا هزم العرب تبعهم
وقطع أثرهم من أفريقية كلها وإذا هزمه العرب لجأ إلى الجبال ونجا من قبضة
المسلمين فأجابه أصحابه إلى رأيه فغادر القيروان متجها إلى مـس ليتمكن
مـن الـفـرار مـن وـجـه الـعـرب عـند الـمـزـيـة^(٤).

وكان استعداد كسيلة لخوض المعرض المعركة استعدادا تاما فقد تمكن
مـن حـفـد عـدـد عـظـيـم مـن الـبـربر والـروم تـحت لوائـه بـلـغ أضعاف جند المسلمين
كما استشار رؤساء الجند وأشرافهم وكل ذلك أعطى لجنوده روحا معنوية
جعلتهم لا يهابون المسلمين^(٥).

وكما استعداد كسيلة للمعركة وحدد مكانها في مـس فإن زهير حدد زمانها
فلم يلتق بكسيلة فور وصوله إلى القيروان بعد أن قطع جيشه مئات الأميال

(١) العبر لابن خلدون ج ٦ ص ١٠٧ .

(٢) تاريخ المغرب الكبير لمحمد علي دبور ج ٢ ص ٦٢ .

(٣) مـس / مـدـيـنة بـيـزـنـطـيـة قـديـمة وتقع في جنوبي القيروان المالكي رياض

هامش ص ٢٨ .

(٤) الكامل لابن الأثير ج ٤ ص ٥٥ .

(٥) أنظر الرقيق تاريخ أفريقيا ص ٤٩ . البيان المغرب لابن عذري ج ١

بل نزل قريبا من القيروان ولم يدخلها ومكث بها لبسته يحج جيشه ويأخذ حظه من الاستعداد لخوض المعركة الفاصلة التي يأخذ بها الثأر لعقبة ويحمي القيروان ويستنفذها من كسيلة وبعد ثلاثة أيام من الراحة زحف في اليوم الرابع فوقف على كسيلة وعسكره آخر النهار . فلم ينازله ولكن الجيش اتى على مصافه طوال الليل فلما أصبح صلى مغلسا ثم تراخف الجيشان وتحصوا في قتال عنيف ونزل الصبر وكثر القتل في الفريقين حتى ينس الناس من الحياة فلم يزلوا كذلك حتى انهزم كسيلة وقتل بممسن ولم يجاوزها^(١) وكتب الله النصر للمسلمين فتتبعموا فلول الجيش المنهزم ولم يمكنهم من اللحاق بالجبال التي كانوا يريدون الاحتماء بها وقد قتل في هذه الواقعة كثير من ملوك البربر وأشرافهم وفرسانهم كما قتل من الروم أعداد كثيرة مما أدخل الرعب والفرع في قلوب الروم والبربر ثم انصرف زهير إلى القيروان فأرسلها^(٢) . لقد كان لموقعة ممسن في أفريقية أثر كبير في إعادة هبة المسلمين لما كانت عليه قبل مقتل عقبة كما أعادت للمسلمين ما اتسموا به من عدم الخوف من عدوهم مهما كان في كثرة كاثرة وكان له سامن الأثر الكبير في نفوس العرب الذين كانوا يقاومون المسلمين مثل الذي كان لمعركة تمودة في نفوس المسلمين من أثر قبل ، فثنا في المعتمد وإثارة الرعب^(٣) وتقوية للروح المعنوية بين المسلمين .

وهكذا استطاع زهير أن يخلص القيروان وأن يسترد للمسلمين هيبتهم في أفريقية ولما كان بعد أن يستقر له الأمر ويطمئن إلى أن المسلمين قد أصبحوا في أمان من أعدائهم يترك بالقيروان عسكرا كثيرا من أصحابه ويرحل في جمع آخر قاصدا المشرق غير مصغ إلى طلب رؤساء أصحابه بالمقام في القيروان .

(١) الرقيق تاريخ أفريقيا ص ٥٠ ، ٥١

(٢) المالسكى رياض ص ٣٠ ، ابن عذارى البيان ج ١ ص ٣٢ .

(٣) حركة الفتح الإسلامى و القرن الأول وشكرى فيصل ص ١٧٢ .

وعند وصوله إلى برقة يلتقي بالروم المغيرين عليها حيث يلقى ربه شهيدا
في سبيل انقاذ امرى المسلمين في برقة .

فقد استغل الروم خروجه من برقة قاصدا أفريقيا لقتال كسيلة واعدوا
حملة بحرية كبيرة للاغارة على برقة خرجت إليها من صقلية وتمكنوا من سبي
كثير المسلمين وقتلوا ونهبوا ووافق ذلك عودة زهير من القيروان وشاهد مع
رجال طليعته ما فعلته تلك الحملة ضد المسلمين فخاض المعركة ضد المغيرين
استنقاذا لسبي المسلمين الذين استغاثوا به عند رؤيته غير ملاق بالآ إلى تفوق
الجيش المغير على من معه وباشر القتال واشتد الأمر وعظم الخطب فتكاثروا
الروم عليه فقتلوا زهيراً ومن معه ولم ينج منهم أحد وعاد الروم بما غنموا
إلى القسطنطينية (١)

لقد اقتصر زهير من البرر لمقتل عقبة ولكنه يعود ليستشهد في برقة
بقوة مغيرة من الروم مما سيوجه نظر حسان بن النعمان الذي سيتولى أمر
أفريقية بعده إلى محاولة القضاء على النفوذ الرومي في شمال أفريقيا حتى
يقضى على كل أمل للقسطنطينية في الشمال الأفريقي كله .

ولكن لماذا عاد زهير من القيروان إلى برقة أو المشرق ؟ .

يشير ابن عذارى وابن الأثير إلى أسباب العودة بأن زهيراً رأى
أفريقية مأسا عظيماً فأبى أن يقيم بها وقال : إني ما قدمت إلا للجهاد
وأخاف أن تميل بي الدنيا فأهلك (٢) ويتفق معهما المالكي والداغ بعبارة

(١) أنظر المالكي رياض ص ٣٠ ، ابن الأثير الكامل ج ٤ ص ٥٥ ، ابن
عذارى البيان ج ١ ص ٣٣ .

(٢) ابن عذارى البيان المعرب ج ١ ص ٣٣ ، الكامل لابن الأثير ج ٤ ص ٥٥ .

أخرى قريبة من ذلك ، إنما قدمت للجهاد ولم أفدم لحب الدنيا ،^(١) .

ويعمل ابن خلدون عودة زهير بقوله : ثم ترهب^(٢) زهير بعدها
وقفل إلى المشرق فاستشهد^(٣) بركة ، أما الرقيق القيرواني ، فيذكر ما هو
قريب من ذلك من رفض زهير لملك الدنيا ورغد عيشها ، إني قدمت إلى
الجهاد وأخاف أن تميل بي الدنيا فأهلك ولست أَرْضَى بملككم ورغد
عيشها^(٤) .

هذا ما يعمل به المؤرخون القدامى عودة زهير ولم يطن إلى ذلك الدكتور
حسين مؤنس ويقول عنه : « تعميل ضعيف لأن الزاهد الودع الذي يخاف
على نفسه فتنة الدنيا هو الذي يقيم على الثغور ويرابط على دار الحرب ...
ثم يقول يبدو أن زهير اعتبر مهمته انتهت بعد قتل كسيلة وتخليص من
بأفريقية من المسلمين ... ويبدو كذلك أن الرجل كان مسناحين هم بمملته
تلك وأنه لم يقيم بها ألا طلبا لئلا صاحبه فلما فرغ منه عجل بالعودة^(٥) ،

أما صاحب قادة فتح العرب للمغرب فيرى : أن السبب الحقيقي هو
وصول معلومات أكيدة إليه عن تحركات جيوش الروم باتجاه بركة لذلك
سارع إلى العودة حتى لا يقطع الروم خطوط مواصلاته أولا ، وحتى
يحرمهم انتهاك حرمة المدن الإسلامية ثانيا خاصة أنه يعرف أن منطقة بركة

(١) رياض النفوس المأدكى ص ٢٠ ، ومعالم الإيمان للدباغ ج ١

ص ٥٩ .

(٢) لعله يفصد زهد في الإمارة .

(٣) العبر لابن خلدون ج ٦ ص ١٠٨ .

(٤) تاريخ أفريقية والمغرب للرقيق القيرواني ص ٥٢ .

(٥) فتح العرب للمغرب حسين مؤنس ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ .

كانت حينذاك منطقة مكشوفة تقريبا (١) .

ويوجز صاحب حركة الفتح الإسلامى فى القرن الأول رايه بقوله :
« وعاد زهير ادراجه إلى برقة مكتفيا بما حقق من نصر (٢) » ، ويقول صاحب
المغرب الكبير : « ولكن لسبب مالا يمكننا تعليله قرر زهير القفول إلى
برقة (٣) » .

وهكذا نرى أن المحدثين من المؤرخين لا يميلون إلى الأخذ برأى قدامى
المؤرخين .

ويبدو لى أن زهير ربما كان لا يزال متأثرا بما حدث عقب مقتل عقبة
من اختلاف الناس عليه وأنه رأى ذلك طعنا فى قيادته فأثبت حداثته
وانتصر لمقتل عقبة وبعده أقل من جند عدوه واسترجع القيروان وأمنها
وأقام عليها من يقوم بأمرها ثم بداله أنه قد اتم ما تطمئن إليه نفسه فترك
ولاية أفريقية وعاد . يضاف إلى ذلك أنه كان يزهد فى الإمارة ويرى أن
إمارته كانت لمهمة قد قام بها ورعما يشير إلى ذلك ما عبر عنه الدباغ بعد
اختيار عبد الملك له بقوله : « فلما اتصل ذلك زهير سره ذلك وسارع إلى
الجهاد وكتب إلى عبد الملك يخبره بقلة من معه من الرجال وقلة الأموال (٤) » .
ومع ذلك فأنى أقول مع الدكتور حسين مؤنس : « ذلك قصارى ما يمكن
افترضه لتعليل تلك العودة وعلى الرغم من ذلك يبدو أن الأمر لا زال

(١) قادة فتح العرب المغرب شيت خطاب ج ص ١٦٠ .

(٢) حركة الفتح الإسلامى فى القرن الأول شكرى فيصل ص ١٧٢ .

(٣) المغرب الكبير سيد عبد العزيز سالم ج ٢ ص ٢٢٧ .

(٤) معالم الايمان للدباغ ج ١ ص ٥٧ .

غامضا يحتاج إلى كثير من الايضاح^(١) ،

حسان بن النعمان الغساني^(٢) يثبت اقدام المسلمين في افريقية ويقضى

على مقاومة الروم والبربر:

لقد استطاع زهيران ينتصر على كسيلة وبذلك تحقق الانتصار على
بربر الشمال أو البرانس وبقى بربر الجنوب البتر الذي يسكنون الأوراس ،
كما بقى الروم الذين يسكنون معقلهم الحصين قرطاجنة وما يليها من مدن
الساحل .

ولقد كان استشهاد زهير محمداً أن يأتي بعده الأخذ بثأره العدو الذي
يجب أن يقضى عليه حتى يصير المسلمون في مأمن من مثل هذه الهجمات
ويتفرغوا للمهمة التي يضطلعون بها من نشر الإسلام وتعاليمه في تلك البقاع
ثم حمله إلى غيرها من البقاع أن استطاعوا إلى ذلك سبيلاً .

لقد استاء عبد الملك بن مروان الخليفة لاستشهاد زهير ، وكانت مصيبتة
مثل مصيبة عقبة^(٣) .

وكان لقتله اثره البعيد في افريقية فقد اضطربت افريقية نارا وافترق
أمر البربر وتعدد سلطانهم في رؤسائهم^(٤) مما دعا اشراف المسلمين واصحاب
الرأى بأن يطلبون من الخليفة أن يوجه إلى افريقية من يستطيع أن يقوم
بأمرها حتى تثبت اقدام المسلمين فيها فكان اختيار الخليفة لحسان بن النعمان

(١) فتح العرب المغرب حسين مؤنس ص ٢٢٨ .

(٢) انظر شيعه خطاب قادة فتح العرب المغرب ج ١ ص ١٧٢ .

(٣) البيان المغرب لابن خلدون ج ١ ص ٣٣ ، المؤنس لابن ديار ص ٢٣ .

(٤) المعر لاس خندور ج ٦ ص ١٠٨ .

ليتولى أمرها أفريقية وزكاه بأنه لا يصالح لأفريقية أحد سواه ويعبر الممالكي عن ذلك بأن أشراف المسلمين سألوا عبد الملك أن ينظر إلى أهل أفريقية ويؤمنهم من عدوهم ويبعث الجيوش إليهم فقال عبد الملك : ما أعلم أحدا أكفا بأفريقية من حسان بن النعمان الغساني (١) .

واختلف المؤرخون في تحديد السنة التي توجه فيها حسان إلى أفريقية اختلافا كثيرا فهو يتردد بين سنة تسع وستين الدباغ (٢) والمالكي سنة ثلاث وسبعين ابن عبد الحكم (٣) وأربع وسبعين ابن الأثير (٤) وست وسبعين وثمان وسبعين ابن أبي دينار (٥) وتسع وسبعين الباجي (٦) ، ولعل السبب في ذلك يعود إلى أن الأمر صدر بتعيين حسان ثم أمر بالبقاء في مصر لما قد يجد من أمر آخر بالنسبة للدولة . يضاف إلى ذلك أن حسان عندما توجه بحملته الأولى فقاتل الروم في قرطاجنة ثم قاتل الكاهنة فانهزم إلى قصور حسان ببرقة وعكث هناك إلى أن وصلته الأمداد مرة أخرى ليقود حملته الثانية التي قضى بها على الكاهنة ثم طهر قرطاجنة للمرة الثانية : كل ذلك قد جعل المؤرخين يظنون أنه سار إلى أفريقية منذ اختياره وجعلهم يخلطون بين حملته الأولى والثانية يقول ابن عذارى : قدم حسان ابن النعمان أفريقية اختاره لها عبد الملك بن مروان وقدمه على عسكر فيه أربعون ألفا : أقامه أولا في مصر بالعسكر عدة لما يحدث . ثم كتب إليه

(١) رباض النفوس للمالكي ص ٣١ ، الرقيق القيرواني تاريخ أفريقيا والمغرب ص ٥٣ ، ٥٤ .

(٢) معالم الإيمان ج ١ ص ٦٠ ، رباض النفوس ص ٣١ .

(٣) فتوح مصر ص ٢٠٠ . (٤) الكامل ص ٥٥ .

(٥) المؤنس ص ٧٣ . (٦) الخلاصة البقية ص ١٠ .

بأمره بالنهوض إلى أفريقية ويقول له : إنني أطلعت يدك في أموال مصر
فأعط من معك ومن ورد عليك وأعط الناس وأخرج إلى بلاد أفريقية على
بركة الله وعونه ،^(١) .

وهكذا نرى ثانيا أن أموال مصر توجه لأجل إتمام الفتح في أفريقية
ويكون إعداد الجيش صادرا من مصر ثم ينضم إلى الجيش من أقاليم من
العرب في برقة ومن أسلم من البربر في برقة أيضا بحيث نرى في الجيش قيادات
من بين هؤلاء البربر الذين شرح الله صدرهم للإسلام وقد استفاد حسان
بخبرة تلك القوات فيوجدها في المقدمة حيث مضى وفي جيش كبير حتى
نزل أطرابلس واجتمع إليه بها من كان خرج من أفريقية وأطرابلس
فوجه على مقدمته محمد بن بكير وهلال بن ثروان اللواتي ،^(٢) وسار الجيش
إلى أن وصل إلى القيروان فسأل حسان أهلها عن أعظم الملوك بأفريقية
قدرا فقالوا : صاحب قرطاجنة دار ملك أفريقية ،^(٣) ولم يكن أحد من
القواد السابقين قد تمكن من التغلب عليها فساد حسان إليها وخرجت إليه
قواتها مع رئيسهم فقاتلهم حسان حتى هزمهم وقتل معظمهم ثم حاصرها

(١) ابن عذاري البيان المغرب ج ١ ص ٣٤ ويتفق معه في أن عدد الجيش
أربعون ألف كل من صاحب المؤنس ص ٣٣ وصاحب الخلاصة النقية ص ١٠
ويقول عنه ابن الأثير في الكامل لم يدخل أفريقية جيش مثله ج ٤ ص ١٧٩
والمالكي في الرياض ص ٣١ والديباغ في معالم الإيمان ج ١ ص ٦ يذكر أن عدد
الجيش ستة آلاف وأن ذلك سنة تسع وستين .

(٢) فتوح مصر لابن عبد الحكم ص ٢٠٠

(٣) ابن عذاري البيان المغرب ج ١ ص ٣٤ ، ويزيد صاحب الخلاصة قوله
هي المدينة العظمى قريبة رومة وضررتها واحدة عجائب الدنيا ص ١٠

حتى افتتحها ودكانت دار الملك بأفريقية^(١) ويوضح ابن الأثير كيفية الاستيلاء عليها ويبين ما حدث للمدينة وسكانها وأنهم عندما أدركوا تصميم حسان على الاستيلاء عليها وعدم نجاتهم منه قرروا الحرب منها . ثم هدم حسان بعض أجزائها فقد قاتلهم وحصرهم وقتل منهم كثيرا فلما رأوا ذلك اجتمع رأيهم على الحرب فركبوا في سراكهم وسار بعضهم إلى صقلية وبعضهم إلى الأندلس ودخلها حسان بالسيف فسبى ونهب وقتلهم قتلا ذريعا وأرسل الجيوش فيما حولها فأسرعوا إليه خوفا فأمرهم فهدموا من قرطاجنة ما قدروا عليه^(٢) ، ود قطع القناة عنها^(٣) .

ولقد حاول الروم أن يلتقموا من المسلمين لاستيلائهم على قرطاجنة فجمعوا عسكرا عظيما بموضع يسمى صطفورة^(٤) وحاولوا الاستعانة بالبربر ليتمكنوا من الانتصار على حسان ولكن الجيش الإسلامي استطاع بعد قتال عنيف قدم فيه كثيرا من الشهداء أن يتغلب عليهم وأن يتبع آثارهم فينحاز الروم إلى باجة^(٥) والبربر إلى بونة^(٦) فقد واجتمع عليه - أي

(١) ابن عذاري البيان المغرب ج ١ ص ٣٤

(٢) الكامل لابن الأثير ج ٤ ص ١٨٠

(٣) المالكي رياض النفوس ص ٣٢

(٤) صطفورة : بلدة من نواحي أفريقية : انظر معجم البلدان د ٣٥٦/٥ ،

نقلا عن قادة فتح المغرب ج ١ ص ١٨٠

(٥) باجة : بلدة بأفريقية تعرف بـ باجة القمح ، لكثرة محصولاتها من القمح انظر التفاصيل في معجم البلدان د ٢٥/٢ ، نقلا عن شيت خطاب قادة فتح المغرب ج ١ ص ١٨٠ .

(٦) بونة : مدينة حصينة بأفريقية تقع على البحر نفس المرجع السابق

ونفس الصفحة د ٢ / ٣٠٩ ،

حسان — الروم وغدوا عليه عسكريا عظيما لا يعلمه إلا الله تعالى وأمدهم البربر وذلك في بلد تسمى صطفورة فزحف إليهم فقاتلهم قتالا عظيما وأصيب من أصحابه رجال كثيرون رضى الله تعالى عنا وعنهم ثم إن الله تبارك وتعالى ضرب في وجوه الذين كفروا من الروم والبربر فانهزموا بعد بلاء عظيم فقتلهم حسان قتلا عظيما واستأصلهم وحمل بأعنة الخيل عليهم فما نزل في بلادهم موضع الاوطئة بخيله ولجأ الروم خائفين هاربين إلى مدينة باجة فتحصنوا بها وهرب البربر إلى إقليم بونة . . . ثم انصرف أى حسان إلى مدينة القيروان فأقام بها حتى برئت جراح أصحابه (١) .

بهذا انتهى حسان من القضاء على عقبة كأداء كانت تقف في وجهه من سبقه وهم الروم في الشمال من أفريقية حيث لم يسبق أن تغلب عليهم أحد من المسلمين قبله وتمكن من فتح قرطاجنة وتطهيرها من سلطان الروم عليها وبقي عليه أن يتغلب على داخل البلاد على الأوراس ولذلك بعد أن اطمأن إلى أخذ الجيش لقسط من الراحة وبره جراح جنوده ولى وجهه نحو داخل البلاد لكي يقضى على أية مقاومة تعترض سبيله أو تقف دون تبليغ دعوة الله . ويعبر ابن عذارى عن ذلك بأنه «سأل أهلها — أى القيروان — عن بقى من أعظم ملوك أفريقية ليسير إليه فيبيده أو يسلم» (٢) ومن هنا نرى أنه لم يكن القصد من الحرب هو التغلب وإنما الحرب عند الوقوف في وجه تبليغ كلمة الله فإن قبلت فلهم مالنا وعليهم ما علينا وإلا فامتشاق الحسام . فكانت الإجابة بإخباره عن السكاهنة التي صار إليها رياسة البربر وقيادة بربر الداخل ابن ويضيف ابن خلدون أنه قد سارت إليها

(١) رياض النفوس للداككي ص ٣٢ وانظر ابن عذارى ج ١ ص ٣٥ .

(٢) البيان المغرب لابن عذارى ج ١ ص ٣٥ .

رياسة البربر بعد قتل كسيلة وانضمام قبائل بنى يفرن وغيرهم إليها ، فلما انقضى جميع البربر وقتل كسيلة ، رجعوا إلى هذه الكاهنة بمعتصمها من جبل أوراس^(١) وقد ضوى إليها بنو يفرن ومن كان بأفريقية من قبائل زناتة وسائر البربر ،^(٢) فإذا ما تمكن حسان من التغلب عليها فقد دان له المغرب كله وسقطت فيه آخر قاعدة ضخمة للمقاومة ولذلك توجه إليها حسان بجيوشه والتقى معها على نهر نيني^(٣) ولكنه لقي هزيمة منكرة أدت إلى ضياع كل أفريقية بعد قتال عنيف وشاق كأنه الفناء ، وفقد عددا كبيرا من الشهداء وقد تتبعته الكاهنة بعد الهزيمة حتى خرج من قابس ويعبر المالكي عن اللقاء بين حسان والكاهنة في تلك الموقعة بأنهم « اقتتلوا قتالا شديدا فعظم البلاء وظن المسلمون أنه الفناء وأنهزم حسان بعد بلاء عظيم فاتبعته الكاهنة بمن معها حتى خرج من حد قابس^(٤) فأسلم أفريقية ومضى على وجهه وأسرت من أصحابه ثمانية رجال وقيل ثمانين رجلا منهم خالد بن يزيد العبسي وكان رجلا مذكورا ،^(٥) .

وهكذا يتخلى الجيش الإسلامي عن أفريقية إثر هذه الهزيمة وإن كان المسلمون ما زالوا في عاصمتهم لم تتعرض لهم الكاهنة . ولكن الروم حاولوا استرداد عاصمتهم في أفريقية قرطاجنة بعد أن أرغموا تحت ضغط جيش

(١) أوراس جبل بأفريقية فيه عدة بلاد وقبائل من البربر ويقع بالجزائر

(٢) البر لابن خلدون ج ٧ ص ٩٠ .

(٣) ندي : نهر مشهور بأفريقية معجم البلدان (٣٦٩/٨) عن شيت خطاب

قادة المتح العربي ج ١ ص ١٨٣ .

(٤) قابس : مدينة طرابلس وسفاقس على ساحل البحر نفس المرجع

السابق ١٨٣ .

(٥) رياض النفوس للمالكي ص ٣٢ ، ٤٣ .

المسلمين على الفرار منها وكان استردادهم لها من المسلمين متمسكا بالقسوة والعنف فاعدوا أسطولا كبيرا بقيادة البطريق يوحنا د وظهر الأسطول البيزنطي في مياه قرطاجنة في سنة ٦٩٧ م (٥٧٨) وتمكن من الاستيلاء على المدينة في يسر وطرده المسلمين الذين كانوا فيها وقسا في معاملة من وقع تحت يده من المسلمين قسوة زائدة حتى إنه كان ليقتل الكفار بيده كما يقول ثيوفانس وتقفوراً (١) .

وكتب حسان بنخبر الخليفة بهذه الهزيمة وما ترتب عليها ويقول :
« إن أمم المغرب ليس لها غاية ولا يقف أحد منها على نهاية كلها بادت أمة خلفتها أمم وهي من الجهل والكثرة كسائمة النعم د فعاد له جواب أمير المؤمنين يأمره أن يقيم حيثما وافاه الجواب ، فورد عليه في عمل برقة فأقام بها وبني هناك قصورا تسمى إلى الآن بقصور حسان (٢) ، ولقد تأخر ورود المدد من الخليفة لمدة طويلة جعلت السكاهنة صاحبة الشاؤ في أفريقية وفي تهريف شئونها حيث د ملكت أفريقية خمس سنين منذ هزمت حسان (٣) ، والمالكي واللباغ يحددان المدة التي ملكت فيها السكاهنة أفريقية بثلاث سنين ويعبران عن ذلك بأن حسان قد لقيه كتاب أمير المؤمنين د وهو نازل بمكان يقال له اليوم قصور حسان فبنى هناك قصرا لنفسه وأقام بذلك الموضع هو ومن معه ثلاث سنين وملك السكاهنة

(١) فتح العرب للمغرب الدكتور حسين مؤنس ص ٢٥٤ عن ديبيل .

(٢) البيان المغرب لابن عذارى ج ١ ص ٣٦ ، قصور حسان : قصور بناها حسان في منطقة برقة .

(٣) أنظر الرقيق القيرواني تاريخ أفريقية والمغرب ص ٦١ ، البيان المغرب

إفريقية كلها، (١).

وسواء ملكت الكاهنة ثلاث سنوات أو خمس سنوات فإذا فعلت خلال هذه المدة وماذا فعل حسان بن النعمان ؟ .

أما بالنسبة للكاهنة : فقد أخطأت الفرض من قدوم المسلمين إلى إفريقية وظنت أنهم إنما يقدمون للسلب والنهب للاستيلاء على المدن والذهب والفضة كما كان يفعل الغزاة سابقا وهداها تفكيرها إلى أنها إذا اتلفت ذلك فقد استطاعت أن تقطع أمل المسلمين في العودة إلى إفريقية حيث لا يوجد بها ذهب أو مدن . ولقد كان ذلك خطأ كبيرا من الكاهنة مما عجل بالقضاء عليها وجعل أهل البلاد خارج الأوراس ينقلبون عليها بل دعا بعضهم إلى اللجوء إلى حسان يستغيثون به من الكاهنة وسياستها المخربة ومالحقهم منها خلال انسحاب القيادة الإسلامية إلى برقة . ويعبر الرقيق القيرواني عن ذلك بأن الكاهنة لما دأبوا العرب عنها قالت للبربر : إن العرب إنما يطلبون من إفريقية المدائن والذهب والفضة ونحن إنما نطلب منها المزارع والمراعى فما نرى لكم إلا خراب إفريقية حتى يبأسوا منها ويقل طمعهم فيها فوجهت قوما إلى ناحية يقطعون الشجر ويهدمون الحصون ، (٢) كما يعبر أيضا عن استغاثة أهل إفريقية بحسان لينقذهم من الكاهنة ويصور حسن استقبالهم له بأنه قد دلفيه من النصارى في طريقه لثمانائة رجل يستغيثون إليه من الكاهنة فيما نزل بهم من خراب ومضى أى حسان حتى وصل إلى قابس ، فخرج إليه أهلها وكانوا قبل ذلك يتحصنون من كل أمير مر بهم فأستأمنوا إليه وأدخلو عامله فأمنهم على مال معلوم فاستطال طريق القيروان فقال إلى

(١) رياض النفوس للمالكى ص ٣٣ ، الدواغ معالم الإيمان ج ١ ص ٦٣ .

(٢) تاريخ إفريقية والمغرب للرقيق القيرواني ص ٦١ .

طريق قنصة (١) وقسطنطينية (٢) ونفزاوة (٣) وبعثوا إليه أيضا يستغيثون به من أمر الكاهنة فسر ذلك (٤). وهكذا أدرك السكان الفرق البعيد بين سياسة المسلمين وسياسة الكاهنة البربرية مما جعلهم يفضلون حكم المسلمين ويستغيثون بحسان ليخلصهم من الكاهنة.

أما بالنسبة لحسان : فقد قضى هذه المدة يستعد لخوض المعركة الفاصلة ويأخذ لها الأهمية كاملة ومن أهم ما قام به في ذلك بعد طلب المدد من الخليفة هو استطلاع أحوال العدو والتمسك من معرفة مواطن القوة والضعف حتى يستطيع أن يوجه إليه الضربة القاضية . ولقد استعان في ذلك بأحد الأسرى المسلمين الذي لقي من الكاهنة تقديرا عظيما وصل إلى أن تدنته على عادة البربر (٥) فأرسل إليه حسان رسولا لكي يستطلع حالة الكاهنة

(١) قصة : بلدة صغيرة في طرف أفريقية من ناحية المغرب من محل الزاب الكبير بالجريد بينها وبين القيروان ثلاثة أيام أنظر التفاصيل في معجم البلدان (١٣٨/٧) شيت خطاب قادة فتح المغرب ج ١ ص ١٩٧ .

(٢) قسطنطينية : بلد بالمغرب من أرض الزاب الكبير معجم البلدان (٨٨/٧) نفس المرجع السابق والصفحة .

(٣) نفزاوة : مدينة بالمغرب بينها وبين القيروان ستة أيام تسير من القيروان نحو الغرب معجم البلدان (٣٠٣/٨) المرجع السابق نفس الصفحة .

(٤) تاريخ أفريقية الرقيق ص ٦١ ، ٦٢ .

(٥) وذلك كما يقول ابن عذاري ج ١ ص ٣٧ وحبست عندها خالد بن يزيد . فقالت له يوما : دمارأيت في الرجال أجمل منك ولا أشجع وأنا أريد أن أرضعك . فتسكون أخا لولدي وكان لها إبنان أحدهما بربري والآخر يوناني وقامت له : نحن جماعة البربر لنا رضاع إذا فعلناه نتوارث به فعمدت إلى دقيق الشعير فلمتته بزيت وجعلته على ثديها ودعت ولديها وقالت : كلا معه على ثدي ففعلوا فقالت : قد صرتم أخوة .

وحالة البربر فأجابه بوصف كامل عن حالة جندهم ومقدار تماسكهم في الرأي والمشورة وحث حسان على سرعة القدوم لأن الفرصة سانحة وبصور الدباغ كيفية هذه المخبرات ووسائلها بأن يزيد أرسل كتاباً إلى حسان مع رسوله وجعله في خبزة ملة قد انضجها ثم دفعها إلى الرسول ليخفي الكتاب ليظن من رأى الخبزة أنه زاد للرجل . . . وفيه — أى الكتاب — كل ما يحتاج إليه من خبر الكاهنة يقول فيه : ان البربر يعقدون عساكرهم بالنهار ويفترقون بالليل وليس لهم حزم في الرأي وإنما ابتلينا بأمر قدره الله واكرم به من أراد منا بدرجة الشهادة فإذا نظرت في كتابي هذا فاطو المراحل وجد السير فإن الأمر إليك ولست أسلك إن شاء الله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، (١) .

وعندما أتم حسان الاستعداد للقاء الكاهنة ووصلته الأمداد من جنود العرب وفرسانهم ومن انضم إليهم ممن أسلم من البربر سار إلى الكاهنة والتقى بها مع جيشها وتمكن من هزيمتها وقتلها . ورغم كثرة جمعها وضرارة المعركة فقد تمكن من دفع جموعهم وأوقع بهم وقتل الكاهنة واقتحم جبل أوراس عنوة واستلحم فيه زهاء مائة ألف ، (٢) .

وهكذا تمكن حسان من القضاء على الكاهنة واقتحام الأوراس وقدم إليه البربر يطلبون الأمان ويعلمون الإسلام والطاعة ولكن لما عرفه حسان من كثرة ارتداد البربر أحب أن يشركهم معه في الحرب ويكبروا من جنود الدولة يذودون عن حياضها . ثم بعد التفقه في الدين يكون لهم نصيب كبير وحظ عظيم بالمشاركة في الفتوح القادمة . ذلك أن البربر

(١) الدباغ معالم الإيمان ج ١ ص ٦٣ ، ٦٤ .

(٢) العبر لابن خلدون ج ٧ ص ٩ .

قد استأمنوا إلى حسان فلم يقبل أمانهم ألا أن يعطوه من جميع قبائلهم
اثني عشر ألفا يكونون مع العرب مجاهدين فأجابوه واسلخوا على يديه
فعمدوا إلى لولدي الكاهن لكل واحد منهما على ستة آلاف فارس وأخرجهم
مع العرب يحولون في أفريقيا يقاتلون الروم ومن كفر من البربر وحسن
إسلام البربر وطاعتهم وانصرف حسان إلى مدينة القيروان (١) .

وبذلك قضى حسان على البربر في الداخل ولم يبق إلا أن يسترجع
قرطاجنة من الروم الذين تمكنوا من طرد المسلمين منها أثناء إقامة حسان
في برقة فتوجه بقواته إلى قرطاجنة حيث قاتل أهلها قتالا شديدا شعر منه
أهلها بأنهم لا طاقة لهم به مما جعلهم يصانعونه بأنهم يريدون الصلح . وكان
ذلك خديعة منهم حتى يلهو رقباء حسان وعيونهم ليتمكنوا من مغفلتهم ،
فلما كان الليل ركبوا سفنهم فادين إلى صقلية والأندلس ظانين أنهم سوف
يعودون ثانيا عندما تسبح لهم الظروف ذلك ولسكنه كان خروجا ابديا
ودخل حسان المدينة وأزال منها ما كان يعتصم به الروم وأقام بها مسجدا
فكان الهداية المشعة لمن يقيم بها من شرح الله صدره للإسلام . والمالكي
والدباغ من مؤرخي المغرب القدامى ينفردان بالحديث عن فتح قرطاجنة
بعد تمكن حسان من القضاء على البربر في الجنوب وانقيادهم للإسلام وأن
كان يشاركهما بإشارة موجزة صاحب المؤنس فقد سار حسان يريد
قرطاجنة . . . فخرج إليه أهل قرطاجنة فخاربوه حربا شديدة فهزمهم الله
وملك حسان لخص تونس وقرطاجنة فلما رأت الروم قهرته لهم وعلموا
أنهم لا قوام لهم به سألوه الصلح وأن يضع عليهم الخراج فأجابهم إلى ذلك
وأدخلوا ثقلهم في مراكب كانت عندهم معدة في البحر وهربوا من باب

(١) تاريخ أفريقيا والمغرب الرقيق القيرواني ص ٦٤ .

يقال له باب النساء في الليل وحسان لا علم عنده بذلك وتركوا المدينة خالية لا أحد فيها ونزلوا بجزيرة صقلية وبعضهم بالاندلس فدخلها حسان فأخربها وأحرقها وبني بها مسجداً (١).

وبذلك تمكن حسان من القضاء على مقاومة البربر في الداخل ثم القضاء على الروم في الساحل وتوج أعماله بالشروع في إقامة مدينة ساحلية تكون عيناً للقيروان على شاطئ البحر ومحرساً ترقب تحركات الروم وترد طائراتهم ، كما تحتل المركز الممتاز الذي كان لقرطاجنة من قبل وتكون مدينة وميناء اسلامياً عوضاً عنها اقيم بها المسلمون ويبنوا بجوارها دار صناعتهم فتتحول إلى ميناء حربي وتجاري يشرف على حوض البحر المتوسط . فحسان هو الذي فرق البحر إليها — أي تونس — وجعلها دار صناعة فأخرج إليها الماء وأجراه من البحر إليها (٢) ، وبذلك تحقق للمسلمين في إفريقية الأمن من البحر كما تحقق لهم الأمن من الصحراء .

وقد كان لانتهاء دار الصناعة وتعميرها وجلب الخبراء إليها من مصر بأسرهم هو الاستعداد الحقيقي للدور الكبير الذي ستقوم به القيروان بأسطولها القوي من الإغارة على شواطئ الروم في عقر دارهم وشغلهم عن بلاد الاسلام في المشرق (٣) وبذلك توج حسان أعماله الحربية بالتوجه إلى الأعمال الإدارية والانشائية المعمارية والصناعية التي كان لها الأثر البعيد في إفريقية وتثبيت الاسلام فيها إلى الأبد أن شاء الله . فقد استقامت

(١) رياض النفوس الماسكي ص ٣٧ ، أنظر الدباغ معالم الإيمان ج ١ ص

٦٨ ، ٦٩ ، ابن أبي دينار المؤنس ص ٣٥

(٢) الدباغ معالم الإيمان ج ١ ص ٦٨ .

(٣) الرقيق القيرواني ص ٦٥ ، ٦٦ تاريخ إفريقية والمغرب .

بلاد إفريقية لحسان بن النعمان فدون الدواوين وصالح على الخراج وكتبه
على عجم إفريقية وعلى من أقام معهم على دين النصرانية (١) ، كما جدد بناء
مسجد القيروان وأحسن بناءه وأقام حسان في مدينة القيروان مقر الولاية
الإفريقية يوجه منها شئونها ويدير أحوالها وقد عمرها المسلمون وأطعموا
إلى سكناها .

وانتشروا وكثروا فيها وأمنوا وولى حسان على صدقات الناس
والسمى عليهم حنش بن عبد الله الصنعاني التابعي رضى الله تعالى عنه (٢) .

وعندما تمهدت إفريقية وأمن أهلها رحل حسان عنها قادما على الخليفة
في دمشق بعد أن أدى واجبه عسكريا وإداريا وأطمأنت نفسه إلى ما قام به
من أعمال .

ذلك أن عبد العزيز بن مروان والى مصر وقد عزاه عن إفريقية ،
ليولى عليها أحد أتباعه وأرسل إليه أربعين رجلا من أشرف أصحابه
ليتحفظوا على ما معه من الغنائم (٣) فلما قدم حسان بن النعمان على عبد
العزيز بن مروان أهدى إليه مائتي جارية من خيار ما معه . . . فتخير
ما أحب وأخذ منه خيلا كثيرة ورحل حسان بمن معه بن السبي والجمال
والأنعام حتى قدم على الوليد بن عبد الملك فشكى إليه ما صنع به عبد العزيز
فغضب الوليد لذلك وذكّره فقال حسان لمن معه ، ايتوني بالقرب فأتي
بها ففرغت بين يدي الوليد مما فيها من الجواهر والذهب والفضة فاستعظمت

(١) ابن عذاري البيان المغرب ج ٣ ص ٣٨ .

(٢) ريباض النفوس المالكى ص ٣٨ .

(٣) الرقيق القيرواني تاريخ إفريقية المغرب ص ٦٦ ، البيان المغرب لابن

وبهته فقال له : « يا أمير المؤمنين إنما خرجت مجاهدا في سبيل الله وأيسر مثلي خان الله ولا الخليفة » فقال له الوليد أردك إلى عملك وأحسن إليك » وخلف حسان : أنه لاولى لبني أمية ولاية أبدا فلما رأى ذلك الوليد غضب على عبد العزيز وكان يسمى حسان الشيخ الأمين - رحمه الله (١)

لقد أدى حسان واجبه بصدق وإخلاص جعله خليفقا بلقب الشيخ الأمين فعلى يديه تم فتح أفريقية وصارت القيروان عاصمة لها لا يحكمها غير المسلمين واستقامت أفريقية كلها وأمن أهلها وقطع الله عز وجل مدة أهل الكفر ، وصارت القيروان دار اسلام وجميع مدن أفريقية إلى يومنا هذا وإلى آخر الدهر أن شاء الله تعالى ، (٢) ، وقد كان لهذا الفتح أثر كبير في الناحية العسكرية التي قام بها القواد والجنود من الصجابة والتابعين الذين تشرف بهم الشمال الأفريقي حيث تمكن سكان هذه البلاد أن يفقهوا حقائق الإسلام : ويكون لهم دور كبير في الحفاظ على الإسلام ونشر تعاليمه السمحة .

(١) الرقيس القيرواني تاريخ أفريقية والمغرب ص ٦٦ ، ٦٧ .

(٢) رياض النفوس للمعالي ص ٣٨ ، الدباغ معالم الإيمان ج ١ ص ٦٩ .

الفصل الثاني

الحالة السياسية في أفريقية بعد أن تم فتحها .

عصر الولاية من بنى أمية وبنى العباس :

بعد أن تم فتح أفريقية على يد حسان بن النعمان وثبتت أقدام المسلمين فيها توافد الولاة على القيروان من قبل خلفاء بنى أمية ثم من قبل خلفاء بنى العباس لإدارة شئون ولاية أفريقية التي كان مقرها القيروان .

وقد اتسع نطاق هذه الولاية حتى وصل إلى المغرب الأقصى وعبر المضيق إلى الأندلس التي انضوت تحت سلطان المسلمين . فكان وإلى القيروان هو المسئول عن إدارة هذه الأقاليم الشاسعة . ثم عاد سلطان وإلى القيروان فأنكمش ثانيا بحيث اقتصر على إفريقية وحدها بعد أن استقل الأمويون بالأندلس والروستميون بتاهرت والمداداريون بسجلماسة والادارسة بفاس وبذلك انفصل الأندلس والمغرب الأقصى وبعض أقاليم المغرب الأوسط عن التبعية للسلطة الحاكمة في القيروان .

وقد عانت السلطة الحاكمة في القيروان خلال عصر الولاية كثيرا من الثورات العاتية وتعرضت في بعضها للحصار بل تمكن الثوار في بعض الأحيان من طردها من مقرها والاستيلاء على القيروان نفسها وإتلاف حرماها ومقدساتها إلى أن قامت دولة الأغالبة سنة ١٨٤ هـ .

١ - ولاية موسى بن نصير :

وقد تولى أمر أفريقية بعد حسان بن النعمان موسى بن نصير

سنة ٨٨ هـ (١) حيث قام بكثير من الفتوح كان أولها فتح قلعة زغوان ونواحيها وبينها وبين القيروان مسيرة يوم (٢) كامل ثم تابع فتوحه فتوجه غربا إلى المغرب الأقصى ففتح طنجة وانتهت خيـمة إلى السوس الأدنى (٣) ودان له أهل المغرب بعد حروب كثيرة خاضها ضدهم وأسر فيها كثيرا منهم فانقادوا له ودانوا بالطاعة فولى على السوس الأدنى والـيا واستعمل مولا طارقا على طنجة وما والاها في سبعة عشر ألفا من العرب واثني عشر ألفا من البربر وأمر العرب أن يعلموا البرابر القرآن وأن يفقهوهم في الدين ثم انصرف إلى القيروان أفريقية ولم يبق في أفريقية من ينازعه (٤).

وفي سنة ٩٢ هـ استطاع طارق بن زياد واليه على طنجة أن يغزو الأندلس وينتصر على حاكمها في المعارك الأولى حيث لحق به موسى بن نصير سنة ٩٣ هـ الذي تابع فتوح الأندلس (٥) وبذلك صارت الأندلس تابعة للقيروان ثم عاد موسى إلى القيروان بعد أن ترك ابنه عبد العزيز واليا على

(١) ابن عذاري البيان المغرب ج ١ ص ٤٦ ويذكر البلاذري فتوح البلدان أنها سنة ٨٩ ص ٢٧٢ ويذكر ابن عبد الحكم فتوح أنها سنة ٧٨ هـ ويحيل إلى أنها سنة ٨٧ وأن التاريخ في ابن عبد الحكم قد عكس العدد وهذا ما يذكره المقرئ في فتح الطيب ج ١ ص ٢٢٣ .

(٢) انظر ابن عذاري ج ١ ص ٤٠ .

(٣) البلاذري فتوح البلدان ص ٢٧٢ .

(٤) انظر البلاذري فتوح البلدان ص ٢٨٢ ، ابن عذاري البيان المغرب ج ١ ص ٤٣ ، ابن الأثير الكامل ج ٤ ص ٢٥٩ .

(٥) انظر البلاذري فتوح البلدان ص ٢٧٣ ، ابن عذاري البيان المغرب ج ١ ص ٤٣ ، ابن عبد الحكم فتوح ص ٢٠٧ .

الأندلس (١) ليجد كتاب الخليفة الوليد بن عبد الملك يأمره بالقدوم عليه فاستخلف على أفريقية (٢) أكبر بنيه عبد الله وعلى طنجة ابنه عبد الملك ثم توجه إلى دمشق ليصل إليها قبل وفاة الوليد بن عبد الملك بأيام قليلة (٣).

٢ — ولاية محمد بن يزيد :

تولى الخلافة بعد الوليد أخوه سليمان بن عبد الملك فأسند أمر أفريقية والمغرب كله إلى محمد بن يزيد مولى قریش وأوصاه بقوله : يا محمد بن يزيد اتق الله وحده لا شريك له وقم فيمن وليتك بالحق والعدل اللهم اشهد عليه فخرج وهو يقول : مالي عذر إن لم أعدل ، (٤) . وقد وصل محمد بن يزيد إلى مقر ولايته سنة ٩٧ هـ ، ويتحدث المؤرخون عنه بأنه كان حسن السيرة عادلا كما قام ببعث السرايا إلى ثغور أفريقية وقد أسند أمر الأندلس إلى الحر بن عبد الرحمن الثقفي (٥) وقام بمصادرة أملاك أسرة موسى بن نصير في القيروان وقد استمرت ولايته سنتين وأشهرًا .

٣ — ولاية اسماعيل بن عبيد الله :

وعندما توفي سليمان بن عبد الملك وولى الخلافة عمر بن عبد العزيز ولى على أفريقية اسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر مولى بني مخزوم

(١) تاريخ فتوح أفريقية للرقبي ص ٨٥ .

(٢) يقصد بأفريقية هنا القيروان .

(٣) انظر فتوح مصر لابن عبد الحكم ص ٢١٠ ، الرقبى تاريخ أفريقية

ص ٨٨ تولى الوليد بن عبد الملك صالح جمادى الآخرة سنة ٩٦ هـ المرجع السابق ص ٩١

(٤) المرجع السابق ص ٢٣ .

(٥) انظر ابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ٤٧ ، الرقبى تاريخ أفريقية

ص ٩٣ ، ويدكر الرقبى أن اسمه الحسن بن عبد الرحمن القيسي .

سنة ١٠٠ هـ الذى بذل جهودا مخلصه لأجل اقرار العدل والسلام كما اهتم بنشر الإسلام والتعريف به بين البربر مما أدى إلى اعتناق كثير من البربر للإسلام ويذكر ابن عذارى « أنه مازال حريصا على دعوة البربر إلى الإسلام حتى أسلم بقية البربر بأفريقية على يديه (١) . كما بعث معه الخليفة بعشرة من التابعين لتعليم أهل أفريقية الحلال والحرام وقد ولى اسماعيل ابن أبي المهاجر على الأندلس السمع بن مالك الخولاني ويحمل المؤرخون الحالة السياسية في أيام اسماعيل بقولهم « أنه كان خير أمير وخير وال » (٢) .

٤ — ولاية يزيد بن أبي مسلم :

وعندما آلت الخلافة إلى يزيد بن عبد الملك أسند ولاية المغرب إلى يزيد بن أبي مسلم مولى الحجاج بن يوسف فقدم إليها سنة ١٠٢ هـ وكان يتسم بالقسوة والظلم سواء بالنسبة للرعية حيث حاول أن يضع الجزية على من أسلم (٣) من أهل الذمة أو بالنسبة لحرسه حيث أراد أن يسهم على أيديهم حتى يعرفوا بذلك مما أدى إلى تأمرهم عليه وقتله بعد شهر من ولايته .

٥ — ولاية بشر بن صفوان الكلبي :

واختار أهل القيروان محمد بن أوس الأنصاري واليسا عليهم . وكان

(١) البيان المغرب لابن عذارى ج ١ ص ٤٨ ، والرقائق تاريخ أفريقية ص ٩٧ .

(٢) البيان المغرب لابن عذارى ج ١ ص ٤٨ ، الرقائق تاريخ أفريقية ص ٩٧ ،

وابن عبد الحكم فتوح ص ٣٨ يصفه بأنه كان حسن السيرة

(٣) العبر لابن خلدون ج ٤ ص ١٨٨ .

(٤) انظر الرقائق تاريخ أفريقية والمغرب ص ٩٩ ، ١٠٠ .

في غزو صقلية فبعد عودته قام بالأمر وكتب إلى يزيد بن عبد الملك يخبره بما حدث من قتل يزيد بن أبي مسلم واختيار أهل القيروان له ^(١) . فولى يزيد على أفريقية بشر بن صفوان الكلبي الذي قدم إلى القيروان سنة ١٠٣ هـ فقام بتصفية آل موسى بن نصير كما ولى على الأندلس عنبسة بن سحيم الكلبي وفي سنة ١٠٧ هـ ولى على الأندلس ثانيا يحيى بن سلمة الكلبي كما أن بشرا مهدأمود أفريقية وغزا صقلية بنفسه فأصاب سبياً كثيراً وعند عودته إلى القيروان أدركته الوفاة في سنة ١٠٩ هـ ^(٢) .

ونلاحظ هنا سرعة تغيير والي أفريقية في القيروان الذي كان يغير بالتالي الولاة التابعين له وخاصة في الأندلس . وقد أدت سرعة هذا التغيير إلى عدم القيام بأعمال هامة سوى ما قام به اسماعيل بن أبي المهاجر من نشر للإسلام بين البربر وكذلك نلح روح الثورة في قتل والي القيروان يزيد بن أبي مسلم لعدم قيامه بالعدل في الرعية والقسوة التي أبداهها في معاملة حرسه الخاص مما أدى إلى قتله .

٦ - ولاية عبيدة بن عبد الرحمن السلمي :

وفي سنة ١١٠ هـ قدم إلى القيروان عبيدة بن عبد الرحمن السلمي ليقوم بحكم أفريقية خلفاً لبشر بن صفوان من قبل الخليفة هشام بن عبد الملك فبعث عبيدة من قبله إلى الأندلس مدة حكمه أربعة ولاة كان آخرهم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي ، الذي غزا فرنسا حيث استشهد سنة ١١٥ هـ

(١) انظر المرجعين السابقين البيان ص ٤٩ والرقيق ص ١٠٠ .

(٢) انظر ابن خلدون العبر ج ٤ ص ١٨٨ ، وابن عسكاري البيان

بموضع يعرف ببلاط الشهداء^(١) كما وجه عبيدة المنستير بن الحبجباب
الحرشى غازيا إلى مصقاية فغرقت السفن ولم تصل إلى الهدف المنشود^(٢).

وقد طامل عبيدة عمال الوالى السابق بقسوة وعنف وفرض عليهم بعض
الغرامات فشكوه إلى الخليفة مما أدى إلى عزله عن أفريقية^(٣).

(٧) ولاية عبيد الله بن الحبجباب :

وأرسل الخليفة هشام بن عبد الملك عبيد الله بن الحبجباب واليا على
أفريقية والمغرب سنة ١١٦ هـ وكان كاتباً بليغاً يقول الشعر وكان والياً على
مصر قبل إسناد ولاية أفريقية إليه^(٤) فقدم القيروان ونظم شئونها وقام
في تونس ببناء المسجد الجامع والزيادة في دار الصناعة^(٥) كما أرسل الولاة
إلى أطراف الولاية فبعث إلى الأندلس عقبه بن الحبججاج وولى على طنجة

(١) ابن عذارى البيان ج ١ ص ٥٠ ولعل ابن عذارى يقصد أنه في أيامه كان
سمى بذلك . ويذكر سيد أمير على أن المعركة التي استشهد فيها دارت في نقطة
واقعة بين تور وبواتيه واستمرت عشرة أيام . وسمى الميدان الذي جرت فيه
تلك المعركة في التاريخ العربى « بلاط الشهداء » بالنظر إلى كثرة من استشهد فيها
من مشاهير الرجال مع عبد الرحمن . وما يزال الاتقياء يعتقدون أن ملائكة
السماء يمكن أن تسمع هناك وهم تدعو المؤمنين لصلاة العروب . مختصر تاريخ
العرب ص ١٤٩ — ١٥١ .

(٢) ابن عبد الحكم فتوح مصر والمغرب ص ٢١٦ .

(٣) ابن عذارى البيان ج ١ ص ٥١ . دوز تاريخ المغرب الكبير ج ٢

ص ٢١١ .

(٤) ابن عبد الحكم فتوح ص ٢١٧ . الرقيق تاريخ أفريقية والمغرب ص ١٠٧ .

(٥) ابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ٥١ .

وما والاها ابنه اسماعيل ثم ولى بعده عمر بن عبدالله المرادى وأرسل جيشاً بقيادة حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع إلى المغرب الأقصى ولم يقابله أحد إلا ظهر عليه وفي سنة ١٢٢ هـ أرسل حبيب بن أبي عبيدة غزياً إلى صقلية فتمسكن من فرض الجزية عليها^(١).

وكان عامله على طنجة والمغرب الأقصى حامل الرعية معاملة سيئة وأراد تخميس البربر وزعم أنهم في المسلمين مما أدى إلى قيام ثورة عنيفة تزعمها ميسرة المدغرى الذى تمسكن من قتل اسماعيل بن عبيدالله الذى كان بلى أمر السوس^(٢) وذر قرن الفتنة في المغرب فقد كان ميسرة المدغرى ممن يدين بمذهب الخوارج الصفرية وادعى الخلافة وتسمى بها وكثر جمعه وأعلن استقلاله عن والى القيروان فأرسل إليه ابن الحبحاب جيشاً بقيادة خالد بن حبيب فالتقى بالبربر الذين ولوا عليهم خالد بن حميد الزناتى خليفة ميسرة ودارت معركة عنيفة أنف العرب فيها من الفرار مما أدى إلى استشهاد خالد ابن حبيب وأصحابه حيث قتل في تلك الواقعة حماة العرب وفرسانها فسميت لذلك غزوة الأشراف^(٣) وانتفض المغرب الأقصى ضد حكم القيروان. وبلغ استشهاد كرامة العرب وانتفاض المغرب على والى القيروان إلى اسمع هاشم بن عبد الملك فقال : والله لأغضبن لهم غصبة عربية ولابعثن لهم جيشاً أوله عندهم وآخره عندى ثم لا تركت حصن بربرى إلا جعلت إلى

(١) ابن عذارى البيان المغرب ١ ص ٥١ ، الرقيق تاريخ أفريقية والمغرب

ص ١٠٨ ، ١٠٩ .

(٢) انظر ابن عبد الحكم فتوح ص ٢١٧ ، ابن عذارى البيان المغرب

ص ٥٢ ، ٥٣ ، الرقيق تاريخ أفريقية ص ١٠٩ وربما كان مذهب الخوارج هو سبب الفتنة لا ظلم الولاة كما يذكر المؤرخون .

(٣) المراجع السابقة فتوح ص ٢١٧ ، الرقيق ص ١١٠ ، ١١١ ؛ البيان المغرب

جانبه خيمة قيسى أو تميمي و ثم كتب إلى ابن الحبش باب بقدمه عليه نخرج في جمادى الأولى سنة ثلاث وعشرين ومائة^(١) . متوجها إلى دمشق .

(٨) ولاية كلثوم بن عياض القشيري :

وأُسند هشام بن عبد الملك القيام بأمر أفريقية والقضاء على الثورة فيها إلى كلثوم بن عياض القشيري وأرسل معه اثني عشر ألفا من أهل الشام وأمر حكام مصر وبرقة وطرابلس بإرسال الجنود معه فوصل إلى أفريقية في رمضان سنة ١٢٣ هـ فاستخلف على القيروان عبد الرحمن بن عقبة الغفاري قاضي أفريقية وسار كلثوم بن عياض في جيشه الذي بلغ ثلاثين ألفا^(٢) بعد أن انضم إليه جند أفريقية بقيادة حبيب بن أبي عبيدة والتقوا مع ثوار البربر بقيادة خالد بن حميد الزناتي فدارت المعركة بينهما على وادي سبر بمهذب طنجة حيث انجلت عن قتل كلثوم بن عياض وحبيب بن أبي عبيدة وهزيمة العرب وقتل كثير من قادتهم وفرسانهم فانسحب بقية الجيش ولجأ بعضهم إلى الأندلس والبعض الآخر إلى القيروان^(٣) . وبعد هذه المعركة انفصل المغرب الأقصى والأوسط^(٤) عن سلطنة القيروان وأصبح

(١) انظر الرقيق تاريخ أفريقية ص ١١١ ، ابن عذارى البيان المغرب

ص ١٠٤ .

(٢) انظر ابن عذارى البيان ج ١ ص ٥٥ نقلا عن ابن القطان .

(٣) انظر ابن عبد الحكم فتوح ص ٢١٧ ، ابن عذارى البيان ج ١ ص ٥٥ .

حبيب الجنداني القيرواني عبر عصور الأزدهار ص ٤٧ ، دبور تاريخ المغرب الكبير ص ٢٦٩ .

(٤) أقسام المغرب : قسم العرب المغرب بحسب قرابة وبعده من مصر التي

يسمونها لفتحها إلى ثلاثة أقسام :

هم الولاية بعد ذلك هو المحافظة على أفريقية التي هي المغرب الأدنى وفيه مقر الولاية ومدينة القيروان .

(٩) ولاية حنظلة بن صفوان السكلي :

بعد استشهاد كاثوم بن عياض ولي هشام بن عبد الملك على أفريقية حنظلة بن صفوان السكلي فوصل إلى القيروان في شهر ربيع الأول سنة أربع وعشرين ومائة وطلب منه أهل الأندلس أن يرسل إليهم واليا فأرسل إليهم أبا الخطار بن ضرار السكلي الذي ركب البحر من تونس إلى الأندلس واليا عليها فأدوا إليه الطاعة^(١) ، ولم يمض على إقامة حنظلة بالقيروان وقت طويل حتى زحف إليه الخوارج الصفرية فالتقى بعكاشة بن أيوب الفزاري بالقرن قريبا من القيروان ودارت معركة حامية كان النصر فيها لحنظلة وفر عكاشة ثم قبض عليه فقتله حنظلة . وبعد ذلك أقبل عبد الواحد بن يزيد الهواري فنزل على ثلاثة أميال من القيروان بموضع يعرف بالأصنام وكان في جمع عظيم من البربر بلغ ثلاثمائة ألف قاصدا القضاء على السلطة في القيروان فخرج إليه حنظلة بأهل القيروان بعد أن جهزهم بكل الأسلحة العسكرية الموجودة لديه وقد بذل صفوان الأموال للمجاهدين فخرج أهل القيروان للدفاع عن مدينتهم وهم مستحميتون لحماية مدينتهم . وشارك في هذه

== أ - الأدنى : من السلوم في غرب مصر إلى بجاية ويشتمل على برقة وطرابلس وتونس وعمالة قسنطينية .

ب - وإلى مغرب أوسط : وهو من بجاية شرقا إلى وادي ملوية ويشتمل على جبال القبائل وعمالة الجزائر ووهران إلى ملوية .

ج - وإلى مغرب أقصى : من وادي ملوية إلى المحيط الأطلسي . انظر دبور

تاريخ المغرب الكبير ج ٢ ص ٢٣٨ .

(١) الرقيق تاريخ أفريقية والمغرب ص ١١٥ .

المعركة العلماء والقراء لتقوية الروح المعنوية كما شارك نساء القيروان حيث عقدن الألوية وخرجن بالسلح عازمات على القتال وممباركة الرجال في ميادين القتال وحلفن لأزواجهن أنهن لن يمتنعن أحد منهم مولىا عن العدو ليقتملنه وبذلك أقبل أهل القيروان بقيادة حنظلة على قتال العدو بروح مستميتة في طلب النصر أو الشهادة ودارت المعركة واشتد القتال وأنزل الله نصره وهزم الصفريه وولوا منهزمين وقتل عبد الواحد بن يزيد الهواري وحملت رأسه إلى حنظلة فخر الله ساجدا وبذلك حفظت القيروان من هذه الثورة العاتية . ولقد كان لهاتين الموقعتين وقع حسن في دمشق عندما علم الخليفة بالانتصار فهما وحماية القيروان من شر الأتاترين وكان اللبث بن سعد يقول : ما غزوة كنت أحب أن أشهدها بعد غزوة بدر أحب إلى من غزوة القرن والأصنام ،^(١) لما كان لهما من أثر في تاريخ الإسلام في المغرب .

ولاشك أن حنظلة قد حفظ بحسن قيادته القيروان من هذه الثورة العاتية وتلك الأعداد الهائلة التي كانت تريد اجتياحها والقضاء على أى سلطة الأمويين فيها . ولسكن في سنة سبع وعشرين ومائة ثار بته نس عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة ابن عقبة بن نافع ودعا الناس إلى نفسه فأجابوه فأقبل بمجموعه إلى القيروان طالبا من حنظلة مغادرتها وكره حنظلة سفك دماء المسلمين فغادر القيروان متجها إلى المشرق في جمادى الآخرة سنة سبع وعشرين ومائة^(٢) .

(١) انظر : الرقيق تاريخ أفريقية ص ١١٩ ، ١١٢ ، ابن الأثير الكامل ج ٥ ص ٩٠ ، ٩١ ؛ ابن عدارى البيان ج ١ ص ٥٨ ، ٥٩ ، ابن تغرى برد النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٩٤ .

(٢) ابن عبد الحكم فتوح ص ٢٢٤ ، ابن الأبار الحلة الصبراه ج ٢ ص ٣٤٢ ، مبارك الملبى الجزائر في القديم والحديث ص ٤٠ .

(١٠) ولاية عبد الرحمن بن حبيب الفهرى :

ودخل عبد الرحمن القيروان وتولى الأمر فيها وصاد هو الحاكم لأفريقية ويبدو أن الذى ساعد للفهرى فى حركته هو اضطراب أمر الخلافة فى المشرق الذى كان فرصة مكنت لعبد الرحمن من أن يظفر بشبه استقلال فى الحكم وإن كان لم يعلن انفصاله عن الخلافة فى المشرق فقد أرسل عبد الرحمن إلى مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية هدايا وعلل خروجه على حنظلة بأشياء تقولها عليه فكتب إليه مروان بولايته على أفريقية^(١) وقد استمر عبد الرحمن يحكم أفريقية عشر سنوات استطاع خلالها أن يقضى على كل الثورات التى قامت ضده وهزم كل ثائر حاول الانتفاض عليه ؛ وعندما اجتمع بتلمسان جمع كبير من البربر ساء إليهم وفض جوعهم وظفر بهم وخافه المغرب ولم ينهزم له عسكر ولا ردت له راية وقد بعث جيشا إلى صقلية وآخر إلى سردانية فانتصر على أهلها ثم صالحوه على الجزية^(٢).

ولما قامت دولة بنى العباس أرسل عبد الرحمن كتابا إلى أبى العباس السفاح أول خلفاء بنى العباس يعلن فيه طاعته فأقره السفاح على أفريقية فلما توفى السفاح وخلفه أبو جعفر المنصور أرسل إليه عبد الرحمن بهدية ومعها كتاب بين فيه قلة دخل أفريقية وإنها قد أصبحت إسلامية ويطلب ألا يسأله ماليس عنده فاستاء لذلك أبو جعفر وكتب إليه يتوعده بما حمل

(١) الرقيق تاريخ أفريقية ص ١٢٩ ، ابن عسكاري البيان ج ١ ص ٦١ ، السلاوى الاستقصا ص ٥٢ .

(٢) ابن عسكاري البيان ج ١ ص ٦١ ، ابن الأثير السكامل ج ٥ ص ١٤٨ ، ابن خلدون العبر ج ٤ ص ١٨٩ ، مبارك الميلى الجزائر فى القديم والحديث ص ٤٠ .

عبد الرحمن على خلع أبي جعفر وإعلان عدم تبعيته له ، وانتهز أخوه إلياس ذلك فثار عليه وقتله وتولى أمر أفريقية بعده وبعث بطاعته إلى المنصور مع وفد فيه عبد الرحمن بن زياد بن أنعم. قاضى أفريقية^(١) ، ولكن أفريقية لم تسكن لإلياس إذ ثار عليه حبيب بن عبد الرحمن وتمسك من القضاء عليه بعد سنة ونصف من توليه الأمر ودخل حبيب القيروان وقام بأمر أفريقية وذلك في سنة ثمان وثلاثين ومائة هجرية . إلا أن أفريقية لم تسلس قيادها له إذ أقبل عاصم بن جميل^(٢) أمير ورجومة من نفزة فهزم حبيباً ثم التقى عاصم مع خليفة حبيب على القيروان القاضي أبو كريب فقتل أبو كريب بعد أن قاتل ومن معه من أهل القيروان بكل بسالة وجسارة ودخلت ورجومة القيروان فاستحلوا المحارم واثمكوا الحرمات وولى عاصم على القيروان عبد الملك بن أبي الجعد الوريثي الذي سام أهل القيروان سوء العذاب وربطوا دوابهم في المسجد الجامع ، ثم التقى حبيب مع عاصم مرة أخرى فتمسك من قتل عاصم وأصحابه إلا أن عبد الملك بن أبي الجعد تمكن بقيماته ورجومة من قتل حبيب في شهر المحرم سنة مائة وأربعين هجرية وبذلك قضى هل أمرة عبد الرحمن بن حبيب . وعانت ورجومة في القيروان فساداً وفر كثير من أهل القيروان إلى المدن المجاورة وشاع ماحل بالقيروان

(١) الرقيق تاريخ ص ١٣٤ ، ١٣٦ ، ابن عذارى البيان ج ١ ص ٦٨ ، ابن الأثير الكامل ج ٥ ص ١٤٩ .

(٢) عاصم بن جميل الوريثي : رئيس قبيلة ورجومة البوهرية من نفزة . ادعى النبوة والسكهانة فبدل الدين وزاد في الصلاة واسقط ذكر النبي ﷺ من الأذان وقد قتله حبيب بن عبد الرحمن فقام بأمر ورجومة من بعده عبد الملك ابن أبي الجعد وهو من الخوارج الصنفية . انظر الكامل لابن الأثير ج ٥ ص ١٤٩ وابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ٧٠ .

بالأفاق . فأقبل أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمع المعافري الإباضى من طرابلس قاصدا القيروان لقتال ورجومة فالتقى معهم سنة ١٤١ هـ وهزمهم وشتت شملهم وتبعهم حتى أخرجهم من القيروان وترك على القيروان نائبا عنه عبد الرحمن بن رستم وذلك فى صفر سنة إحدى وأربعين ومائة من الهجرة (١) .

وبذلك خرجت القيروان قاعدة أفريقية عن التبعية للخلافة المركزية فى المشرق وصارت فى يد الإباضية .

(١١) ولاية محمد بن الأشعث الخزاعى :

ولذلك أرسل أبو جعفر المنصور محمد بن الأشعث الخزاعى سنة ١٤٤ هـ ليسترد القيروان من الإباضية واتسكون تابعة لمركز الخلافة خاصة بعد أن وفد على أبي جعفر المنصور رجال من أفريقية يشكون إليه ما نزل بهم من ورجومة ويستصرخونه لإنقاذ أفريقية . ولقد جهز المنصور محمد بن الأشعث بجيش بلغت عدته أربعين ألفا حيث التقى مع أبي الخطاب الإباضى الذى كان يعاضده قرابة مائتى ألف جندى عسكر بهم فى سرت منتظرا ابن الأشعث وعندما التقى الجيشان دارت معركة حامية قتل فيها أبو الخطاب وشتت جيشه وتوجه بعدها ابن الأشعث إلى القيروان التى فر منها عبد الرحمن بن رستم خليفة أبي الخطاب فدخلها ابن الأشعث فى صفر سنة ١٤٤ هـ وأقر فيها الأمن والهدوء ونشر الأمن فى أفريقية كلها وطهر ودان وزويلة من الإباضية كما قام بإحاطة القيروان بسور أنه سنة ١٤٦ هـ وذلك

(١) انظر الرقيق تاريخ أفريقية سنة ١٤١ ، ١٤٢ ، ابن الأثير الكامل

ج ٥ ص ١٥٠ ، ١٥١ ، ابن عذارى البيان ج ١ ص ٧٠ ، ٧١ ابن خلدون العبر

ج ٤ ص ١٩٠ .

لتأمين القيروان من الأعداء ولكن بعض الجند ثار عليه فغادر القيروان متوجها إلى المشرق في ربيع الأول سنة ١٤٨ هـ (١).

(١٢) ولاية الأغلب بن سالم التميمي :

وأُسند أبو جعفر المنصور ولاية أفريقية إلى الأغلب بن سالم التميمي فوصله العهد في جمادى الآخرة سنة ١٤٨ واستقامت له الأمور وهذا الجند ويذكر ابن عذاري أن المنصور أوصاه بالعدل في الرعية وحسن السيرة في الجند وتحصين مدينة القيروان وخندقها وترتيب حرسها ومن يترك فيها إذا رحل إلى عدوه وغير ذلك من أموره (٢).

وقد استقرت أمور أفريقية على يديه غير أن أبا قرّة البربري من الخوارج الهفارية جمع جيشا كثيفا من البربر لقتال الأغلب فلم ينتظره الأغلب بل سار إليه يريد فض جمعه وعندما قاربه (٣) الأغلب فر أبو قرّة وتفرق جمعه وأراد الأغلب مواصلة زحفه إلى تلمسان وطنجة إلا أن بعض قادة الجند كرهوا ذلك وجعلوا يتسالمون إلى القيروان فاستغل الحسن بن حرب السكندى (٤) ذلك وثار على الأغلب ودخل القيروان أثناء غياب

(١) انظر تاريخ اليعقوبي ص ٤٦٤ ، ابن الأثير الكامل ج ٥ ص ١٥١ ، ابن عذاري البيان ج ١ ص ٧٢ ، ٧٣ ، ابن خلدون العبر ج ٤ ص ١٩١ ، السلاوي الاستقصا ص ٥٥ ، ٥٧ .

(٢) ابن عذاري البيان المغرب ج ١ ص ٧٤ .

(٣) لم يذكر أحد من المؤرخين الذين رجعت إليهم أين اجتمع أبو قرّة ومن معه .

(٤) كان الحسن بن حرب بتونس فسكّاب جميع القراة فلحق به بعضهم وأقبل معهم إلى القيروان فدخلها . انظر البيان ابن عذاري ج ١ ص ٧٤ .

الأغلب عنها إلا أن الأغلب رجع إلى القيروان وتمكن من إخراجها منها والانتصار عليه فمارد الحسن جمع الجند وقدم إلى القيروان فخرج إليه الأغلب فقاتله وأثناء المعركة أصابه سهم فقتله وسمى الشهيد وتابع جنده المعركة حتى انتصروا على الحسن وقتلوه فولى الثائرون معه من هزمين^(١) .

(١٣) ولاية عمر بن حفص :

وبعد استشهاد الأغلب ولى المنصور على أفريقية عمر بن حفص من ولد قبيصة بن أبي صفرة أخى المهلب فقدم القيروان سنة ١٥١ هـ فحك في ولايته ثلاث سنين والأمور مستقيمة والأحوال هادئة وعندما شرع في تسوير مدينة طنبنة^(٢) ثار عليه البربر في جموع غفيرة وأعداد كثيرة يذكر المؤرخون أن منهم أباقرة في أرهمين ألفا من الصفرية ، وعبد الرحمن بن رستم في خمسة عشر ألفا من الإباضية والمسور الزناتى في عشرة آلاف من الإباضية وغيرهم من خوارج صنهاجة وزناتة وهوارة في أعداد لا تحصى وحاصروه في طنبنة فحاول عمر صرف أباقرة بتقديم الأموال إلى بعض أنصاره الذين تخلوا عنه مما اضطر أباقرة إلى لحاقه بأنصاره الذين تخلوا عنه ، ثم أرسل عمر جيشا إلى ابن رستم فمزمه حتى لحق بتيهرت ، وعاد عمر بن حفص إلى القيروان فاجتمعت عليه جموع البربر بقيادة أبى حاتم^(٣) الأباضى وضربوا الحصار حول القيروان فكان عمر يقاتلهم في كل يوم إلى

(١) انظر ابن الأثير ج ٥ ص ٢٧٨ ابن عذارى البيان ج ١ ص ٧٥ ، السلاوى الاستقصا ص ٥٧ .

(٢) طنبنة : بلدة في طرف أفريقية مما يلي المغرب على ضفة الزاب . شيت خطاب قادة فتح المغرب ج ١ ص ١١١ :

(٣) هو يعقوب بن أبيب الملقب بالملزوز الهوارى وكنيته أبو حاتم : تاريخ الفتح العربى في ليبيا طاهر الزاوى ص ١٤٣ .

أن أجده ومن معه الحصار وتفتت المؤمن فخرج للقتال فلم يزل يطعن ويضرب حتى استشهد لمنتصف من ذي القعدة سنة ١٥٤ هـ ودخلها أبو حاتم فأحرق أبواب القيروان وثلم سورها وأخرج أكثر الجند إلى الزاب^(١). وبذلك تمكن الإباضية من أن يكون لهم حكم القيروان.

(١٤) ولاية يزيد بن حاتم :

وفي سنة ١٥٥ هـ أسند أبو جعفر المنصور ولاية أفريقية إلى يزيد بن حاتم وأمدّه بجيش بلغ ستين ألفا لإعادة السلام إلى أفريقية والقضاء على الثورات فيها وطرد الإباضية من القيروان فقدمها يزيد والتقى مع أبي حاتم الإباضى في ربيع الأول سنة ١٥٥ هـ فتمسك من قتله والقضاء على جنده الثأرين معه . ويقال : « إنه كان بين الجند - أى جند العرب - والعرب من لدن قاتلهم عمر بن حفص إلى انقضاء أمرهم ثلاثمائة وخمس وسبعون وقعة » وبعد أن قضى يزيد على أبي حاتم توجه إلى القيروان فدخلها ونشر الأمن والسكينة في أفريقية وقضى على الفتن بها كما جدد بناء المسجد الجامع بالقيروان ورتب أسواقها وجعل لكل صناعة مكانا خاصا بها ومكث في ولايته خمسة عشر عاما إلى أن أدركته الوفاة في رمضان سنة سبعين ومائة هجرية في خلافة هارون الرشيد^(٢).

(١) انظر الرقيق تاريخ فتح أفريقية والمغرب ص ١٤٢ — ١٤٧ ، ابن عذارى البيان ج ١ ص ٧٥ — ٧٨ ابن الأثير الكامل ج ٥ ص ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ابن خلدون المعبر ج ٤ ص ١٩٢ ، ومنتصف ذي القعدة ذكره الرقيق وابن الأثير وابن عذارى يذكران أنه منتصف ذي الحجة .

(٢) انظر الرقيق تاريخ أفريقية ص ١٥٩ — ١٦٢ ، ابن الأثير الكامل ج ٥ ص ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ابن خلدون المعبر ج ٤ ص ١٩٣ ، ابن عذارى البيان =

وقام بأمر أفريقية بعد وفاة يزيد بن حاتم ابنه داود الذي استخلفه أبوه في مرضه فقام بأمر أفريقية ورد الثوار الذين حاولوا الخروج عليه من الإباضية في جمان باجة وغيرها .

(١٥) ولاية روح بن حاتم :

ثم قدم روح بن حاتم من قبضة من المهلب واليا على أفريقية من قبل الرشيد سنة ١٧١ هـ ويذكر الرقيق أنه رغب في مواعدة عبد الوهاب بن رستم الأباضي صاحب تهرت فوادعه^(١) . وكانت البلاد هادئة في أيامه والأمن منتشرا في ربوعها والطرق آمنة وظل واليا على إفريقية مقيما في القيروان عاصمتها إلى أن أدركه الوفاة في رمضان سنة ١٧٤ حيث دفن إلى جوار أخيه يزيد بن حاتم^(٢) .

(٦) ولاية نصر بن حبيب المهلبى :

وأُسند الرشيد أمر أفريقية بعد روح بن حاتم إلى نصر بن حبيب المهلبى الذى تولى أمرها فى آخر رمضان سنة ١٧٤ هـ فقام بتسيير شئون أفريقية خير قيام وذلك لحسن سيرته وعدله فى أحكامه ولم تقم بأفريقية فن فى أيام حكمه . إلا أن الرشيد عزله فى بداية سنة ١٧٧ هـ

== ج ١ ص ٨٠ ، ٨١ ويذكر ابن عذارى أنه توفى سنة ١٧١ هـ ، الاستقصا للسلاوى ص ٥٨ ، تاريخ اليعقوبى ص ٤٦٥ .

(١) ويعتبر هذا عمل سياسى هام من روح وأن كان فيه الاعتراف بانفصال تاهرت الإباضية عن سلطنة الخلافة .

(٢) انظر الرقيق تاريخ أفريقية والمغرب ص ١٧١ - ١٧٣ ، الكامل لابن الأثير ج ١ ص ٤٦ ، ابن خلدون العبر ج ٤ ص ١٩٣ ؛ ابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ٨٤ .

(١٧) ولاية الفضل بن روح :

وقد ولي الرشيد الفضل بن روح بن حاتم أمير أفريقية فقدم القيروان في محرم سنة ٧٧ هـ وقد استبشر الناس بقدوم الفضل ونصبت له القباب من مسجد أم الأمير إلى دار الإمارة كما يقول الرقيق . إلا أن واليه على تونس - وكان ابن أخيه - أساء إلى الجند فيها مما جعلهم ينقمون عليه بالإضافة إلى ما كان يتسم به الفضل من استبداد برأيه دون أخذ رأى قادة الجند ، مما دعا . الجند في تونس إلى الثورة على واليه وإخراجه من تونس وقدم الجند الثائرون بعد ذلك إلى القيروان فاستولوا عليها بقيادة عبدالله بن الجارود - ويعرف بعبدويه الأنباري - الذي قتل الفضل بن روح في شعبان سنة ١٧٨ هـ

(١٨) ولاية هرثمة بن أعين :

وقد غضب الرشيد لقتل الفضل وأرسل هرثمة بن أعين واليا على أفريقية ليقوم بإصلاح أمرها فدخل القيروان في ربيع الأول سنة ١٧٩ هـ وتمسك من القضاء على الفتنة ونشر الأمن والسكينة بين الناس وأعطى جند طرابلس أرواقهم المتأخر إعطاؤها لهم ، وأرسل ابن الجارود الخارج على الفضل إلى الرشيد ، وينسب إلى هرثمة بن أعين أنه بنى القصر الكبير بالمستير لسنة من قدومه إلى القيروان ، وبني كذلك السور على طرابلس مما يلي البحر . وقد ثار عليه عياض ابن وهب الهواري وكليب بن جميع الكلبي^(١) فتمسك من القضاء عليهم بما بقيادة يحيى بن موسى . وقد أدرك هرثمة كثرة الثورات بأفريقية وشدة الخلاف فيها مما عاه إلى أن يطلب من الرشيد إعفائه من حكم ولاية إفريقية فاستعفاء الرشيد فخرج من أفريقية في رمضان سنة ١٨١ هـ فكانت ولايته سنتين ونصفا .

(١) ابن خلدون عبر ج ٤ ص ١٩٤ .

(١٩) ولاية محمد بن مقاتل للعكس :

وقد ولي الرشيد مكانه محمد بن مقاتل العكي الذي قدم القيروان في شهر رمضان سنة ١٨١ هـ ويقول المؤرخون عنه إنه كان سيء السيرة ضعيف الرأي مما أدى إلى اضطراب الأمور واختلاف الجند عليه . وقد ارتكب خطأ واضحا بضربه البهلول بن راشد عابد زمانه ظلما وعدوانا وحبسه له مما تسبب عنه موت البهلول . كما اقتطع من أرزاق الجند واساء معاملاتهم ومعاملة الرعية ،^(١) وقد أدى ذلك إلى قيام بعض الجند بثورة ضده تزعمها تمام بن تميم التميمي عاماله على تونس الذي التقى بابن العكي خارج القيروان فانهزم ابن العكي ولجأ إلى القيروان . وتمكن تمام من دخول القيروان وأمن ابن العكي الذي خرج إلى طرابلس وليكن ابراهيم بن الأغلب العامل على الزاب غضب لاختراج ابن العكي وقدم إلى القيروان مما جعل تماما يغادرها فدخل ابراهيم القيروان واستدعى ابن العكي ليكون الحاكم فيها حسب عهد أمير المؤمنين إلا أن الرعية والجند كرهوا عودة ابن العكي ويذكر الرقيق أن الرجل كان يقوم في الجماعة فيقول « قد كنا استرحنا من ابن العكي فجاء ابراهيم ، فغلب على الثغر وردده فالموت خير من الحياة في سلطان ابن العكي ،^(٢) مما جعل كثيرا من الناس يلجأ إلى تمام الذي حاول أن يزيل الوئام بين ابراهيم وابن العكي إلا أن هذه الواقعة لم تلق أدنا صاغية . فاقبل تمام من تونس فالتقى معه ابراهيم بن الأغلب فمزماه فغضى تمام إلى تونس حيث لحق به ابراهيم بن الأغلب مستهل المحرم سنة ١٨٤ فاستأمن له تمام فأمنه وأقبل به إلى القيروان يوم الجمعة لثمان خلون من

(١) الرقيق تاريخ أفريقية ص ٢٠٥ .

(٢) الرقيق تاريخ أفريقية ص ٢٠٧ .

المحرم سنة ١٨٤ هـ . وقد استشار الرشيد خاصته — بعد أن بلغه سوء تصرف ابن العمى — فيمن يصلح لولاية إفريقية فأشير عليه بتولية إبراهيم ابن الأغلب فكتب إليه عمده في جمادى الآخرة سنة ١٨٤ هـ ليقوم بأمر إفريقية (١).

وبولاية إبراهيم بن الأغلب إفريقية تبدأ صفحة جديدة في حياة إفريقية وازدهارها حيث يبدأ حكم الأسرة الأغلبية التي استمرت في الحكم أكثر من قرن من الزمن .

تلك هي الصورة التي نرى عليها الوضع السياسي في إفريقية في هذه الفترة من حكم ولاية بنى أمية وبنى العباس ونلاحظ فيها كثرة الولاة وعزل بعضهم عند اسناد الخلافة إلى خليفة جديد . مما أدى إلى عدم الاستقرار . يضاف إلى ذلك كثرة الثورات التي قام بها الخوارج من الصفورية والاباضية أو الزعماء الثائرون من العرب وقد تمكن بعضهم أحيانا من فرض سلطته على إفريقية إلا أن سلطانهم كان لا يدوم طويلا ليقتطع الخلافة وحرصها على تبعية إفريقية لها . فكانت الخلافة في دمشق وبغداد تتابع إرسال الجيوش إليها لتقضى على الثائرين وتسترد إفريقية من قبضتهم .

والذى يبدو لى أن الثورات التي كان يتزعمها قواد من العرب إنما كان يقوم بها الوصول إلى مركز السلطة والجلوس على كرسي الإمارة . أما الثورات التي كان يقوم بها البربر وخاصة الصفورية فيظهر فيها ميلهم إلى أن

(١) انظر تاريخ إفريقية للرفيق ص ١٨٢ — ٢٠٩ ، ابن الأثير الكامل

ج ٢ ص ٥٤ — ٥٦ ، العبر لابن خلدون ج ٤ ص ١٩٣ — ١٩٥ ، ابن هنادى البيان المغرب ج ١ ص ٨٥ — ٩١ ، تاريخ اليعقوبى ص ٤٩٦ : الهجوم الزهري لابن تغرى بردى ج ٢ ص ٨٨ — ٩٠ ، ١١٠ ، الاستقصا للسلاوى ص ٥٩ ، ٦٠ .

يكون لهم الاستقلال عن مركز الخلافة وتسيير أمور بلادهم . واقد كان الصفرية يقدسون في معاملتهم المسلمين ويشتطون في مذهبهم . . . أما الأباضية فإن ما يظهر من معاملتهم لأهل القيروان أثناء تغلبهم عليها يدل على انقيادهم لتعاليم الدين وعدم انتهاك الحرمات وإن كانوا خارجين على سلطان الخليفة ولا يعرفون به .

ولاشك أن هذه الثورات الكثيرة ذات الأهداف المتعددة كان لها تأثير قوى في الحياة العسكرية في القيروان ، سوف يظهر جليا عند دراستنا للحياة العسكرية خاصة من الناحية العقائدية . كما يبدو جليا لنا اهتمام العباسيين باسترجاع القيروان وذلك بإرسال كبار رجال دولتهم ذوي الخبرة السياسية والقدرة العسكرية والحنكة الإدارية ليقوموا بحكم امارة افريقية من أمثال محمد بن الأشعث وعمر بن حفص ويزيد بن حاتم وروح بن حاتم . وذلك خشية أن تنفصل امارة افريقية عن التبعية للخلافة ، كما أنهم لم يولوا عليها أحدا من أهلها خشية محاولته الاستقلال بها . ولقد حدث هذا الاستقلال عند تولية إبراهيم بن الأغلب رأس أسرة الأغالبة . ولاشك أن كثرة تعداد الجيوش التي جاءت مع الولاة من المشرق كانت عبئا ثقيلا على ولاية افريقية مما جعلنا نقرأ في المصادر عن الأمانة المالية من ولاية مصر إلى افريقية وإن كان تتابع هذه الجيوش على افريقية قد ساعد على تعريب البلاد وسيادة اللغة العربية فيها .

الفصل الثالث

عصر الأغالة

١ - قيام دولة الأغالة

نحاول هنا الإجابة على هذا السؤال وهو كيف تم قيام هذه الدولة ومن هو مؤسسها ؟ .

وللإجابة على هذا السؤال علينا أن نغوص في أصفاء المراجع لنرى كيف استطاع مؤسس هذه الدولة أن يظهر على مسرح الأحداث لكي يصل إلى أن يؤسس هذه الإمارة وينفرد بامارتها وأن يورثها لبلية من بعده لأسبابها وهو لم يقتسب إلى بيت ملك يطالب به ولا إلى مذهب ديني مخالف يدعو إليه أو يتوسل به إلى الإمارة حتى يستطيع أن يظفر بالولاية على تونس .
والبلاذري يروي لنا طرفا من حياة إبراهيم بن الأغلب قبل ظهوره على مسرح الأحداث في المغرب بما يوضح بعض جوانب شخصية هذا الرجل يقول (١) :

وكان إبراهيم بن الأغلب من وجوه جند مصر . فوثب واثنا عشر رجلا معه فأخذوا من بيت المال مقدار أرزاقهم لم يزدادوا على ذلك شيئا وهربوا فاحقوا بموضع يقال له الزاب وهو من القيروان على مسيرة أكثر من عشرة أيام وحامل الثغر يومئذ من قبل الرشيد هارون هرثمة بن أعين ، واعتقد إبراهيم ابن الأغلب على من كان من تلك الناحية من الجند

(١) فتوح البلدان للبلاذري ص ٢٧٦ .

وغيرهم الرئاسة واقبل يهدى إلى هزيمة ويلطفه ويكتب إليه يعلمه أنه لم يهرج بدا من طاعة ولا اشتعل على معصية وأنه إنما دعاه إلى ما كان منه الأحواج والضرورة ، فولاه هرثمة ناحيته واستكفاه أمرها ، فلما صرف هرثمة من الثغر وليه بعده ابن المعكى .

ومن هذا النص نستطيع أن نفهم عدة أمور عن شخصية هذا الرجل منها أنه كان من وجوه جند مصر ، وأنه لم يستكن لقطع رزقه أوراتبه مع وجود المال في خزينة الولاية في مصر ، كما أنه عندما عدا على بيت المال لم يأخذ إلا بمقدار حقه فقط ولم يسلب حق الدولة أو حق غيره مع استطاعته أن يفعل ذلك . ثم هروبه إلى الزاب مع رفاقه العشرة واستطاعته أن يصل إلى الرئاسة على رفاقه وغيرهم من الجند والمواطنين في تلك الناحية ، ثم ميله إلى الدبلوماسية السياسية مع الوالى على تونس بتقديم الهدايا إليه وملاحظته وإخباره بأنه مازال يقدم فرض الطاعة للخلافة ويعتذر عن أخذ حقه بالقوة بأنها الحاجة والضرورة ، ولاشك أن هذا تصوير رائع يكشف عن الشخصية القيادية والسياسية لهذا الرجل وعما يتمتع به من ذكاء وحكمة .

ولذلك كانت النتيجة أن ولاه هرثمة ناحيته واستكفاه أمرها . وذلك هو قدره الذى سوف تلقى عليه الحوادث ليقوم به في مستقبل أيامه .

وقد ذكر ابن عذارى^(١) صفات إبراهيم ورأى عالم من علماء عصره فيه فقال كان إبراهيم بن الأغلب فقيها أديبا شاعرا خطيبا ذارأى وفهدة وبأس وحزم وعلم بالحروب ومكائدها جرى الجنان طويل اللسان لم تر أفريقية أحسن سيرة ولا سياسة ولا أداف بالرعية ولا أوفى بعهد ولا أرفع بهرمة منه فطاعت له قبائل البربر وتمهدت أفريقية في أيامه وعزل

(١) البيان المغرب في أخبار المغرب ص ٨٣ ، ٨٤ ج ١

للحكى عنها واستقامت الأحوال فيها ، وكان إبراهيم قد سمع من الليث بن سعد ووهب له جلاجل أم ولد ؛ لمكانه منه ولقد قال الليث يوما ليكونن لهذا الفتى شأن .

ومن هذا النص أيضا نلاحظ ثقافة إبراهيم الدينية والأدبية وخبرائه الحربية والعسكرية ونجارته الإدارية والسياسية وقدرته على قيادة الجماهير الشعبية أو الفرق العسكرية فهو رب سيف وقلم وصاحب علم بالدين والدنيا وقدره على اجتذاب من حوله إليه .

وأنا لا أحب المبالغة في الصفات الشخصية لفرد من الأفراد ولكن لا نستطيع إلا أن نفهم ذلك من تحليل النصوص التي أمامنا .

كما يؤيد ذلك ما سبق أن ذكرته من أنه لم يكن يطالب بحق مخصوب أو ملك مفقود أو داعية لمذهب من المذاهب وإنما هي الكفاية الشخصية والامتنان الذاتي وقديما هتف الشاعر :

نفس عصام سودت عصاما وعلمته الكرم والأقدام
ومع ذلك فانا آخذ عليه ما ذكره ابن خلدون^(١) من أنه كان يتخذ الدس والخديعة والأغتيال وسيلة للقضاء على انصار الدولة المجاورة له وهي دولة الإدارة إلا إذا عددنا ذلك من المكاييد السياسية وذلك ربما تبيحه السياسة التي لا تستند إلى دين ولكن في رجل دين كما يصفه المؤرخون فلا شك أن ذلك مما يؤخذ عليه .

هذا هو إبراهيم كما تتصوره فكيف استطاع أن يصل إلى تولى إمارة الولاية والاستقلال بها وتأسيس إمارة ودائية ؟ .

(١) كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر لابن خلدون ص ١٩٦ ج ٤

فقد تم ذلك عندما كان إبراهيم بن الأغلب حاملا على الزاب وطبنة فلما قدم هرثمة بن أعين إلى القيروان سنة سبع وسبعين ومائة هاداه إبراهيم ولطفه فعقد له على عمله فقام بأمره وحسن أثره . ثم لما تولى محمد بن مقاتل أمر أفريقية من قبل هارون الرشيد بعد هرثمة سنة إحدى وثمانين ومائة خرج عليه تمام بن تميم التميمي سنة ثلاث وثمانين واجتمع إليه الناس وسار إلى القيروان فخرج إليه محمد بن مقاتل ولقيه فأنزله وداره وسار محمد إلى طرابلس وبلغ الخبر إلى إبراهيم ابن الأغلب بمكانه من الزاب فانتفضر لمحمد وسار بمجموعة إلى القيروان واستقدم محمد بن مقاتل من طرابلس وأعادته إلى إمارته بالقيروان آخر سنة ثلاث وثمانين ومائة وزحف تمام لفتاها فخرج إليه إبراهيم بن الأغلب بأصحابه فوزمه وسار في اتباعه إلى تونس واستأمن له تمام فأمنه وجاء به إلى القيروان وبعث به إلى بغداد فاعتقله الرشيد .

يقول ابن الأثير^(١) ولما استقر الأمر لمحمد بن مقاتل ببلاد أفريقية وأطاعه تمام كره أهل البلاد ذلك وحملوا إبراهيم بن الأغلب على أن كتب إلى الرشيد يطلب منه ولاية أفريقية فكتب إليه في ذلك وكان على ديار مصر كل سنة مائة ألف دينار تحمل إلى أفريقية معونة فنزل إبراهيم عن ذلك وبذل أن يحمل كل سنة أربعين ألف دينار فأحضر الرشيد ثقاته واستشارهم فيمن يوليه أفريقية وذكر لهم كراهة أهلها ولاية محمد بن مقاتل فأشار هرثمة بإبراهيم ابن الأغلب وذكر للرشيد ما رآه من عقله ودينه وكفايته وأنه قام بحفظ أفريقية على ابن مقاتل فولاه الرشيد في المحرم سنة أربع وثمانين ومائة فانقمع الشر وضبط الأمر وسير تماما وكل من يتوئب على الولاية إلى الرشيد فسكنت البلاد .

(١) الكامل لابن الأثير ج ٦ ص ٥٦

وهنا نلاحظ عدة ملاحظات منها ١ — كراهية أهل البلاد لمحمد بن مقاتل وحملهم إبراهيم على أن يكتب إلى الرشيد بطلب ولاية أفريقية .

٢ — تنازل إبراهيم عن المعونة التي تحمل إلى لأفريقية ودفعه هو لأربعين ألف دينار .

٣ — ذكر هزيمة لصفقات إبراهيم ثم ما قام به في حفظ الولاية على محمد ابن مقاتل .

٤ — صدر مرسوم الولاية في المحرم سنة أربع وثمانين ومائة .

٥ — سيادة الأمن والسكينة .

هذا ما ذكره ابن الأثير نتيجة لتولى إبراهيم أمر أفريقية لأننا نرى يحيى الدين التميمي المراكشي^(١) يذكر أن الاغلبية هم الذين استبدوا بملك أفريقية وكأنه لم يصدر لهم مرسوم بولاية أفريقية يقول^(٢) : « وهي كانت أعنى القبروان دار ملك المسلمين بأفريقية منذ الفتح لم يزل الخلفاء من بني أمية وبني العباس يولون عليها الأمراء من قبلهم إلى أن اضطرب أمر بني العباس واستبدت الاغلبية بملك أفريقية بعض الاستبداد وهم بنو أغلب بن محمد بن إبراهيم ابن أغلب التميميون فأتخذوا القبروان دار ملكهم فلم يزالوا يها إلى أن أخرجهم عنها بنو عبيد وملكوها . »

بينما يذكر الدكتور سليمان محمود شروطا تتفق مع ابن الأثير في بيان رغبة الأهالي في تولية إبراهيم وتختلف في بيان المال المدفوع ويزيد عليها ذكره لجعل الولاية وراثية في ابنائه يقول :

(١) المعجب في تلخيص أخبار المغرب لحبي الدين التميمي المراكشي ص ٢٠٠

(٢) المعجب في تلخيص أخبار المغرب لحبي الدين التميمي المراكشي ص ٢٠٠

ولي^(١) الخليفة هارون الرشيد إبراهيم بن الأغلب على أفريقية بناء على رغبة الأهالي وكان إبراهيم في هذا الوقت واليا على الزاب من قبل الرشيد ولكن إبراهيم قبل هذا التعيين بعد أن أقر الرشيد شروطه وهي تلخص فيما يلي .

- ١ — أن يستقل بإدارة شؤون أفريقية الداخلية عن الخليفة .
- ٢ — أن يتولى إمارة أفريقية ذريته من بعده أى أن تكون وراثية في بيته .

٣ — ألا يدفع أى الرشيد - الأمانة السنوية التي كانت تدفعها مصر لأفريقية وقدرها مائة ألف دينار وإنما يدفع إبراهيم بدلا منها أربعين ألف دينار للخليفة .

ويتفق الدكتور حسن إبراهيم حسن مع ابن الأثير في طلب إبراهيم للولاية وفي مقدار المال المدفوع والمتنازل عنه وكذلك في تاريخ توليته على أفريقية يقول د^(٢) وقد طلب إبراهيم بن الأغلب وكان يلى بعض نواحي الزاب إلى الرشيد أن يولية أفريقية على أن ينزل عن المطالبة بما كانت ترسله إليها مصر من الأموال التي اعتادت أن ترسلها إليها في كل سنة ومقدارها مائة ألف دينار كما تعهد بأن يرسل إلى بيت المال في بغداد أربعين ديناراً وأشار هرثمة بن أعين على الرشيد بتولية إبراهيم ابن الأغلب هذه البلاد لما رآه من عقله وكفايته فولاه الرشيد إياها في شهر المحرم سنة ١٨٤ هـ وما ذكره ابن خلدون يؤيدهم في طلب الولاية ومقدار المال يقول (٣)

فكتب إبراهيم إلى الرشيد في ذلك على أن يترك المائة ألف دينار التي كانت

(١) ليبيا بين الماضي والحاضر ص ١٣٢ الألف كتاب .

(٢) تاريخ الإسلام السياسي ج ٢ ص ١٧٧ — ١٧٨

(٣) كتاب أمير لابن خلدون ج ٤ ص ١٨٨

من مصر إلى أفريقية وعلى أن يحمل هو من أفريقية أربعين ألفا وباغ الرشيد غداؤه في ذلك واستشار فيه أصحابه فأشار هرثمة بولايته فكتب إليه بالعهدة إلى أفريقية منتصف أربع وثمانين .

وابن أبي^(١) دينار يتردد في تاريخ تعيينه حين يقول « ومنهم إبراهيم ابن الأغلب كان سنة أربع وثمانين ومائة من قبل هارون الرشيد وقبل خمس وثمانين .

ويقول ابن عذارى^(٢) وصلة عهد الرشيد في العشر الوسط لجماهير الأخرى من سنة أربع وثمانين ومائة .

ومن هذا العرض لأقوال المؤرخين نرى أن :

١ — ابن الأثير وابن خلدون وحسن إبراهيم يتفقون على طلب إبراهيم الولاية ويزيد ابن الأثير وحسن سليمان محمود أن ذلك بناء على رغبة الأهالي .

٢ — يتفق ابن الأثير وابن خلدون وحسن إبراهيم على مقدار المال المدفوع والمتنازل عنه بينما يخطيء فيما يدفع من المال حسن سليمان محمود .

٣ — يتفق ابن الأثير وحسن إبراهيم على شهر المحرم سنة ١٨٤ هـ بداية لتوليته الإمارة ويتردد ابن أبي دينار بين أربع وثمانين وخمس وثمانين ومائة .

أما ابن عذارى فيظهر في روايته الدقة حيث يقول وصلة عهد الرشيد

(١) المؤرخ في أخبار أفريقية وتونس لابن أبي دينار .

(٢) البيان المغرب في أخبار المغرب لابن عذارى ج ٢ ص ١٧٧ — ١٧٨ .

في العشر الأوسط لجمادى الآخرة من سنة ١٨٤ هـ وابن خلدون يقول
فكتب إليه بالعهد إلى أفريقية منتصف أربع وثمانين .

٤ — ينفرد حسن سليمان محمود بذكر أن تكون الولاية وراثية في
أسرته هذا ما يتفق ويختلف فيه المؤرخون القدامى والمحدثون والذي يظهر
لي أن مسألة المال قد جاوز الصواب فيما حسن سليمان محمود حيث لم يوافق
أحد من القدامى والمحدثين من المؤرخين وإن كان قد انفرد بذكر
وراثة الولاية .

أما تاريخ التولية فالذي تستنتجه أن الولاية أسندت إليه في المحرم
سنة ١٨٤ هـ أما وصول المرسوم إليه فكان في جمادى الآخرة سنة ١٨٤ هـ
كما حدده ابن عذارى .

وهذه الأقوال المختلفة تبين كيف تم لإبراهيم الوصول إلى الإمارة
لكن يستقل بإمارة أفريقية بعد ذلك .
ولكن لماذا تم ذلك ؟

وبهذه الصورة هل نفهم من ذلك أن إبراهيم قد اشترى ولاية المال
الذي كان بارعا في عرضه حين أخذ يغري الخليفة بالمال من ناحيتين :
الأولى أنه يتنازل عما كان يأخذه الوالي على أفريقية من مصر وقدره
مائة ألف دينار الثانية أنه سوف يدفع للخليفة أربعين ألفا وبذلك يكون
الخليفة قد كسب بتولية إبراهيم بن الأهلبي على أفريقية مائة وأربعين ألفا
دينار ، ويبدو لي أن هناك أسبابا عدة لتولية إبراهيم بن الأغلب نذكرها
فيما يلي :

(أ) فلاحظك أن المال كان أحد الدوافع إلى قبول الخليفة أن يولي
الإمارة إلا أننا لا نستطيع أن نهمل العوامل الأخرى .

(ب) فالشهادة والنجدة وسيرته الحسنة واهتمامه بأن يقاتل من خرج على والى الخليفة حتى يعود الأمر إلى الوالى من قبـل الخليفة من المرشحات لتوايته .

(ج) كذلك كراهية أهل البلاد لمحمد بن مقاتل وحبهم لإبراهيم ويبدو لى أنهم مع طلبهم من إبراهيم أن يكتب إلى الخليفة فى ذلك فد كتبوا هم بضاً إلى الخليفة وإن لم يذكر أحد من المؤرخين ذلك إلا أن ابن خلدون يروى حادثة ذات مغزى وهى أنهم كانوا يحاولون أن يكون لهم شأن فيمن يولى عليهم وذلك فى مطلع القرن الثانى فقد ذكر^(١) ، أنهم قتلوا وإليهم يزيد بن أبى مسلم مولى الحجاج . . . ثم رجوعهم إلى محمد بن يزيد مولى من الأندلس الذى كان عليهم قبل اسماعيل بن المهاجر وكتبوا إلى يزيد بن عبد الملك بالطاعة والعذر عن قتل ابن أبى مسلم فأجابهم بالرضا وأقر محمد بن يزيد على عمله ، وهذا يؤيد ما أذهب إليه من أنهم كتبوا إلى الخليفة يقترحون ترشيح أو تولية إبراهيم ابن الأغلب عليهم .

(د) كذلك لا نستطيع أن نهمل حالة البلاد وانتشار الفن والثورات فيها وعجز الوالى السابق عن التغلب عليها ثم كفاءة إبراهيم وما أظهره من نشاط فى التغلب على المصاعب وذلك بدون أن يكف الدولة أن يتحرك جيشها المركزى مسيرة سبعة أشهر ، وفى ذلك إرهاب لا يجش وكثرة النفقات .

(هـ) كما نلاحظ أنه أراد أن يجعل إبراهيم بن الأغلب بصمته والياً مستقلاً وبما يتمتع به من كفاية قادراً على أن يحافظ على إمارته من أعداء

(١) كتاب الأمير لابن خلدون ج ٤ ص ١٨٨

الدولة المحيطين به والذين يمثّلون في دولة الإدارة والرسميين والأمويين في الأندلس .

(و) كما أن بعد المغرب عن مركز الخلافة في المشرق الذي يتكوّن منه الجيش الخاص للدولة وما يتكلفه إرسال الجيش من النفقات والمشقات التي تقابلها والتي قد تكون سببا في هزيمته كانت أيضا من العوامل التي مهدت لإبراهيم لكي يظفر بأن يعطى استقلالاً عن مركز الخلافة .

بعد ذلك اسأل لماذا أعطى له حق الوراثة ؟

ولاشك أن إعطاء حق الوراثة بهذه العمولة سابقة خطيرة أقل نتائجها أن يطلب بعمل كل وال الاستقلال بعد ذلك وأن تكون الولاية وراثية في أبنائه أو أن يعمل هو على الاستقلال وجعل الولاية وراثية . إلا أنه يبدو لي أن الرشيد بعد أن رأى استقلال الأطراف في الأندلس والمغرب الأقصى رأى أن يحجب هذا النوع من الاستقلال الذي يكون تابعا للخلافة ومقرا بها ويرفع عليها ويدعى فيه لمركز الخلافة وتتداول فيه مراسيمها كما أنه يحفظ جسم الخلافة من الانقسام التام الذي لا يدترف فيه بأى تبعية لمركز الخلافة كما أن هذه الدولة المستقلة التابعة لمركز الخلافة تكون حائزا وحصنا بين الأجزاء المنفصلة انفصالا تاما وبين جسم الخلافة التابع تبعية كاملة لمركزها .

أقول ذلك مع أنني لم أر من المؤرخين المتقدمين من يتحدث عن طالع إبراهيم أن يكون الحكم وراثيا في أسرته ولم يشر إليه إلا الدكتور حسن سليمان محمود في كتابه^(١) وبين أن ذلك كان من شروط إبراهيم لقبول

(١) ليبيا بن الماضي والحاضر دكتور حسن سليمان محمود ص ١٣٢

الإمارة كما يقول ابن خلدون وتوارثها بنوه خالفوا عن سالف^(١).

وإذا كانت الوراثة جاءت تابعة لأخذ الإماره وأنه هو الذى عمل على أن تكون الإمارة لأسرته فيظهر هنا شخصية البطل فى جعلها وراثية كما أنه من الممكن أنه بدأ بمرکز الخلافة بعد أن رأت تثبيت إبراهيم الأمن والسكينة ونشاطه فى رفع شأن إمارته مع قيامه بالدور الذى كانت ترجوه منه من الوقوف فى وجه الإمارات المنفصلة . قد جعلها تميل إلى أن تجعلها وراثية فى أسرته لكي تستفيد من خبرة هذه الأسرة القوية التى ظهرت على مسرح الحوادث .

يقول دكتور السيد عبد العزيز سالم^(٢) : ولما توفى إبراهيم بن الأغلب بالقيروان سنة ١٩٦ هـ ٨١٢ م خلفه ابنه أبو العباس عبدالله بن إبراهيم وكان عائلاً وقت وفاة أبيه بمدينة طرابلس فقام له أخوه زيادة الله بالامر وأخذ له البيعة على نفسه وعلى أهل بيته وجميع رجاله وبعث إليه بذلك وهكذا استحدث مبدأ الوراثة فى هذه الولاية لأول مرة . . . ولما قتل الخليفة الأمين بن الرشيد سنة ١٩٨ هـ على يدى ابن طاهر عامل المأمون واستخلف أخوه المأمون أقر عبدالله بن الأغلب على أفريقيا . .

ويفهم من قوله وهكذا استحدث مبدأ الوراثة أن هذا المبدأ لم ينص عليه عند تولية إبراهيم بينما يذكر آخرون أنه نص عليه . ويسكت عن ذلك بعض المؤرخين والذى يظهر — بناء على طلب إبراهيم الولاية ثم هرضه التنازل عن المال المدفوع لولايته ودفعة أربعين ألفاً زيادة على ذلك

(١) العبد لابن خلدون ج ٦ ص ١١٣

(٢) المغرب الإسلامى دكتور السيد عبد العزيز سالم ج ١ ص ٩٣

ولعدم ذكر المؤرخين الأقدمين شيئا عن وراثة الحكم كما أن وضع إبراهيم لم يكن موضع من يفرض شروطا للوراثة وإنما يطلب الولاية فقط — أن الوراثة لم ينص عليها في تولية إبراهيم ولكنها جاءت نتيجة الترتيب إبراهيم بعد ذلك أمور ولايته وإسناده الأمر من بعده لأحد أبنائه .

إبراهيم يثيت أركان دولته :

لاشك أن ما امتاز به إبراهيم بن الأغلب من الشجاعة ورجاحة العقل قد أدى إلى رقي في حالة البلاد وانتشار للأمن وزيادة في دخل الدولة مما ساعد على بناء عاصمة جديدة لإمارته بجوار القيروان والانتقال إليها يقول ابن خلدون^(١) «فقام إبراهيم بالولاية وضبط الأمور وسكنت البلاد بولاية ابن الأغلب وابتنى مدينة العباسية قرب القيروان وانتقل إليها بجملته ، وكذلك أدى زيادة دخل الدولة إلى مساعدته للانفاق على الحروب التي قام بها ضد الخارجين على ولايته ولتثبيت أركان دولته وكان يتألف جند الخارجين عليه بالمال مما يدل على فنى الدولة في عهده يقول ابن خلدون فيمن خرج على ابنه الذي ولاه على طرابلس^(٢) وبذل العطاء وأتاه البربر من كل ناحية وزحف إلى طرابلس فمزم جندها ودخل المدينة ، ويقول حسن إبراهيم^(٣) ولما آلت إلى إبراهيم مقاليد الحكم في أفريقية ضبط أمورها وبنى في سنة ١٨٥ هـ مدينة على بعد ثلاثة أميال من القيروان سماها العباسية ونقل إليها أهله وعبيده وأهل

(١) كتاب المعبر ج ٤ ص ١٩٦ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) تاريخ الإسلام السياسي ج ٢ ص ١٧٨

ثقتة ويظهر أنه اتخذ هذه التسمية لإظهار ولائه للخليفة العباسي والاعتراف
بسلطان الدولة العباسية عليه .

ورغم اهتمام إبراهيم بحالة البلاد والعمل على رقيها ونسكين الأمن
فيها ونشر السلام بين ريوها إلا أنه قامت بالبلاد ثورات في تونس وفي
طرابلس ثم محاولته هو الوقوف وجهه توسع دولة الإدارة في المغرب
وخوفه من الانتقاص من ولايته .

ففي تونس سنة ١٨٦ خرج عليه حمديس وهو من العرب النازلين
بمدينة تونس^(١) أو نزع السواد كما يسميه ابن خلدون^(٢) فأرسل إليه ابن
الأغلب جيها بقيادة عمران بن مخلدا كما يقول د . حسن إبراهيم أو بجالد
كما يقول ابن خلدون فانتصر عليه وقتل عشرة آلاف من الخارجين معه .

وفي سنة ١٩٥ هـ خرج عليه بتونس أيضا عمران بن بجالد الربيعي
ووافقه على الخروج قريش بن التونس وكثرت جموعهما وسار عمران إلى
القيروان فلما كانا وقدم عليه قريش من تونس فاعتصم إبراهيم بالعباسية
وحصر خندقا حولها فحاصروه سنة كاملة وكانت بينه وبينهم حروب ظفر
إبراهيم بن الأغلب في نهايتها وقد ساعد الرشيد ابن الأغلب في حصاره
بالمال الذي استطاع به أن يجذب إليه جند عمران بما أدى إلى أن يترك
عمران حصاره ويلحق بالزاب يقول ابن خلدون د ثم بعث الرشيد إلى
إبراهيم بالمال فنأدى في الناس بالعطاء ولحق به أصحاب عمران وانهتقض أمره
ولحق بالزاب فأقام به إلى أن توفي بن الأغلب^(٣) أما في طرابلس فقد

(١) حسن إبراهيم الإسلام السياسي ج ٢ ص ١٧٨

(٢) ابن خلدون العبر ج ٤ ص ١٩٦

(٣) المرجع السابق .

حدث فيها فتنة سنة ١٨٩ فأخرج أهلها عامل بن الأغلب سفيان بن المهاجر من داره وطار دوه إلى المسجد وقتلوا أصحابه فيه ثم آمنوه على أن يخرج من طرابلس نخرج سفيان لشهر من ولايته وولوا عليهم إبراهيم بن سفيان التميمي فأرسل إليهم ابن الأغلب جيشا هزمهم ودخل طرابلس وقبض على مشيرى الفتنة وأرسلهم إليه ولكنه عفا عنهم .

واستقرت الأمور في طرابلس إلى سنة ١٩٦ هـ فثارت من جديد يقول ابن خلدون^(١) بعث إبراهيم على طرابلس ابنه عبدالله سنة ست وتسعين فثار عليه الجند وحاصروه بداره ثم آمنوه على أن يخرج عنهم فخرج واجتمع إليه الناس وبذل العطاء وأتاه البربر من كل ناحية وزحف إلى طرابلس فهزم جندها ودخل المدينة ثم عزله أبوه وولى سفيان بن المضاء فثارت هواردة بطرابلس وهجموا على الجند فلهقوا بإبراهيم ابن الأغلب وأعاد معهم ابنه عبدالله في ثلاثة عشر ألفا من العساكر ففتك بهواردة واثخن فيهم وجدد سور طرابلس وبلغ الخبر إلى عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم فجمع البربر وجاء إلى طرابلس فحاصرها وسد عبد الوهاب باب زناتة وكان يقاتل من باب هواردة ثم جاءه (أى عبدالله) الخبر بوفاة أبيه فصالحهم على أن يكون البلد والبحر لعبدالله وأعمالها لعبد الوهاب وساد إلى القيروان وكانت وفاة إبراهيم في شوال سنة ست وتسعين .

تلك هي الحروب التي استعمل فيها السيف وجيش فيما الجيوش أما بالنسبة لدولة الإدارة في المغرب فقد ملك فيها طريقة أخرى غير الجيوش الظاهرة والسيوف المسلحة بل سلك إلى التغلب عليها طريق الدس

(١) العبر لابن خلدون ج ٤ ص ١٩٧

والأموال والهدايا يبعث بها إلى أنصار الأدارسة فيحول بعضهم عن دعوة الأدارسة إلى دعوة العباسيين وبعضهم يعمل أن يأتي برأسه إليه يقول ابن خلدون في موقعة من دعوة الأدارسة (١) ثم صرف همه إلى تهديد المغرب الأقصى وقد ظهر فيه دعوة العلوية إدريس ابن عبد الله وتوفي ونصب البربر ابنه الأصغر وقام مولاه راشد بكفالاته وكبر إدريس واستفحل أمره راشد فلم يزل إبراهيم يدس إلى العرب ويسير فيهم الأموال حتى قتل راشد وسبق رأسه ثم قام بأمر إدريس بعده بهلول بن عبد الرحمن المظفر من رموس العرب فاستفحل أمره فلم يزل إبراهيم يتلطفه ويستميله بالكتب والهدايا إلى أن انحرف عن دعوة الأدارسة إلى دعوة العباسية فصالحه إدريس وكتب إليه يستعطفه بقرابته من رسول الله ﷺ فكف عنه . .

فابن خلدون هنا يوضح الطرق التي لجأ إليها إبراهيم بن الأغلب في موقفه من دولة الأدارسة وأنه اتخذ المال والهدايا والدرس وسيلة إلى القضاء على بعض أنصار دولة الأدارسة أو استمالة بعضهم إليه حتى تركوا دعوة الأدارسة وتحولوا إلى الدعوة العباسية .

وإذا كنا قد تحدثنا عن أسباب قيام هذه الدولة وعمما قام به مؤسسها منذ قيامها إلى وفاته ، فمن الممكن أن نسأل ثانيا .

هل تحقق في عهد إبراهيم ابن الأغلب الأغراض التي ذكرناها في أسباب قيامها ؟

وفي عرضنا الموجز السابق ما يدل على أن إبراهيم قد أدى الدور المطلوب منه خير أداء نفعل ذلك بدون محاباة ، فند استطاع أن يسكن

(١) المرجع السابق ج ٤ ص ١٩٦

الفتن ويقضى على الثورات كما منع الأداة من الإغارة على دولته وأدى لمركز الخلافة المال الذي تعهد بحمله إلى بغداد ثم كفى الدولة مؤنة إرسال جيش وتحمل نفقاته كما يتحدث المؤرخون عن إندهار الحياة الاقتصادية والثقافية والعمرانية في أيامه مما يدل عليه بناؤه لمدينة جديدة وتكوينه لجيش يحمي به أمارته . ولا نتكلم هنا عن توسع رقعة الدولة مما لم يكن يحلم به الرشيد عندما أسند الإمارة إلى إبراهيم والذي قد تحقق بعد ذلك على يد ابنه زياد الله واستمر أحفاده يوسعون رقعة دولته مما سوف نعرض له بعد حين .

٢ - أمراء دولة الأغلبية

- ١ - إبراهيم الأول ١٨٤ هـ ٨٠٠ م
- ٢ - عبد الله الأول ١٩٦ هـ ٨١١ م
- ٣ - زيادة الله الأول ٢٠١ هـ ٨١٦ م
- ٤ - أبو عقاب الأغلب ٢٢٣ هـ ٨٢٧ م
- ٥ - محمد الأول أبو العباسي ٢٢٦ هـ ٨٤٠ م
- ٦ - أحمد ٢٤٢ هـ ٨٥٦ م
- ٧ - زيادة الله الثاني ٢٤٩ هـ ٨٦٣ م
- ٨ - محمد الثاني ٢٥٠ هـ ٨٦٤ م
- ٩ - إبراهيم الثاني ٢٦١ هـ ٨٧٤ م
- ١٠ - عبد الله الثاني ٢٨٩ هـ ٩٠٢ م
- ١١ - زيادة الله الثالث ٢٩٠ هـ ٩٠٣ م
- ٢٩٦ هـ ٩٠٩ م^(١)

إذا ألقينا نظرة على فترة حكم ولاية هذه الدولة التي بلغ عدد حكامها أحد عشر أميراً نجد أن اثنين منهم حكم كل منهما سنة واحدة بينما أربعة آخرون حكم كل منهم فترة أقل من عشر سنوات واثنان حكم أحدهما إحدى عشرة سنة ومؤسسها حكم اثنا عشرة سنة بينما حكم محمد الأول ست عشرة سنة وزيادة الله الأول قرابة اثنين وعشرين سنة وإبراهيم الثاني ثمانية وعشرين سنة .

(١) تاريخ الإسلام السياسي حسن إبراهيم حسن ج ٢ ص ١٧٦

ومع اننى لا انظر إلى الحاكم بمقدار السنوات التى يعيشها وإنما بمقدار ما انجزه من أعمال إلا اننى أرى أن طول فترة حكم الحاكم لابد أن تحدث تغيرات خاصة فى الشعب وفى الدولة .

ولذلك أؤثر بعد أن تحدثت عن مؤسس الدولة أن أتحدث عن زيادة الله الأول ومحمد الأول وإبراهيم الثانى ، أما بقية الأمراء فسوف أشير إليهم عرضاً أما زيادة الله الأخير الذى خنمت به الدولة وانتهت به حياتها فسوف أتحدث عنه فى سقوط هذه الدولة كما تحدثت عن المؤسس فى قيامها .

١ - زيادة الله الأول :

بعد وفاة إبراهيم بن الأغلب مؤسس الدولة تولى بعده ابنه عبد الله الذى استمر فى الحكم خمسة أعوام ولم يحدث فى أيامه فتن لأن أباه قد مهد له الأمر ولما تولى عبد الله تولى الأمر بعده أخوه زيادة الله وقد استطاع زيادة الله أن يظهر استقلال الدولة عن مركز الخلافة وأن كانت تابعة لها ولكن لا نرغم على شيء لا ترضاه فقد أراد المأمون أن تدعو الدولة لعبد الله بن طاهر على منابرها ولكن ذلك لم يرق للأغلبة وعرضوا المأمون بالتحويل عن العباسيين إلى دعوة الإدارة يقول ابن خلدون (١) وجاءه (أى زيادة الله) التقليد من قبل المأمون وكتب إليه يأمره بالدعاء لعبد الله بن طاهر على منابر فغضب من ذلك وبعث مع الرسول بدنانير من مملكة الإدارة يعرض له بتحويل الدعوة ، وكان زيادة الله من أطول الأغلبة عهداً بالحكم كما حدث فى عهده قيام بعض الثورات ومحاولة فتح جزيرة سردينية وفتح جزيرة صقلية فى البحر المتوسط وسوف نعرض لذلك فى فتوح هذه الدولة . وقد قضى زيادة الله الست سنوات الأولى من عهده

(١) كتاب العبر لابن خلدون ج ٤ ص ١٩٧

آمنّا مطمئنا حتى وقعت بين زيادة الله وبين الجند الحروب واستوزر اخاه
الأغلب وهاجت الفتن واستولى كل رئيس بالناحية التي يحكمها حتى كادت
أفريقية أن تخرج عن طاعته .

وقد قام في عهده ثورات كادت تؤدي بالدولة حتى لم يبق معه من أفريقية
سنة ٢٠٩ هـ إلا قابس والساحل ونفزاوة وطرابلس^(١) .

وأول هذه الثورات كان سنة ٢٠٧ هـ حيث ثار زيادة بن سهل بن الصقلية
على زيادة الله بن الأغلب وزحف إلى باجة فحاصرها أياما فخرج إليه زيادة
الله العساكر فمزموا ابن الصقلية وقتلوا من وجدوا معه على الخلاف
وخنقوا الأموال .

وبعد ذلك بعث إليه أحد عماله عمرو بن معاوية القيسي فأرسل
إليه جيشا كثيفا استطاع أن يحصره إلى أن سلم وكان ذلك سنة ٢٠٨ هـ^(٢) .

وفي سنة ٢٠٩ هـ انتفض عليه منصور الطنبذي بطبنة وسار إلى تونس
فلما كان العامل عليها اسماعيل بن سفيان وسفيان أخو الأغلب فقتله
لتستخلص له طاعة الجند وسرح زيادة الله العساكر من القيروان مع غلبون
ابن عمه ووزيره وتهدهم بالقتل أن انهمزوا فمزمهم منصور وخشوا على
أنفسهم ففارقوا الوزير غلبون وافترقوا على أفريقية واستولوا على باجة
والجزيرة وصطفورة والاريس وغيرها واضطربت أفريقية ثم اجتمعوا
إلى منصور وسار بهم إلى القيروان فلما حاصرها زيادة الله في العباسية
أربعين يوما وعمر سور القيروان الذي خربه إبراهيم بن الأغلب فكانت

(١) تاريخ الإسلام السيامي دكتور حسن إبراهيم حسن ج ٢ ص ١٨١

(٢) البيان المشرى في أخبار المغرب لابن عذارى ج ٢ ص ١٨٠ .

بينه وبين زيادة الله وقائع كثيرة ودامت الحرب بين منصور وبين زيادة الله أربعين يوما ثم التقت الفئتان فاقتتلوا قتالا شديدا فانهمزم منصور وولى هاربا منتصف جمادى الآخرة وانتهى زيادة الله إلى القيروان فأمر برفع القتال وتمادى منصور في هزيمته إلى أن دخل قصره بتونس والناس لا يشعرون وعفا زيادة الله عن أهل القيروان وصفح عن جميعهم غير أنه جعل عقوبتهم هدم سور القيروان حتى الصقة بالأرض^(١).

ولم تنته هذه الفتن بهزيمة منصور الطنبزى وانشغال الدولة بفتح صقلية كما سيأتى بل انتفض فضل بن أبي العين بجزيرة شريك سنة ثمان عشرة ومائتين فسار إليه عبد السلام بن المفرج الربيعى وجاءت عساكر زيادة الله فقاتلوهما وقتل عبد السلام وانهمزم فضل إلى مدينة تونس وامتنع بها وحاصره العساكر حتى اقتحموها عليه وقتلوا كثيرا من أهلها وهرب آخرون حتى أمنهم زيادة الله وهكذا مكنت يقظة زيادة الله واحكامه لسياسته من أن يقضى على من خولت له نفسه أن ينشق على الدولة أو يحاول الانتفاض عليها وإن يبسط سلطان الدولة فى كل أرجائها مع عدم اغفاله للجوانب الأخرى العمرانية والاجتماعية والقضائية وكذلك الحربية بتعبئة الجيش والاسطول لغزو صقلية يقول ابن عذارى مصورا عناية زيادة الله بالشئون العمرانية والتحصين الحربى^(٢) «وكان زيادة الله يقول ما أبالى ما قدمت عليه يوم القيامة وفى صحيفتى أربع حسنات بنيانى المسجد الجامع بالقيروان وبنيانى قنطرة ابى الربيع وبنيانى حصن مدينة سوسة وتولييتى احمد بن ابى محرز قاضى افريقية».

(١) ١ - أظن كتاب العبر لابن خلدون ج ٤ ص ١٩٧ ، ١٩٨ .

ب - البيان المغرب فى أخبار المغرب لابن عذارى ج ١ ص ٧٠ - ٩٣

(٢) البيان المغرب فى أخبار المغرب ص ٩٩ ج ١

واستمر زيادة الله في القيام بواجبات الدولة حتى أدركته الوفاة منتصف سنة ثلاث وعشرين ومائتين لأحدى وعشرين سنة ونصف من ولايته .

خلف زيادة الله أخوه الأغلب الذي حكم ثلاث سنين أحسن فيها السيرة واجزل العطاء للعالم كما قبض أيديهم عن الرعية وقطع النبيذ من القيروان وعاقب على بيعه وشربه وقضى على فتنة قامت بها قبائل لواتة ومكناسة وزواغة من البربر .

٢ — محمد الأول :

ثم ولي بعد الأغلب ابنه أبو العباس محمد الأول ٢٢٦ — ٢٤٢ الذي استمر في الحكم حوالي ستة عشر عاما ودانت له أفريقية وشيد مدينة بقرب تاهرت سماها العباسية وذلك سنة سبع وعشرين ومائتين ^(١) .

هذا ما يذكر ابن خلدون في اسم المدينة وتاريخ بنائها ولما سكن البلاذري يذكر لتاريخ بنائها سنة تسع وثلاثين ومائتين كما يوضح أنها غير العباسية التي بناها إبراهيم ابن الأغلب جده فيقول ^(٢) وكان محمد بن الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب أحدث في سنة تسع وثلاثين ومائتين مدينة بقرب تاهرت سماها العباسية أيضا فآخريها افلح بن عبد الوهاب الأباضي وكتب إلى الأموي صاحب الأندلس يعليه ذلك تقريرا إليه به فبعث إليه الأموي مائة ألف درهم ،

ومع ذلك فقد قامت ثورة لأغتصاب الأمانة منه ولكنه تمكن من أن يقضى عليها وأن يمسك بمقاليد الحكم . كما نشر الأمن والسكينة وقضى

(١) كتاب العبر لابن خلدون ج ٤ ص ٢٠٠

(٢) فتوح البلدان القسم الأول ص ٢٧٨

على من حاول أن يهبط في الأرض فساداً وبذلك تمكن من استمرار حركة الفتح والجهاد في صقلية وأن يمد الجيش الإسلامى فيها بما يحتاجه من عدة وسلاح .

وفى سنة ٢٤٢ هـ توفى أبو العباسى محمد بن الأغلب صاحب أفريقية لليلتين خلتا من المحرم فكانت ولايته ١٥ سنة ٨ أشهر ١٢ يوماً ومات وعمره ٢٩ سنة (١) .

٣ - ومن سنة ٢٤٢ إلى سنة ٢٦١ تولى الحكم ثلاثة أمراء (٢) .

(١) أحمد بن محمد بن الأغلب واستمر في الحكم ست سنوات وكان حسن السيرة كثير العطاء للجند مولعاً بالعمارة فقد بنى بأفريقية نحو عشرة آلاف حصن بالحجارة واتخذ العبيد جنداً وفي أيامه فتحت قصريانه من مدن صقلية في شوال سنة ٢٤٤ هـ . يقول ابن عذارى وفي سنة ٢٤٥ هـ أخرج صاحب أفريقية أبو إبراهيم بن الأغلب مالا كثيراً لحفر المراجلى وبنيان المساجد والقناطر كما كمل بناء ماجل باب تونس الكبير وتمت الزيادة في جامع القيروان وكمل إصلاح قنطرة باب أبي الربيع .

(ب) ثم ولى بعده ابنه زيادة الله الأصغر وكان حسن السيرة جميل الأفعال ذا رأى ونجدة وجود وشجاعة ولم تطل مدة ولايته فكانت سنة واحدة وسبعة أيام .

(ج) ولما توفى زيادة الله تولى بعده أخوه محمد بن أحمد بن محمد بن

(١) البيان المغرب في أخبار المغرب لابن عذارى ج ١ ص ١٠١

(٢) أنظر ١ - كتاب العرب لابن خلدون ج ٤ ص ٢٠٠ - ٢٠٢

ب - البيان المغرب في أخبار المغرب لابن عذارى ج ١ ص ١٠٥ - ١٠٨

الأغلب ويلقب بأبي الغرائيق لأنه كان يهوى صيدها حتى بنى قصراً يخرج إليه لاصيدها أنفق عليه ثلاثين ألف مثقال من الذهب وكان مسرفاً في العطاء مع حسن سيرة في الرعية ثم غلب عليه اللهو والشراب ولم تسكن له همّة في جمع المال فلما مات لم يجد أخوه في بيت المال شيئاً يذكر وفي عهده فتحت جزيرة مالطة سنة خمس وخمسين ومائتين وتغلب الروم على مواضع من جزيرة صقلية وبنى حصوناً ومخاريس على ساحل البحر بالمغرب على مسيرة خمسة عشر يوماً من برقة إلى جهة المغرب وفي سنة ٢٦٠ هـ كانت المجاعة بالمشرق والمغرب والوباء والطاعون وتوفي سنة ٢٦١ هـ فكانت ولايته عشر سنين وخمسة أشهر .

٤ - إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب ٢٦١ - ٢٨٩ هـ (١) .

قبل أن يتوفى أبو الغرائيق عقد لابنه أبي عقاب العهد وكان صغيراً واستخلف أخاه إبراهيم بن أحمد وكان والياً على القيروان إلا ينازعه في ملكه - بخمسين يمينا - وأشهد عليه آل الأغلب ومشايخ القيروان وأمره أن يتولى الأمر ويكون نائباً عنه إلى أن يكبر ولده فلما مات أبو الغرائيق أتى أهل القيروان إلى إبراهيم وهو الوالي على القيروان وقالوا له قم فادخل القصر فأنت الأمير وكان إبراهيم قد أحسن السيرة فيهم فقال لهم قد علمتم أن أخى قد عقد البيعة لابنائه واستخلفني خمسين يمينا إلا أنازع ولده ولا أدخل قصره فقالوا له نكون أميراً في دارك بالقصر القديم ولا تنازع ولده فنحن كارهون لولايته ومبايعون لك وليس في أعناقنا له بيعة فركب

(١) انظر ١ - الكامل لابن الأثير ج ٧ ص ١٠١

ب - البيان المغرب لابن عذاري ص ١٠٩ - ١٢٥

ج - كتاب الدهر لابن خلدون ج ٤ ص ٢٠٣

من القيروان ومعه أكثر أهلها فحاربوا أهل القصر حتى دخل إبراهيم داره فبايعه مشايخ أهل أفريقية ووجوهها وبايعه جماعة بنى الأغلب وبأشر الأمور وأقام فيها قياماً مرضياً وكان عادلاً حازماً في أموره فنشر الأمن في البلاد وقتل أهل البغى والفساد وكان يجلس للعدل في جامع القيروان يوم الخميس والإثنين يسمع شكوى الخصوم ويصبر عليهم وينصف بينهم .

ومن هنا ندرك أن إبراهيم كان متمسكاً بوعد أخيه وإن كان أهل القيروان ووجوهها حملوه على تولي الإمارة لما لمسوه من صلاحها ، كما نلاحظ تدخل أهل القيروان ومشايخها وأهل الرأي من سكانها في تنصيب الوالى وإن كان إختياره من بين أفراد الأسرة الحاكمة .

وقد اهتم إبراهيم بالناحية التجارية والعمرانية فسكان تجار القوافل يسهرون في الطرق آمنين كما بنى الحصون والمخارس على ساحل البحر حتى كانت النار توقد في ساحل سبته للندير بالعدو فيصل إبقادها إلى الإسكندرية في الليلة الواحدة وبنى على سوسة سوراً وفي سنة ٢٦٣ هـ إبتدأ إبراهيم بن أحمد بن الأغلب ببناء مدينة رقادة وفي السنة التالية كمل بناء القصر المعروف بالفتح وانتقل إليه وقد غير مقر الإمارة في سنة ٢٨١ حيث انتقل إلى تونس وأقام بها القصور واستوطنها .

ورغم هذه الإصلاحات الاقتصادية والعمرانية وما اتصف به إبراهيم من عدالة وإنصاف فقد قامت بعض الفتن والثورات في عهده وفي عهده خالفت وزداجة ومنعوا الرهن وفعلت مثل ذلك هوارة ثم لوالة وقتلت ابن قهر ب في حروبهم فسر ح إليهم إبراهيم ابنه عبيد الله في العساكر سنة تسع وستين فأئخن فيهم وفي سنة ثمانين كثر الخوارج وفرق العساكر إليهم فاستقاموا .

كما حدثت فتنة في صقلية سنة ٢٨٥ بين عربها وبربرها فأرسل ابن الأغلب^(١) كتابا يدعوهم فيه إلى الطاعة ويؤمنهم أجمعين ماعدا أربعة رجال ويختلف المؤرخون في الحكم على إبراهيم فنجده ابن خلدون راويا عن ابن الرقيق يقول^(٢) : « وفي سنة ثمان وثمانين جاء رسول المعتضد بعزل الأمير إبراهيم لشكوى أهل تونس له فاستقدم - أي إبراهيم - ابنه أبا العباس من صقلية وارتحل هو وإليها مظهر لغربة الانتجاع هكذا قال ابن الرقيق وذكر أنه كان جائرا ظلوما سفاكا للدماء وأنه أصابه آخر عمره ما يخوريا أسرف بسببها في القتل فقتل من خدمه ونسائه وبناته مالا يحصى وقتل ابنه أبا الأغلب لظن ظنه به وافتقد ذات يوم منديلا لشربه فقتل بسببه ثلثائة خادم . »

ويقول ابن عذارى في نهاية حكمه^(٣) أنه في سنة ٢٨٩ أظهر صاحب أفريقية إبراهيم بن أحمد التوبة لما استقام أمر أبي عبد الله الداعي بكتامة فأراد إبراهيم بن أحمد أن يرضى العامة ويستميل قلوب الخاصة بفعله فرد المظالم وأسقط القيالات وأخذ العشر ضعافا وترك لأهل الضياع خراج سنة وسماها سنة العدل واعتق مالميسكه وأعطى فقهاء القيروان ووجوه أهلها أموالا عظيمة لتفرق في الأضعفاء والمساكين فاستوكلت وأعطيت لمن لا يستحقها وأنفقت في اللذات وصرفت في الشهوات وقدم ولده أبو العباس من صقلية مستدعى فأسلم إليه أبوه الملك فولى أبو العباس على الكور من أحب أما ابن الأثير فيذكر شيئا آخر يقول^(٤) : « وعزم - أي إبراهيم -

(١) البيان المغرب في أخبار المغرب لابن عذارى ج ١ ص ١٢٤

(٢) ابن خلدون العبر ج ٤ ص ٢٠٣

(٣) البيان المغرب في أخبار المغرب لابن عذارى ج ٢ ص ١٢٥

(٤) الكامل لابن الأثير ج ٧ ص ١٠١

على الحج فرد المظالم وأظهر الذهب والنسك وعلم أنه إن حمل طريقه إلى مكة على مصر منعه صاحبها أن طولون فتجرب بينهم ما حرب فيقتل المسلمون فجعل طريقه على جزيرة صقلية ليجمع بين الحج والجهاد ويفتح ما بقي من حصونها فأخرج جميع ما ادخره من المال والسلاح وغير ذلك وسار إلى سوسة فدخلها وعليه فرو مرقع في زى الزهاد أول سنة تسع وثمانين ومائتين وسار منها في الأسطول إلى صقلية وسار إلى مدينة برطون فلما كان سلخ رجب وأظهر العدل وأحسن إلى الرعية وسار إلى طبرمين فاستعد أهلها لقتاله فلما وصل خرجوا إليه والتقوا فقرأ القارىء إنا فتحنا لك فتحا مبينا فقال الأمير اقرأ هذان خصمان اختصموا في ربه فقرأ فقال اللهم إني اختصم أنا والكفار إليك في هذا اليوم وحمل معه أهل البصائر فهزم الكفار وقتلهم المسلمون كيف شاءوا ودخلوا معهم المدينة عنوة فركب بعض من بها من الروم مراكب فهربوا فيها والنجاء بعضهم إلى الحصن وأحاط بهم المسلمون وقتلوه فاستنزلوهم قهرا وغنموا أموالهم وسبوا ذراريهم وذلك لسبع بقين من شعبان وأمر بقتل المقاومة وبيع السبي والغنيمة ولما اتصل الخبر بفتح طبرمين إلى ملك الروم عظم عليه وبقي سبعة أيام لا يلبس التاج وقال لا يلبس التاج محزون وتحركت الروم وعزموا على المسير إلى صقلية لمنعها من المسلمين فبلغهم أنه سائر إلى القسطنطينية فترك الملك بها عسكرا عظيما وسير جيشا كبيرا إلى صقلية أما الأمير إبراهيم فإنه لما ملك طبرمين بث سرايا في مدن صقلية التي بيد الروم وبعث سرية إلى ميقش وسرية إلى دمنش فوجدوا أهلها قد أجلوا عنها فغنموا ما وجدوا بها وبعث طائفة إلى رمطة وطائفة إلى الباج فأذعن القوم جميعا إلى أداء الجزية فلم يحببهم إلى ذلك ولم يقبل منهم غير تسليم الحصون فمعلوا فهدمها وسار إلى كسنته في ربه الرسل منها يطلبون الأمان فلم يحببهم وكان قد ابتدأ به المرض وهو علة الذر فزاد المصاكر على المدينة فلم يجدوا في قتالها

لقبيلة الأمير عنهم فإنه نزل منفردا لشدة مرضه وامتنع منه النوم وحدث به الفواق وتوفي ليلة السبت لثلاثي عشرة ليلة بقت من ذي القعدة سنة تسع وثمانين ومائتين ، وكان عاقلا حسن السيرة محبا للخير تصدق بجميع ما يملك ويرفق أملاكه جميعها وكان له فضة عظيمة باظهار خفايا العملات .

هذه هي آراء المؤرخين القدامى في نهاية إبراهيم ولاشك أن ما روي ابن خلدون عن ابن الرقيق فيه كثير من التجني على إبراهيم ومجاوزة للحد في وصفه بالملوسة وفي اسرافه في سفك الدماء فإن خلدون يروي ذلك بما يدل على عدم تصديقه لهذه الأحداث التي يذكرها فيقول هكذا ذكر ابن الرقيق مع موافقتهم جميعا على حروجه إلى صقلية وابلائه بلاء حسنا في القتال إلى آخر أيامه

وإن كان ابن عذارى يشير إلى عودته إلى الاستقامة بعد ظهور أبي عبد الله الشيعي واستفحال أمره بكتامة وإسكته لم يتوجه بالحرب إلى عبد الله إيمانه وإنما يذهب إلى صقلية لكي يقود الجهاد والفتح ثم يهلل ابن الأثير ذلك بأنه كان قد أزمع على الحج ولكن حجاً لاتراق فيه دماء المسلمين وذلك حين يصطدم بان طولون في مصر فجعل طريقه يجمع ثوابين ثواب الحج وثواب الجهاد ولست أدري ماذا كان سيحدث ، لو طالت حياة إبراهيم هل كان سيذهب إلى مكة للحج عن طريق صقلية كما فعل ذلك ابن جبير أم أنه كان سيكتفي بالجهاد والمرابطة في سبيل الله ؟ على أني لا أستسيغ كتاب المعتضد بعزل الأمير إبراهيم مع قيام الدولة الطولونية بينة وبين إبراهيم وما كان المعتضد يتقادر على عزله وأن كان يستطيع أن يحدث له بعض المشاكل كما يشي عليه ابن الأثير بكمال العقل وحسن السيرة ووجه الخير ليس هذا فقط بل يذكر حذقه في معرفة النقود وتمييزه بين المغشوش منها والناقي .

وقد توفي إبراهيم في صقلية سنة تسع وثمانين لثمان وعشرين سنة من
امارته وكان عمره تسعا وخمسين سنة واتفق ابن خلدون وابن عذارى على
دفنه بصقلية ولكن ابن الأثير يقول إنه حمل إلى القيروان فدفن بها .

وقد قام بالأمر بعد إبراهيم ابنه أبو العباس عبد الله بن إبراهيم ابن
أحمد^(١) وعظم أمره وكتب إلى العمال ليأخذوا له البيعة وبشرهم بالعدل
والرفق والجهاد وجالس أهل العلم وشاورهم وكان لا يركب إلا إلى الجامع
واعتقل ابنه زيادة الله لما بلغه من اعتكافه على اللذات واللغو وأنه يروم
التوثب عليه وكان أبو العباس حسن السيرة عادلا بصيرا بالحروب وكانت
أيامه صالحة وكان نزوله بتونس ، وقد صانع زيادة الله بعض الخدم على قتل
أبيه فقتل نائما بعد سنة من ولايته في شعبان سنة تسعين ومائتين .

ولما قتل عبد الله أطلق زيادة الله من الاعتقال واجتمع أهل الدولة
وباعوا له فقتل الذين قتلوا أباه وأقبل على اللذات واللغو ومعاشرة المضحكين
وأهمل أمور الملاح .

وقوى أمر ابن عبد الله الشيعي فانتقل زيادة الله إلى رقادة ليلا وأخذ
عبد الله الشيعي القنائم يدعو الفاطميين يستولى على المدن واحدة بعد أخرى
وكثر الإرجاف بالقيروان ففتح زيادة الله ديوان العطاء وأجمع الخروج
فخرج إلى الأربس سنة خمس وتسعين ثم أخذ عبد الله الشيعي يوالى الاستيلاء
على المدن حتى وصل إلى قودة . فحمل زيادة الله أمواله وأثقاله وخلق

(١) أنظر ١ - السكامل لابن الأثير ج ٨ ص ٧

ب - كتاب المعبر لابن خلدون ج ٤ ص ٢٠٥

ج - البيان المغرب في أخبار المغرب لابن عذارى ج ١ ص ١٢٨ - ١٢٩

بطرابلس معتزما على الشرق وأقام بطرابلس سبعة عشر يوما انصرف بعدها إلى مصر فمنعه عاملها النوشري من دخولها فأقام بظاهر البلد ثمانية أيام وانصرف إلى ابن القرات وزير المقتدر يستأذن له في الدخول فاتاه كتاب المقتدر بالرجوع إلى أفريقية وأمر النوشري بإمداده بالرجال والمال لاسترجاع الدعوة بأفريقية ووصل إلى مصر فأصابته بها علة مزمنة وسقط شعره ويقال إنه سم وخرج إلى بيت المقدس فتوفي بالرملة سنة ٣٠٣ هـ ودفن بها وانتهت بمراته دولة الأغالبة بعد أن حكمت مائة واثنى عشرة سنة .

٣ - فتوحات دولة الأغالبة

بعد أن ثبتت أركان دولة الأغالبة واستقر سلطانها انجذبت إلى توسيع رقعتها ولكنها لم تتجه إلى داخل أفريقية حيث تحدها الصحراء من الجنوب ولا إلى الشرق أو الغرب حيث تقوم أمارات أو ولايات مسلمة وإن كانت قد حصنت نفسها من هؤلاء الجيران غير أن الشمال كان يغير عليها ويقلق بالها وكان في ذلك فرصة لها لكي توسع أملاكها .

أهمية موقع صقلية :

والذي تقع في شمال دولة الأغالبة هو البحر المتوسط وأقرب الشواطئ فيه هي جزيرة صقلية وإيطاليا التابئين للروم ، وإيطاليا وصقلية وشمال تونس تقسم البحر المتوسط إلى حوضين / الحوض الشرقي وهو ما بين هذه الأقاليم الثلاثة ومواحل الشام وآسيا الصغرى والحوض الغربي وهو ما بين تلك الثلاثة وشبه جزيرة أيبيريا - أسبانيا

والحوض الغربي بإبان : الأول مضيق جبل طارق ويفصل أوروبا - أسبانيا - عن أفريقية بمقدار ٢٩ كيلو مترا والباب الثاني مضيق صقلية

الذى يفصلها عن شمال تونس ويبلغ اتساعه ١٣١ كيلو مترا ومن خصائص هذين البابين أن الدولة التي تسيطر على الضفة أحدهما لا بد أن تحاول الاستيلاء على الضفة الأخرى .

وقد فطن الفينيقيون إلى ذلك فاستولوا على مضيق جبل طارق في القرن الحادى عشر قبل الميلاد واستولى الرومان على أسبانيا نحو سنة ٢٠٢ ق م ثم أخذوا جزءا من بلاد المغرب في عهد أغسطس قيصر (٣٠ ق م) وبلغ من شدة ارتباط الضفتين أن كانت ممتلكاتهم في أسبانيا وفي المغرب بمثابة مستعمرة واحدة ، ولما ملك الوندال أسبانيا بعد الرومان أمتد نفوذهم منها إلى شمال المغرب وبلغ حتى تونس فتخطوا منها إلى صقلية وإيطاليا وأصبحوا سادة الحوض الغربى تقريبا ، ولما جاء القوط عن طريق جنوب فرنسا وغزوا أسبانيا ضغطوا على الوندال جنوبا ثم جاءت دولة الروم الشرقية — فيما بعد — فانزعوا المغرب من الوندال كما أملاكوا ما لهم في جنوب أسبانيا غير أن نفوذهم تقلص بعد ذلك فهد القوط سيادتهم على باقى أسبانيا وتخطوا المضيق واستولوا من جانبه الآخر على مدينة سبته .

وأما مضيق صقلية ، فقد ملكته دولة قرطاجنة بالسيطرة على صقلية وهى دولة فينيقية الأصل نشأت فى ما يعرف الآن بتونس وانشأت مدينة قرطاجنة عاصمة لها وسيطرت على صقلية والمغرب وشواطئ أسبانيا . وانشأوا فى أسبانيا أيضا مدينة قرطاجنة الجديدة ، واستمرت على ذلك حتى ظهرت الدولة الرومانية فى روما وشملت أملاكها إيطاليا ثم تطالعت إلى صقلية وشمال إفريقيا فأخذت تنارع قرطاجنة على أملاكها وكانت بين الفريقين حروب تعرف بالحروب البونية ، وكانت أولى هذه الحروب سنة ٢٤٠ ق م وفيها انتزعت منها صقلية وآخر هذه الحروب كان سنة ١٤٦ م وفيها قضى الرومان على دولة قرطاجنة واستمدت جزيرة صقلية بفضل هذا الموقع

كل معونة من الولايات البيزنطية الأخرى البعيدة عن متناول المسلمين في الفترة المبكرة من فتوحاتهم وغدت المعقل الذي يمكنه الصمود تماماً أمام الزحف الإسلامي كما مكنت الروم من سهولة إستعادة إفريقيا من العرب أثناء الفتح. (١)

حالة المجتمع الصقلي

إن جذور المجتمع الصقلي تستمد من العصر البيزنطي الذي بدأ في الجزيرة حينما استولى بلزاريه سر قائد جستنيان على الجزيرة من يد القوط سنة ٥٣٥ م ليخلصها من حكم القوط وظلت تخضع للبيزنطيين حتى كانت أحداث الفتح الإسلامي.

وأول ما يلاحظ في طبيعة تكوين المجتمع الصقلي قبل الفتح أن الجزيرة بحكم موقعها الجغرافي كانت في مهب الهجرات والإغارات فلم تكن سب طامعاً عنصرياً متحداً إنما كانت تعاني من البعثة العنصرية والتفكك الاجتماعي ولم يستطع الحكم البيزنطي أن يعطي الجزيرة إستقرارها الاجتماعي المنشود رغم أن هذا الحكم إستمر نحو ثلاثة قرون بل ضاعفوا عوامل التفكك فيها فقد إعتمدوا على جلب البرابرة وإشراكهم في الجيش وفتحوا باب الهجرة أمام المغامرين من السوريين واليهود يتدفقون إليها وبقية من فيها.

(١) انظر أ - الأمويون ، والبيزنطيون د . إبراهيم أحمد نعمة ص ٩٧

ب - تاريخ الاندلس السياسي والعمراني والاجتماعي د . علي محمد حمودة

وثمة ملاحظة أخرى على المجتمع الصقلي قبل الفتح وهي أن البيزنطيين اعتمدوا في الإنتاج الاقتصادي على جماعات من العبيد يستقدمون للجزيرة بأعداد وفيرة كما أن كثيرين من الفلاحين الأحرار كانوا يختارون حياة العبيد بسبب فداحة الضرائب وثقل الأعباء الاقتصادية ، هذا فضلاً عن الظروف الاقتصادية الصعبة التي عاشتها الجزيرة في ظل السيادة البيزنطية فقد كانوا يفرضون الضرائب الفادحة لخزينة الدولة وعين جستنيان برايتورا Praetor ينفذ هذه السياسة الاقتصادية وخضعت صقلية للأنظمة البيزنطية الجائرة التي جرت عليها التعاسة والشقاء ويرى بروكوبيوس في تاريخه السري أن البلاد إقفرت من سكانها ورزحت تحت عبء ثقل من الضرائب والاضطهاد الديني والثورات العسكرية .

كانت صقلية تدفع ضرائب على الأملاك والرؤوس وأتاوات على التجارة والصناعة وضرائب للجند وأخرى للبحارة وأموالاً يبتزها الموظفون بل إن أحد الجبابرة في نهاية القرن السادس أجبر الرعايا العاجزين عن الدفع إلى تقديم أبنائهم وكانت الكنيسة تشارك الدولة النفوذ والسلطان .

ولم تنج الجزيرة من الفتن الدينية والصراع المذهبي ففي النصف الثاني من القرن الثامن أذاع ليبو في الناس منشوراً يحرم به الصور في الكنائس ويأمر بنزحها ودخلت الدولة في نزاع مع الكنيسة في روما بسبب هذه السياسة .

وجملة القول أن صقلية البيزنطية فقدت كما يرى الأستاذ إماري شخصيتها ومقوماتها العمرانية ولم ينعم المجتمع الصقلي بالاستقرار إنما كان مجتمعاً محمواً كأنه المعسكر الحربي المسلح .

ورغم ذلك فإن هذه الجزيرة كانت في العهد البيزنطي مركزاً قوياً

لثقافة الإغريقية الجديدة هذا الثقافة التي ستترك أثراً في تكوين الدولة الصقلية ليكون لها لونها الخاص واتجاهها الخاص .

من هذا كله نخلص إلى أن جميع هذه البلاد كانت مهيئة تماماً لتقبل الفتوح العربية (١) .

محاولات المسلمين غزو صقلية وما حولها :

١ - كانت أولى المحاولات لغزو صقلية في أيام معاوية بن أبي سفيان وقد كان مهتماً بالجزر والإستيلاء عليها قال ابن خلدون (٢) غزا معاوية ابن حديج الكندي أيام معاوية بن أبي سفيان (صقلية) وكان أول من غزاها .

وبعد ذلك تتابعت الحملات التي كانت تغير على صقلية فقد عقد موسى ابن نصير اعباشي بن أخبل على مراكب إفريقية فسار في البحر إلى صقلية فأصاب مدينة يقال لها سرقوسة فغنمها وجميع ما بها وقفل سالماً غانماً (٣)

ثم غزا (٤) بشير بن صفوان السكبي صقلية بنفسه في أيام هشام بن عبد الملك سنة تسع ومائة فأصاب سببها كثير ورجع إلى القيروان منصوراً كما أغزى عبد الله بن الحبحاب وإلى إفريقية سنة ١١٤ هـ حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري جزيرة صقلية فركب البحر إليها سنة

(١) الحضارة الإسلامية في بلاد المغرب والأندلس د . حسن أحمد محمود

(٢) كتاب العبر لابن خلدون ج ٤ ص ٢٧٨

(٣) البيان المغرب لابن عداوي ج ١ ص ٢٧

(٤) الاستقصا في أخبار المغرب الأقصى للسلاوي ص ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٣

إثنتين وعشرين ومائة ومعه ابنه عبد الرحمن بن حبيب فسأل سرقوسة أعظم مدن صقلية وضرب على أهلها الجزية وأثنى في سائر الجزيرة . كما أرسل عبد الرحمن بن حبيب الفهرى سنة خمس وثلاثين ومائة جيشاً في البحر إلى صقلية وآخر إلى سردينيه فأثخنوا في أمم الأفرنج حتى أذعنوا للجزية ويذكر ابن عذاري^(١) أن المسلمين غزو جزيرة سردينية وعاليهم محمد بن عبد الله التميمي فأصابوا وأصيب منهم ثم قفلوا .

وكانت هذه المحاولات بمثابة تمرين يجرى لأجل حملة الفتح كما أنه كان فرصة لبناء الأسطول البحري العربي وتدريب بحارة مكافحين لا يخشون البحر ويستطيعون القتال على إيججه وإن كان كل ذلك قد استغرق فترة طويلة منذ بدء المحاولات الأولى إلا أنه كان نمواً طبيعياً حسب مالا قام من معاكسات واضطرابات .

أسباب فتح صقلية :

يذكر ابن الأثير^(٢) أن سبب إنفاذ زيادة الله جيشاً إلى صقلية أن ملك الروم بالقسطنطينية استعمل على جزيرة صقلية بطريقاً اسمه قسطنطين سنة إحدى عشرة ومائتين فلما وصل إليها استعمل على جيش الأسطول إنساناً رومياً اسمه فيمى كان حازماً شجاعاً فغزا إفريقيا وأخذ من سواحليها تجاراً ونهب وبقى هناك مديدة ثم أن ملك الروم كتب إلى قسطنطين يأمره بالقبض على فيمى مقدم الأسطول وتحذيره فبلغ الخبر إلى فيمى فأعلم أصحابه فغضبوا له وأعانوه على المخالفة فسار في مراكبه إلى صقلية واستولى على مدينة سرقوسة فسار إليه قسطنطين فالتقوا واقتتلوا فانهمزم

(١) البيان المغرب في أخبار المغرب لابن عذاري ج ١ ص ٤٩

(٢) الكامل لابن الأثير ج ٦ ص ١٢١

قسطنطين إلى مدينة قسطنطينية فسير إليه فيمى جيشاً فهرب منهم فأخذ وقتل
وخو طب فيمى بالملك واستعمل على ناحية من الجزيرة رجلاً اسمه بلاطة
فخالف على فيمى وعصى واتفق هو وابن عم له اسمه ميخائيل وهو والى
مدينة الرم وجمعا هسكراً كثيراً فقاتلا فيمى وانحزم فاستولى بلاطة على
مدينة سراقوصة وركب فيمى ومن معه فى مراكبهم إلى إفريقية وأرسل إلى
الأمير زيادة الله يستنجده ويعدده بمالك جزيرة صقلية ويزيد اللواء الركن
محمود خطاب^(١) أن أوفيموس Euphemios الذى يسميه العرب فيمى
وكان مقدما من بطارقة القيصر على مايقوله مؤرخو العرب أو (طورمارخا
Tormarxha) أى قائد فرقة فى جيش صقلية المحلى برتبة فريق على
مايقوله المراجع الإيطالية والبيزنطية

كانت قد وقعت عداوة بينه وبين والى صقلية العام لأسباب شخصية
لأن الوالى العام قد خطف منه خطوبته على ما يذكره أحد المراجع الإيطالية
أو لأن فيمى قد خطف راهبة من ديرها فعاقبه الوالى بالعزل فلجأ إلى بنى
الأغلب يطلب منهم المعونة وقدم نفسه لزيادة الله دليلاً وعوناً على فتح
صقلية

وهكذا يذكر ابن الأثير ويؤيده ابن خلدون^(٢) وتتفق معهما المراجع
الإيطالية والبيزنطية أن سبب حملة فتح صقلية هى قدوم هذا القائد
واستنجاده بزيادة الله وهذا التعليل للحملة يبدو لى أنه يمكن أن يكون
سبباً مباشراً .

(١) مجلة المرقى مقال أسد بن الفرات ص ١٠٦ عدد ١٠٤

(٢) أنظر كتاب الأمير لابن خلدون ج ٤ ص ١٩٨ - ٢٠٠

إليهم من المسلمين وأراد أن يردوه إلى المسلمين كان ذلك عليهم وقد ثبت
باعتراف رسل (صقلية) أن أسرى المسلمين في صقلية خلافاً لشروط
الهدنة .

ومن هنا ندرك أن حالة الحرب التي أوقفتها الهدنة ثم نقضهم لها
بالاتفاظ بأسرى المسلمين بالإضافة إلى استعانة فيمى بزيادة الله كانت
من الأسباب المباشرة لحملة الفتح .

حملة الفتح

جمع زيادة الله مجلسه الحربى المؤلف من وجوه أهل القيروان وفقهائها
ومنهم أسد بن الفرات وأبو محرز القاضي وسحنون بن سعيد واستشارهم
في أمر فتح صقلية وبعد أخذ ورد استقر رأى على إرسال الحملة وما كان
لهم ألا يفعلوا وقد واثمهم الفرصة لتوسيع رقعة الدولة وبسط نفوذها على
مواقع إستراتيجية وهامة وإيجاد قواعد لأسطولهم في البحر المتوسط ثم
القضاء على القوة البحرية للروم التي كانت تغير عليهم بين آونة وأخرى .

وتحرك الأسطول الأغلبى حاملاً للقوات البرية والبحرية بقيادة أسد
ابن الفرات القاضى وشيخ الفتيا ومؤلف الأسدية وكان جيش الفتح مؤلفاً
من عشرة آلاف رجل منهم ألف فارس حملتهم مائة سفينة .

وخرج لتوديع الجيش وجوه أهل العلم والشعب وعلى رأسهم زيادة
الله وصحلت النخيل وضربت الطبول وخفقت البنود وكان الإبحار من
سوسة يوم السبت النصف من شهر ربيع الأول سنة إثنى
عشرة ومائتين .

وردت سفن الأسطول الإسلامى على ساحل صقلية في ميناء مازر على

ساحل صقلية الغربى وهو أقرب ثغور صقلية إلى إفريقية وهناك جرى إنزال قوات المسلمين حيث لم يجدو مقاومة فى ذلك الثغر وسار أسد على رأس جيشه إلى شرق الجزيرة لمقابلة الروم الذين اجتمعوا حول صاحب صقلية بلاطه حتى بلغ جيشه مائة وخمسين ألفاً واجتمع إلى أسد فيسمى - القائد الرومانى وأنصاره - ليقاتلوا معه فأبى أسد وطلب إليهم أن يعتزلوهم واشتد القتال بين المسلمين والروم فانهزمت الروم وغنم المسلمون أموالهم ودوابهم وهرب بلاطه إلى قلورية فقتل بها واستولى المسلمون على عدة حصون من الجزيرة ووصلوا إلى قلعة الكراث وبعد انتصار المسلمين فر الروم نحو الجبهة الشرقية وحشدوا جموعهم حول مدينة سرقوسة فرأى أسدان يستثمر الفوز فسار بجيشه يقتفى أثر المنهزمين قاطعاً مسافة مائتى كيلو متر وهى المسافة الفاصلة بين رأس الجسر الذى نزل فيه المسلمون فى مدينة مازر وبين سرقوسة .

وكان هناك عدة من المدن والحصون فى شمال صقلية لا تزال بيد الروم وكان خط القتال الناشب بين المسلمين والروم ممتداً فى الحقيقة من سرقوسة فى شرق الجزيرة إلى بلرم فى شمالها الغربى .

وحاصر أسد سرقوسة براً وحاصرتها سفن المسلمين بحراً ووصلت الامداد من إفريقية فبعث أسد إلى بلرم الجند والسفن لحصارها .

وفى ذلك الحين وصل إلى ميساه سرقوسة أسطول بيزنطى بعثه الإمبراطور من القسطنطينية لإنجاء الجزيرة فاشتدت مقاومة الروم للمسلمين وارتفعت معنوياتهم فلما شدت بينهم وبين المسلمين معارك طاحنة فى البحر والبحر .

وتخرج موقف المسلمين لتكاثر الروم عليهم من جهة إذ أصبحوا يصاولوا جيش الإمبراطورية لاجيش صقلية المحلي كما انتشر الوباء في معسكرهم من جهة أخرى وذلك سنة ثلاث عشرة ومائتين فهلك منهم خلق كثير ولكن أسد دأب على القتال فتوفي وهو محاصر لسرقوسة في ربيع الآخر سنة ثلاث عشرة ومائتين وتولى القيادة بعد أسد محمد بن أبي الجوارى فلما رأى تفاقم الأمر على المسلمين حاول الإنسحاب في السفن إلى أفريقيا ولكن السفن البيزنطية منعتهم من ذلك فأمر عندئذ بحرق السفن .

وامتنع المسلمون بداخل الجزيرة وتفرقوا فيها سرايا يغزون بسائطها ويحاصرون قلاعها يقول ابن الأثير^(١) ودخلوا إلى مدينة ميناو فحاصروها ثلاثة أيام وتسلموا الحصن فسارت طائفة منهم إلى جرجنت فقاتلوا أهلها ومالكوه وسكنوا فيه واشتدت نفوس المسلمين بهذا الفتح وفرحوا ثم ساروا إلى مدينة قصر يانة ووصل جيش كبير من القسطنطينية مددا لمن في الجزيرة فتصافروا والمسلمون فانهزم الروم وقتل منهم خلق كثير ودخل من سلم قصر ياته وتوفي محمد بن أبي الجوارى أمير المسلمين وولى بعده زهير ابن غوث وصار القتال بين الروم والمسلمين سجالا ولكن كفة الروم كانت راجحة وضيقوا الخناق على بعض المسلمين فدخلوا ميناو ودام الحصار عليهم حتى أكلوا الدواب والكلاب فلما سمع من في مدينة جرجنت من المسلمين ما هم عليه هدموا المدينة وساروا إلى مايز ولم يقدرُوا على تهمرة أخوانهم ودام الحال كذلك إلى أن دخلت سنة أربع عشرة ومائتين وقد أشرف المسلمون على الهلاك .

(١) أنظر ١ - الكامل لابن الأثير ج ٦ ١٢٤ ، ١٢٥

٢ - كتاب العبر لابن خلدون ج ٤ ص ١٩٩ ، ٢٠٠

وفي سنة ٢١٤ هـ وصل مدد من أفريقية لجيش الفتح ولما سكن المؤرخين يجمعون على مشاركة أسطول من الأندلس بقيادة فرغلوش مساعد المسلمين المحاصرين في محنتهم وذلك بعد أن استغاث بهم المسلمون في صقلية وبلغت عدة أسطول الأندلس بقيادة أصبغ ابن وكيل المعروف بفوغلوش والمدد القادم من أفريقية ثلاثمائة مركب فنزل الجنود إلى الجزيرة فاهزم الروم عن حصار المسلمين وسار المسلمون إلى مدينة بلرم فحاصروها وضيقوا على من بها فطلب صاحبها الأمان لنفسه ولأهله ولماله فاجيب إلى ذلك وسار في البحر إلى بلاد الروم ودخل المسلمون البلد في رجب سنة ستة عشرة ومائتين .

وكان فتح بلرم خطوة كبيرة في قصة الفتح فقد كانت هذه المدينة ميناء سهل على المسلمين الاتصال الدائم بأفريقية وأصبح في استطاعتهم أن يعتمدوا على أمدادات ومؤمن لا تنقطع وكانت المنطقة المحيطة بها تزود الجنود بحاجتهم من المؤمن وتحولت إلى قاعدة إسلامية تخرج منها الغارات إلى كافة أرجاء الجزيرة وأخذت السرايا تخرج منها كل يوم فتغير في أنحاء الجزيرة ثم تعود محملة بالغنائم .

وكانت المقاومة الشديدة للفتح الإسلامي في صقلية تنبع من بطريق صقلية الذي كان يقود القوات البرية والبحرية ويواجه المسلمين بحرب عصابات شديدة الوظأة ثم الأسطول البيزنطي فكانت الغارات السريعة الخاطفة هي خير ما خلع المسلمين من قوات البطريق ومن حرب العصابات هذه (١) .

والمصادر عندما تذكر هذه المشاركة من الأندلسيين لا تذكر أن الفاتحين طلبوا المعونة من الأندلس بقوتهم البحرية وإنما يذكر ابن خلدون أنهم

(١) أنظر الحضارة الإسلامية في بلاد المغرب والأندلس د . حسن أحمد

خرجوا للجهاد وابن الأثير أنهم خرجوا غزاة أما ابن عذارى فبسكت عن ذلك وكأنه كان مصادفة .

ويمكن لنا أن نفترض فرضين :

١ — أنه ربما كان الأندلسيون قد قصدوا بحملتهم صقلية فوجدوا الأغلبة فسبقوهم إليها وطلب جيش الأغلبة منهم المعونة فأعانوهم وحملوا على إنقاذهم من حصارهم وبذلك تمكنوا من الاستيلاء على بعض المدن والحصون ومن يروى هذا يشير إلى المنافسة والفراع بين الأندلسيين والفاطحيين من إفريقية .

٢ — ويمكن أن نقول إن الأسطول الأندلسي كان يجرى مناورات أو يتجول في البحر المتوسط بقصد التدريب والاستكشاف فاستعان بهم قائد حملة الفتح فأعانوه .

استمرار الجهاد

رحل الأسطول الأندلسي وثبتت أقدام المسلمين في صقلية ولكن ليس معنى ذلك أنهم تغلبوا على كل صقلية وتم فتحها وتبعيةها للأغلبة وإنما بقيت جيوب ومدن وحصون لم تسلم وصادت الحرب سجالا بين الروم والمسلمين إلى أن تم الاستيلاء عليها بعد حوالي قرن من بداية حملة أسد بن الفرات وكان تمام الاستيلاء عليها في نهاية حكم الأغلبة .

ولأننا عندما نتتبع سير الحرب والجهاد والسرايا والغزوات إلى أن تم الاستيلاء على صقلية سوف نسرف في القول ويطول بنا الحديث وإن كان ذلك مهما إلا أن طبيعة هذا البحث لا تحمل مثل ذلك .

ويمكن أن نشير بإيجاز إلى أن أهم المدن والحصون التي استولى عليها في غضون تلك المدة وبعض السرايا البرية والبحرية التي تخلفتها مع شرح الاستيلاء على مدينتين مهمتين مدينة قصر يانة ومدينة سرقوسة مع إشارة موجزة إلى القواد ويمكن تقسيم هذه الفترة إلى ثلاثة أقسام .

١ - من رجوع الأسطول الأندلسي إلى سقوط قصر يانة من سنة ٢١٦ - ٢٤٤ هـ .

٢ - من سقوط قصر يانة إلى سقوط سرقوسة من سنة ٢٤٤ - ٢٦٤ هـ .

٣ - من سقوط سرقوسة إلى إنتهاء دولة الأغابة من سنة ٢٦٤ - ٢٩٦ هـ .

فقد توجه إلى صقلية في سنة ٢١٦ هـ أو ٢١٧ هـ^(١) محمد بن عبد الله بن الأغلب التميمي لولايتها بأمر زيادة الله بن الأغاب ونجح في الاستيلاء على بلرم التي اتخذها عاصمة لولاية صقلية .

وكان فتح بلرم خطوة كبيرة في سبيل إفتتاح صقلية كلها إذ كانت ميناء بحريا سهل تلقى المؤن والإمدادات من أفريقية عن طريق الأسطول الإسلامي .

ثم استمرت الحملات والسرايا إلى وقت وفاته في سنة ٢٣٦ هـ ففي سنة ٢٢٢ هـ نجح المسلمون في فتح حصن مد نارب ومعاقل كثيرة في حملة قام بها الفضل بن يعقوب^(٢) .

كما سير أبو الأغلب سرية إلى قسطنطينة وقصريانة فانتهزت الأولى

(١) المغرب الإسلامي د . السيد محمود عبد العزيز سالم

(٢) البيان المغرب لابن عدي ح ١ ص ٩٤

وهزمت الثانية ثم كانت وقعة أخرى بين الروم والمسلمين فانهزم الروم وغنم المسلمون منهم تسعة مراكب برجالها وشلندى^(١) ومن سنة ٢٢٥ إلى ٢٢٢ هـ استأمن عدة حصون من جزيرة صقلية إلى المسلمين منها حصن البلوط وإبلاطين وقرلون ومرو وسار أسطول المسلمين إلى قلورية ففتحها ولقوا أسطول صاحب القسطنطينية فمزموه بعد قتال فماد أسطول الروم إلى القسطنطينية فمزوما فكان فتحاً عظيماً كما سارت سرية إلى حصن الغيران وهو أربعون غاراً فغنمت جميعها ثم خرجت سرية فبلغت شزة فقاتله أهلها قتالاً شديداً وكانت الهزيمة على الروم وقتل منهم خلق كثير^(٢).

وفي سنة ٢٣٢ هـ حصر الفضل بن جعفر مدينة مسيني فانفتح الطريق أمامهم إلى جنوبي إيطاليا وقد أرسل الروم عشر شلنديات أرسلت بمرسی الطين والكنهم لم يتمكنوا من الإغارة على المسلمين كما تصالح أهل رغوس وحامية المدينة مع المسلمين.

وبعد هذه الغارات والسرايا المتوالية التي كان يرسلها محمد بن عبد الله ابن الأغلب توفي في سنة ست وثلاثين ومائتين بعد أن استمر والياً على صقلية قرابة عشرين سنة فتولى إمارة صقلية العباس بن الفضل بن يعقوب فأخذ يخرج قائداً للسرايا والغزوات المتتالية ويرد حملات الروم التي ترساها القسطنطينية على أعقابها خاسرة فاشلة وأخذ يحاربهم حرباً إقتصادية يغير عليهم فيأخذ ما يستطيع ويتلف ما لا يستطيع أخذه . يقول ابن عذارى^(٣) في سنة ٢٣٧ هـ أغزى العباس بصقلية أرض الروم فغنم غنائم

(١) السكامل لابن الأثير ج ٦ ص ١٢٤ - ١٢٦

(٢) السكامل لابن الأثير بتصرف ج ٦ ص ١٧٢ - ١٨٢

(٣) البيان المغرب في أخبار المغرب لابن عذارى ج ١ ص ١٠٤ - ١٠٦

كثيرة وسبي سبياً كثيراً وأداخ بلادهم وفي سنة ٢٣٨ اغزى العباس بن الفضل صاحب صقلية الروم فقتل آفة المشركين وبعث برؤسهم إلى مدينة بلرم وأقام ينتسف زرعهم ويظأ أرضهم ويسبي من ظفر به منهم ثم قفل إلى صقلية وفي سنة ٢٣٩ هـ كان الجهاد بصقلية في غزوة العباس بن الفضل في الصائفة فافسد زرع النصارى وبث السرايا في كل موضع وغنم قصر ياناه وقطانية وسرقوسة وغيرها وحاصر مدينه بشيرة ستة اشهر حتى صالحوه على ستة آلاف رأس قبضها منهم وقفل إلى حضرة بلرم وفتح مدينة سمرنته وهكذا كان العباس يخرج في الصائفة والشتاء ليغير على الحصون ويبت السرايا ويحاصر المدن والحصون حتى تسلم إليه أو تصالحه فقد صالحه أهل قصر الحديد بعد أن حاصروهم شهرين بخمسة عشر ألف دينار وصالحه أهل حصن شلفودة على أن يخرجوا منه ويهدمه ففعل .

ولقد ساعدت هذه الغزوات والسرايا المتكررة والمستمرة صيفا وشتاء والتي تدل على سرعة حركة الجيش الإسلامى فى بلاد كانت تستعمل فيها حرب العصابات والحرب الاقتصادية التى لجأ إليه العباس أن يتمكن من الاقلال من فائدة حملات الروم المتتابعة لمساعدة بطريق صقلية الذى كان يقيم فى قصر ياناه حتى تمكن المسلمون أخيراً من الاستيلاء على قصر ياناه عاصمة البطريق بعد قتال عنيف وجهد شاق يذكره ابن الأثير حين يتحدث عن فتح قصر ياناه فيقول (١) وفى سنة أربع وأربعين ومائتين فتح المسلمون قصر ياناه وهى المدينة التى بها دار الملك بصقلية وكان الملك قبلها بسكن سرقوسة فلما ملك المسلمون بعض الجزيرة نقل الملك إلى قصر ياناه لحصانتها وسبب فتحها أن أبا العباس سار فى جيوش المسلمين إلى مدينة قصر ياناه وسرقوسة وسير جيشاً فى البحر فلقبهم أربعون شلندى للروم فاقتلوا أشد

(١) الكامل لابن الأثير ج ٧ ص ٢١ ، ٢٢ .

قتال فانهزم الروم وأخذ منهم المسلمون عشر شلنديات برجالها وعاد العباس إلى مدينته فلما كان الشتاء سير سرية فبلغت قصر يانه فنهبوا وخرّبوا وعادوا ومعهم رجل كان له عند الروم قدر ومنزلة فأمر العباس بقتله فقال استبقني ولك عندي نصيحة قال ما هي قال أملكك قصر يانه .

والطريق في ذلك أن القوم في هذا الشتاء وهذه الثلوج آمنون من قصدكم إليهم فهم غير محترسين ترسل معي طائفة من عسكركم حتى أدخلكم المدينة فانتخب العباس ألف فارس انجاد أبطال وصار إلى أن قاربها وكن هناك مستترا وسير عمه رباحا في شجعاتهم فساروا مستخفين في الليل والرومي معهم مقيد بين يدي رباح فأراهم الموضع الذي ينبغي أن يملك منه فنصبوا السلايم وصعدوا الجبل ثم وصلوا إلى سور المدينة قريبا من الصبح والحرس نيام فدخلوا من نحو باب صغير فيه يدخل منه الماء وتلقى فيه الأقدار فدخل المسلمون كلهم فوضعوا السيف في الروم وفتحوا الأبواب وجاء العباس في باقي العسكر فدخلوا المدينة وصلوا الصبح يوم الخميس منتصف شوال وبني فيها في الحال مسجدا ونصب فيه منبرا وخطب فيه يوم الجمعة وقتل من وجد فيها من المقاتلة وأخذوا ما فيها من بنات البطارقة بحلين وابناء الملوك وأصابوا فيها ما يعجز الوصف عنه وذل الشرك يومئذ بصقلية ذلا عظيما ولما سمع الروم بذلك أرسل ملكهم بطريقا من القسطنطينية في ثلثمائة شلندي وعسكر كثير فوصلوا إلى سرقوسة فخرج إليهم العباس من المدينة ولاقى الروم وقاتلهم فنهزمهم فركبوا في مراكبههم هاربين وغنم المسلمون منهم مائة شلندي وكثر القتل فيهم ولم يصب من المسلمين ذلك اليوم غير ثلاثة نفر بالشباب وفي سنة ست وأربعين ومائتين نكث كثير من فلاحى صقلية وهي سطر وابلا وابلاطونا وقلعة عبد المؤمن وقلعة البلوط وقلعة أبو ثور وغيرها من القلاع فخرج العباس إليهم فلقبهم عساكر الروم فاقتلوا

فانهزم الروم وقتل منهم كثير وسار إلى قلعة عبد المؤمن وقلعة ابلاطنوا
فحصروها فانهاء الخبر بأن كثيرا من عساكر الروم قد وصلت فرحل إليهم
فانتقروا بجندلودي وجرى بينهم قتال شديد فانهزمت الروم وعادوا إلى سرقوسة
وعاد العباس إلى المدينة وعمر قصر يانه وحصنها وشحنها بالعساكر .

٢ - من سقوط قصر يانه إلى سقوط سرقوسة من سنة ٢٤٤ - ٢٦٤ هـ

بعد فتح قصر يانه أرسل والى صقلية حملاته وسراياه تغير على القلاع
والحصون ففتح قلاعا متعددة منها جبل أبي مالك وقلعة الأرمين وقلعة
المشارعة وفي جمادى الأول سنة ٢٤٨ هـ ولى الأغالية خفاجة بن سفيان
أميرا على صقلية فتابع حملاته وغزواته وبث سراياه وفي أيامه فتحت مدينة
توطس كما شدد حملاته على سرقوسة واففتح حصونا كثيرة وفي سنة ٢٥٤ (١)
بلغه أن بطريقا قد سار من القسطنطينية في جمع كثير فوصل إلى صقلية
فلقيه بجمع من المسلمين فاقتتلوا قتالا شديدا فانهزم الروم وقتل منهم خلق
كثير وغنم المسلمون منهم غنائم كثيرة كما والى مناوشاته على سرقوسة فأفسد
زرعها وبذكر بن خلدون (٢) فتح جزيرة مالطة سنة خمس وخمسين ومائتين
وتغلب الروم على مواضع من جزيرة صقلية .

ثم كان الاستيلاء على سرقوسة في سنة أربع وستين ومائتين في الرابع
عشر من رمضان وهي من أعظم مدن صقلية وأكثرها حصانة فسار إليها
جعفر بن محمد أمير صقلية فأفسد زرعها وزرع قطانيه وطبرمين ورمطه
وغيرها من بلاد صقلية التي بيد الروم ونازل سرقوسة وحصنها برا وبحرا
وملك بعض أرباضها ووصلت مراكب من الروم نجدة لها فسير إليها

(١) انظر الكامل لابن الأثير البيان المغرب لابن عذاري .

(٢) كتاب العبر لابن خلدون ج ٤ ص ٢٠٠

أسطولا فأصابوها وبذلك تمكن من إحكام حصارها وكانت معركة سرقوسة هذه المرة من أعظم المعارك أهمية في قصة النضال الطويل بين العرب والروم فقد بذل الروم كل المحاولات لانقاذها وظل المسلمون يحاصرون المدينة تسعة أشهر ثم سقطت المدينة آخر الأمر وكان سقوطها نهاية لمحاولات استمرت أكثر من خمسين سنة منذ حملة أسد بن الفرات الأولى وإن استمرت بعض الجيوب تقاوم في المنطقة الشرقية من صقلية^(١)

٣ - من الاستيلاء على سرقوسة إلى سقوط دولة الأغالة ٢٦٤-٢٩٦ هـ

لم يكن سقوط سرقوسة دليلا على أن الروم قد فقدوا قواتهم البحرية. وأصبحوا عاجزين عن المقاومة وأن المسلمين ملكوا ناصية البحار وإنما ظل الروم محتفظين بقوتهم البحرية يناوشون بها المسلمين أو يردون بها غاراتهم ففي سنة ٢٦٦ كما يقول ابن عذارى^(٢) أغزى صاحب صقلية الروم فالتقى في البحر بمراكبهم وهم في نحو مائة وأربعين مركبا فدارت بينهم حرب شديدة حتى أمدد المسلمون مراكبهم وأخذها الروم وانصرف من كان في تلك المراكب إلى بلرم فأقاموا بها شهورا يئشون السرايا ويغنمون أرض الروم المجاورين لهم .

ولكن في سنة ٢٦٨^(٣) ولي على صقلية محمد بن الفضل فبث السرايا في

(١) أنظر أ - الحضارة الإسلامية في بلاد المغرب الأندلسي دحسن أحمد

محمود ٥٢ ، ٥٣

ب - الكامل لابن الأثير ج ٧ ص ١١٤

ج - البيان المغرب في أخبار المغرب لابن عذارى ج ١ ص ١١٠

(٢) البيان للمغرب في أخبار المغرب ج ١ ص ١١١

(٣) الكامل لابن الأثير بتصريف ج ٣ ص ١٣٢

كل ناحية من صقلية وخرج في جمع عظيم إلى مدينة قطنانية فأهلك زرعها ثم رحل إلى أصحاب الشلندية فقاتلهم وأكثر القتل فيهم ثم رحل إلى طبرمين فأفسد زرعها كما تلاقى مع جند الروم فهزم الروم وقتل منهم ثلاثة آلاف قتيل وتوجه بعد الواقعة إلى قلعة كان الروم بنوها وسموها مدينة الملك فلما حكم المسلمون عنوة وقتلوا مقاتليها وسبوا من فيها .

كما أرسل المسلمون سرية سنة ٢٧١ إلى رمطة فخربت وغنمت وسببت وأسرت كثيرا من أهلها كما غزا سواده بن محمد بن خفاجة التميمي قطنانية وطبرمين فأرسل بطريق الروم يطلب الهدنة والمقاداة فهادنه ثلاثة أشهر وفاداه ثلثمائة أسير من المسلمين ورجع سواده إلى بلرم .

ويذكر بن خلدون^(١) أن إبراهيم بن أحمد بعث ابنه أبا العباس عبد الله على صقلية سنة سبع وثمانين ومائتين فوصل إليها في مائة وستين مركباً وحصر طرانة وأحبط فتنة كانت هناك ضد الدولة وفي سنة ٢٨٨ هـ تجهز لغزو فغزا دمشق ثم مسيني ثم جاز في البحر إلى ريو ففتحها عنوة وشحن مراكبه بعنائها ورجع إلى مسيني فهدم سورها وجاء مدد القسطنطينية في المراكب فهزمهم وأخذ لهم ثلاثين مركباً ثم أجاز إلى عدوة الروم وأوقع بهم الفرنجة من وراء البحر ورجع إلى صقلية .

ويستمر ابن خلدون ذا كرا قدوم الأمير إبراهيم بن أحمد من أفريقيا إلى صقلية وأنه نزل طرابنة ثم تحول عنها إلى بلرم ثم فتح مسيني وهدم سورها وفتح طرميس آخر شعبان من سنة تسع وثمانين ثم بعث حفيده زيادة الله ابن ابنه أبي العباس عبد الله إلى قلعة بيقش فافتتحها وابنه أبا محرز

(١) كتاب الأمير لابن خلدون ج ٤ ص ٢٠٠

إلى رمطة فأعطوه الجزية ثم عبر إلى عدوة البحر وسار في بر الفرنج ودخل
قلورية عنوة وقتل وسبي ورهب منه الفريجة ثم رجع إلى صقلية وسار إلى
كنيسة فحاصرها واستأمنوا إليه فلم يقبل ثم هلك وهو محاصر لها ، وفي سنة
٢٩٦ هـ سقطت طبرن آخر الحصون الساحلية الهامة في جزيرة صقلية
، يتم للأغالبة السيادة التامة على تلك الجزيرة العظمى بعد أن استغرق فتحها
سحوا من مائة سنة كانت صفحة حافلة بالأعمال الجليلة التي قام بها الأسطول
الإسلامي في غرب البحر المتوسط

وهكذا ظل الأغالبة يكافحون لبسط نفوذهم على صقلية إلى أن سقطت
دراهم وما زال هناك بعض الجيوب يقاوم في المنطقة الشرقية حتى عام
٣٥١ هـ (١) .

ومع ذلك لم يكن الفتح موجهًا إلى صقلية وحدها بل تعداها إلى غيرها
من الجزر والشواطئ الأوربية الغربية يقول د غستاف لويون (٢)
ولم يقتصر العرب في أثناء مقاتلتهم للروم على غزو صقلية فقد استولوا على
جنوب إيطاليا وبلغوا في تقدمهم ضواحي رومة وحرقوا كنيسة القديس
بطرس وكنيسة القديس بولس اللتين كانتا قائمتين خارج أسوار رومة ولم
يرجعوا عنها إلا بعد أن وعدهم البابا يوحنا الثامن بدفع جزية لهم وقد
استولوا على مدينة برديزي الواقعة على شاطئ البحر الإدراني ومدينة
نارانت وأغاروا على دوكية بليغنت وقد صاروا يفتحهم صقلية وأهم جزر
إيطاليا وكورسيكا وكندية وماطة وجميع جزر البحر الأبيض المتوسط
سادة البحر المطلقين ولم يسع البندقية إزاء ذلك إلا أن تعدل عن محاربتهم .

(١) الحضارة الإسلامية في بلاد المغرب والأندلس د حسن أحمد محمود ص ٣٠٥

(٢) حضارة العرب د غستاف لويون ص ٣٢٤ - ٣٢٥

نتائج فتح صقلية

ويعتبر فتح صقلية من المعالم الهامة في تاريخ البحرية الإسلامية فإن سيطرة الأغالبة عليها جعل مفتاح حوض البحر المتوسط الغربي في أيديهم وصار الأسطول الإسلامي ينعم بقاعدة هامة جعلت له السيادة في البحر التيراني الذي تطل عليه إيطاليا وقد تدخل أسطول الأغالبة فعلا في شئون البلاد الإيطالية بعد أن سيطر على الشطر الأعظم من جزيرة صقلية ذلك أنه بعد سقوط بلرم بمدة قليلة صار أمراء البحار الأغالبة يتدخلون في المنازعات المحلية التي قامت بين القوى المتنافسة في جنوب إيطاليا ولا سيما في الإيمام الجنوبي الغربي المعروف باسم قلورية .

ومن أمثلة تدخل الأغالبة البحري في شئون إيطاليا ما حدث سنة ٨٣٧ م حين استنجدت نابل وهي (نابلي) بالقوات الإسلامية في صقلية ضد جيرانها المعادين لها إذ شجع هذا النزاع المحلي الأغالبة على إرسال أساطيلهم للاغارة على سائر شواطئ إيطاليا شمالي نابل وبعد عدة سنوات من دخول الأغالبة نابل وقف أسطولهم أمام أوستيا ميثاء روما على حين اقتحمت قواته البرية أسوار تلك المدينة الرومانية العتيقة وتكرر هجوم أسطول الأغالبة على تلك الميناء الهامة حتى أن البابا يوحنا الثامن ٨٧٢ - ٨٨٢ م رأى إنقاذ روما بدفع الجزية مدة عامين للأغالبة .

ودخل أسطول الأغالبة كذلك البحر الإدراتي واستولى على مدينه بارا (أي باري الآن) سنة ٨٤١ م واتخذها قاعدة له مدة ثلاثين عاما وكانت تلك المدينة ذات موقع هام في شبه جزيرة إيطاليا وتعتبر منفذها الرئيسي للاتصال بشرق البحر المتوسط وكان أهالي إيطاليا وتجارها يقدون على باري

في طريقهم إلى اليونان أو آسيا الصغرى وكذلك الذهاب إلى إقليم الشام طلباً للحج في فلسطين حيث الأماكن المسيحية المقدسة .

وتعتبر الحقيقة السالفة مثالا لسمو رجال البحرية الإسلامية في تلك الفترة الخامسة من نشاطهم ذلك أن أفراد البحار المسلمين سمحوا للمسيحيين بركوب البحر المتوسط في سفنهم لأداء فريضة الحج إلى بيت المقدس وكان الطريق البحري إذ ذاك يبدأ من باري إلى صقلية ومنها إلى مصر حيث يتابع الحجاج بعد ذلك براً إلى فلسطين وقد خلف لنا أحد الحجاج المسيحيين وهو برنارد رشيد صورة عن ذلك الطريق البحري منذ خروجه من مدينة باري قاصداً الحج إلى بيت المقدس وعن التسهيلات التي قدمها البحرية الإسلامية للحجاج المسيحيين :

ولم يقف نشاط الأسطول الأعلي عند جنوب إيطاليا فحسب وإنما اتجهت سفنه إلى تدعيم أقدام المسلمين في بعض جزر البحر المتوسط التي سبق للسفن الإسلامية الاكتفاء بالإغارة عليها سريعاً والعودة بعد ذلك إلى قواعدها سواء في مصر أو الشام ومن ذلك فتح الأسطول الأعلي لجزيرة مالطة التي تتمتع بموقع استراتيجي عظيم في الخوض الأوسط للبحر المتوسط وساعد الأغالبه على تحقيق هذا الهدف الهام إقتراب قواعدهم البحرية من مالطة ولا سيما بعد فتحهم لجزيرة صقلية .

ويعتبر الأغالبه ذلك أصحاب سياسة بحرية ثابتة الأركان تهدف إلى الاستيلاء على الجزر ذات المراكز الاستراتيجية في البحر المتوسط والتي تتحكم في ممرات مياهه وكان وضع دولتهم الجغرافي يساعدهم على إدراك أهمية تلك الجزر الصغيرة التي امتلأت بها مياه البحر المتوسط والتي تعد مفتاح السيطرة على جبهة الوسطى والقرية ومن ذلك أن جزيرة مالطة ما تزال إلى اليوم تحتفظ بمكانتها الاستراتيجية وأهميتها الحربية .

وقد اتسمت أعمال الأغالبة بإزاء جزر البحر المتوسط التي خضعت لهم. بالتعمير ونشر أسباب الرفاهية بين سكانها ذلك أن بعض تلك الجزر كانت نائية أو صغيرة ويعيش أهلها عيشة متواضعة بسبب قلة إصكانيتهم الاقتصادية فعمد الأغالبة إلى نقل السكان من تونس إلى تلك الجزر مثل جزيرة فوهرية ومالطة وتركوا آثاراً إسلامية كثيرة بها مازالت مظاهرها ملموسة إلى اليوم في لغة أهالي تلك الجزر وعاداتهم^(١).

كما فتحت الجزيرة أمام هجرة واسعة من جميع الشعوب الساكنة في الامبراطورية الإسلامية من عرب عدنانيين وقحطانيين وخراسانيين وفرس ودخل الجزيرة جماعات كبيرة من البربر سكنوا التواحي الشمالية من مازر وكانت مدينة جرنجنت عاصمة للجماعات البربرية (المغربية) ذكر الراهب بترو دوسيوس في حديثه عن بلرم أنها كانت حافلة بالناس من أهلها والغرباء حتى كأنه قد اجتمع فيها كل المسلمين من شرق إلى غرب ومن شمال إلى جنوب وبين أهلها من صقلية وإغريق ولماوديين ويهود ترى العربى والبربرى والفارسية والتتارى والونجى^(٢).

وهكذا يتبين لنا بعد أن عرضنا لجهود هذه الدولة في توسيع رقعتها في جزر البحر المتوسط أن هذا الفتح لم يتم في معركة واحدة أو في عام واحد أو عشرة أعوام وإنما نرى الحرب متصلة منذ استقر جند المسلمين في صقلية بقيادة أسد بن الفرات ووطأتها أقدامهم بقصد الاستيلاء عليها ثم استمر الحرب والقتال طيلة مدة حكم دولة الأغالبة ونرى الحملات تتتابع

(١) قوات البحرية العربية لإبراهيم العدوى ص ٩٠ - ٩٥

(٢) الحضارة الإسلامية في بلاد المغرب والأندلس د. حسن أحمد محمود

واحدة بعد الأخرى سواء من أفريقيا أو من الجند المقيم في جزيرة صقلية وهذا يوضح لنا المشقة التي بذلها الأغالبة لكي يسيطروا نفوذهم على هذه الجزيرة ويحتفظوا بالبقاء فيها ثابتي الأقدام ويبدشوا الحضارة الإسلامية وينشروا تعاليمها التي ما زال بعض تأثيرها إلى الآن .

٤ — علاقتها بجيرانها وسقوطها

كان ميلاد دولة الأغالبة ميلاداً شرعياً صدر به مرسوم من الخلافة في بغداد وقد سبق أن بينا أن دولة الأغالبة كانت تعتبر نهاية الحدود من الغرب بالنسبة للبلاد التابعة للخلافة العباسية في المغرب بعد أن انفصلت الأندلس وقام فيها الأمويين والمغرب الأقصى وقام فسيه الأداة والمستعمرون أما الشمال ففيه الروم في صقلية والشمال الغربي فيه الأمويون في الأندلس .

أما جيرانها من الشرق عند قيامها فكانت مصر وهي ولاية تابعة للخلافة قبل أن يستقل بها أحمد بن طولون وفي الجنوب كانت الصحراء الكبرى حيث لا خطر منها ولا علاقة تقوم بالنسبة لها .

وقد بينا أن من أسباب قيام دولة الأغالبة أن تكون سياجا لحماية دولة الخلافة ومعنى ذلك أن ترد كيد من أراد أن يقطع جزءا من كيانه وتحاول بسط سلطانها على هذه الأجزاء المنفصلة فإن عجزت عن ذلك فلا أقل من أن تحافظ على كيانه على أسوأ الفروض .

جيرانها من الغرب والشمال :

ولذلك نرى إبراهيم بن الأغلب مؤسس الدولة يحاول أن يسط نفوذه من ناحية الغرب ويعمل على أن يقوض دولة الإدارة ويضعها إلى دولته

ويتخذ إلى ذلك كل الأسباب التي يستطيع بها أن يضعفها لكي يستولي عليها فيرسل إلى وجوهها الأموال والهدايا لكي يميلوا إليه كما يلجأ إلى طريقة الاغتيالات عندما لا تجدى الأمور وقد حاول أن يمتشق الحسام ويحارب الإدارة ولكن أصحاب إبراهيم مؤسس الدولة نصحوه له بالعدول عن رأيه وقالوا له اتركه ماتركك كما أن ادريس كتب إليه يستعطفه ويسأله أن يعدل عن مناصبته العداة وتفريق انصاره ويذكر له قرابته من الرسول ﷺ فكف عنه (١) .

يقول ابن خلدون (٢) ، ثم صرف إبراهيم بن الاغلب همه إلى تمهيد المغرب الاقصى وقد ظهر فيه دعوة العلوية بادريس بن عبد الله وتوفي فنصب البزابة ابنه الاصغر وقام مولاه راشد بكفالاته وكبر ادريس واستفحل أمره براشد فلم يزل إبراهيم يدس إلى البربر ويسرب فيهم الأموال حتى قتل راشد وسبق رأسه إليه ثم قام بأمر ادريس بعده مهلول بن الرحمن المظفر من رؤس البربر فاستفحل أمره فلم يزل إبراهيم يتلطفه . ويستميله بالكتب والهدايا إلى أن انحرف عن دعوة الإدارة إلى دعوة العباسية فصالحه (أى ابن الاغلب) ادريس وكتب إليه يستعطفه بقرابته من رسول الله ﷺ فكف عنه .

وكانت علاقة الدولة بالرستميين في تاهرت وبالامويين في الاندلس علاقة عداة وصلت إلى حد الاغارة على املاكها وتخريب مدنها .

يقول دكتور السيد محمود (٣) ثم توفي عبد الرحمن بن رستم بتاهرت

(١) تاريخ الإسلام السياسي د حسن إبراهيم حسن ج ٢ ص ١٧٩ .

(٢) المبر لابن خلدون ج ٤ ص ٢٠٣ .

(٣) المغرب الاسلامي د . السيد محمود عبد العزيز سالم ص ٩١

في سنة ثمان ومائتين فبويغ ابنه ميمون أبو سعيد أفلح بالإمامة من بعده
فتابع سياسة أبيه وكان لا يقل دهاء عنه فصادق الأمير عبد الرحمن الأوسط
بالأندلس لا شتراكهما في معاداة العباسيين والأغالبة فحرب مدينة العباسية
وكافأه أمير الأندلس على ذلك

وإن كنا مع ذلك نذكر مساعدة أسطول الأندلس للأغالبة في فتح
صقلية وفك الحصار عن المسلمين هناك كما سبق أن ذكرنا في فتح
صقلية .

وقد كانت هناك علاقة لأعداء فيها مع شاملان في بلاد الغال يذكر
الاستاذ حسن حسني عبد الوهاب^(١) أن إبراهيم بن الأغلب استقبل سفراء
شاملان في العباسية حاضرة ولايته ويظهر أن إبراهيم قد علت منزلته
واشتهرت ولايته حتى إن شرملمان لجأ إليه مباشرة دون الرجوع إلى الخليفة
العباسي .

أما صقلية وإيطاليا أو الروم فقد كانت الحرب مستمرة بينهما منذ الإغارة
على شمال أفريقية كما ذكرنا في فتوحات دولة الأغالبة .

جيرانها من الشرق

في أثناء حكم الأغالبة قامت دولة الطولونيين في مصر ولكنها كانت
تخضع للخلافة العباسية وتقر بسلطانها وتدفع لها قدراً من المال وهي في
ذلك تشبه دولة الأغالبة ويفهم من ذلك ألا تقوم بينهما عداوة أو خصومة
ولكن الخصومة والحرب جاءت عفواً وبدون تخطيط من أحمد بن طولون

(١) خلاصة تاريخ تونس حسني عبد الوهاب ص ٦٩

نفسه ، ففي سنة ٢٦٥ هـ خرج أحمد بن طولون إلى الشام واستخلف ابنه العباس على مصر فلما أبعد أبوه عن مصر حسن للعباس جماعة كانوا عنده أخذ الأموال والذهب إلى برقة ففعل وبلغ الخبر أباه فعاد إلى مصر وأرسل إلى ابنه ولاطفه واستعطفه فلم يرجع إليه وخاف من معه فأشاروا عليه بقصد أفريقية فساد إليها وكانت وجوه البربر فاتاه بعضهم وكتب إلى إبراهيم بن الأغلب يقول أن أمير المؤمنين قد قلدني أمر أفريقية وأمر أعمالها (٢)

وهكذا يخرج العباس على أبيه ثم يحاول أن يموه على ابن الأغلب بأن أمير المؤمنين ولاء أفريقية بهذه السهولة يظن أن الأغلبة سيتركون له حكم أفريقية كما يذكر ابن الأثير في روايته بدون أن تنشب الحرب حمايه الدولة وتترك ابن دناير يروى هذه المغامرة عن العباس بن أحمد بن طولون يقول (٣) .

وفي سنة ٢٦٧ كانت فتنة ولد ابن طولون حين أراد التغلب على أفريقية وما أنا أذكر قصته إلى أن هزم وذلك أن العباس بن أحمد بن طولون ولد صاحب مصر قدم في هذه السنة في ثمانمائة فارس وعشرة آلاف رجل من سودان أبيه على خمسة آلاف رجل إلى مدينة بزقة في ربيع الآخر يريد أفريقية والتغلب عليها وإخراج بني الأغلب منها وحمل مع نفسه من بيت مال مصر ثمانمائة حمل دنانير ذهباً فأعطى أصحابه الأرزاق بها وقيل أن مبلغ ما حمل من المال ألف دينار ومائتي ألف دينار ومعه أبو عبد الله أحمد بن محمد الكاتب مكبلاً لأنه أظهر الامتناع عن الخروج معه وكان أشار عليه بأن يؤخر التقدم إلى طرابلس حتى يصانع البربر فقال أخشى

(١) انظر السكامل لابن الأثير ج ٧ ص ١١٥ ، ١١٦

(٢) البيان المغرب في أخبار المغرب ج ١ ص ١١١

أن تقدم المساكر من الشام قبل احكام هذا الأمر يعني عساكر أبيه لأنه كان نائراً على أبيه ويكون أيضاً في ذلك فسحة لإبراهيم بن أحمد فيتمهل في الاستعداد ولكن أمضى على فوري هذا فأتى لبة وطرابلس فجاء ثم أخذ في استعماله العبر بعد ذلك بالعطاء والافضال وأبعد من مصر فلا يقوم لأحمد بن طولون يعني أباه أمل في مطالبتى لبعدي عنه وخرج يريد لبة فاتصل خبره بإبراهيم بن أحمد فأخرج إليه أحمد بن قهر بن ألف وستمائة فارس خيلاً مجردة لا رجل فيها بأعداد السير والسرى بالليل حتى دخل أطرابلس قبل وصول العباس بن أحمد ابن طولون إلى لبة ثم حشد بن قهر بن من أمكنه من جنود أطرابلس وبربرها ثم يئذ إلى لبة ودخلها وأقبل العباس بن طولون فوضع له بركة خمسة آلاف بند حمل له على كل جمل راجلاً ببند وزحف بثمانمائة فارس وخمسة آلاف راجل فالتقى به أحمد بن قهر بن على خمسة عشر ميلاً من لبة وقد تأخرت الجمال بالرجالة أصحاب البنود فلم يكن بينهم إلا مناوشة يسيرة حتى انهزم أحمد بن قهر وهو يظن أن من ناوشة القتال من أصحاب بن طولون كانوا مقدمة للجيش ووصل أحمد بن قهر بن إلى طرابلس منهزماً وركب العباس بن أحمد بن طولون أثره حتى نزل طرابلس ونصب عايتها المجانيق وناصبهم الحرب وأقام محاصراً لهم ثلاثة وأربعين يوماً فتعدى سودانه على بعض حرم البوادي وهتكوا الحجب فاستغاث أهل طرابلس بأبي منصور صاحب نفوسة فقام محتسباً وناصر جيرانه المسلمين وزحف في إثني عشر ألفاً من نفوسة إلى العباس بن أحمد بن طولون فناصبوه الحرب وألح أهل نفوسة في محاربة بن طولون فانهزم وخرج إلى بركة بعد انتهاء أهل طرابلس لجميع عسكره .

وهكذا انتهت هذه المغامرة بالفشل وحفظت حدود دولة الأغالبة من

المشرق .

والسكن يذكر بن خلدون أن إبراهيم - أي بن الأغلب - أراد أن يغير على ابن طولون في مصر في سنة ٢٨٣ هـ وكأنه أراد أن يرد على جراءة ابنه وإن كان لم يوفق في حملته أيضاً يقول^(١) ثم تحرك إبراهيم بن أحمد أخو أبي الغرائيق إلى مصر سنة ثلاث وثمانين لمخاربة ابن طولون واعترضته نفوسه فمزمهم وأنخن فيهم ثم انتهى إلى مريت فانقضت عنه الحشود فرجع .

سقوط دولة الأغالبة

إن عوامل الفناء لأي بنية حية إنما يكون بأحد سببين سبب داخلي أو سبب خارجي أو هما معاً يتعاوننا فيقتضيان على الحياة لأي كائن حي .
ودولة الأغالبة إجتمع عليها العاملان الداخلي والخارجي فاديا إلى سقوطها .

(١) الأسباب الداخلية :

هنا ما نبحث عن الأسباب الداخلية التي أدت إلى انهيار هذه الدولة وكانت من العوامل التي أدت إلى زوالها نستطيع أن نرجعها إلى ثلاثة عوامل .

١ - قتل أنصار الدولة والمدافعين عنها ضد أعدائها .

٢ - قتل أعضاء الأسرة الحاكمة .

٣ - الميل إلى اللوم والفساد وإهمال شؤون الدولة .

وربما ينفرد ابن عذارى عن بقية المؤرخين القدامى في الحديث بإسهاب وضرب الأمثال عن هذه الأمور .

(١) كتاب العبر لابن خلدون ج ٤ ص ٢٠٣ .

١ — قتل انصار الدولة :

فمما يتحدث عن قتل انصار الدولة فيقول^(١) وفي سنة ٢٨٠ كان الإيقاع
برجال بلزمة وقصتهم أن إبراهيم بن أحمد بن الأغلب كان قد حاربهم واستقدم
منهم إلى مدينة رقادة نحو من سبع مائة رجل من أبطالهم فانزلهم ووسع
وبذل لهم دارا كبيرا تشتمل على دور ترجع إلى باب واحد واسكنهم فيها
فلما سكنوا واضمأوا جمع ثقة رجاله لأخذ أرزاقهم ثم أمرهم بمصاحبة ابنه
عبد الله لما أمره به فلما اجتمعوا إليه ركب إلى دار البلزميين في الجند فقتلهم
عن آخرهم بعد أن دافعوا عن أنفسهم إلى وقت العصر وكان ذلك من أسباب
انقطاع دولة بني الأغلب إذ كان أهل بلزمة نحو ألف رجل من أبناء العرب
والجند الداخلين إلى أفريقية عند افتتاحها وبعده وكان أكثرهم من قبس
وكانوا يذبون كتامة فلما قتلهم إبراهيم استطالت كتامة ووجدت السبيل
للقيام مع الشيعة على بني الأغلب .

٢ — قتل أعضاء الأسرة الحاكمة :

رغم ما يرويه ابن الأثير عن كفاح إبراهيم بن الأغلب الثاني ودفاعه
عن الدولة إلى أن ذهب بنفسه إلى صقلية ومات وهو مجاهد في سبيل الله
إلا أن ابن عذاري يروي عنه أفعالا فيها كثير من الغرابة من قتل أصحابه
وحجابه ثم تعدهم إلى قتل إخوته وبناته وأحد ابناته يقول^(٢) وبعد سنة
أعوام من ولاية إبراهيم بن الأغلب (الثاني) تغيرت أحواله وأخذ في جمع
الأموال ثم هو في كل سنة يزدد تغيرا وسوء حال ثم اشتد زكرا فأخذ

(١) البيان المغرب في أخبار المغرب لابن عذاري ج ١ ص ١١٦

(٢) البيان المغرب في أخبار المغرب لابن عذاري ج ١ ص ١٢٦ يتصرف

في قتل أصحابه وحجابه حتى قتل ابنه المسكني بابي الأغلب وقتل بناته وأتى بأمور لم يأتها أحد غيره وكان كثير المال شديد الحسد غلب عليه خلط سوداوي فتغير وسمات اخلاقه قيل انه افتقد مندبلا صغيرا كان يمسح به فمه وكان سقط من يد بعض جواريه فاصابه خادم له فقتل بسببه ثلاثمائة خادم وكان سبب قتله لولده ظلما منه به فضربت عنقه بين يديه وقتل اخوته ثمانية ضربت أعناقهم بين يديه وكانت أمه إذا ولدت له ابنة أخفتها وربتها اثلا يقتلها حتى اجتمع عندها منعمون ست عشرة جارية كأنهن البدور فقالت له يوما وقد رأت منه رقة ياسيدي قد ربيت لك وصائف ملاحا وأحب أن تراهن قال نعم فلما رآهن قالت له هذه بنتك من فلانة وهذه بنتك من فلانة حتى عدتهن فلما خرج من عند أمه قال لخدوم له أمض اليهن وحشني رؤوسهن فوقف استعظاما لذلك فقال له أمض وإلا قدمتك قبلهن فلما دخل على أمه كبر ذلك عليها وعظم في قلبها وقالت له راجعه فقال لها لا سبيل إلى ذلك فقتلن وأخذ رؤوسهن وجاء بها إليه معلقة بشعورهن فطرحها بين يديه وأدخل كثيرا من فتياته الحمام وأغلق عليهم باب البيت الساخن فماتوا جميعا واخباره كثيرة في هذا المعنى ذكرها الرقيق وغيره .

وقد ساء على هذا المنوال حفيده زيادة الله آخر امراء الأغالبة فقد عمل على قتل أبيه وتولى الحكم بعده . وجمع أعمامه ووجوه الناس والجنود وأخذ عليهم البيعة وأعطاهم الصلات ومطل عمومته ثم كبلهم أجمعين وأدخلهم في شينى ووكل بهم ثقاته وأمرهم أن يمشوا بهم إلى جزيرة الكرات وهي على اثني عشر ميلا من مدينة تونس فضربت هناك رقابهم وقتل أيضا عمه أبا الأغلب الزاهد الساكن بسوسة وقتل أخاه أبا عبد الله الأحول بعد أن استقدمه من طينة^(١).

(١) انظر (أ) البيان المغرب في اخبار المغرب لابن عذارى ج ١ ص ١٢٨ =

٣ — الميل إلى اللهو والفساد وإهمال شئون الدولة :

نوح شاسع بين إبراهيم بن الأغلب مؤسس الدولة وبين زيادة الله الثالث آخر أمراء دولة الأغالبة فالأول حازم عاقل حكيم ذا علم بأمور الدنيا والدين خبير بالسيف والقلم بينما الثاني عاثر لاه غافل عن شئون أمارته وأحوال رعيته غارق في لذاته وشهوته فكان ذلك من بعض الأسباب في نزع الملك منه .

يقول ابن عذارى في ميله إلى اللهو والشراب والكف بالعلمان

وفي سنة ٢٩٤ بنى زيادة الله سور مدينة رقادة بالطلوب والطواحي والتزم التنزه على البحر وغبره واتباع اللذات ومنادمة العيارين والشطار والزمارة والطرابين وكان إذا فكر في زوال ملكه وغلبة عدوه على أكثر مواضع عمله يقول لندمائه أملاً واسقنى واشتد كلفه بغلام يدعى خطاب فمكتب اسمه في سكة الدنانير والدراهم ثم وجد عليه خبسه وقيده فغنت له جارية تستعطفه على خطاب .

يا أيها الملك الميمون طأره رفقا فإن يد المعشوق فوق يدك
كم ذا التجلد والأحشاء خافقة اعيزك فك أن تسطو على كبلك

فرضى عن خطاب وإعاده إلى منزله :

وهكذا نرى هذه العوامل الداخلية الثلاثة قد تضافرت على الدولة حتى تخرت عظامها وعملت على ضعفها ثم سقطت .

(ب) الأسباب الخارجية :

استطاعت دولة الأغالبة أن تقف في وجه الإدارة والأمويين

== (ب) المؤنس في أخبار أفرينية وتونس لابن أبي ديار ص ٥٠

(ج) الكامل لابن الأثير ج ٨ ص ٧

والرستميين وأن ترد حملة الطولونيين وتتمكن من قطع دابر الروم بل استوائت على صقلية منهم .

ولسكنها مع وقوفها في وجه الإدارة لم تستطع أن تمنع الدعوة الشيعية من أن تنسرب إلى داخل الدولة وأن تتمكن أخيرا من محاربتها واسقاطها والاستيلاء عليها .

فقد ظهر أبو عبد الله الشيعي بكتامة يدعو للرضا من آل محمد وبيطون الدعوة لعبيد الله المهدي من أبناء اسماعيل الأمام واتبعته كتامة فنظمهم عسكريا وزحف بهم على أفريقية واستولى على مدنها الواحدة بعد الأخرى إلى أن حلت الهزيمة الكبرى على الجيش الأغلب وصرقا للجو للداعي فاستولى على القيروان ثم استولى على بقية أفريقية .

وكان وصول عبد الله الشيعي إلى أفريقية في أيام إبراهيم ابن أحمد (إبراهيم الثاني) ، يقول ابن خلدون^(١) وبعث إبراهيم رسوله إلى الشيعي بانكحان يهدده ويحذره فلم يقبل واجابه بما يكره .

ويقول د / حسن إبراهيم : إن إبراهيم حاول أن يجذب الشيعي إليه أول الأمر وأرسل إليه رسالة يعده ويتوعده فيها فلم يجبه أبو عبد الله إلى ما طلب ورد عليه بكتاب يدل على جرأته واستصغار شأن الأغالبة ومن ثم أخذ الأغالبة يرسلون حملاتهم لمحاربة الأسماعية وكانت أولى هذه الحملات في سنة ٢٨٧ هـ أي قبل وفاة إبراهيم الأغلب بسنتين وكان النصر فيها حليف أبي عبد الله ولكن إبراهيم الأغلب عول على مواصلة القتال فأرسل جيشا آخر لكنه لم يلبث أن حلت به الهزيمة^(٢) .

(١) كتاب العبر لابن خلدون ج ٤ ص ٢٠٤

(٢) انظر تاريخ الدولة الفاطمية د / حسن إبراهيم ص ٥٠ .

ولما ولي زيادة الله وأخذ في قتل أعمامه وأخوته اشتدت شوكة أبي عبد الله الشيعي وقوى أمره وأخذ زيادة الله يرسل الحملات فتبوء بالهزيمة أمام أبي عبد الله الذي انتزع منه البلاد واحدة بعد أخرى ففي سنة ٢٩٢ هـ أرسل زيادة الله جيشا بقيادة إبراهيم بن حبشى فالتقى بجيش عبد الله بكيوتة فكانت بينهما وقعة عظيمة فانهزم إبراهيم ووقع في القتل أصحابه فذهب كثير منهم ونجا الباقي في ظلمة الليل واشتغلت عنهم كتابة بالغنيمة وبالأموال والسلاح والسروج واللجم وضروب الأمتعة وهي أول غنيمة أصابها الشيعي فكثر عندهم السلاح وقويت روحهم المعنوية وتحققت آمالهم وادى ذلك إلى ضعف الروح المعنوية بين جند زيادة الله .

وجمى زيادة الله بعد ذلك جيشا يتسكون من أربعين ألفا انتهى إلى قسطنطينة فأقام بها واسكن عبد الله الشيعي تمكن من التغلب عليه واستولى على طبنة ومدينة ينجيت وشاع عن الشيعي وقاؤه بالأمان فأتمته الناس وكثر الأرجاف بزيادة الله فجمى زيادة الله جيشا آخر سار إلى الأربس بقيادة إبراهيم بن أبي الأغلب سنة ٢٩٦ هـ فزحف إليه عبد الله الشيعي في مائتي ألف من العساكر فاقتتلوا أياما فانهزم إبراهيم وفر إلى القيروان ودخل الشيعي الأربس فاستباحها^(١) فلما رأى زيادة الله تتابع الهزائم على جيوشه استعد للخروج من رقاده وجمع ماخف من الجواهر والمال وحرك خاصته للخروج معه فلما كان وقت صلاة العتمة من ليلة الإثنين لأربع بقيت من جمادى الآخرة ركب فرسه وتقلد سيفه وقدم الجمال تمر بين يديه وخرج متوجها إلى مصر وأخذ السير حتى وصل إلى طرابلس ونابغ السير إلى مصر .

(١) أنظر (أ) كتاب المعبر لابن خلدون - ج ٤ ص ٣٥

(ب) الكامل لابن الأثير - ج ٨ ص ١٥

(ج) البيان المغرب لابن عديم - ج ١ ص ١٤٢

وأصبح الناس من ليلة خروج زيادة الله هاربا من رقادة فانتهبوها وأخذوا من بقايا أموال بني الأغلب ومتاعهم وصنوف الآنية من الذهب والفضة .

محاولة لإنقاذ الدولة :

ولما وصل إلى القيروان إبراهيم بن الأغلب المنهزم من الأربس ومن بقي معه من القواد نزل بدار الإمارة وبعث في وجوه الناس وجعل يظهر لهم تقصير زيادة الله وإهماله في إسناد شئون المسلمين إلى من كان يسمى في زوال ملكه وبين لهم فساد كتامة وأبى عبدالله وطلب منهم أن يمدوه بالرجال والمال حتى يتمكن من رد كتامة والتغلب على أبي عبدالله الشيعي وحضر صلاة الظهر فسلم على رأسه بالإمارة فاجتمع إليه الناس وقالوا له بلدنا لا يعرف الفتن ونحن لا نقوم بالحرب وأنت لم تستطع دفع كتامة بالمساكر والسلاح والمال فكيف نقوى نحن على دفعهم بأموال الرعية ثم صاح الناس به لاطاعة لك علينا ولا تبعة في أعناقنا فاخرج عنا فركب فرسة وشهر سيفه ودفع الفرس ونجا هاربا ولحق بزيادة الله .

استيلاء أبي عبد الله الشيعي على رقادة والقيروان

وبلغ هروب زيادة الله أبا عبدالله الشيعي فتحرك من الأربس يريد القيروان وقدم بين يديه غروية بن يوسف وحسن بن أبي خنزير في ألف فارس إلى رقادة فوجدوا الناس ينهبون ما بقي من الأمتعة والأثاث فأمنوهم ولم يتعرضوا لأحد وتركوا لكل واحد ماحله فأتى الناس إلى القيروان فأخبروهم بالخبر ووصل أبو عبدالله يوم السبت غرة رجب فخرج إليه أهل القيروان من الفقهاء والوجوه وجملة التجار فالتقوا به على ساقية عس وسلموا عليه وأظهروا له الرغبة في دولته وسألوه الأمان فأمنهم وحبسهم فعملهم ووعد بالإحسان والعدل فيهم وكان قد وعد قبل ذلك قواد كتامة

ورجالها بأن يوكلمهم القيروان ويبدسط أيديهم فيها ويقطعهم جميع أموال
أهلها فلما سمعوا بأمنته للقوم ساءهم ذلك وكتبوه فيه وذكروا ما كان وعدهم
به فتلا عليهم : وأخرى لم تقدرُوا عليها قد أحاط بها^(١) ، وقال لهم هي
القيروان فقبلوا قوله وسلموا لأمره تم تقدم بإيزال عساكره حول مدينة
رقادة ودخلها وقارىء يقرأ بين يديه هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل
الكتاب من ديارهم لأول الحشر . ويقرأ : كم تركوا من جنات
وهيون^(٢) ، إلى آخر السورة ونزل بالقهر المعروف بقصر الصحن .

وفرق دورها على كتامة ولم يكن بقى أحد من أهلها فيها وأمر فنودى
بالأمان فرجع الناس إلى أوطانهم وأخرج العمال إلى البلاد وطلب أهل
الشمر فقتلهم وأمر أن يجمع ما كان لزيادة الله من الأموال والسلاح وغير
ذلك فاجتمع كثير منه وفيه كثير من الجوارى لمن مقدار وحظ من الجمال
فسأل عمن يكفلن فذكر له امرأة صالحة كانت لزيادة الله فأحضرها وأحسن
إليها وأمرها بحفظهن وأمر لمن بما يصلحهن ولم ينظر إلى واحدة منهن
ولما حضرت الجمعة أمر الخطباء بالقيروان ورقادة فخطبوا ولم يذكروا واحدا
وأمر بضرب السكة وأن لا ينقش عليها اسم واسكنه جعل مكان الاسم من
وجهه : بلغت حجة الله ، ومن الوجه الآخر : تفرق أعداء الله ، ونقش على
السلاح : عدة في سبيل الله ، ووسم الخيل على اتخاذها : الملك لله ، وأقام
على ما كان عليه من لبس الدون الحشن والقليل من الطعام الغليظ^(٣) .

أما زيادة الله فوصل إلى مصر ومها التوشرى عاملا عليها وكتب إلى

(١) سورة الفتح آية ٢١

(٢) سورة المدخان آية ٢٥ الخ

(٣) أنظر (أ) الكامل لابن الأثير ج ٨ ص ١٤١٦ .

(ب) البيان المغرب لابن عذارى ج ١ ص ١٤٢ — ١٤٦ بنصرف .

المقتدر يخبره بزيادة الله ثم سار زيادة الله إلى أن بلغ الرقة فوافاه كتاب أمير المؤمنين يأمره بالعودة إلى بلاده لقتال الشيعي ويأمر عامله على مصر أن يمدّه بما يحتاج إليه من المال والرجال ، فرجع إلى مصر فمأطله العامل بها طال وزيادة الله في أثناء ذلك منعكف على لذاته واستماع الملاهي وشرب الخمر فلما مقامه تفرق جمعه وتخلي عنه أصحابه وتتابعت عليه الأمراض فتوجه إلى بيت المقدس لقصد الإقامة بها فمات بالرملّة ودفن بها ولم يبق بالمغرب من بني الأغلب أحد وكانت فترة ملكهم مائة واثنى عشرة سنة تقرّيباً^(١) .

وهكذا انتهت دون الأغالبة بسبب تفريط أواخر حكمها وميلهم إلى اللهو والفساد وقتلهم لأنصارهم وأقاربهم وإهمالهم في المحافظة على شئون الدولة ولم يقدمهم أثناء كفاحهم مع أبي عبد الله الشيعي تأييد العباسيين بالقول لهم شيئاً فقد ورد كتاب المسكتفي بالله يحث أهل أفريقية على نصرة زيادة الله ومحاربة الشيعي وقرىء كتابه على الناس^(٢) لأن الناس قد كرهوا أسرة الأغالبة لسوء فعال حكمهم في نهاية أيامهم وعدم معاملتهم الرعية معاملة حسنة ولذلك لم تتحرك الرعية للدفاع عن الأغالبة أو تأييد إبراهيم عندما حاول أن يتولى الأمر بعد زيادة الله ويقوم بحفظ الدولة والدفاع عنها .

(١) المؤلف في أخبار أفريقية تونس لابن أبي دينار ص ٥٠ .

(٢) البيان المغرب لابن عذاري .

الفصل الرابع

فتح الأندلس

حالة الأندلس قبل الفتح الإسلامى :

كانت الأندلس التى تشمل شبه جزيرة أسبانيا تابعة لروما القديمة ، إلى أن تمكن القوط^(١) الذين أتوا إليها فى شكل هجرات متتالية من الاستيلاء عليها . وقد أطلق على الجماعة الأولى اسم الوندال وسميت البلاد فى عهدهم فاندولوسيا أى بلد الوندال وسموها العرب بلاد الأندلس .

ظل الوندال يحكمون الأندلس إلى أن هاجمهم القوط ، الغربيون ، وتمكنوا من طردهم إلى أفريقيا سنة ٤٥٦ م واستطاعوا بسط سلطانهم على الأندلس كلها فى نهاية القرن الخامس الميلادى .

وقد اتخذ القوط طليطلة عاصمة للحكم^(٢) . وتأثروا بالحضارة والأنظمة الرومانية فى قوانينهم ونظمهم . واعتنقوا المسيحية ، وظلوا يحكمون الأندلس إلى أن قام المسلمون وغلبوا عليهم سنة ٩٢ هـ / ٧١١ م .

وقد ساد البلاد خلال حكم القوط وضع شاذ من الناحية الاجتماعية والاقتصادية حيث كان المجتمع مقسما إلى طبقات يتحكم بعضها فى البعض الآخر بمنف وقسوة .

(١) القوط : هم إحدى هذه القبائل أو الشعوب البربرية التى هبطت من شمال أوروبا وأوضت صروح الإمبراطورية الرومانية . دولة الإسلام فى الأندلس ، محمد عبدالله عمان : القسم الأول ط ثلاثة مكتبة الخانجي .

(٢) تاريخ ابن خلدون ج ٤ ص ١١٧ منشورات مؤسسة الأعلى .

فكان هناك طبقة النبلاء ورجال الدين والأعيان الذين يتمتعون بخيرات البلاد ويملكون الإقطاعات الشاسعة المعفاة من الضرائب ولا هم لهم إلا التفتن في حباية الأموال وزيادة ثروتهم حتى استحوذوا على ثلثي الأرض الزراعية بدون ضرائب^(١). لينفقوا دخلها في لهوهم ومتعهم وبناء القصور الشاهخة التي ينعمون فيها بأطيب الحياة.

أما بقية الشعب فتوجد في الطبقة الوسطى من التجار وصغار الملاك والحرفيين وعليهم يقع كل العبء في دفع الضرائب الفادحة التي تفي بحاجات الدول وتحصل منهم بقسوة وعنف ثم طبقة شبه الأرقاء الذين يعملون بالزراعة ويباعون ويشترون مع الأرض التي يعملون فيها ولا حرية لهم ولا كرامة.

ومع هذه المغارم الفادحة التي كانت تلحق على كاهل طبقات الشعب الكادحة والفقيرة التي ألقي عليها كذلك مهمة الحرب والدفاع عن الوطن وخاصة بعد أن فقد القوط — لانغماسهم في الترف والنعيم — صفاتهم الحربية القوية. وبذلك صار معظم الجيش المدافع عن الأندلس يتسكون من هذه الطبقات التي تعاني من الظلم والإرهاق ولا تشعر بعزة قومية أو كرامة وطنية وإنما تعاني الدل في وقت السلم ووقت الحرب على حد سواء.

وكان بجوار الطبقات السابقة المسيحية طبقة أخرى تختلف عنها من ناحية الدين وهم اليهود الذين بلغوا عددا كبيرا في أسبانيا حيث بسطوا نفوذهم في المجال الاقتصادي ولكنهم عانوا كثيرا من عسف الملوك

(١) (أ) أنظر مختصر تاريخ العرب ، سيد أمير علي ، ص ١١٢ دار

العلم لليليين .

(ب) المجلد في تاريخ الأندلس ، عبد الحميد الصياد ، ص ٤٤ مكتبة النهضة .

والسكينة والنبلا. وذاقوا شتى ألوان الجور والاضطهاد ودفنهم ذلك إلى التآمر وتدير ثورة على الحكم القائم واسكن مؤامراتهم اكتشفت قبل القيام بها سنة ٦٩٤ م في عهد الملك أجيكا الذي وافقه الاحبار في طليطلة على الشدة في معاقبة اليهود فنكل بهم وصادر أملاكهم وقضى على من بقي منهم حيا بالرق الأبدى للنصارى ووزعهم شيئا وشبانا ذكورا وإناثا على المسيحيين، فأما الشيوخ فقد سمح لهم بالبقاء على دينهم القديم. وأما الشبان والأطفال فقد لقنوا العقيدة المسيحية ونشئوا عليها وصار لا يتزوج عبد يهودى إلا بجارية نصرانية ولا يتزوج يهودية إلا بنصرانى^(١). وبذلك ذاق اليهود مرارة الذل والاضطهاد مع بقية طوائف الشعب التى صارت تنتظر الخلاص مما تعانيه دون أن تجد إلى ذلك سبيلا. وبحوار هذا الوضع الاجتماعى والاقتصادى الظالم كان الوضع السياسى مماؤا بالإضطرابات والانقلابات السياسية.

ففى بداية القرن الثامن الميلادى كان على عرش الأندلس الملك جوتيزا الذى يسميه العرب غيطشة والروايات الأسبانية تختلف فى أمره فيصفه البعض بحسن السيرة وبالحكمة وبالعمل على رد المظالم وإقامة العدل، بينما يصفه آخرون بالظلم والجور والبغى على كل من يخالفه أو يقف فى سبيل أطماعه. وقد تمكن غيطشة من كبت الثورات التى قامت حده وقضى عليها جميعا سوى الثورات التى تزعمها رددريك د لزيق، الذى انضم إليه رجال الدين والأشراف وأعلن نفسه ملكا وتمسك من القضاء على غيطشة بعد خوص حرب أهلية عنيفة كما يذكر الأستاذ عبدالله عنان^(٢).

(١) مختصر تاريخ العرب، سيد أمير على ص ١١٣، عنان : دولة الإسلام
قسم ١ ص ٣٢ تاريخ غزوات العرب : شكيب أرسلان، مطبعة الحلبي.
(٢) أنظر : دولة الإسلام، عنان قسم ١ ص ٣٣، ٣٤.

هذا ما تذكره الرواية الأسبانية التي يأخذها الأستاذ عنان بينما يقول ابن حيان في المقتبس د أن لذريق إنما نال الملك عن طريق الغصب والتسور عندما مات غيطشة الذي كان قبله وكان أثيرا لديه مكينا فاستصغر أولاده لمكانه واستمال طائفة من الرجال مالوا معه فانزع الملك من أولاد غيطشة واستبقاهم^(١). ومن هنا نرى أن لذريق غصب الملك من أبناء غيطشة بدون ثورة على غيطشة وبدون حرب أهلية ويذكر في الكتاب الخزائي وغيره : أن أهل الأندلس الذين ولوا لذريق الملك لعدم رضاهم عن أولاد غيطشة ليتمسكن — أى لذريق — من إقرار الأمن بعد أن اضطرب في الأندلس ، وكان لذريق شجاعا بطلا ليس من أهل الملك إلا أنه من قوادهم وفرسانهم^(٢).

ولعل مما يؤيد الرواية العربية في أن لذريق لم يقتل غيطشة أننا سوف نرى لذريق يستند إلى أبناء غيطشة قيادة بعض فرق الجيش أثناء قتال المسلمين ، ولو كان لذريق قد ثار على أبيهم وقتله كما تذكر الرواية الأسبانية ما أسند إليهم قيادة الجيش أخذا بالخطة والحذر . وإنما شعوره بأن الأشراف والنبلاء هم الذين أسندوا إليه الملك جعله يستند إلى أبناء غيطشة قيادة بعض الفرق في المعركة :

وأيا كان الأمر فإن تولى لذريق الملك لم يقض على الاضطراب السياسي في الأندلس مما حمل لذريق على كبت الثورات التي قامت ضده وخاصة في الشمال عدا المؤامرات التي كان يديرها أبناء الملك غيطشة في سر وكنان .

وبينما كانت الأندلس تعيش في هذا الوضع المضطرب سياسيا واجتماعيا واقتصاديا — يضيق معظم سكانها بالذل والهوان الذي يلقونه من حكامهم فهم يعملون ولكن لا ينالون من نتيجة عملهم شيئا لا يعرفون للحرية طعما

(١) نقلا عن نفع الطبيب ج ١ ص ٢٢٣ - دار الكتاب العربي - بيروت .

(٢) المرجع السابق ص ٢٣٥ .

ولا للكرامة الإنسانية مذاقا - تجد السكان على الشاطئ الأفريقي المقابل يعيشون في حرية وعزة وكرامة في ظل الهداية الإسلامية التي ارتفعت راياتها على أرض يسودها الإخاء والمحبة والعدل الاجتماعي الذي سوى بين البري والعربي ويرنون بأبصارهم إلى الأندلس هادفين إلى غرس بذور الهداية وإقامة مشاعلها التي ستنقذه مما تردي وتجعله المنبع لبعث الحضارة الأوروبية الحديثة .

فما العوامل التي دفعت المسلمين إلى فتح الأندلس ؟

وما العوامل التي ساعدت على هذا الفتح ومهدت له ؟

ثم كيف تم الفتح ؟

وماذا نرى بالنسبة لأمور يتحدث عنها المؤرخون وقعت أثناء الفتح ؟

وأخير ما هي الفتن التي ترتبت على فتح الأندلس ؟

المسلمون يفتحون الأندلس

١ - أسباب فتح الأندلس .

يختلف المؤرخون حول الأسباب التي دفعت المسلمين إلى فتح الأندلس ، ويرى كل منهم أن السبب الذي ذكره هو الذي حمل المسلمين على هذا الفتح . فيذكر البعض أسبابا أخلاقية تتعلق باعتداء لذريق على ابنة يوليان حاكم سبته ، واسمها فلورندا واغتصبها مما أثار حفيظة أبيها ودعاه إلى أن يستعدي المسلمين ويحتهم على فتح الأندلس انتقاما من لذريق^(١) .

ويذكر البعض أسبابا تتعلق بالوضع السياسي الذي نشأ عن اعتلاء لذريق العرش مغتصبا له من أبناء الملك السابق عليه غيطشة واستنجد أبناء غيطشة بالمسلمين بمساعدة يوليان حتى يتمكنوا من استرداد عرشهم وكان المسلمين لم يقدموا إلى الأندلس إلا لإرجاع الحق إلى أصحابه^(٢) .

ويذكر المقرئ أن حديث يوليان إلى موسى بن نصير - هن بلاد الأندلس وحسنها وفضلها وما جمعت من أشات المنافع وأنواع المرافق وطيب المزارع وكثرة الثمار وحرارة المياه وعذوبتها مع ضعف أهلها وقلة بلادهم شوق موسى بن نصير ، إلى فتح الأندلس وكان الأطماع الإقليمية والغنائم هي التي دفعت المسلمون إلى الفتح^(٣) .

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١١٧ ، البيان المقرب ابن عذارى ج ٢ ص ٧ ،
نفح الطيب ج ٢ ص ٢٣٦ .

(٢) البيان ، ابن عذارى ، ج ٢ ص ٥٦ ؛ المجلد في تاريخ الأندلس للمعابد ،
ص ٤٨ .

(٣) نفح الطيب ج ١ ص ٢٣٧ ، دولة الإسلام : عفان قسم ١ ص ٣٩ .

ويرى البعض أن الحرب كانت مستعرة بين المسلمين والبيزنطيين الذين يهاجمون الشواطئ الأفريقية من الجزر القريبة مثل منورقة وميورقة وصقلية وسردانية وجزر البليار (الجزائر الشرقية) وأن أسطول القوط انهم إلى أسطول الروم في مراقبة سواحل أفريقية (١)، مما حمل المسلمين إلى الاستيلاء على جزائر منورقة وميورقة وإريقية فتوجه المسلمون لفتح الأندلس إنما هو مواصلة لهذه الحرب التي كانت دائرة بينها، هذه بعض الأسباب التي أشار إليها المؤرخون لفتح الأندلس.

ومن الممكن أن يسكون ما ذكره المؤرخون أسبابا مباشرة حدثت قريبا من زمن الفتح فظن البعض أنها هي التي حملت المسلمين على فتح الأندلس ولكن الحقيقة في رأينا أن امتداد الفتح إلى الأندلس كان أمرا طبيعيا يتمشى مع حقيقة الدعوة الإسلامية وطبيعته القائمين بها وقد تم ذلك بعد أن تهيأت الظروف الملائمة وحان وقته.

وأهل ما يؤيد هذا نظرة عقبة بن نافع قبل أكثر من ربع قرن إلى شواطئ الأندلس عندما وصل في غزوة إلى سبتة وسأل صاحبها عن العبود إلى الأندلس ولكن الأمور لم تسكن مهينة بعد للقيام بثقل هذا الفتح، فتأجل ذلك إلى عهد الوايد وقيادة موسى. حيث خبر المسلمون ركوب البحر واستولوا على الجزر فيه ونوطدت أقدامهم في أفريقية المسلمة فإذا بأفريقية المسلمة عربا وبربرا تتوجه إلى الأندلس لتواصل تبليغ وبسط سلطان الإسلام.

وبما يؤيد ذلك أيضاً متابعة المسلمين بعد فتح الأندلس تنفيذ الخطة العامة للفتح الإسلامي بالتوجه إلى فرنسا تدفعهم نفس الأسباب والدوافع

(١) مختصر تاريخ العرب، أمير على ص ١١١، تاريخ العرب العظام،

التي حملتهم على الخروج من جزيرتهم دون أن يكون هناك سبب من الأسباب التي ظن بعض المؤرخين أنها هي التي حملت المسلمين على فتح الأندلس^(١) ولولا العوامل المضادة التي قابلت المسلمين في فرنسا ثم بعض الأسباب التي طرأت على المسلمين أنفسهم لما توقف المد الإسلامي ولاستمر لكي يشمل أوروبا والبسيطة كلها تنفيذا لقول الله تعالى :

« وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » .

ومن ذلك نرى أننا لا نميل أبدا إلى هذه التعلات التي تذكر بحسن نية أو بسوء نية في كثير من الأمور التي قام بها المسلمون لتهون من شأن الفتح الإسلامي وتبين أن المسلمين ما انطلقوا إلى القيام بعمل ما إلا بتأثير خارجي حملهم على القيام به .

٢ — العوامل المساعدة والممهدة للفتح :

وقد ساعد المسلمين على تحقيق فتح الأندلس أمور منها :

١ — استقرار أقدام المسلمين في أفريقية واعتناق البربر للإسلام وحماستهم لحل دعوته وبذلهم أرواحهم بسخاء في سبيل ذلك وحبهم في أن يكون لهم من الجهود في سبيل دعوة الإسلام مثل ما للعرب المسلمين .

٢ — اليقظة والحذر اللذين اتصف بهما المسلمون بمحاولة التعرف على حال البلاد عمليا بتوجيه بعض الحملات الخفيفة السريعة التي تعرف بها طبيعة البلاد وحالة أهلها وتمعيم عودها وتمعطي للمسلمين جسارة على مواجهة عدوهم .

٣ — تعريف مقر الخلافة بخطة الفتح وإحاطتها علما بمجريات الأمور

(١) انظر : الخلفاء الراشدون للذوائف بالاشتراك ص ٣٤ — ٣٨ .

لتسكون على أهبة للمعاونة وإرسال المدد إذا لم تنجح خطة الفتح وذلك
بعضى للحملة صفة الشرعية المستمدة من مقر الخلافة الساهرة على حماية
الإسلام وتعاليمه وتبليغها للعالمين .

٤ — وذل المسلمين جهدهم لتسكوين دار صناعة (ترسانة بحرية)
وأسطول بحرى فى الشمال الأفريقى ابتداءً حسان بن النعمان ، وواصل موسى
ابن نصير التوسع فى تسكوين الأسطول ، فقد أخذ فى عمل السفن حتى صار
عنده منها عدة كثيرة ،^(١) .

٥ — حالة بلاد الأندلس التى سبق الحديث عنها فى الفصل السابق من
اضطراب من الناحية السياسية واغتصاب للعرش ، وفروق شاسعة بين
الطبقات فى الناحية الاجتماعية ، ثم الظلم الصارخ فى توزيع الثروات مما يفقد
غالبية الشعب روح الدفاع عن البلاد عند المهاجمة .

٦ — ثم أخيراً ما يذكر عن يوايان حاكم سبته ورجاله حيث كان يدل
المسلمين على الموراث ويتعسس لهم الأخيار^(٢) .

كل ذلك وغيره من الأمور التى ساعدت على الفتح الإسلامى الأندلس .

٣ — كيف تم فتح الأندلس ؟

عندما أطمأن موسى بن نصير على قدرة المسلمين لمكى يعبروا إلى
الأندلس بعد أن تثبتت أقدامهم فى أفريقية كتب إلى أمير المؤمنين الوليد
ابن عبد الملك يخبره بذلك — ويستأذنه فى اقتحام الأندلس . فكتب إليه
الوليد . « أن حضنها بأسرايا حتى ترى وتختبر شأنها ولا تغرر بالمسلمين فى

(١) نفع الطيب المرقى ج ١ ص ٢٤١ .

(٢) نفع الطيب المرقى ج ١ ص ٢٤١ .

بحر شديد الأهوال (١).

لذلك أرسل موسى حملة حربية صغيرة مكونة من مائة فارس وأربع مائة راجل بقيادة طريف بن مالك في أربع سفن سنة ٩١ هـ فنزلت في المكان الذي يحمل إلى اليوم إسم طريف وكان هدف هذه الحملة الصغيرة الممارسة العملية لمعرفة طبيعة البلاد ومحاولة استكشاف ومعرفة أحسن الأماكن التي يمكن انزال الجيش فيها ، ولذلك نجد الحملة الكبرى بعد ذلك وهي حملة طارق بن زياد لا تنزل في مكان طريف وإنما تنزل في مكان آخر وهو جبل طارق مما يدل على أنهم وجدوا ذلك المكان أنسب وأسلم من مكان طريف ، كما عادت الحملة بالغنائم والأثقال وأعطت صورة حقيقية قدمتها إلى القائد العام وإلى شمال أفريقية موسى بن نصير .

ومن هنا لا يرى موسى بن نصير يأخذ بكلام يوليان على فرض صحة ما يسند إليه من أنه هو السبب في فتح الأندلس وإنما يطبق أسلوب المسلمين العمل في الاستكشاف بأنفسهم حتى يستطيعوا تقدير الأمور على حقيقتها .

ومن ثم أخذ موسى يعد الحملة التي ستكون مقدمة للاستيلاء على الأندلس فجاء في بناء السفن وتجهيزها ولاشك أنه استعان مع هذا بكل السفن التي كانت تنردد بين أفريقيا والأندلس سواء كانت ليوايان أو غيره حتى يتمكن من نقل الجيش الذي بلغ تعدادة سبعة آلاف معظمهم من البربر ، وقد اهتم بالحصول على خير في معرفة شهور السريان والمعجم ليستفيد منه في معرفة الطقس الملائم للحملة وأسند (٢) قيادة الجيش إلى مولاه طارق بن زياد الذي لمس فيه موسى الكفاءة لقيادة هذه الحملة .

(١) نفس المرجع ج ١ ص ٢٢٧ .

(٢) الامامة والسياسة للديفري ج ٢ ص ٧٣ .

وتمكن طارق والمسلمون معه من النزول في جبل طارق في شعبان سنة ٩٢ هـ بعد أن قضوا على المقاومة التي تصدت لهم وفتحوا حصن قرطاجنة الذي كان في سفح هذا الجبل^(١). وبدأ طارق ببسط سلطانه على الأماكن المجاورة لجبل طارق، وهنا أخبر حكام الأقليم لذريق الذي كان مشغولا باخماد ثورة قامت ضده في الشمال بما يحدث في الجنوب فأدرك مدى الخطر الذي يهدد ملكه بالزوال وباحتلال البلاد فأسرع وأرسل جيشا إلى طارق كي يتصدى له ويوقف تقدمه وكان الجيش يصل تباعا في فرق كبيرة فكان طارق يلتقي بها، ويقضى عليها، وكان على أحد هذه الفرق ينج ابن أخت لذريق وأكبر رجال لذريق وقد تمكن المسلمون من هزيمة كل هذه الفرق التي بعثها إليهم لذريق وتمزيق شملها، وقد زاد ذلك من حماس المسلمين وقوى روحهم المعنوية كما كان له تأثير مضاد في نفوس القوط^(٢).

لم تغن هذه البعثات التي أرسلها لذريق لايقاف المسلمين أو ردهم على أعقابهم شيئا وتبين له أن المسلمين مع قلتهم في حاجة إلى حشد كبير من القوط وإلى أن يقود بنفسه المعركة. وكان لذريق معروفا بالشجاعة والعزم والقسوة والجبروت وكان ذلك يثير خوف من حوله. وقد استطاع أن يضم إلى هذا الجيش كثيرا من الأمراء والأشراف والاساقفة الذين حشروا كل رجالهم وأتباعهم فتسكون منهم جيش ضخم اختلفت الروايات في تقديره بين مائة ألف وتسعين ألفا ويذكر ابن خلدون أنه كان أربعين ألفا^(٣)، وقد توجه بهم لذريق جنوبا صوب المسلمين للقائهم.

(١) ابن عذاري ج ٢ ص ٩، دراسات في تاريخ المغرب والاندلس، أحمد

العبادي ص ٢١.

(٢) ابن عذاري ج ٢ ص ٨٢.

(٣) تاريخ ابن خلدون ج ٤ ص ١١٧، ودولة الإسلام، عمان، ص ٤٣.

علم طارق بهذا الجيش الضخم فأرسل إلى موسى يصف له الوضع ويستجده فأرسل إليه خمسة آلاف فبلغ المسلمون اثني عشر ألفاً يملأوهم الإيمان حماساً وثقة في نصر الله وتمكينهم من رقاب أعدائهم وتبليغ دعوتهم . وتقدموا نحو الشمال حيث التقوا بجيش القوط الكبير في الثامن والعشرين من رمضان سنة ٩٢ هـ في سهل (الفلنتيرة) حيث دارت المعركة الفاصلة بين المسلمين والقوط والإسلام والنصرانية واستمرت ثمانية أيام قاسية خاضها المسلمون بعددهم القليل المتعاسك المؤمن بالنصر أو الشهادة ، والقوط بأعدادهم الكبيرة وبأهوائهم المختلفة التي تجلى فيها التفقت السياسي والاجتماعي الذي سبق أن تحدثنا عنه فتحقق فيهم وفي المسلمين قول الله تعالى « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين » ، فهزم الجيش القوطي وتشيت في أنحاء البلاد وقتل الملك لذريق أو غرق في بعض الروايات وتحقق للمسلمين النصر .

وقد سميت هذه المعركة بأسماء عدة فهي معركة وادي لسكة أو بكة ومعركة شذوته والبحيرة .

وربما كان استمرار المعركة ثمانية أيام متتالية وقع فيها كروفر وإعادة ترتيب وتخطيط وتحري كل جيش لاختيار المكان المناسب له يوماً بعد يوم حسب المد والجزر في أرض المعركة قد جعل رضى المعركة تدور في هذه الأماكن التي تقع في وادي الفلنتيرة وأدى إلى اختلاف الرواة في المكان الذي تم فيه فصل المعركة وكان جديراً بحمل اسمها وأخذ كل منهم يذكر المكان الذي اقتنع به^(٢) .

(١) تاريخ ابن خلدون ج ٤ ص ١١٧ ، ودولة الإسلام ، عنان ، ص ٤٢ .

(٢) أنظر : البيان لابن عداري ج ٢ ص ٨ ، دراسات للعبادي ص ٣٣ - ٣٥ .

عنان : دولة الإسلام ص ٤٢ ، ٤٥ . نفح الطيب ج ٢ ص ٢٤٢ :

ونحب أن نذكر هنا أن المؤرخين يشيرون كثيرا إلى قلة الجيش الإسلامى وكثرة جيش القوط ثم يشنون بالحديث عن الخيانة التى كانت تحيط بجيش القوط فقائدا جناحى جيش القوط من أبناء غيطشة الذى قتله لذريق واغتصب العرش من أبنائه والخيانة منتشرة بين قواد الجيش قال كل يريد السلامة . ثم يقولون أن يوليان وأوراس أسقف طليطلة فى صفوف المسلمين ويعملون على تثبيت القوط ، وكل هذا يجعل الهزيمة نحل بالقوط ، وعلاوة على ذلك يقول أن لذريق حضر المعركة وهو متوج بالآلى متشح بالحرير والذهب مضطجع فى هودج من العاج ويعييون عليه ذلك .

وهنا نذكر بالنسبة للأمر الأول : أن جيش المسلمين فى كل المواقع الفاصلة التى خاضها ضد أعدائه فى اليرموك والقادسية ونهاوند وعين شمس وسبيطلة وغيرها من المواقع الفاصلة فى تاريخ المسلمين كان دائما قليل العدد بالنسبة لعدوه ولكنه كان ينتصر فى النهاية . لا بالعدد وإنما بالاستعداد ، وبالمبادئ التى يؤمن بها ويدعو إليها فكانت هى التى تجعله يتغلب على أعدائه الكثيرين .

أما الخيانة التى يتحدثون عنها فلو حدثت منذ البداية وكانت مدبرة لما استمرت المعركة ثمانية أيام . وإنما قوة المسلمين وبأسهم وطول أيام القتال وشدها جعلت القوط يفرون ولا يثبتون مثل ثبات المسلمين بعد أن لاقوا العناء فى القتال .

ومع ذلك فقد يكون هناك تناخل فى القتال وخاصة من الجنود نتيجة لوضعتهم الاجتماعى المنهار وابن عبد الحكم يذكر ، تخلف يوليان ومن كان معه من التجار بالحصراء^(١) ليسكون أطيب لأنفس أصحابه وأهل بلده^(٢) .

(١) القضاة : مدينة على المحاز إلى الاندلس بما إلى طنجة .

(٢) فتوح مصر ، المغرب لابن عبد الحكم ، ص ٢٧٧ .

ولذلك نجد ابن عذارى يروى حضور بوليان بعد انتصار المسلمين في المعركة فقد قدم بوليان ، على طارق في الخضراء مستقرة فقال له : لقد فتحت الاندلس نخذ من أصحابي أدلاء ففرق معهم جيوشك وسر أنت إلى المدينة طليطلة (١) ، وذلك يدل على عدم شهوده القتال .

أما بالنسبة للحمية التي كانت يتحلى بها لذريق أثناء المعركة فإننى أعجب كيف يذكرون ذلك مع حديثهم عنه بأنه كان بطلا شجاعا وفارسا مقداما فلم تخل عن شجاعته وفروسيته أثناء هذه المعركة التي يتوقف عليها ثبات أركان عرشه ؟

ثم كيف يقال ذلك مع أن هذه المعركة قد استمرت ثمانية أيام قاسية ولذريق يقودها بقوة وشجاعة والمسلمون يشددون الحملة ويقدمون الشهداء ؟

فلاشك أن المعركة كانت حامية الوطيس شديدة الوطأة بذل فيها كل من الطرفين كل طاقتهم إلا أن الغلبة كانت في جانب المسلمين . ولعلنا نستطيع أن نتصور شراسة هذه المعركة من طول أيامها إذا قارناها بمعارك الإسلام الكبرى كاليرموك والقادسية .

إن الذى يبدو لى أن لذريق وحيشه كان بطلا وشجاعا كما يصفون . وأنه قاتل وبذل كل جهده وطاقته إلا أن كلمة الله قد سبقت بأن جند الله هم الغالبون .

حرق طارق للسفن :

وهناك أمر يتحدث عنه بعض المؤرخين ويحاول أن يؤيده بما يروى من بعض حوادث التاريخ المماثلة وهو حرق طارق للسفن التي عبر عليها

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٩٠ .

إلى الأندلس^(١) كي يحمل المسلمين على قطع الأمل في التراجع عن الفتح حيث لا سبيل إلى ذلك إنما هو النصر أو الفناء .

وربما يستشهدون لذلك بما ورد في الخطبة التي قالها طارق أثناء المعركة: أيها الناس ! أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم وليس لكم إلا الصدق والصبر . . . الخ . مع ما يدور حول صحة نسبة هذه الخطبة إلى طارق لعدم استقامة لسانه العربي إلى هذا الحد من البلاغة والتألق في الأسلوب .

ولا أرى أن طارق قد أحرق السفن التي عبر عليها لأنه يعلم أن الجنود الذين عبروا معه ليسوا هم القوة الوحيدة التي يملكها الجيش الإسلامي حيث يضطر إلى قطع أملهم في التقهقر إذا أغرمتهم الظروف إلى ذلك ، بل يعلم أن خلفه رقعة فسيحة مملوءة بجنود الإسلام وهم على أتم الاستعداد للعبور إليه وقت الحاجة أو لمواصلة الجهاد والفتح إذا ما فشلت هذه الحملة ولعل فتح أفريقية خير دليل على ذلك .

وطارق يعلم أيضا أنه قد اضطر قبل المعركة إلى طلب المدد من موسى ابن نصير عندما رأى كثرة جنود القوط فأمدّه موسى بخمسة آلاف جندي عبرت بالسفن إلى الأندلس . ولا شك أنه لو طلب مددا ثانيا وثالثا لأمدّه موسى على فرض صحة ما يروى من إحراق السفن . فكيف كان المدد الذي يرسله إليه موسى يستطيع أن يصل إليه ؟

ثم إن الخطبة البليغة التي تذكر إحراق السفن كانت وقت قيام المعركة التي تبعد كثيرا من الشاطئ فهل حرق السفن بمجرد عبوره ؟ أم بعد فترة

(١) انظر : دراسات للغبادي ص ٢٦ ، مع المسلمين في الأندلس ، حبيبة

ص ٩٨ ، نفح الطيب للبقرى ص ١ ص ٢٤٢ .

من العبور ووصول النجدة التي طلبها ؟ ولو حدث ذلك لما كان له التأثير القوي الذي يهدف إلى أثارته في نفوس جنوده .

ولنا أن نتساءل كيف عبر موسى بجيشه الذي بلغ ثمانية عشر ألفا بعد ذلك بعام واحد ؟

هل اضطر إلى بناء أسطول جديد في مدى عام واحد لكي يعبر عليه جيش أكبر من جيش طارق وذلك يكلف موسى الجهد الكثير ؟ وإذا افترضنا أن إحراق السفن قد حدث فهل يمر ذلك دون أن يكون محل مساءلة من موسى لطارق ؟ خاصة وبعض المؤرخين يشير إلى حدوث سوء تفاهم بين القائدين نتيجة المخالفة أمر صدر من القائد الأعلى بتثبيت أقدام المسلمين فيها يملكون قبل التوسع في الفتح .

وأمر آخر نثيرة هنا وهو أن بعض الروايات تذكر أن هذه السفن لم تكن للمسلمين وإنما كانت ليوليان وبعض التجار فكيف يجوز لطارق أن يحرقها وهؤلاء يملكونها وإذا حرقها ألا يشير ذلك عليه يوليان الذي يقال أنه كان مساعدا له وكذلك يشير عليه التجار الذين يملكون هذه السفن التي تعد وسيلة ارتزاقهم .

وإذا كان هدف طارق أن يقطع بحرق السفن التردد لدى جنود المسلمين في العودة إلى أفريقية فإن من الممكن أن يحقق هدفه دون أن يلجأ إلى إحراقها .

وأخيرا فإننا لا نجد أحدا من المؤرخين القدامى كالبلاذري وابن خلدون وابن عذاري وغيرهم يشير إلى حرق السفن . ولم يذكر حرق السفن كما يقول العبادي إلا في كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء لابن الكردديوس^(١)

(١) عبد الملك بن الكردديوس المؤرخ التونسي الذي عاش في أواخر القرن السادس الهجري .

ونزهة المشتاق للادريسي والروض المعطار للحميري^(١).

وذلك دليل على اختراع هذه القصة أو وضعها مثل الخطبة التي يسند إلى طارق أنه قالها يوم التقائه بلذريق وجيشه.

إتمام فتح الأندلس :

كان انتصار المسلمين على القوط في معركة شدونة قد مكن المسلمين من وضع أقدامهم بثبات على أرض الأندلس وحصلوا على مغنم كثيرة يجمل تقديرها وقد جمع طارق النخبة وخمسة^(٢) وكتب طارق إلى موسى بن نصير بالفتح وبالفنائم وبقي على المسلمين تكملة المهمة التي أتوا من أجلها باستيلائهم على الأندلس كلها.

ولاشك أن القوط قد ذهلوا لما حل بهم من هزيمة في المعركة التي لم يكونوا يتوقعوها من هذا الجيش الصغير. فكان لهذه المعركة أثر كبير في بث الخوف والهلع في نفوس القوط، إلا أن ذلك لم يمنع بعضهم من الدفاع عن ممالكهم وأرضهم مدينة بعد مدينة والمسلمون يصرون على مواصلة الفتح والقوط مصرون على الدفاع.

فقد اجتمع الجيش القوطي عند استجبه، محاولاً رد المسلمين، فتوجه إليهم طارق فهزمهم وفرق جمعهم ثم وضع خطة ليستولى على المدن والحصون بفرق من الجيش ويتوجه هو إلى العاصمة طليطلة للاستيلاء عليها.

وقد بين ابن عسار^(٣) تلك الخطة بأن طارقاً أرسل من استجبه مغيثاً

(١) انظر : دراسات للعبادي ص ٢٢ .

(٢) نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٣ .

(٣) البيان المغرب ص ٩ - ١٧ وقد أثرت الخطة المنظمة التي ذكرها ابن

عسار وهي مختلفة عن بعض الأمور بالنسبة لما ذكره المقرئ في نفح الطيب نقلاً

عن الرازي عسى بن أحمد الرازي توفي آخر القرن الرابع الهجري ٢٤٢ - ٢٤٤ .

الرومي مولى عبد الملك بن مروان في سبع مائة فارس إلى قرطبة فاستولى عليها بعد قتال وحصار دام ثلاثة أشهر ، وبعث جيشا من استجه إلى مالقة ففتحها وجميع أعمال بارية وقد لجأ حكامها إلى جبال رية الشاخنة المنيعه فتحصنوا بها وتمكن الجيش الذي أرسله طارق إلى غرناطة من فتحها بعد حصار قصير ثم توجه الجيش من غرناطة إلى مرسية وكانت تسمى تدمير باسم حاكمها وقاعدتها مدينة أوريوله وقد التقى حاكمها تدمير بجيشه مع المسلمين في قتال شديد هزم فيه وفقى معظم جيشه فاجأ إلى الحيلة حيث أومم المسلمين بكثرة الجند الذين في المدينة (أوريوله) وهم في الحقيقة من النساء وبذلك تمكن من عقد صلح مع المسلمين حفظ به المدينة من السبي .

وبعد أن وجه طارق هذه البعوث سار بجيشه إلى طليطلة عاصمة القوط فوجد حاكمها قد فر مع أصحابه بأموالهم إلى مدينة خلف الجبل تسمى مدينة المائة ولم يبق بالمدينة سوى اليهود (وقليل من النصارى) فاستولى طارق على المدينة وترك بها بعضا من أصحابه وتبع الفارين إلى مدينة المائة فاستولى عليها وغنم ما فيها ثم عاد إلى طليطلة وبعقب ابن هذاري على ذلك بقوله : هكذا أثر الناس هذا كله على أن طارق صنعته وقال آخرون : بل أقام طارق حيث كانت الوقعة وجاز إليه موسى وقيل بل وجدته بقرطبة (١) .

وأيا كان الأمر فقد عبر موسى بن نصير إلى الأندلس في رمضان سنة ٩٣ هـ بجيش قوامه ثمانية عشر ألفا لكي يكمل مع طارق فتح الأندلس .

(١) البيان المغرب لابن عذاري ج ٢ ص ١٢٠ .

وقد توجه موسى إلى شذونة فافتتحها عنوة ومنها سار إلى قرمونة المشهورة بحصانتها وصبرها على طول الحصار والقتال فتتمكن بالحيلة من فتحها ودخلها المسلمون عنوة وتقدم موسى بد ذلك إلى أشبيلية أعظم قواعد الأندلس ودار ملك روم روما قبل غلبة القوط على الأندلس فحاصرها أشهراً ثم تغلب عليها . ومنها سار إلى ماردة فخرج اليه أهلها فقاتلهم فانسحبوا إلى المدينة بعد أن قتل منهم جماعة في كمين دبره لهم وضرب عليها الحصار أشهراً استخدم المسلمون خلالها دباباً يحتمون بها لنقب أحد أبراج سورها فثار القوط على المسلمين الذين ينقبون السور تحت الدبابة في غفلة منهم فاستشهدوا تحتها وسمى ذلك البرج « برج الشهداء » . وقد دعا موسى القوم إلى الصلح فاستجابوا له على أن تكون أموال القتلى يوم الكمين في أموال الهاربين إلى جليقية وأموال الكنائس للمسلمين ودخل المسلمون المدينة يوم عيد الفطر سنة ٩٤ هـ واستولوا عليها . وأثناء حصار موسى لماردة ثارت أشبيلية على المسلمين فيها وقتلوا منهم ثمانين رجلاً فلما تم فتح ماردة أرسل اليهم موسى ابنه عبد العزيز بجيش ففتح أشبيلية ثانياً وقتل الثائرين فيها ونهض إلى ليلة ففتحها واستقامت الأمور فيها وفي أشبيلية وعلا شأن الإسلام فيها .

وبعد أن فرغ موسى من أمر ماردة توجه إلى طليطلة ، فاستقبله طارق بوجوه الناس بمقربة من طليطلة معظماً له ومبادراً لطاعته فوجّه موسى وغضب عليه . وقيل أنه وضع للسوط على رأسه وقيل أنه ضربه أسواطاً كثيرة وحلق رأسه ثم سار به إلى طليطلة (١) . وغير ذلك من الأمور التي سنناقشها بعد الانتهاء من عرضنا للفتح .

وإذا تجاوزنا ما حدث في هذا اللقاء حسب ما تصوره أقلام بعض

(١) ابن عذاري ج ٢ ص ١٦

المؤرخين فإننا نجد أمرا يناقض وصفهم تماما وذلك أن القائدين بعد لقائهما يضعان خطة لاتمام فتح ماتبقى من الاندلس . فيخرج الجيش الاسلامي من طليطلة وعلى مقدمته طارق ومن خلفه موسى في بقية الجيش متوجهين الى الشمال الشرقي فيفتحان سرقسطة وما حواها من الحصون والقلاع ثم يوغلان في البلاد ولايمرون ببلد الا فتح عليهما وصارت تراغونه وبرشلونه وغيرها من المدن الرئيسية في الشمال في ايديهم ثم وجه موسى طارقا الى جليقية وسار هو الى البرنية فغزا سبتمانيا التي كانت تابعة للقوط واستولى على قرشونة واربونة وحصن لودون على وادي ردونه . وقد انزعج لذلك ملك الافرنج بالارض الكبيرة (فرنسا) وخرج الى المسلمين في جموع كثيرة لم تتمكن من أن تنال من المسلمين شيئا واضطر ملك الافرنج الى العودة الى بلاده بعد أن أقام حصونا على وادي ردونه ملأها بالمقاتلين وصيرها ثغرا بين بلده والمسلمين^(١) . وقد رأى موسى أن من الممكن أن يواصل الفتح في جنوب أوروبا حتى يصل الى مقر الخلافة فاتحا القسطنطينية ولكن الخليفة لم يوافق على هذا المشروع .

عند ذلك رأى موسى أن يوجه الجهد إلى إخضاع الاقسام الجبلية من الاندلس حيث كان المسيحيون يعتصمون بها في دفاع يائس ضد المسلمين .

وقد تمكن الجيش الاسلامي من دخول جليقية والاستيلاء على معظم قلاعها وطارد العدو الذي فر الى جبال اوستراس واعتصم بها فحاول موسى محاصرة العدو وإرغامه على الاستسلام جماعة بعد جماعة حتى لم يبق سوى زعيم يدعى بلاى أو بلايو وقليل من أنصاره .

وبينما كان موسى يشدد عليه الحصار حتى كاد أن يلقى سلاحه اذا بالخليفة

(١) فتح الطيب ٢/٢٥٦ من ابن حبان .

يرسل أبا نصر متعجلاً موسى في العودة إلى دار الخلافة بعد أن استبطأ رجوعه
لأثر وصول رسوله الأول مغيث الرومي . فعاد موسى تاركاً ذلك الزعيم ومن
معه معتصماً بالجبال واستهان بهم المسلمون بعدهم في الأندلس فاذا بهم ينمون
حتى كونوا المملكة النصرانية في الشمال التي قدر لها أن تتمكن بعد ثمانية
قرون من طرد المسلمين من الأندلس^(١) .

وقبل أن يعود موسى إلى المشرق نظم شئون الحكم لهذه البلاد الشاسعة
فعين ابنه عبد العزيز على إمارة الأندلس وجعل مقره أشبيلية وكانت مقراً
للحكم أيام الرومان وعين ابنه الثاني عبد الله على إفريقية وابن الثالث عبد الملك
حاكماً على المغرب الأقصى وعهد إلى عبد الصالح بقيادة الأسطول وحماية
السواحل وجعل مقره طنجة .

وبعد أن اطمأن موسى إلى ما اتخذ من تدابير لإدارة شئون المغرب
والأندلس توجه إلى المشرق في شهر ذي الحجة سنة ٩٠ هـ وطارق معه ومعهما
من الغنائم والسي والجواهر والذخائر ونفيس الأمتعة ما لا يقدر قدره حتى
قدم دمشق فيقال أنه وصلها في أواخر أيام الوليد وقدم إليه كل ما غنموه
فجعلها الوليد في بيت المال وهنا يجد بعض المؤرخين مجالاً للتخيل فيذكرون
أن سليمان نكب موسى بوحشية عندما أفضت الخلافة إليه لتسرع في القدوم
على الوليد كما يذكرون أن القاتدين العظمين قد وصلوا إلى درجة من
الاسفاف في الخصومة أمام الخليفة وموسى يقدم إليه تقريراً عن الفتح وغنائمه .

(١) انظر ابن عذاري ج ٢ ص ١٦، ١٧ نفح الطيب للمقرئ ج ١ ص ٩٥٥ —
٢٥٩ ، عنان : دولة الإسلام قسم ١ ص ٣٨ — ٥٦ ، دراسات في المغرب
والأندلس للعبادي ص ٣٥ — ٤٢ ، حيدية : مع المسلمين في الأندلس ص ٩٧ — ١٠٠ ،
أرسلان تاريخ فزعات العرب ص ٢٦ — ٤٦ .

٤ — ما يتحدث عنه المؤرخون من أمور وقعت أثناء الفتح :

ونود قبل أن نتحدث عن نتائج الفتح أن نقف وقفة تأمل ونمحيص
نستجلى فيها الحقيقة عما يسجله بعض المؤرخين عن :

(١) عبور موسى إلى الأندلس ولقائه طارق .

(ب) ما يذكر عن سبب منع موسى من مواصلة الفتح في أوربا .

(ج) لقاء موسى بأمر المؤمنين في مقر الخلافة حيث نجد
العجب العجيب .

(أ) فبالنسبة للموضوع الأول : نجد ابن حيان يبين أن سبب عبور

موسى هو الحسد^(١) لطارق ، وعبر ابن خلدون عن سبب العبور بالغيرة من
طارق^(٢) ، وذلك أمر قد جانب الحقيقة .

فلا شك أن انتصار المسلمين في معركة شذونة بعد قتال دام ثمانية أيام
قد حقق المسلمون فيه النصر إلا أنهم قد فقدوا كذلك كثيرا من الشهداء
ولم يذكر المؤرخون تقديرا لهذه الخسائر في كلا الجانبين ومن المؤكد
أنها كانت كبيرة .

وفقد المسلمين لبعض الشهداء ثم استيلاؤهم على بعض المدن بعد ذلك
وترك بعض الحاميات بها قد أدى إلى نقص كبير في صفوف الجيش المهاجم
بما أدى إلى جعل الجيش الإسلامي في حاجة إلى مدد جديد لمواصلة الفتح
وتثبيت أقدام المسلمين فيما استولوا عليه وأن موسى بن نصير وهو القائد

(١) نفع العايب للبقرى ج ١ ص ٢٥١ .

(٢) تاريخ ابن خلدون ج ٤ ص ١١٧ .

الأعلى والمسئول عن الفتح ونتائجه كان عليه أن يعبر سريعا لتثبيت الفتح ومواصلته خوفا من أن يتمكن القوط من قطع خط الرجعة على طارق خاصة الانتشار الذي قام به . هذا مادفع موسى إلى هذا العبور وليس حسدا لطارق أو غيره منه أو طمعا في المجد ، فموسى قد حاز من المجد الكثير .
وذلك نجد ابن عذارى يذكر أن ابن القبطان قد حدد أسباب عبور موسى إلى الأندلس في واحد من ثلاثة أمور :

« قيل إنما حمله على الجواز إلى الأندلس تعدى طارق ما أمره به ألا يتعدى قرطبة على قول أو موضع هزيمة لذريق على قول ، وقيل أيضا : إنما حمله على ذلك الحسد لطارق على ما أصاب من الفتوح والغنائم ، وقيل أيضا : إنما جاز باستدعاء طارق إياه »^(١) .

وهو بهذا يذكر الحق مشوبا بالباطل ورد ذكر السبب الحقيقي عند ابن قتيبة في قوله : وكتب طارق إلى مولاة موسى أن الأمم قد تداعت علينا من كل ناحية فالغوث الغوث^(٢) ، فالسبب الحقيقي إذن هو حاجة طارق إلى المدد فلذلك عبر إليه موسى سريعا .

وإننا حين ننظر إلى خريطة الأندلس ونتتبع عليها طريق سير طارق ثم طريق سير موسى من بعده فإننا نلاحظ أن طارقا أثناء توغله ناحية الشمال قد ترك حصونا ومدنا كثيرة وجد موسى نفسه في فتحها والاستيلاء عليهما عناء ومشقة وكان من الممكن أن تقطع على طارق طريق هودنه وهذا يقوّد موسى في أمره لطارق بآلته قف إلى حين حضوره .

إلا أن بعض المؤرخين أبى بعد ذكر الغيرة والحسد إلا أن يذكر

(١) ابن عذارى ج ٢ ص ١٣ .

(٢) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ج ٢ ص ٧٤ .

ما ترتب على ذلك عند لقاء موسى وطارق فنجد الرواية التي سبق أن ذكرها ابن عذارى عند لقاء موسى وطارق ونجد ابن عبد الحكم يذكر في رواية : أن موسى أخذ طارقا فشده وثاقا وحبسه وهم بقتله . ثم يذكر أن مغيبا الرومي مولى الوليد ذهب إلى الوليد وكلبه في شأن طارق فقدم الكتاب من الوليد بإطلاق سراح طارق^(١) . . . وذهب الرسول وعودته يقتضي وقنا طويلا . مع أن المؤرخين يجمعون على أن طارقا كان على مقدمة موسى عندما التقيا وتوجها إلى الفتح شمالا . مما يدل على عدم صحة هذه الرواية وأن الرواية الصحيحة هي ما ذكره ابن عبد الحكم نفسه قبل ذلك بقوله : فتلقاه طارق فترضاه وقال له إنما أنا مولاك وهذا الفتح لك ثم يذكر أن موسى وجه طارقا بعد ذلك إلى طليطلة^(٢) ولذلك نجد البلاذري^(٣) واليهقوبي^(٤) وابن خلدون^(٥) يتفقون على إنما كان معاتبة على مخالفة طارق لأمر موسى وعندما ترضاه وبين له الأسباب التي دعت إلى مواصلة القتال وتبع القوط الذين تجمعوا له اقتنع موسى بوجهة نظر طارق ورضى عنه^(٦) .

وأخيرا نقول كيف يغار موسى من طارق أو يحقد عليه ويحسده وقد أرسل إليه المدد أولا عندما طلبه ؟

(١) ابن عبد الحكم فتوح مصر والمغرب ص ٢٨٣ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ٢٨٠ .

(٣) فتوح قسم أول ص ٢٧٣ .

(٤) تاريخ ج ٢ ص ٢٨٥ .

(٥) ابن خلدون ج ٤ ص ١١٧ .

(٦) أنظر : أبا طليل يجب أن تحمي من التواريخ ، لإبراهيم شموط ؟ دار للطباعة المحمدية .

وكيف بغار منه أو يحسده وهو الذى أرسله إلى الأندلس وهو قائده الأعلى وأى كسب لطارق إنما هو كسب لموسى ؟ فلا حاجة إلى غيره أو حسد .

(ب) أما الأمر الثانى فهو ما يذكر عن سبب منع موسى من مواصلة الفتح فى أوربا واستدعائه من الأندلس حيث نجد ابن قتيبة يقول : « ان الوليد ظن أن موسى يريد أن يخلعه ويقيم فيها ويمتنع بها^(١) » ، ويؤيد بعض المؤرخين المحدثين هذا رأى ويقولون أنه أفضل تعليل يقبله النقد الحديث ويرجح^(٢) .

ذلك أن موسى بن نصير عندما وصل إلى حدود بلاد الأفرنج (فرنسا) وأشرف على أوربا رأى أن من الممكن أن يواصل الفتح مخترقا أوربا حتى يصل إلى دار الخلافة ويبدولى أنه وضع خطة لذلك وأرسلها إلى الوليد ولكن الخليفة تردد خروفا على المسلمين أن يغزو بهم أو أن حب الانتصار ونشوة الغلب قد يحملان القائد المنتصر على أن يكلف المسلمين شططا ، ولذلك رأى الخليفة أن يوقف الفتح وأن يستدعى قائد ففتح الأندلس فأرسل فى إحصارها حفاظا على سلامة المسلمين . وإلى هذا يشير ابن خلدون مبينا خطة موسى ورأى الخلافة فيذكر أن موسى قد جمع أن يأتى المشرق على القسطنطينية ويتجاوز إلى الشام ودروب الأندلس ويخوض ما بينهما من بلاد الأعاجم أمم النصرانية مجاهدا فيهم مسلحا لهم إلى أن يلحق دار الخلافة ونعى الخراب إلى الوليد فاشتد قلقه بمكان المسلمين من إدار الحرب ورأى أن ما هم به موسى غرر بالمسلمين فبعث إليه بالتوصية

(١) الإمامة والسياسة ج ٢ ص ٧٥

(٢) أنظر : عيان دولة الإسلام قسم ١ ص ٥٤ ، حسن إبراهيم حسن تاريخ

الإسلام السياسي ص ٣٢٤

والإنصراف (١). وإذا كان موسى قد خطر بذهنه هذا المشروع الكبير لمواصلة الفتح ورأى أن يقوم بتنفيذه فهو يذكرنا بالخطة التي وضعها عقبة بن نافع لفتح الشمال الأفريقي ونفذها واستشهد في نهايتها ولكن تلك الخطة حثت المسلمين وقوادهم من بعدها على أن يتسكوا بها حتى حققوها مع مرور الأيام وأربما لو نفذ موسى هذه الخطة وشغلت أوروبا بجيوش المسلمين من الشرق ومن الغرب في وقت واحد، وسهر الخليفة على تنفيذ هذه الخطة لتحقق للمسلمين آنذاك فتح أوربة بسهولة وارتفعت راية الإسلام على ربوعها.

ولا شك أن مواصلة الفتح كانت تستدعي مددا جديدا سواء من أفريقية أو من مصر والشام كما حدث في فتح الشمال الأفريقي لأن جهود جيش المسلمين الذي عبر إلى الأندلس وسعة البلاد الشاسعة تحتاج إلى قوة أكثر وكان هذا المدد سيجعل أقدام المسلمين في الأندلس أكثر ثباتا ويمهد لمواصلة فتح أوربا، دون أى شائبة من الخوف ولم يكن هناك من المقاومة آنذاك في أوربا ما يحيط هذا المشروع لعدم وجود أية رابطة بين الأمم التي كانت تفصل موسى عن مقر الخلافة ولم يكن قد ظهر بعد، ذلك القائد الذي يستطيع أن يوحد القوات المسيحية ويعترض تقدم المسلمين (٢)،

وإذا كنا نعلم أن موسى قد استشار دار الخلافة قبل فتح الأندلس فلا شك أنه قد أرسل مشروعه لفتح فرنسا ومواصلة الفتح في أوربا إلى الخليفة الوليد فكان رأيه هو التوقف ثم استدعاء القائدين، ومن المقبول أن يقال أن ذلك قد حدث خوفا من تعريض المسلمين للخطر. أما أن يقال

(١) تاريخ ابن خلدون ج ٤ ص ١١٧، ١١٨

(٢) الإمامة والسياسة ج ٢ ص ٨٠، ٨١.

إنه — أى الخليفة — كان يخشى ازدياد نفوذ موسى واستقلاله بتلك البلاد
فذلك أمر لا سبيل إلى تصديقه ، لأن أخلاق موسى التابعى وصلة الناس
بالخلافة وشعورهم بسلطانها عليهم كان لا يسمح بمثل هذا الانفصال أو
الاستقلال

ولنا أن نذكر أيضا أن مواصلة الفتح المستمرة في بلاد جديدة ذات
طقس جديد ومختلف وطول خطوط القتال وسعة البلاد دعت المقاتلين
أنفسهم إلى إبداء الرغبة في إيقاف موجة الفتح لفترة ما .

والى هذا تشير الرواية الأخرى لأن قتيبة حيث تبين أن موسى عند
ما وصل إلى أرض قرنجلة وكان الجيش قد شعر بالكل واشتد ذلك على
الناس ، فقام حذش الصنغانى فأخذ بعنانه — أى موسى — ثم قال أيها
الأمير أنى سمعتك وأنت تذكر عقبة بن نافع تقول : لقد غرر بنفسه وبمن
معه أما كان معه رجل رشيد ؟ وأنا رشيدك اليوم أين تذهب ؟ تريد أن
يخرج من الدنيا . . . أنى سمعت من الناس مالم تسمع وقد ملثوا أيديهم
وأحبوا الدعة . قال فضحك موسى ثم قال : أرشدك الله وكثر فى المسلمين
مثلك . ثم انصرف قافلا إلى الأندلس فقال موسى يومئذ : أما والله
لو اتقاءوا إلى لقدتهم إلى روميه ثم يفتحها الله على يدي إن شاء الله (١) .

ج — ونأتى إلى الأمر الأخير وهو ما يذكّر عن لقاء موسى بالخليفة
وكيف يصور المؤرخون هذا اللقاء بأن موسى قد لاقى جزاء سنهار ثم
ينحدثون عن المشادة بين موسى وطارق حيث يذكر أنهما قرب
موسى بن نصير من دمشق وكان الوليد مر بضاكتب — أى سليمان — إلى موسى
بأمره القريث رجاء أن يموت الوليد قبل قدوم موسى فيقدم موسى على

(١) الإمامة والسياسة ج ٢ ص ٨٠ : ٨١ .

سليمان في أول خلافته بتلك الغنائم الكثيرة التي ما رأى ولا سمع مثابا فيه ظم بذلك مقام سليمان عند الناس فأبى موسى من ذلك ومنعه دينه وجد في السير حتى قدم والوليد حتى فسلم له الأخماس والمغانم والتحف والذخائر فلم يمكث الوليد إلا يسيرا بعد قدوم موسى وتوفي واستخلف سليمان فخقد عليه وأهان وأمر بإقامته في الشمس حتى كاد يهلك وأغرمه أموالا عظيمة . . . الخ^(١) ويزيد الحجازي في المسهب : « والت حاله — أي موسى — إلى أن كان يظاف به ليسأل من أحياء العرب ما يفتك به نفسه وفي تلك الحال مات وهو من أفقر الناس وأذلهم بوادي القرى سائلا من كان نازلا به^(٢) . »
ويذكر ابن عبد الحكم في إحدى رواياته قدوم موسى على الوليد والمنازعة التي قامت بينه وبين طارق حول المائة التي غنمت من الأندلس بما يتنافى مع جلال القائدين^(٣) . وبعض من الأهداق السامية التي يرمى إليها المسلمون من الفتح حيث يوجهون اهتماما كبيرا إلى الغنائم ولذلك يقوم بينهم نخاصم وتحاسب عسير من أجل هذه الغنائم .

وأن التحري الدقيق لروايات المؤرخين يجعلنا لانطمئن إلى هذه الدعاوى التي تلصق بالخلفاء الأمويين في عقاب قادتهم وفي محاسبتهم . وربما نجد من يعلل ذلك بأن أولئك القادة كانوا يريدون الانفصال . أو أنهم كانوا يحتجزون أموالهم . أو أن القواد ومساعدتهم كان يدمر بعضهم ضد بعض ويغري بعضهم البعض لدى الخليفة^(٤) مما أدى إلى هذه النتيجة المشينة .

(١) نفح الطيب المرقى ج ١ ص ٢٦٢

(٢) نفس المرجع ص ٢٦٥

(٣) انظر : د توح مصر والمغرب لابن عبد الحكم ص ٢٨٦ .

(٤) انظر : عنان : دولة الاسلام قسم ١ ص ٥٩ .

إلا أننا نعلم أن الدولة الأموية قد سقطت دون أن يحدث أى انفصال في أجزائها وإنما حدث الانفصال بعد سقوطها مما يدعونا إلى الشك فيما يسند إلى خلفائها من عقاب قادتها على هذه الصورة المشينة لاسبابها إذا علمنا أن من أسباب عقاب القادة وهو الانفصال المزعوم لم يتحقق في ههنا وإذا بطل السبب بطل المسبب وكذلك فإن من حق الخليفة أن يسكون ساهرا على الغنائم باعتبارها حقا لبيت مال المسلمين . إلا أن السهر على تحصيل الغنائم للدولة ولمواردها يجب ألا يصل إلى هذا الوضع المسف الذي يصورونه في معاملة القادة ومحاسبتهم خاصة إذا علمنا أن أولئك القادة ذروا دين قوى وأخلاق قوية تمنعهم من مثل هذا الاسفاف الذي لا يليق بدين أو خلق .

ولما أن نتساءل هل يليق أن ينتظر سليمان وفاة الوليد وهو يعلم أن الأعمار بيد الله ؟ والغنائم ليست هي الأعمال الخالدة التي يحرص عليها وإنما الفتح هو العمل الخالد وقد تم في عهد الوليد . ومع ذلك فإن هذه الغنائم إنما هي ملك المسلمين وقد وضعت الغنائم بجواهرها وتيجانها في بيت المال (١) .

وأن مما يدل على عدم صحة هذه المحاسبات والمخاضات هو التردد من المؤرخين في رواياتهم بين قدوم موسى على سليمان مرة وعلى الوليد مرة أخرى وبين الرضا عنه مرة والسيخط عليه مرة أخرى .

فإن عبد الحكم يقول مرة : وخرج موسى حتى إذا كان بطرية أخته وفاة لوليد فقدم على سليمان تلك الهدايا فسر سليمان بذلك (٢) ومرة أخرى

(١) ابن عديم البيان المغرب ج ٢ ص ٢٠

(٢) فتوح مصر والمغرب ص ٢٨٤

يقول : ويقال بل قدم موسى بن بصير على الوليد بن عبد الملك والوليد مريض فأهدى إليه موسى المائدة فقال طارق أنا أصبتما فكذبه موسى^(١) ... الخ . . وابن خلدون يوجز فيقول : « قدم على سليمان فسخطه ونكبه »^(٢) وكيف يسخط عايه وقد قدم إليه الغنائم التي قدم بها والتي يجعلها المؤرخون سبب الخصام والمحاسبة ؟

وإن مما يدل على عدم صحة ما يذكره من عقاب سليمان لموسى ما يرويه ابن عذاري : من مسألة سليمان لموسى عما التقى في حروبه وعن الأمم التي التقى بها من الروم والبربر وأهل الأندلس والأفرنج في حديث طويل يقول فيه : إن سليمان قال لموسى : « ما الذي كنت تفزع إليه عند حروبك ومباشرة عدوك ؟ » قال : « كنت أفزع إلى التضرع والدعاء والصبر عند اللقاء » قال : « فأى الخيل رأيتها في تلك البلاد أسبق ؟ » قال : « الشمر » قال : « فأى الأمم كانوا أشد قتالا ؟ » قال : « هم أكثر من أن أصفهم » قال : « أخبرني عن الروم ! » قال : « أسد في حصونهم عقبان على خيولهم نساء في مواكبهم إن رأوا فرصة انتهزوها وإن رأوا غلبة فأوعال تذهب في الجبال لا يرون الهزيمة طارا » قال : « فأخبرني عن البربر » قال : « هم أشبه المعجم بالعرب لقاء ونجدة وصبرا وفروسية غير أنهم أغدر الناس لا وفاء لهم ولا عهد قال فأخبرني عن الأندلس قال : ملوك مترفون وفرسان لا يخيبون . » قال : « فأخبرني عن الأفرنج » قال : « هناك العدد والعدة والجلد والشدة والبأس والنجدة » قال فأخبرني كيف كانت الحرب بينك وبينهم : « كانت لك أو عليك ؟ » فقال : « أما هذا فوالله ما هزمت لي راية قط ولا بدد جمعي ولا نكبت المسلمون معي منذ اقتحمت الأربعين إلى أن بلغت الثمانين »

(١) المرجع السابق ص ٢٨٥ .

(٢) تاريخ ابن خلدون ج ٤ ص ١١٨ .

فَضَحَكَ سَلِيمَانُ وَعَجِبَ مِنْ قَوْلِهِ ثُمَّ دَعَا سَلِيمَانُ بِطُسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ فَجَعَلَ يَرُدُّ بِصَرِهِ فِيهِ فَقَالَ لَهُ مُوسَى : إِنَّكَ لَتَعَجِبُ مِنْ غَيْرِ عَجَبٍ وَاللَّهِ مَا أَحْسَبُ أَنْ فِيهِ عَشْرَةُ آلَافٍ دِينَارٍ وَاللَّهِ لَقَدْ بَعَثْتُ إِلَى أَخِيكَ الْوَلِيدَ بِتَنُورٍ مِنْ زَبْرَجَدٍ أَخْضَرَ كَانَ يَصُبُّ فِيهِ اللَّابَنُ فَيَخْضَرُ وَتَرَى فِيهِ الشَّعْرَةَ الْبَيْضَاءَ وَلَقَدْ قَوْمَ بِمِائَةِ أَلْفٍ مِثْقَالٍ وَإِنَّهُ لَمَنْ أَدْنَى مَا بَعَثْتُ بِهِ إِلَيْهِ ۖ وَلَقَدْ أَصَبْتُ كَذَا وَأَصَبْتُ كَذَا ۖ وَجَعَلَ يَعُدُّ (مَا أَصَابَ مِنَ الدَّرِّ وَالْيَاقُوتِ وَالزَّبْرَجَدِ حَتَّى يَهْتَ سَلِيمَانُ مِنْ قَوْلِهِ (١) ۖ

ثُمَّ يَذْكُرُ أَنَّ سَلِيمَانَ كَانَ يَصْحَبُ مُوسَى مَعَهُ أَثْنَاءَ خُرُوجِهِ لِلْهَيْدِ وَأَنَّهُ عِنْدَ مَا حَجَّ أَيُّ سَلِيمَانَ خَرَجَ مُوسَى حَيْثُ تَوَفَّى — أَيُّ مُوسَى — فِي الْمَدِينَةِ وَصَلَّى عَلَيْهِ مُسْلِمَةُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ (٢) .

وَعَلَى فَرَضِ أَنَّ سَلِيمَانَ أَرْسَلَ إِلَى مُوسَى بِتَأْخِيرِ الْقُدُومِ . وَالْوَلِيدُ أَرْسَلَ إِلَيْهِ بِتَعْجِيلِ الْقُدُومِ . فَانْنَا نَجِدُ خِلَالَ هَذِهِ الرِّوَايَاتِ مَا يَبِينُ حَقِيقَةَ الرُّوحِ وَالْخَلْقِ الَّذِي كَانَ سَائِدًا وَهُوَ مَا يَجِبُ أَنْ نَلْحِظَهُ بِالنِّسْبَةِ لِكُلِّ الْأَطْرَافِ : الْوَلِيدُ وَسَلِيمَانُ وَمُوسَى . فَبِنْ قَتِيْبَةِ يَذْكُرُ أَنَّ مُوسَى قَالَ حِينَ وَصَلَهُ كِتَابُ الْإِتِّبَاطِ فِي مَسِيرِهِ : « خَذْتُ وَاللَّهِ وَغَدَرْتُ وَمَا وَفَيْتُ . . . وَاللَّهِ لَا تَرَبَّصْتُ وَلَا تَأْخُرْتُ وَلَا تَعْجَلْتُ وَلَا كُنْتُ أَسِيرَ بِسِيرِي فَأَنْ وَافَيْتَهُ حَيًّا لَمْ أَتَخَلَّفْ عَنْهُ وَإِنْ عَجَلْتُ مِنْبَتَهُ وَأَمَرَهُ إِلَى اللَّهِ » (٣) .

كُلُّ هَذَا يَدُلُّ عَلَى الْأَخْتَوَاعِ وَالتَّزْيِيدِ فِي الرِّوَايَاتِ عَمَّا يَشُوْرُهُ مَعَهُ حِلَالُ

(١) ابن عذراى البيان المغرب ج ٢ ص ٢١ ، ٢٢

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٢١ ، ٢٢

(٣) الامامة والسياسة ج ٢ ص ٨٣

تاريخنا الاسلامى ويقتضى من الباحثين بذل كل الجهد لتخليص حقائق التاريخ من الزيف الذى لصق بها نتيجة لعدوات فى الصدور أو جلبا لمنفعة من لديهم منفعة ترجى تزيف الروايات التى ترضيهم .

وإذا كنا نعلم أن التاريخ الاسلامى انما دون بعد سقوط الدولة الاموية وقيام الدولة العباسية فان من الواجب أن يتوجه بالشك القوى الى كثير من الروايات المتعددة التى تصوب التهم الى هذه الدولة وخلفائها حتى تعرف الحقيقة خالصة من الزيف والباطل وليس معنى هذا أن كل هذه التهم باطلة أو أنها كلها صحيحة ، وانما هى تهم يختلط فيها الحق بالباطل مما يجب أن يحمل المؤرخ على الحذر واليقظة والتثبت من الروايات ونقدها حتى يظهر الغث من السمين والصادق من الباطل ، فأما الزيد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض . .

هـ — نتائج فتح الاندلس :

لقد أدى فتح المسلمين للاندلس إلى تغيير الوضع الذى كان سائدا فى الاندلس سياسياً واقتصادياً وعسكرياً وإدارياً ودينياً . ونتج عن كل ذلك تغيير اجتماعى كبير شمل جميع أوجه النشاط التى كانت سائدة فى الاندلس عندما طرقتها أقدام المسلمين .

(١) الوضع السياسى :

فى السياسة نجد المسلمين قد كسبوا إقليميا جديداً أضافوه إلى رقعة دولتهم الواسعة وحققوا كسبا جديداً لدعوتهم ورسالتهم ولموارهم أيضاً وبذلك صار المسلمون هم سياسة البلاد وحكامها والمتصرفون فى شئونها العليا وتلك هى عادة المسلمين وسلوكهم مع الاقاليم التى يستولون عليها أما ما عدا وطائفة

الدولة العليا فانهم يهركونها لأهل البلاد وخاصة الذين يثقون فيهم وذلك بما
يؤدى الى عدم وجود تفاخر بين المسلمين وبين أهل البلاد . فاذا كان الفتح
عن طريق الصلح فانهم يشترطون في صلحهم النصيح للمسلمين والا يكون
المصالحح (الحاكم الاقليمى) عوناً للاعداء عليهم والا نقض ذلك الصلح ونجده
هذا واضحاً في صلح تدمير وهو يعطينا نموذجاً حياً للوثائق السياسية
الاسلامية فى عهد الفتوح الاسلامية ونصه : بسم الله الرحمن الرحيم من عبد
العزير الى تدمير ، أنه نزل على الصلح وأنه له عهد الله وذمته أن لا ينزع عنه
ملكه ولا أحد من النصارى عن أملاكه وانهم لا يقتلون ولا يسبون أولادهم
ولا نسائهم ولا يكرهوا على دينهم ولا تحرق كنائسهم ما عبيد ونصح ، وأن
الذى اشترط عليه أنه صالح على سبع مدائن أوربولة وبلنتلة ولقنت ومولة
وبقسرة وأنه ولورقة . وأنه لا يارى لنا عدوا ، ولا يخون لنا عهداً ولا يكتم
خبراً عليه . وأنه عليه وعلى أصحابه ديناراً كل سنة وأربعة أمداد قح وأربعة
أمداد شعير وأربعة أقساط طلا وأربعة أقساط خل وقسط عسل ، وقسطى
زيت وعلى العبد نصف ذلك ، كتب فى أربع من رجب سنة أربع وتسعين
من الهجرة ، شهد على ذلك . . الخ ، (١) .

كما نجد أن طارقا عندما يفتح طليطة يختار لحكمها وإدارتها أو باس مطرانها
الساق وأخا الملك وتيزا (٢) وقد عين المسلمون موظفين مسيحيين لجبي
الضرائب من أناء طائفهم ولتسوية منازعاتهم وقد فتحت أبواب الوظائف
للعامه على اختلاف أنواعها ليشغلها الرجل السكف سواء كان مسلماً أو
مسيحياً أو يهودياً (٣) .

(١) انظر : عنان : دولة الاسلام ص ٥٥ .

(٢) نفس المرجع ص ٥٠ .

(٣) سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب ص ١١٨ .

وقد منع المسلمون سكان الاندلس حرية الإقامة أو الهجرة عن البلاد. على أن ينزلوا عن جميع أموالهم ووعد من يبقون في البلاد بالمحافظة على أملاكهم وقضاتهم وقوانينهم^(١)، وذلك يذكر المقرئ. د أن أولاد غيطشة قد حازوا ضياع والدهم أجمع واقتسموها على موافقة منهم^(٢)، وإذا علمنا أن كل من استقر في أرضه ولم يهاجر أو صالح أثناء الحرب فقد بقيت له أملاكه ودفع الجزية فإن لنا أن نقول أن أبناء غيطشة قد سالموا وحصلوا على أملاك أبيهم وليس هناك عامل الخيانة الذي يركز عليه كثير من المؤرخين.

وقد كان للوضع السياسي الذي أقامه المسلمون وشعر فيه الناس بالمساواة أثر كبير في القضاء على نظام النبلاء، والسكنيسة السابق وتبديد نفوذهم السياسي الذي كانوا يتحكمون به مقدرات الاندلس حسب أهوائهم وشهواتهم.

(ب) الوضع الاقتصادي :

فإذا ما انتقلنا إلى الجانب الاقتصادي فإننا نجد المسلمين يخففون من الأعباء الضريبية الثقيلة التي كانت توهن كاهل الطبقات العاملة في الزراعة والصناعة والتجارة فالغيت الضرائب الفادحة وفرضت الجزية على غير المسلمين وهي تختلف حسب طاقة المكاف ويستثنى منها الرهبان والنساء والاطفال والمعجزة. وقدر الخراج على الأرض وهو يتوقف على ما تنتجه الأرض فعلاً ولذلك لم يكن عبثاً على الزراعة^(٣).

وقد صار العمال الزراعيون والعبيد الذين يعملون في الأرض التي انتقلت

(١) تاريخ العرب العام، سيد يو، ص ١٦٤.

(٢) نفع الطيب ص ٢٤٩.

(٣) مختصر تاريخ العرب ص ١١٧.

الى أيدي المسلمين أحراراً يستأجرون الأرض أو يعملون فيها ويدفعون جزماً من غلتها الى أصحابها المسلمين .

وقد نتج عن ذلك الوضع الاقتصادي الذي أقامه المسلمون في الاندلس نمو وازدهار جميع أوجه النشاط الاقتصادي في الزراعة والصناعة والتجارة وعاد على الشعب بالرخاء والرفاهية متمثلاً في عدالة التوزيع على العاملين في حقول الزراعة حسب مجهود كل انسان وطاقته .

(ح) الوضع العسكري :

أما نتيجة الفتح في المجال العسكري فإننا نجد أن قوات المسلمين قد قصت على معظم القوات العسكرية للقوط التي كانت تعصد النظام السياسي المتسلط والاقتصادي الجائر الذي كان يحتفظ للنبلاء والكنيسة بامتيازاتهم وقد أنزلت القوة العسكرية الإسلامية حسب البلاد القادمة منها في مختلف أرجاء الاندلس لتوطيد الأمن وسحق أية فتنة أو ثورة تعارض الفتح الإسلامية فكانت فصيحة دمشق في قرطبة وفصيحة حمص في أشبيلية وفصيحة قنسرين في جيان وفصيحة فلسطين في شذونة وفصيحة الأردن في مالقة وفصيحة فارس في شربش وفصيحة اليمن في طليطلة وفصيحة العراق في غرناطة وفصيحة مصر في ماردة ولشبونة ونزلت فصائل البربر في الجهات الوسطى والشمالية .^(١)

(د) الوضع الديني :

وفي المجال الديني نجد أن الفتح الإسلامي قد منح السكان جميعاً حرية العبادة حسب الديانة التي يعتنقها الفرد سواء كان مسلماً أو غير مسلم فلم يظلم

(١) تاريخ ابن خلدون ج ٤ ص ١١٧ ، مختصر تاريخ العرب ص ١٣٠ ، المحمل

شخصاً أو أسبغت معاملته أو منع من ممارسة شعائر عبادته سواء كان مسيحياً أو يهودياً . وقد منح المسلمون الحرية لكل من يعتنق الإسلام من العبيد فأسرع العبيد جماعات إلى اعتناق الإسلام ليحصلوا على حريتهم ويتخلصوا من الذل الذي كانوا يعانون منه تحت حكم القوط والكنيسة الجائر

وهنا يحق لنا أن نقول بحق إن الإسلام هو محرر العبيد فما نظن أن ديناً سوى الإسلام أو أى ثورة إصلاحية أو اجتماعية قد وصلت في المحافظة على كرامة الإنسان والحرص على تحريره إلى هذه الدرجة مع العلم بأن الإسلام بالنسبة لهؤلاء العبيد وغيرهم من الأحرار يسقط عنهم الجزية التي يدفعونها للمسلمين وذلك يؤثر في ضعف مورد من موارد الدولة إلا أن المسلمين يشعرون أن إسلام أى فرد وهدايته إلى الدين الحق هو خير من الجزية التي تؤخذ منه نتيجة لبقائه على دينه السابق . وقد أدى هذا التسامح وتلك المعاملة الطيبة إلى ضعف سلطان الكنيسة المتجبر الذي كان يتحكم في رقاب الضملاء من أهل الأندلس وحمل الكثير من أبناء الأندلس على اعتناقهم للإسلام عن حب واقتناع خاصة وقد لمسنا آثاره في شتى مجالات حياتهم .

كما نتج عن الفتح قيام إدارة حكيمة مكنت كل فرد من الحصول على تاج كده وعرقه وعلى أن يحصل على المنصب أو العمل الذي يتناسب معه بدون ظلم أو محاباة .

(٥) التقسيم الإدارى :

وقد قسمت البلاد إدارياً في البداية إلى أربع ولايات كبيرة يعين لكل واحدة حاكم مشرل أمام والى الأندلس عن إدارة شئون ولايته ،

أما الوالى العام للأندلس فكان تعيينه فى البداية من قبل والى أفريقية .

وتشمل الولاية الأولى : الأراضى الواقعة بين البحر ونهر الوادى الكبير وما يلى هذا النهر إلى وادى بانا وأهم مدنها قرطبة وجيان وأشبياية ومالطة .

وتشمل الولاية الثانية : أسبانيا الوسطى من البحر المتوسط شرقا إلى حدود لوزيتانيا (البرتغال الحالية) غربا وتمتد حتى نهر دورو فى الشمال وأهم مدنها : خليطلة وتونقا وسيقوبيا ووادى الحجارة وبلنسية ودانية وقرطاجنة ومرسية ولارقة .

وتشمل الولاية الثالثة : جليقية ولوزيتانيا (البرتغال القديمة) وأهم مدنها : ماردة ، وباجة ، ولشبونة ، واستورقة ، وسمورة ، وشلمقة ، وغيرها . وتشمل الولاية الرابعة : المنطقة الممتدة من شاطئ الدورو إلى جبال البرنية على شفتى نهر الأبرو وأهم مدنها : سرقسطة وطرطوشة وتوانغة وبرشلونة وتطيلة وبلد الوليد ، ووشقة وغيرها

وعندما اتسعت الفتوحات الإسلامية أنشئت ولاية خاصة شمال جبال البرنية وتشمل أربونة ، ونيم وقرقشونة وبزيبه وأجدة ولوديف (١) .

(و) الوضع الاجتماعى :

وإذا انتقلنا من ذلك إلى العلاقات الاجتماعية أو صلات المصاهرة

(١) انظر مختصر تاريخ العرب من ١١٩ ، ١٢٠ ، دولة الإسلام فى الأندلس

فإننا نجد الفتح الإسلامى الأندلس قد حقق أثرا كبيرا نتيجة لاختلاط الفاتحين بسكان البلاد .

ففى معظم الأحوال : إننا نجد الجيش الغالب أو الفاتح يستعلى على الشعب المغلوب ، وذلك يجعل كلا منهما منكشأ عن الآخر ومتباعدا عنه ، ولكننا إذا عرفنا أن الغرض من الفتح هو نشر الدين والهداية الإسلامية وعرفنا أن من أسس هذا الدين : المساواة بين الناس جميعا :

« الناس سواسية كأسنان المشط » .

« لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » .

« إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

وضع لنا انعدام التعالى المصطنع من المسلمين على غيرهم من الشعوب التى فتحوها واستولوا عليها ولذلك نجد المسلمين يختلطون بغيرهم من الشعوب التى استولوا عليها بالزواج والمصاهرة . وذلك خير دليل على نفي تعالى المسلمين على غيرهم ، وقد كان ذلك كسبا لهم مكنهم من نشر دينهم واغتهم ومكن غيرهم من معرفة رسالتهم وهدفهم عن قرب ومخالطة فعلية .

كما كان لذلك أثره فى إزالة النفرة بين الغالبين والمغلوبين وإذا أضفنا إلى ذلك المكاسب الأخرى التى حققها المسلمون للطبقات السكادحة التى كانت مستعبدة أو شبه مستعبدة تبين لنا التغيير الكبير والنتائج العظمى التى أسبغها الفتح الإسلامى على الأندلس . بحيث يحق لنا أن نقول : إنه قد نتج عن هذا الفتح التحول فى الوضع السياسى والاقتصادى والعسكرى والإدارى والدينى والأسرى - وتغيير شامل فى الوضع الاجتماعى جعل الفرد - سواء كان من النبلاء والحكام والقسس سابقا أو من الصنائع

والتجار وصغار الملاك والعبيد وأشباه العبيد - يشعر بقيمته وبقيمة غيره وبحريته وكرامته فقد أثار الفتح الإسلامى العقول بما يحمل من قيم إسلامية إنسانية وحضارة سامية وفتح العيون بمبادئه التى تشرع حقيقته الحياة (الدنيا والآخرة) ووضع أحقية كل إنسان فى الحصول على جزاء كده وعرقه وفى الحياة الحرة الكريمة .

وبذلك كان الفتح الإسلامى للأندلس بشير خير وبركة عليها وانتشالا لها مما كانت تمردى فيه من الذل والهوان وانتهاك كرامة الإنسان ، واسنا نحن المسلمين الذين نقول ذلك حتى يقال أننا نتعصب لأنفسنا ، وإنما يقوله المنصفون وأشباه المنصفين من المؤرخين والكتاب الغربيين .

ولإليك طائفة من أقوالهم .

يقول العلامة المستشرق روزى : « لم يكن حال النصارى فى ظل الحكم الإسلامى مما يدعو إلى كثير من الشكوى بالنسبة لما كانت عليه من قبل . أضف إلى ذلك أن العرب كانوا يتحلون بكثير من التسامح ولم يرهقوا أحدا فى شئون الدين . ولم تكن الحكومة - إذا لم تكن مغرقة فى الدين - تشجع بإسلام النصارى إذ كانت خزانة الدولة تخسر بإسلامهم كثيرا . ولم يغمط النصارى للعرب هذا الفضل . بل حمدوا للمسلمين تسامحهم وعدلهم وآثروا حكمهم على حكم الجرمان والفرنج وانقضى القرن الثامن كله فى سكينته - وقلما نشب ثورة ، كذلك لم يبد رجال الدين فى العصور الأولى كثيرا من التدمير وإن كانت لديهم أكثر البواعث لذلك . وهذا ما تؤيده الرواية اللاتينية التى كتبت سنة ٧٥٤م فى قرطبة والتى تنسب لـ « يريودور الباجى » فإن كاتبها رغم كونه من رجال الدين يبدى نحو المسلمين من العطف مالم يبدى أى كاتب أسبانى آخر قبل القرن الرابع عشر . » ثم يقول عن آثار

الفتح الاجتماعية : وكان الفتح العربي من بعض الوجوه نعمة لاسبانيا فقد أحدث فيها ثورة اجتماعية هامة وقضى على كثير من الأدواء التي كانت تعانها البلاد منذ قرون . وحطمت سيطرة الأشراف والطبقات الممتازة أو كادت تمحى . ووزعت الأرض توزيعا كبيرا فكان ذلك حسنة سائغة وعاملا في ازدهار الزراعة إبان الحكم العربي . ثم كان الفتح عاملا في تحسين أحوال الطبقات المستعبدة إذ كان الإسلام أكثر تعظيلا لتحرير الرقيق من النصرانية كما فهمها أحبار المملوك القوطية وكذلك حسنت أحوال أرقاء الضياع إذا غدوا من الزراع تقريبا وتمتعوا بشيء من الاستقلال والحرية (١) .

ويقول الأستاذ ستانلي لين بول : أما التسامح الديني فلم يدع الأسبانيون سببا للشكوى فقد تركهم يعبدون كما يشاءون من غير أن يضطهدهم أو يلزمهم اعتناق عقيدة خاصة كما كان يفعل القوط باليهود . . . وكان من أثر هذه المعاملة وذلك التسامح أن رضى المسيحيون بالنظام الجديد واعترفوا في صراحة أنهم يؤثرون حكم العرب على حكم الأفرنج أو القوط . . . وأسطع الأدلة على رضا المسيحيين من حكاهم الجدد أن ثورة دينية واحدة لم تحدث خلال القرن الثامن .

أما المستشرق الأسباني جاينجر من فيقول : ولقد ساهمت في أسبانيا (الأندلس) أول أشعة لهذه المدنية التي أنثرت ضوءها فيما بعد على جميع الأمم النصرانية وفي مدارس قرطبة وطليطلة العربية جمعت الجذور الأخيرة للعلوم اليونانية بعد أن أشرفت على الانطفاء وحفظت بعناية وإلى حكمة العرب وذكائهم ونشاطهم يرجع الفضل في كثير من أهم المخترعات الحديثة

(١) قصة العرب في أسبانيا ترجمة على الجارم ص ٣٩ ، ٤٠ .

وأنفها» (١).

ويتحدث المؤرخ الأمريكي سكوت عن عظمة فتح المسلمين الأندلس وسمعته وثباته وحمايته للناس ويدحض الدهاوى السكاذبة فيقول :

« في أقل من أربعة عشر شهرا قضى على مملكة القوط قضاء تاما وفي عامين فقط وطدت سلطنة المسلمين فيما بين البحر الأبيض المتوسط وجبال الپيرنية ، ولا يقدم لنا التاريخ مثلاً آخر اجتمعت فيه السرعة والكمال والرسوخ بمثل ما اجتمعت في هذا الفتح . وقد كان المظنون في البداية أن الغزو إنما هو أمر مؤقت فقط . ولم يتوقع أحد أن يكون احتلال البلاد دائما فلما استقرت الجماعات المستعمرة . وفتحت الثغور لتجارة الشرق وأقيمت المساجد أدرك القوط الخطب الذي نزل بهم ولما كان اعتدال حكمهم الجدد خفف من ألم الهزيمة وكان دفع الجزية يضمن الحماية لأقل الناس وكان يسمح للورع المتعصب أن يزاول شعائره دون تدخل ، كما يسمح للملحد أن يجاهر بآرائه دون خشية المطاردة والأخبار يزاولون نشاطهم في سلام أما أقوال الكتّاب النصرى الذين ينسبون فيها للعرب أفظع المثالب فهي محض مبالغة وافتراء» (٢).

أما المستشرق سيمونيت وهو من أشد العلماء الأسبان تحاملا على على المسلمين فيقول : « أنه فيما يتعلق بالقوانين المدنية والسياسية فإن النصرى الأسبان احتفظوا في ظل الحكم الإسلامى بنوع من الحكومة الخاصة ، واحتفظ الناس بأحوالهم القديمة دون تغيير كبير ، وفيما يتعلق بالشرع فإنهم قد احتفظوا في باب النظم الكهنوتية بقوانين الكنيسة الأسبانية القديمة واحتفظوا في الناحية المدنية بالقوانين القوطية أو قانون

(١) مقالا عن دولة الاسلام امان ص ٦٣

(٢) المرجع السابق ص ٦٤

التقاضى يخضعون لها في كل ماله علاقة بحكومتهم وهي حكومة لمدية محلية ،
ومالم يكن يتعارض مع القوانين والسياسية الإسلامية^(١)

ونذكر العلامة التامبراد أن أغلبية الشعب الأسباني الروماني والقوطي
بقيت في ظل حكم المسلمين محتفظة برؤسائهم وهم الأقطاط ، أو الكونتات ،
وقضاها وأساقفتها وكنائسها وبالجملة بقيت محتفظة بما يشبه استقلالها المدني
الكامل . وقنع الولاة بأن يفرضوا على النصارى والمجركومين
الضرائب الشرعية .

ويقول المستشرق كارديناس : « أن المفضل يرجع إلى تسامح الولاة
والأمراء الأوائل في أنه خلال العصور الأولى من الحكم الإسلامى كان
الشعبان المسلمون والمستعربون (النصارى) يعيشان جنبا إلى جنب عيشة
حرة ، واستطاع المستعربون في ظل الحكم الإسلامى أن يحتفظوا باستقلالهم
ولغتهم وعاداتهم وقوانينهم وأجيانا بأساقفتهم وكونتاتهم وأن يسهروا
على صيانة الفنون القوطية التي كان العرب أنفسهم يقتبسون من أساليبها^(٢) . »

ويكفى أقوال هؤلاء العلماء في الإبانة عن بعض الجوانب المضئئة التي
نتجت عن الفتح الإسلامى للأندلس والمفضل ما شهدت به الأعداء .

(١) المرجع السابق ، ص ٦٥ .

(٢) نفس المرجع السابق والصفحة السابقة .

الفصل الخامس

الاندلس في عهد الولاة

لقد تولى أمانة الاندلس بعد فتحها إلى أن دخلها عبد الرحمن الداخل حوالي عشرين أميرا في فترة قاربت نصف قرن من الزمن وكان أولهم عبد العزيز بن موسى بن نصير وآخرهم يوسف بن عبد الرحمن الفهري . وقد مكث بعضهم في الإمارة عدة أشهر ومكث بعضهم بضع سنوات . وليس المهم هو معرفة أسماء هؤلاء الأمراء ومدة حكمهم وإنما المهم معرفة الأعمال المهمة التي حدثت في عهدهم ، والنتائج التي ترتبت عليها ومدى تأثير هذه الأعمال في ثبات أقدام المسلمين وقوتهم أو في ضعفهم وتمزيق شملهم . ثم إلقاء نظرة على النزاع المستمر بين العرب بعضهم مع بعض وبين العرب والبربر . وأخيرا محاولة التوصل إلى معرفة أسباب وقوف المد الإسلامي في أوربا والنتائج التي ترتبت عليه .

عبد العزيز بن موسى بن نصير :

وكان أول الولاة بعد الفتح عبد العزيز بن موسى بن نصير الذي أسند إليه أمانة ولاية الاندلس قبل توجهه إلى المشرق وجعل أشبيلية مقرا لولايته وقد قام عبد العزيز بأعمال جليلة ثبتت أقدام المسلمين في الاندلس وعبر عنها الرازي بأنه : ضبط سلطاتها وسد ثغورها وافتتح مدائن كثيرة وكان من خير الولاة إلا أن مدته لم تطر لو ثوب الجند عليه وقتلهم له لأشياء نقموها عليه . وقد مكث في ولايته سنة وعشرة أشهر^(١)

والرازي هنا يجعل سبب قتل عبد العزيز أشياء نقمها عليه الجند . بينما

(١) ابن عذارى عن الرازي ح ٢ ص ٢٤ .

يذكر ابن عبد الحكم أن عبد العزيز بعد أن تزوج ابنة لذريق ملك الأندلس الذي قتله طارق طلبت منه أن يعظمه الناس ويسجدون له كما كانوا يفعلون مع أبيها . وعند ذلك جعل نقبا قصيرا في باب الحجرة التي يدخل عليه فيها الناس حتى ينحنوا له أثناء دخولهم وبلغ الناس أنه إنما نقب الباب لهذا الغرض ، وزعم بعض الناس أن امرأته نصرته^(١) فكان سبب قتله . وابن عذاري يروي عن الواقدي أنه قتل لأنه خلع طاعة سليمان بن عبد الملك^(٢) وابن قتيبة الدينوري يورد قصة طويلة عن تدبير الخليفة لأجل اغتيال عبد العزيز بن موسى عندما بلغه أنه هم مخلع سليمان والاستقلال بالبلاد (وأنه انتدب لذلك رجلا من أفريقية وأعطاهم كتابا بالولاية لمن يقتله . إلخ^(٣) . وسياق الرواية يدل على أنها موضوعة ، فإن الخليفة لم يصل به الحق والعجز إلى هذه الدرجة . فقد كان من الممكن أن يطلب إلى عبد العزيز الشخص إلى دمشق مثل أبيه من قبل . وله أن يرسل خطابه بعزله فإن أبي كان الطرد والحبس وكان للخليفة حجة قوية في نصرته ، أما ما تذكره الرواية فمشبهة الوضع فيها ظاهرة

وقد يكون السبب في اغتياله أنه أساء التصرف وقسى في المعاملة مع بغض الجند وأن الذين اغتالوه كانوا يريدون الاستيلاء على الإمارة بما جعلهم يغتالونه أثناء صلاة الصبح . وعندما أصبح الناس أعظموا ما حدث وأخرج قتلته كتابا بأن سليمان أمرهم بذلك فلم يقبله أهل الأندلس^(٤) لعلمهم أن هذا الكتاب متقول على سليمان لأنه لا يأمر بمثل ذلك .

(١) فتوح مصر والمغرب ص ٢٨٥ ، ٢٨٦ .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤

(٣) أنظر الإمامة والسياسة ج ٢ ص ٩٥ ، ٩٦ .

(٤) نفس المرجع ص ٩٧

ولذلك يقول صاحب أخبار مجموعة : « أنه لما بلغ الخليفة سليمان قتل عبد العزيز شق ذلك عليه وأمر عميد الله بن زيد عامله على أفريقية بأن يتشدد في قضية قتل عبد العزيز وأن يقبض على حبيب بن أبي عبيدة وزيادة ابن النابغة اللذين قتلاه وأن يفلهما إليه مع من شاركهما في قتله من وجوه الناس » (١)

وعما يدل على أن سليمان لم يأمر بقتل عبد العزيز أن الناس لم يرضوا عن قتله كذلك اختارهم لا يوب بن حبيب ابن أخت موسى بن هبيرة واليا على الأندلس فمكث واليا عليها ستة أشهر حيث خلفه الحر بن عبد الرحمن الثقفي واليا عليها من قبل محمد بن يزيد والي أفريقية فقدم الأندلس أواخر سنة ٩٧ هـ في جماعة من وجوه أفريقية فنظم أمورها ونقل عاصمة الإمارة من أشبيلية إلى قرطبة (٢) . . . ويذكر المؤرخ كوندى الأسبانيولى أن الحر الثقفي هو الذي تجاوز حدود الأندلس إلى بلاد الفرنجة ونواحي أربونة وسبي وغنم وقفل بالأسارى والغنائم وقد أدى توجيه الجهود إلى بلاد الأفرنج إلى انتعاش حركة المقاومة المسيحية التي يتزعمها بلاى المعتصم في جبال استوريا حيث جمع بقايا حزب المقاومة وثار به في تلك النواحي مما اضطر الحر الثقفي إلى أن يعود أدراجه ليقمع هؤلاء الثائرين (٣) . . . وبينما هو مشغول بذلك عزل الخليفة عمر بن عبد العزيز وولى على الأندلس السمع بن مالك الخولاني الذي وجه جهوده إلى الاستيلاء على جنوب فرنسا .

(١) أخبار مجموعة نفلا عن تاريخ عزرات العرب لأرسلان ص ٤٧

(٢) ابن عدارى ح ٢ ص ٣٥ وقيل نعت إلى قرطبة في أيام أوب

ابن حبيب .

(٣) عن تاريخ عزرات العرب لأرسلان ص ٤٨ .

السمح بن مالك الخولاني :

وقبل أن نتحدث عن تحرك المسلمين في تلك الأما كن بقيادة السمع بن مالك الخولاني يجدر بنا أن نعرف الوضع الذي كان سائدا في تلك البلاد حيث نجد أن فرنسا أو الأرض الكبيرة كما يسميها العرب كانت تسمى في التاريخ الروماني ، غاليا أو غاليس ، وبعد أن سقط عنها حكم الدولة الرومانية توزعت فرنسا قوى مختلفة فكانت سبتمانية^(١) تابعة للقوط الغربيين أما أكتانيا (أكتين) وهو الجزء الذي يحده نهر اللوار شمالا إلى جبال البرانس جنوبا فكان دوقية مستقلة . وكذلك إقليم بروفانس الواقع شرق إقليم سبتمانيا وإقليم برجنديا الواقع شرق نهر الرون . فإذا ما نظر إلى شمال نهر اللوار حتى ألمانيا الحالية فإننا نجد مملكة تسمى بمملكة الفرنجية (الميروفنجية) ومن ذلك يتبين لنا أن فرنسا لم تكن تحت حكم دولة واحدة ذات سلطة مركزية وإنما كانت مجزأة إلى مقاطعات^(٢) عدة عندما وجه المسلمون نشاطهم نحو الاستيلاء عليها .

وكان القائد الذي وجه جهده إلى مد نشاط المسلمين إلى جنوب فرنسا هو السمع بن مالك الخولاني الذي ولاه عمر بن عبد العزيز على الأندلس وأمره أن يحمل الناس على طريق الحق ولا يعدل بهم عن منهج الرفق وأن يخمس ماغلب عليه من أرضها وعقارها ويكتب إليه بصفة الأندلس وأنهارها ،^(٣)

(١) سبتمانيا : تشمل المدن السبع : أريونة ، وقرقشونة ، واجدة ، ديزبيه ، ولوديف ، ونيمة وماجوييلون .

(٢) أنظر المجلد للمعـسـدى ص ٥٥ ، عنان : دولة الاسلام في الأندلس ص

٧٦ - ٧٩ .

(٣) ابن عذاري ج ٢ ص ٢٦

وقد أراد عمر بتولية السمع عليها أن يجعلها ولاية مستقلة تابعة لمقر الخلافة مثل ولاية أفريقية ومصر . وذلك اهتماما بشأنها ولأنكى يبذل واليها جهده عندما يشعر بتبعيته مباشرة لمقر الخلافة مما يحمله على بذل الجهد في الاعتناء بولاياته لعدم تبعيته لوال آخر يعزله بل ينزع الخليفة رأسا إلا أننا لا نجد هذا الأمر يستمر بعد ذلك بل نجد والى أفريقية هو الذى يسند الإدارة إلى والى الأندلس محتفظا بتبعية الأندلس لوالى أفريقية ماعدا ولاية يحيى بن سلمة السكلى الذى قدم الأندلس واليا من عند أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك فى آخر سنة ١٠٩ هـ (١) .

ويذكر ابن عذارى أن عمر بن عبد العزيز كان رأيه نقل المسلمين من الأندلس وإخراجهم منها لانتطاعها عن المسلمين وإتصافهم بأعداء الله الكفار ، فقليل له : أن الناس قد كثروا بها وانتشروا فى أقطارها فعدل عن رأيه ذلك ، (٢) ولعله كان يخاف على المسلمين هناك لتصوره أنهم أقلية قد يتمكن الكفار لكثرتهم من التغلب عليهم وطردهم أو قتلهم فلما وضح له كثرة الناس واستقرارهم بها أعرض عن رأيه وأذاك طلب من واليه أن يكتب له بصفة الأندلس وأنها حتى يزيد أطمئنائه إلى وضع المسلمين فيها . وقد يقال غير ذلك من الآراء فى تعليل رأى عمر بن عبد العزيز (٣) فى نقل المسلمين من الإندلس .

وكل ذلك واضح وصريح فى أن عمر يريد نقل المسلمين من الأندلس

(١) ابن عذارى البيان ج ٢ ص ٢٦ ، ٢٧

(٢) نفس المرجع السابق ص ٢٦

(٣) نفس المرجع السابق ، ومع المسلمين فى الأندلس على حبيبة ص

غير أننا نجد الأمير شكيب أرسلان ينقل عن كرينو ، أن عمر بن عبد العزيز كان قد هاله بقاء ذلك العدد الكبير من المسيحيين في تلك البلاد واستشعر من ورائهم خطرا على مستقبل المسلمين ففكر في إجلاء مسيحي أسبانية وجنوبي فرنسا إلى أفريقية حيث لا يكون من وجودهم تهلكة على الدولة إلا أن السماح طمأن مخاوف الخليفة قائلا له : أن الإسلام ينمو وينتشر وتمتد شماريحه بسرعة في أسبانية وأنه لا بعد اليوم الذي تصير فيه تلك البلاد بأجمعها تابعة لدين محمد^(١) وهذا الرأي في نقل مسيحي أسبانية وجنوبي فرنسا إلى أفريقية لا نجد له أصلا في المراجع العربية ولسنا ندرى من أين أتى به رينوا ؟

ومبلغ علمي أنه لم يسبق في تاريخ المسلمين أن أجلى قوم من ديارهم لكثرة عددهم بالنسبة لعدد المسلمين الفاتحين ، وأنه لم يحل عن دياره سوى اليهود عندما حملوا على ترك الجزيرة العربية لالكثرة عددهم وإنما لإثارتهم الفتن والدسائس والفتلاقل ضد المسلمين^(٢)

قدم السمع بن مالك إلى الأندلس واليا عليها من قبل عمر بن عبد العزيز في رمضان سنة مائة هجرية بعد اختبار عملي له من عمر ثبت فيه صلاحه وفضله^(٣) ، فقام بعدة إصلاحات داخلية دلت على حنكته الإدارية

(١) شكيب أرسلان تاريخ غزوات العرب ص ٥٢

(٢) الطبقات لابن سعد ٨٣ / ٢

(٣) يذكر صاحب أخبار مجموعة في ذلك : أن الخلفاء (أى من بني أمية في ذلك الوقت) كانوا إذا جاءتهم جبايات الأمصار والآفاق بأنهم مع كل جباية عشرة رجال من وجوه الناس وأجنادها ولا يدخل بيت المال من الجباية دينار ولا درهم حتى يحلف الورد بالله الذي لا إله إلا هو ما فيها دينار ولا درهم إلا أخذ بحقه وأنه فضل أعطيات أهل البلد من المقاتلة والذرية بعد أن أخذ كل دى حق حقه فأتى وفد أفريقية بخراجها وذلك أنها لم تمكن يومئذ أن يفرأ فكان

ودرايته السياسية وتمكن بها من نشر الأمن والنظام في ربوع البلاد فقد قام بإرشاد من الخليفة بإحصاء الأجناس والمذاهب التي كانت تقطن البلاد ، وبمسح لمدن الأندلس وجبالها وأنهارها وبحارها ، مع بيان طبيعة الأرض ومنتجاتها ومواردها بالتفصيل وسدد خراجها بنسبة الخمس ، واهتم بإزالة الخلافات والفتن المنتشرة بين الناس ووجه جهدا صادقا لإصلاح الجيش وإدارته وجعله على درجة عالية من السكفاءة لخوض غمار الحروب ، وبث فيه من روحه الممتلئة بالإيمان وحب الجهاد .

ولم يهمل أنسمح الناحية المعمارية فشيّد مسجدا جامعيا في سرقسطة . واعتنى بالماصمة قرطبة التي تقع على الضفة الشمالية لنهر الوادي الكبير . وفي البطحاء المعروفة بالربض خصص مقبرة للمسلمين ومعظم ذلك بتوجيه من أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز^(١) .

وبعد أن اطمأن السمع إلى استقرار الأمور في الأندلس داخليا وإلى استعداد الجيش لخوض غمار الحرب . توجه إلى المناطق الشمالية من الأندلس فمزم عصاة المسيحيين وأجبرهم على اللجوء إلى المعاقل الجبلية في الأسترياس^(٢) . ثم زحف على سبتمانيا مخترقا جبال البرنية من الجهة

ما وصل بعد أعطيات الجند وفرائض الناس بنقل إلى الخليفة . فلما وفدوا بخراج أفريقه في زمان سليمان أمروا بأن يحلفوا لخلف الثمانية ونكل اسماعيل بن عبيد الله مولى نبي مخزوم ونكل بنسكو له السمع بن مالك الخولاني . فأعجب ذلك عمر بن عبد العزيز من فعلهما ثم ضمهما إلى نفسه فاختر منهما صلاحا وفضلا . نقلنا عن شكيب أرسلان غزوات العرب ص ٥٦ .

(١) ابن عذارى : البيان ج ٢ ص ٢٦ ، مختصر تاريخ العرب ص ١٣١ ، المجمل

للمبادئ ص ٥٤ ، دولة الاسلام ص ٧٤

(٢) مختصر تاريخ العرب ص ١٣٢

الشرقية وتمكن من استعادة أريونة وقرقشونة ومعظم المدن والحصون التابعة لأقليم سبتهانيا وقهر جميع القوى التي حاولت مقاومته أو الوقوف في وجهه ، ولاشك أنه فقد بعض جنوده في الاستيلاء على تلك الحصون والمدن وترك بعضا آخر من الجنود ليدسط الحماية الإسلامية على تلك البقاع ، وبذكر رينو أنه جاء في تواريخ الرهبان الذين شهدوا تلك الوقائع أن العرب هدموا دير (جوسل) بقرب بيزية ودير القديس د بوزيل ، « بقرب » منهم ، ودير صنجيل بقرب « آل » ، والدير المشهور بالدروة المسمى بدير التراتيل بقرب أغيمورت . . . فدم العرب هذه الأديار كلها بغته منحدرين عليها انحدار العقبان بحيث لم يقدر الرهبان الذين فيها أن يخلصوا نجيا برقايم وبعض ذخائر القديسين التي كانت عندهم .

وما نظن أن ذلك قد حدث إلا إذا كان الرهبان وعصابت معهم قد قاومت المسلمين وقاوتهم فاستولوا على هذه الأديار عنوة . . ورأى المسلمون هدمها حتى لا يتخذها الإهالي معاقل لمقاومة المسلمين مرة أخرى ، ولو كان الرهبان سلموا بدون مقاومة ما حدث لهم ذلك وما استولوا المسلمون على ذخائرهم أو أملاكهم أو أصابوهم في أرواحهم بسوء . ولذلك نجد رينو يعود فيعترف بذلك حين يقول : « وكان هؤلاء (يعنى المسلمين) لا يسيئون معاملة الذين يدخلون في طاعتهم بدون مقاومة ويكفونهم القتال . (١) »

وبعد أن انتهى السمع من الاستيلاء على إقليم سبتهانيا الذي كان تابعا للقوط الغربيين . وبعد أن حصن أريونة عاصمة سبتهانيا وعزز حاميتها لوقوعها على البحر توجه ببقية جنوده إلى الغرب نحو بحرى الجارون باسطا سلطان المسلمين على كل المدن والحصون التي في طريقه حتى وصل إلى

(١) غزوات العرب في فرنسا لارسلان ص ٧٢ ، ٧٣ .

طاولوشه (تولوز) عاصمة أقليم أكويتين ، الذي استقل به الدوق اودو ،
«ضرب السمع عليها الحصار ولسكن قبل أن يتمكن من فتحها قصد الدوق
أودو بجيش عظيم يبلغ عشرة أمثال الجيش الذي مع السمع فالتقى الجمعان
بظاهر طاولوشه في التاسع من دى الحجة سنة ١٠٢ هـ / ٩ / ١٠ ، ونيو سنة ٧٢١ م
ودارت معركة رهبة بين جيشين غير متكافئين غير أن المسلمين أظهروا من
ضروب الشجاعة والنجدة مثلاً نادرة وصمموا على الانتصار أو الاستشهاد
وقد رجحت كفه كل فريق حيناً بعد حين غير أن السمع أصابه رمح في رقبة
حر على أثره صريعاً في أرض المعركة فأثر ذلك في نفوس المسلمين الذين أدهقهم
طول النضال مع كثرة جيش عدوهم وحسن استعدادهم فاضطرب جيش
المسلمين وأختل نظامه ، ولسكن الجيش الاسلامي أختار عبدالرحمن الغافقي
لتولى القيادة العامة ، فتمكن عبد الرحمن من الانسحاب بالجيش من المأزق
الذي أحاط به بمهارة نادرة منعت عدوه من إلحاق الهزيمة به حتى وصل إلى
أربونة التي صارت قاعدة للمسلمين في الشمال فثبت أقدام المسلمين فيها وظل
يدير شئون الأندلس إلى أن قدم عنبسة بن سحيم الكلبي والياً على الأندلس
من قبل بشر بن صفوان وإلى أفريقية ، حيث عادت الأندلس ثانياً تابعة
لأفريقية في عهد الخليفة يزيد بن الوليد بن عبد الملك . (١)

عنبسة بن سحيم الكلبي :

تولى عنبسة بن سحيم قيادة الأندلس في صفر سنة ١٠٣ هـ وسار على سنة
سلفه في العناية بالأمور الداخلية في الولاية أولاً فنظم الخراج ، وقسم الأراضي
بين المسلمين بدون جور على الأراضي التي لها ملاك أصليون من الأهلالي ،
وكان يأخذ العشر من الذين خضعوا للمسلمين بدون قتال والخمس من لم

(١) أنظر : مختصر تاريخ العرب ص ١٣٢ ، المجلد في تاريخ الأندلس ص

يخضعوا الا بالسيف ، وطاف عنيسة في مختلف المقاطعات ينظر في مظالم الناس وينشر العدل بينهم بدون تمييز بين المواطنين مختلفي الأديان

وقد انتفض عليه أهالي طرسونه فزحف اليهم وتمسك من احباط ثورتهم ودك حصونهم واقتصر من زعمائهم وبذلك استقرت أحوال البلاد داخليا واستتب فيها الأمن والنظام والعدل ، وقد قضى في سبيل تحقيق ذلك قرابة عامين^(١).

وفي سنة ١٠٥ هـ ولي وجه شطر فرنسا بجيش من خيرة المقاتلين أهل النية في الجهاد والحسبة في الثواب أعده لمناصرة الجهاد فاخترق جبال البرنية واسترد معاقل المسلمين التي فقدوها بعد هزيمة طلوشة واستولى على قرقشونة ونيممة وغيرهما من الأماكن المهمة وخافته جاليات القوط المجاوره فتحالفا معه وتركوا مخالفة الأفرنج ولذلك يذكر رينو أن انتصارات عنيسة تعود إلى اللباقة وحسن الإدارة أكثرها مما تعود إلى القوة ، كما أن جهوده التي بذلها لاكتساب ثقة الأهالي قد قوت من مركز العرب في جنوب فرنسا^(٢) وقد عامل عنيسة الأسرى الذين أسرهم من المدن الفرنسية معاملة حسنة وأرسلهم إلى برشلونة فساعد ذلك على إيجاد روابط الود بين المسلمين وأهالي الأندلس .

وقد تابع عنيسة سيره على الساحل حتى وصل إلى نهر الرون ، وبذلك استولى على إقليم بروفنس ثم تابع السير مع النهر شمالا فاستولى على ليون ووصل إلى أوتون في أعلى نهر الرون ، وغزا مدينة سانس ، وقويت شوكة المسلمين في جنوب فرنسا حتى أن أودودوق أكروتين خشي أن يهاجمه المسلمون مرة أخرى فطلب مقاضعتها ومهادنتهم وقد نسب ايزودور الباجي

(١) تاريخ غزوات العرب لارسلان ص ٨٥ .

(٢) انظر- البيان المغرب ج ٢ ص ٢٧ مختصر تاريخ العرب ص ١٤٦ دولة

الإسلام ج ١ الأندلس ص ٨١ .

وهذا النجاح إلى شخصية عنبسة فقال : كان نجاح عنبسة واجعا إلى الجراحة والبراعة أكثر منه إلى القوة والكثرة ، وكان لينه حسن معاملته للسكان عاملا في تقوية سلطان الإسلام في جنوب فرنسا .

والحقيقة أن هذا هو طبيعة المد الإسلامي وصفة الجيش الإسلامي عند ما يجد القائد الملتزم بأحكام الإسلام .

وقد أدى توغل عنبسة في هذه المساحات الشاسعة في فرنسا بما يفوق قوة جيشه الذي تناقص عدده في القتال ويترك بعض الحاميات خلفه ، إلى أن يتعرض أثناء عودته إلى الجنوب مع من بقي من جيشه بمجموع كبيرة من الأعداء . ترصت له وقامت بينه وبينها معركة حامية قاتل المسلمون فيها قتالا شديدا ، إلا أنهم فقدوا قائدهم عنبسة في شعبان سنة ١٠٧ هـ فاضطرب الجيش وانسحبت فلوله إلى أربونة وفقد المسلمون المدن والحصون التي استولوا عليها (١) .

وكما هي عادة المؤرخين الغربيين نجدهم أترك كل انتصار للمسلمين في أي مكان يحاولون أن يصفوا المسلمين بالقسوة والعنف والهمجية في حروبهم وبارتكاب فظائع شديب لهُولها الولدان ولا تليق بالإنسانية ولا بالسماحة الإسلامية ، وذلك أثناء تغلبهم على الأماكن التي استولوا عليها (٢) .

ولا شك أن هذه الدعاوى الكاذبة لأساس لها من الصحة بالنسبة إلى المسلمين الذين لهم مثلهم العليا وأهدافهم السامية في حروبهم ودوافعهم النبيلة إلى هذه الفتوح . وإنما يريد المؤرخون الغربيون بذكر هذه الفظائع تطبيع

(١) أنظر ذلك : مختصر تاريخ العرب ص ١٤٦ ، المجلد في تاريخ الأندلس ص

٥٦ ، دولة الإسلام في الأندلس ص ٨١ .

(٢) أنظر تلك الأوصاف في تاريخ غزوات العرب في فرنسا لأرسلان ، ص ٧٣-٨٠ .

تاريخ المسلمين وتشويه حقائقه الناصعة . وإذا حدث أن ارتكب واحد من الجنود الذين لم يتعمق سلوك الحرب الإسلامية وتعاليمها في نفوسهم شيئا من هذه الفظائع فإنه كان يؤخذ عليه بصرامة حتى يكون ذلك زاجرا لغيره عند ارتكاب مثل هذه الأفعال .

والحقيقة التي لا مريية فيها أن هذه الأعمال الحمجية التي أطنب في ذكرها هؤلاء المؤرخون لم تقع من المسلمين وإنما ارتكبتها البربر البشنيون الذين كانوا لا يزالون غائضين في لجج الوثنية والقادمين من شمال شرق أوروبا ولذلك قال رينو بعد أن أورد الأوصاف البشعة التي ذكرها هؤلاء المؤرخون : « إلا أنه يعترضنا في هذه الروايات كون المؤرخين الذين ذكروها لم يصرحوا بأن أصحاب هذه الغارات من السرازين^(١) ، ولا ثمة لفظة تدل على أن الذين فعلوا هذه الأفاعيل هم مسلمون بدون شك بل كان المؤرخون يشيرون إليهم بقولهم « وندال » ، وطالما كانوا يطلقون هذا الاسم في النصف الأول من القرن العاشر على المجيار عندما جاء هؤلاء إلى ألمانيا ودخلوا إلى فرنسا واكتسحوا « الالزاس » ، و « اللورين » ، « فرانك كونتي » ، و « برغونيا » ، و « شامبانيا » ، وغيرها^(٢) .

ومن العجيب أن يذكر رينو أن المسلمين عندما قدموا إلى فرنسا وتغلغلوا في أحشاء البلاد لم يكن لهم خطة مرسومة معينة في مغازيتهم ومرايمهم وأنهم لم يجدوا في البداية من أهل فرنسا إلا مقاومة واهية وعزما مشتتا . والحقيقة أن المسلمين كانت أهدافهم واضحة وهي بسط سلطانهم على شمال البحر المتوسط مثل ما فعلوا في جنوبه وأن خططهم كانت متابعة

(١) السرازين : لقب المسلمين عند الأفرنج في ذلك الوقت .

(٢) تاريخ غزواب العرب في فرنسا لارسلان ص ٨٠

الانغارة مرة بعد مرة كما حدث في أفريقية ولولا الأحداث التي جرت في
في داخل الدولة الإسلامية لتحقيق لهم في شمال البحر المتوسط مثل ما تحقق
لهم في جنوبه .

وكذلك فقد اتى المسلمون في هذه الغزوات المتكررة مقاومة قوية
وتجمعات كبيرة وما حدث انسحاب أو استشهاد لقائد من قواد الفتح
إلا في معركة كان تعداد جيش الفريخ يفوق جيش المسلمين بمرات كثيرة
وإن كان المؤرخون العرب لم يذكروا لنا تعداد جيوش المسلمين أو جيش
أعدائهم ولم يذكروا لنا ما قدم المسلمون من الشهداء في هذه الغزوات
المتتابعة وما فقد أعداؤهم من القتلى والأسرى خلال مقاومتهم لتقدم المسلمين
في أراضيهم .

ومهما يكن من أمر فقد انسحب الجيش الإسلامي بعد استشهاد عنبسة
إلى أرونة بقيادة عذرة بن عبدالله الفهرى وتوقفت تلك الغزوات إلى أن
تولى الهيثم بن عبيد السكناي الأندلس سنة ١١١ هـ فاستأنف الفتوح في
فرنسا . وقد تولى الإمارة في الأندلس بعد استشهاد عنبسة إلى ولاية الهيثم
ثلاث ولايات : يحيى بن سلمة السكلي سنة ١٠٧ هـ من قبل أمير المؤمنين هشام
بن محمد الملك وحذيفة بن الأحوص الأشجعي سنة ١١٠ هـ ، وعثمان بن أبي
نسعة الخثعمي سنة ١١٠ هـ ومن قبل والي أفريقية .

وقد أدى تتابع الولاة مع قصر المدة لكل منهم إلى اضطراب في إدارة
الأندلس وإلى إيقاف الغزو مما شجع الأفرنج على مهاجمة المواقع الشمالية
ويمكن القوط المعتصمين في شمال الأندلس من لم شملهم وتقوية صفوفهم
وتنظيم قواتهم فاشتدت حركتهم داخل المضارب النائية حول قائدهم بلإى
الذى تمكن من وضع أسس إقيام الدولة النصرانية في الشمال .

وعندما تولى الهيثم بن عبيد السكناي إمارة الأندلس بذل جهدا مشكورا

في بث السكينة والأمن في ربوع البلاد وتمسك من تدمير حصون القبرط ومعاقلهم في الشمال . وغزا منوسة^(١) أو أرض مقوسة^(٢) أو أرض مقرشة^(٣) فافتتحها . ثم توجه إلى ماوراء البرنية حتى وادي الرون فاستولى على ليون ، وماسون ، وشالون ، وبون وأوتون ، وصالحته بعض المدن الأخرى . وقد حدث خلاف بين قوى الجيش أدى إلى عودة الهيثم إلى الجنوب حيث توفي ولم يحتفظ المسلمون بهذه المدن وضاع الجهد الذي بذلوه سدى .

وتولى إمارة الأندلس بعد موت الهيثم محمد بن عبدالله الأشجعي ، وذلك لمدة شهرين حتى أسندت إلى عبدالرحمن بن عبدالله الغافقي إمارة الأندلس من قبل عبدة بن عبد الرحمن السلمي وإلى أفريقية^(٤) .

وقبل أن أتحدث عن إمارة الغافقي أحب إلقاء نظرة على ما يذكره المؤرخون الغربيون وبورده سيد أمير على وعنان في كتابيهما عن منوسة ومحاولته الاستقلال بالمنطقة الواقعة غربي البرنية ، ثم انشقاقه على المسلمين ومحاربة الهيثم له . فقد تردد المؤرخون في بيان حقيقة : فمرة يقولون هو حاكم عربي ومرة : هو حاكم بربري وأخرى : هو حاكم نصراني ، ثم يذكر مرة أنه من لامبجيا ابنة أودودوق أكوئين ومرة من أخت بلاجبوس زعيم جليقية القوطي . . . إلخ . وأنه عقد معاهدة دفاع مع أودو وطلب من أمير

(١) رواية ابن عذاري ج ٢ ص ٢٨

(٢) نفح الطيب ج ١ ص ٢٠

(٣) ابن خلدون ج ٣ ص ١١٩

(٤) البيان المغرب ٢ / ٢٨ ، مختصر تاريخ العرب ١٤٦ ، دولة الاسلام

الأندلس المصادقة عليهم. وكذلك يتحدثون عن أطباعه السياسية في الاستقلال
ثم رغبة المصاهرة من فناء بارعة الجمال . ويتخذون ذلك وسيلة لاستقلال
الحاكم بما تحت يده فيأني والى الأندلس ويسكشف القناع ويقاقله ويقتله
ويقتضى على لامبجيا ويرسلها إلى دمشق .

ومع مرض صحة ما يذكرون فاني أميل إلى أن منوسة لم يسكن عربيا
ولا بربريا ، وإنما كان نصرانيا أسد إليه المسلمون إدارة منطقة قرب البرنية
ولامانع من ذلك لأننا رأينا في البداية أن المسلمين أسندوا إدارة بعض
المدن إلى النصاري كما حدث في طليطلة ، ومن يدري فلعله أيضا كان حاكما
سابقا لتلك المنطقة وصالح المسلمين فتركوا له إدارة البلاد مثل تدمير ،
ثم نقض العهد أو أخل بالشروط فخاربه المسلمون وذلك لأن المصادر العربية
لا تذكر سوى أن الهيثم غزا منوسة أو أرض مقوشة

أما قصة الحب والزواج والقبح والجمال التي يوردها المؤرخون الأفرنج
فهي من الأمور التي تذكر لحبك القصة التي يراد اختراعها . لأننا لا نصدق
انتفاض حاكم مسلم سواء كان عربيا أو بربريا في ذلك الوقت المبكر لأن
الظروف كانت ، لا تسمح له بالاستقلال في منطقة مازلت ميدانا للغزو ولم
تستقر فيها الأمور بعد . ثم لأن الجنود الذين تحت أمرته لا يوافقوه على
ذلك . فهو لا يملك القوة لتنفيذ هذا الاستقلال لا بالنسبة للمسلمين لا بشقاقة
عليهم ، ولا بالنسبة للمسيحيين لأنه لا يضمن وفاءهم له بالمعاهدة التي عقدها معهم
حسب زعمهم فوضعه مضطرب لا يسهل له عملية الاستقلال أو الانشقاق
على المسلمين (١)

(١) انظر مختصر تاريخ العرب ص ١٤٨ ، دولة الاسلام ص ٨٤ - ٨٨ ،

الأندلس العرب حبيب جاماني ص ١٤ .

عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي :

تولى عبد الرحمن الغافقي إمارة الأندلس في صفر سنة ١١٢ هـ وكان يتسم بحسن الإدارة وسياسة الأمور بحكمة ، بجانب مهارته في القيادة العسكرية وطموحه وآماله العريضة في أن يأخذ بثأر من استشهد من المسلمين وقوادهم في فرنسا وكان يأمل في تحقيق ما عجزوا عنه بالاستيلاء على فرنسا .

وقد بدأ عبد الرحمن أعماله بالإصلاحات الداخلية في الأندلس : فعمل على نشر العدل ورفع المظالم وقام بجولة في ربوع الأندلس قضى فيها قرابة عامين وطاف خلالها بمعظم مدن الأندلس مستمعا إلى شكاوى الرعية وناظرا في أمورهم وتحقيقا لمصالحهم ، فزال كل من ثبت جورته من الحكام المحليين ومن أهمل أو أخل بواجباته وعين بدلا منهم رجالا اشتهروا بالعدالة والنزاهة وحسن السمة .

وقد عامل عبد الرحمن المسلمين والمسيحيين واليهود على قدم المساواة بدون تمييز ، فأعاد للمسيحيين الكنائس التي انتزعت منهم وكان لهم الحق فيها وفقا للعهود ، كما نظم الإدارة المالية وعاقب بشدة من أثار شغبنا أو أحدث فتنة أضرت بالرعية وبذلك تمكن من توطيد الأمن ونشر السلام والاستقرار في ربوع البلاد .

ومع اهتمام عبد الرحمن بالإصلاحات الإدارية فقد عى بأعداد الجيش وحسن اختيار عناصره وقواده وتدريبهم وتنظيمهم وتمرينهم بالمهمة الكبرى التي متلقى على عاتقهم وأثار فيهم روح التضحية والفداء وأعلن الدعوة إلى الجهاد في سبيل الله فانضم إليه كثير من خيرة المقاتلين في أفريقية والأندلس . وبذلك نجح لديه جيش كبير كان يأمل أن يحقق به ما عجز عن تحقيقه الولاية قبله وأن يبدسط سيادة المسلمين على فرنسا .

وفي بداية سنة ١١٩٤م / ٧٣٢م تحرك ذلك الجيش الضخم بقيادة عبد الرحمن مخترقا البرنية عن طريق بنبلونة ودخل فرنسا متجها شرقا إلى مدينة آدل الواقعة على نهر الرون لامتناعها عن أداء الجزية ودارت على شواطئ الرون معركة شديدة تغلب فيها المسلمون واستولوا على المدينة وزحف عبد الرحمن بعد ذلك نحو الغرب وعبر نهر الجادون منقضا على ولاية أكرتين التي تصدى للدفاع عنها الدوق أود وبجيش كبير فدارت معركة عنيفة بينه وبين المسلمين في مضيق دوردون هزم فيها الدوق ومزق جيشه شرمزق ، وتمسك الدوق من الفرار ببعض رجاله إلى الشمال وبهذا بسط المسلمون سيطرتهم على ولاية أكرتين كلها .

ثم عاد الجيش الاسلامي ثانيا نحو الشرق مخترقا برجونية واستولى على ليون وبزانون وصانص التي تبعد قرابة مائة ميل من باريس ، وبذلك تم للمسلمين الاستيلاء على النصف الجنوبي لفرنسا كله من الشرق إلى الغرب ولم يبق إلا الاتجاه نحو عاصمة الفرنج .

وقد تم هذا في أشهر قليلة . وترك عبد الرحمن في المدن التي استولى عليها حاميات قوية من جيشه للاحتفاظ بسلاطين أن المسلمين فيها . ولكن حرصه على قوة هذه الحاميات مع كثرتها قد أدى إلى ضعف قوة الجيش الذي معه والذي انجحه به نحو عاصمة الفرنج حيث اللقاء مع شارل مارتيل معه والذي في بلاط الشهداء .

موقعة بلاط الشهداء :

عندما هزم الدوق أوردون في مضيق الدوردون وفقد كل أكرتين انجحه إلى شارل مارتيل - الذي كان أمير القصر في دولة الفرنجة وكانت السطة

الحقيقية لدولة الفرنج في يده - وطلب منه العون والسجدة والوقوف معه في صد هجوم المسلمين ومحاوله استرجاع اكوتين التي استولوا عليها منه فاردع شارل مارتيل إلى إجابته وسار بجيشه حتى التقى بالمسلمين في موقعة بلاط الشهداء في السهل بين تور وبواتيه .

ولاشك أن شارل مارتيل كان يعلم بتحركات المسلمين في جنوب فرنسا ويعلم أنهم سوف يقصدون دولته بعد الاستيلاء على أكوتين فاستعد لذلك اللقاء وجمع جيشا كبيرا من فرنسا ومن القبائل المتوحشة في حدود الدانوب والآلب وقفار المانيا ، واسكنه لم يتحرك للقاء المسلمين عندما وطشوا جنوب فرنسا ليلتقي بهم في شيمانيا أو اكوتين وإلما ترك الجيش الإسلامي يذهب شرقا وغربا ويفتح المدن ويخوض المعارك ويترك الحاميات هنا وهناك ويفقد بعض الجنود في المعارك المختلفة التي خاضها ضد أودو وكأنه يريد بذلك أن ينهك جيش المسلمين قبل اللقاء به وأن يحدد الزمان والمكان الذي يلتقى فيه بجيش المسلمين وكان يعد لهذا اللقاء في سر وكتيان عجز جواسيس عمه لرحمن عن اكتشافه حتى كان اللقاء الحاسم .

فما نظن أن شارل مارتيل استعد للوقوف في وجه المسلمين عندما استنجد به أودو وإنما كان يستعد لهذا اللقاء من قبل . وبقى يتخير الزمان والمكان المناسبين هذا ما يذكره الحجارى في المسهب و فاجتمعت الأفرنج إلى مذبحها الأعظم قارلة ، وهذه سمة للمسلمين ، فقالت له . ما هذا الخزي الباقي في الأعقاب ؟ كنا نسمع بالعرب ونخافهم من جهة مطلع الشمس حتى أتوا من مغربها واستولوا على بلاد الأندلس وعظم ما فيها من العدد والعدد بجدهم القليل وقلة عدتهم وكونهم لادروع لهم . فقال لهم مامعناء : الرأي عندي أن لا نعترضهم في خرجتهم فاهم كالسيل يحمل من يصادفه وهم في إقبال أمرهم ولهم ثبات تغنى عن كثرة العدد وقلوب تغنى عن حصانة الدروع

ولكن أمهلهم حتى تمتلئ أيديهم من الغنائم ويتخذوا المساكن ويتنافسوا على الرياسة ويستعين بعضهم ببعض لحينئذ يتمكنون منهم بأمرهم (١) ، وكان ذلك مما أعطى لجيش الفرنجة شيئا من الشكات أمام المسلمين وأمر آخر ثبت جيش الفرنجة في وجه المسلمين وهو أنه لم يشعر بالتعب والارهاق من القتال وطول التطواف قبل هذه المعركة مثل الجيش الإسلامي .

ولم يكن بينهم - أي بين جيش شارل - عبد يحارب في صفوف ساداته الممقوتين بل كانوا اخوانا أبطالاً ملتفين حول رئيس بعدهم أقرانا له (٢) فامتازوا بذلك عن جيش لندريق الذي اتقى به المسلمون بقيادة طارق قبل ذلك في موقعة شريش كان هذا هو وضع جيش الفرنجة قبل خوض هذه المعركة الفاصلة .

أما جيش المسلمين فكان قد انتهى من الاستيلاء على مدينتي بواتيه ونور ، وعندما أراد عبد الرحمن أن يعبر نهر اللوار كان جيش الفرنجة قد وصل إليه دون أن يشعر المسلمون بقدومه . وهنا رأى عبد الرحمن أن ينسحب بحيشه من شواطيء اللوار واستعد للمعركة في السهل الواقع بين تور وبواتيه . وكان الجيش الإسلامي قد فقد بعض رجاله في المعارك التي خاضها وترك بعضها في الحاميات التي خلفها في المدن ، بالإضافة إلى أنه قد شعر ببعض الارهاق من الحروب التي خاضها في الأشهر السابقة ومع ذلك ففي يده كثير من الغنائم التي حصل عليها من حروبه السابقة ويحرص بعض الجنود عليها حرصا شديدا أو يرون وجوب المدافعة عنها بعد أن حصلوا عليها . بل كان بعض هؤلاء الجنود يفضلون عدم اللقاء بالعدو والانسحاب بالأسلاب التي في أيديهم .

(١) عن نفح الطيب ج ١ ص ٥٧ .

(٢) تاريخ العرب الإمام اسبدي ص ١٦٨ .

وقد حاول عبد الرحمن أن يثنى هؤلاء الجنود عن التمسك بالأسلاب حتى لا نعوقهم في خوض المعركة ولكن محاولته لم تحقق النجاح المطلوب فرأى أن يخوض المعركة قبل أن يحدث الانشقاق في جيشه وبذل كل جهده وطاقته لحل الجيش على القتال بصدق وإخلاص . فلما التقى الجمعان وبدأ المسلمون القتال في أواخر شعبان سنة ١١٤ هـ بمناوشات استمرت ثمانية أيام رجحت فيها كفة المسلمين ، وفي اليوم التاسع خاض الجمعان معركة عنيفة استمرت إلى أن أدرخى الليل سدوله ونحاجز الجمعان ثم استؤنف القتال في اليوم العاشر بشراسة وقسوة وشدد المسلمون حملتهم على الفرنج حتى كادوا أن يقطعوا ثمار النصر غير أن فرقة من الفرنج تمسكت من الوصول إلى المكان الذي فيه الغنائم وأشيع بين صفوف الجيش الإسلامي أن الغنائم سيستولى عليها العدو وهنا ترك بعض الجنود مواقعهم الامامية ليدافعوا عن الأسلاب ، مما أدى إلى خلل في صفوف المسلمين وحاول عبد الرحمن جهده ليعيد النظام إلى صفوفهم وتقدم الصفوف يقودها ويحمل من نفسه سدا منيعا أمام الأعداء وهنا أصابة سهم من الأعداء ، فسقط شهيدا في ميدان القتال واضطرب المسلمون لاستشهاد قائدهم وشدد الفرنج الحملة واغتنموا هذه الفرصة ، ألا أن المسلمين صدوا في ميدان القتال وثبتوا لأعدائهم يقاتلوهم حتى حجز الليل بين الجيشين وعاد كل جيش إلى مواقعه دون أن يحقق أحدهما النصر على الآخر وكان ذلك في أوائل رمضان سنة ١١٤ هـ .

كان على المسلمين أن يتدروا موقفهم بعد استشهاد قائدهم عبد الرحمن وهنا اختلف رأى القادة بين مواصلة القتال والانسحاب ، فمواصلة القتال قد تأتي بالنصر وقد تأتي بالهزيمة ، والانسحاب لا هزيمة فيه ولا نصر .

وبعد تداول الآراء استقر الرأي على الانسحاب ، فغادر المسلمون
أماكنهم في ظلام الليل متجهين إلى سبتانيا محلفين بخيامهم وجرحاهم الذين
لم يستطيعوا حملهم معهم .

ولاحظ جيش العدو في الفجر الهدوء يسود معسكر المسلمين . فظن
شارل وأود وأن في الأمر خدعة فتقدمت فرق من معسكر الفرنج بحذر
نحو معسكر المسلمين فتبين لهم خلو المعسكر من المقاتلين عدا بعض الجرحى
فأجهزوا عليهم وفرح شارل بذلك ولم يتعقب المسلمين وإنما اكتفى بانسحابهم
وعاد مسرعاً بجيشه نحو الشمال . وقد سمى المسلمون المكان الذي دارت فيه
المعركة بلاط الشهداء لكثرة من استشهد فيه من عظماء الرجال مع عبد الرحمن .

منزلة هذه المعركة :

وقد أشاد المؤرخون الغربيون بهذه الواقعة وقالوا عنها أنها قد حمت
أوروبا من فتح المسلمين ، وأنها كانت السد المنيع الذي أوقف المد الإسلامي
من أن ينتشر في أوروبا ، وأن جيش المسلمين قد مرق فيها شر مرق ولذلك
بالغوا في عدد الشهداء من المسلمين حتى وصلوا بهم إلى أضعاف مضاعفة
بالنسبة لعدد الجيش الأصلي ... الخ .

ولنا أن نقول : إذا كانت الحرب قد ظلت طوال هذه الأيام العشرة
بدون أم تتحقق هزيمة أحد من الجانبين فإن المسلمين مساء اليوم العاشر
الذي استشهد فيه عبد الرحمن — رغم استشهاده عبد الرحمن ورغم انسحاب
عدد كبير من الجند لحمايتهم — قد تمكنوا من الصمود في المساء
وكان من الممكن لهم أن يحققوا النصر وأن يهزموا أمام شارل مارتيل
إلى أن يقضى الله أمراً كان مفعولاً كان من الممكن أن يحدث ذلك إذا حاولوا
أن يستفيدوا من الدرس الذي تلقوه نتيجة لانصراف بعضهم لحمايتهم الغنائم
وذلك بأن يسودوا صفوفهم ويسقطوا الدفاع عن الغنائم من حسابهم .

إلا إذا كان ذلك حسب تخطيط حربي ثم يوجهوا كل طاقاتهم إلى قتال شارل وجيشه بعد أن يجمعوا على زعيم آخر يخلف عبدالرحمن ربما لو فعلوا ذلك لكان للمعركة وجه آخر غير هذه النتيجة التي انتهت إليها .

ولكن يبدو أن القائد لم يستشهد وحده إنما استشهد معه عدد من كبار القواد وأدى ذلك إلى عدم الاتفاق على رأى فى اختيار من يخلفه وكان الأرهاق من الحروب التى خاضوها قبل المعركة والجهد الذى بذلوه خلال المعركة بالإضافة إلى حرص بعض الجنود على المغامرات التى فى قبضتهم وخوفهم من ضياعها . — إذا كانت الدائرة عليهم — من العوامل التى أدت إلى تغليب رأى القائلين بالانسحاب ، واضطر عند ذلك بقية الجند إلى تفضيل الانسحاب ، من أرض المعركة حتى لا تكون هناك هزيمة محققة ، وحق عليهم القول : فازوا من الغنيمة بالاياب .

وإذا نظرنا بعين الحقيقة إلى انسحاب المسلمين من معركة بلاط الشهداء لوجدناه مثل انسحابهم من طولوشة منذ اثنتى عشرة سنة . وليس هناك فرق بينهما : فقد انسحب المسلمون عقب قتل القائد فى كلا المعركتين . غير أن الفرقة فى الثانية كانوا أكثر عددا وتجمعوا من أماكن كثيرة فى طولوشة كان المسلمون يقاثلون قائد دوقية أكوتين وحدها . بينما فى موقعة بلاط الشهداء كانت فرنسا وجيرانها ورئيس دوقية أكوتين — بالإضافة إلى تأييد البابا روما لهم مجتمعين لقتال المسلمين .

أما السبب فى عدم مواصلة المسلمين بعد ذلك للفتح فى فرنسا بجيش كبير مثل الجيش الذى كان تحت أمره عبد الرحمن الغافقى . فالسبب الحقيقى فى رأى يرجع إلى عوامل تتعلق بوضع المسلمين داخلها من شيوع الفرقة بينهم وأنشغال السلطة المركزية بمقاومة الخارجين عليها ثم سقوط الدولة . الأموية بعد ذلك فى دمشق ثم انفصال الأندلس عن السلطة المركزية فى بغداد وأصدق دليل على ذلك الهزائم التى كانت تحمل بالمسلمين أثناء فتح أفريقيا فقد كان بعض هذه الهزائم يستمر بضع سنوات ويسحب المسلمون .

من البلاد والمدن التي استولوا عليها ، ثم يعود المسلمون ليستأنفوا القتال ثانيا ، حتى تمكنوا من فتح افريقية كلها في أكثر من نصف قرن .

ولسكن الوضع في دولة المسلمين كان قد تغير فأدى ذلك إلى عدم استئناف الفتح في فرنسا لاثني القرنين أقوى من المسلمين أو لأن المسلمين انسحبوا من موقعة بلاط الشهداء وأما لأن المسلمين قد حدث ضعف فيهم في داخل جماعتهم التي تفرقت وربما حدث أهمال أو تكاسل وعدم جدية في تحقيق أهدافهم تتعلق بهداية البشرية والتي خرج المسلمون لأجلها من جزييرتهم ، فلم يعد نشر الدين وتعريف الناس بمبادئه هدفا لجموعهم وإنما لقلعة منهم ، بينما سبغوا معظمهم إلى الحياة ومتعمعا مع اغترارهم بأبجادهم العسكرية القربية فألهام ذلك من حسن الاستعداد وأخذ الحيلة عند لقاء عدوهم ، مما أدى إلى تخلخل في معنوياتهم وكان يبدأ في إيقاف موجة الفتح الاسلامي في أوروبا .^(١)

ويرى ابن خلدون ، ويتفق معه المؤرخ الانجليزي الشهير ارنولد توينبي ومن سار على دربهما من المؤرخين ، أن كل فتح - خاصة في تلك العصور حيث الامكانيات العسكرية المتقدمة غير موجودة والامكانيات البشرية محدودة - له مدى ينتهي اليه ولا يمكن أن يتخطاه ، ذلك لأن المسلمين بوصولهم إلى جبال البرنيه كانت فتوحاتهم قد بلغت منتهاها جهة الغرب والشمال الغربي كما أن وصولهم إلى نهر السند كان نهاية فتوحاتهم إلى الشرق . ووصولهم إلى ما وراء النهر نهاية فتوحاتهم في الشمال الشرقي ، اذ لا يمكن لهذه الاتساع

(١) انظر : لسان المحدث ٢٠ ص ٢٨ ، مختصر تاريخ العرب ص ١٤٧ ،

١٥١ ، المحمل للعبادى ص ٥٦ - ٦١ ، دولة الاسلام في الاندلس ص ٨٢ -

١٠٩ ، مع المسلمين في الاندلس ص ١٠٧ - ١١٨ ، اندلس العرب ص ١٤ -

١٩ ، تاريخ الاسلام السياسي ج ١ ص ٢٢٧ .

الشاسع والبعد عن المقر الرسمي للخلافة (دمشق) مع طول خطوط امداداتهم وتموينهم ، أن يستمرا طرادا لأن ذلك يحتاج إلى امكانيات هائلة لا يمكن لدوله مثل الاموية — والتي كانت تتعرض لفتن واضطرابات داخلية — أن تستمر في الفتح . ذلك لأنه الله تعالى — الحكمة لا يعلمها إلا سبحانه — لم يشأ للمسلمين أن يفتحوا هذه المناطق الأوروبية الشمالية الغربية إذ لو شاء لفتح عليهم مثلما حدث في معاركهم في صدر الاسلام وابان عنقوان الأميين .

عبد الملك بن قطن الفهرى :

كان لاستشهاد عبد الرحمن الغافقي ومن معه وانسحاب المسلمين من بلاط الشهداء دون تحقيق النصر هزة كبيرة في نفوس المسلمين . فأرسل والى افرريقية في رمضان سنة ١١٤ هـ عبد الملك بن قطن الفهرى واليا على الأندلس في جيش من خيرة جند افرريقية وأمره بالعمل على حماية الأندلس واسترجاع هيبة المسلمين وتثبيتها في جنوب فرنسا .

وكان بعض السكان في المناطق الشمالية في شبه جزيرة الأندلس قد حاولوا أن يستفيدوا من استشهاد عبد الرحمن ومن معه ويتخلصوا من الحكم الاسلامي فوجه اليهم عبد الملك جهوده فساد إلى كتالونيا وارغون ونافار^(١) وهزم الثوار في عدة معارك وأخبرهم على طلب الصلح والانقياد للمسلمين ثم توجه عبد الملك إلى لانكيدوك فثبت أقدام المسلمين فيها ونظم أمور الدفاع .

هنا حتى تتمكن من الصمود في وجه الافرنج الذين كانوا يكثرون من الاغارة عليها .

(١) كتالونيا وهي بلاد الكتالان التي قاعدتها برشلونة ، وأرغون هي مملكة شمال أسبانية إلى الشرق ، ونافار هي البلاد المجاورة لأرغون والعرب يسمونها نايرا وأحيانا تهرونه : غزوات العرب لأرسلان ص ١٠٣ .

وكان حكام البلاد في مقاطعات سبتمانيا وبروفانس يذع بعضهم شارل مارتيل وبعضهم دوق أكوتين ولاكنهم كانوا يميلون إلى التخلص من هذه التبعية والاستقلال ببلادهم . ولذلك نجد بعضهم يحالف حكام المسلمين ليقبضوا بأسر ملوك الأفرنج ، ومن هؤلاء مورووند ، دوق مرسيليا وفي سنة ١١٦ هـ / ٧٣٤ م اتفق يوسف أمير أربونة المسلم مع مورووند دوق مرسيليا حيث زحف المسلمون بجيش كبير تمكن من الاستيلاء على مدينة آرل ثم تقدموا في مقاطعة البروفانس وحاصروا مدينة فرينا المعروفة بسان ريمي واستولوا عليها ثم توجه المسلمون إلى أفنيو وتمسكوا من الاستيلاء عليها بعد قتال عنيف مع حاميتها وبقى المسلمون يسيطرون على بلاد البروفانس أربع سنوات .

وبعد أن تمكن هبذ الملك بن قطن من استرجاع هيبة المسلمين بهذه الغزوات في أرض فرنسا عاد إلى جبال طبرينة لتأديب العصاة فيها فهبت عليه عواصف وأمطار شديدة وهو في جبال وعرة . وقد مكنت هذه الأنواء العصابات الجبلية البسكونية من إلحاق خسارة كبيرة بجيشه فعاد إلى قرطبة دون أن يتمكن من بسط سلطان المسلمين عليهم^(١) .

عقبة بن الحجاج :

وقد عزل ابن قطن عن إمارة الأندلس في رمضان سنة ١١٦ وخلفه في الإمارة عقبة بن الحجاج السلولى الذى دخل الأندلس في شوال سنة ١١٦ هـ / أواخر سنة ٧٣٤ م . ويعرف عقبة بالشجاعة وحسن الرأى فى

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٨ ؛ نفح الطيب ج ١ ص ٢٢٠ ، غزوات العرب لإرسلان ص ١٠٣ - ١٠٥ دولة الإسلام فى الأندلس ص ١١٠ - ١١١ مختصر تاريخ العرب ص ١٥٢ .

تدبير الأمور والنعمسك بالعدل والتقوى ولذلك استبشر المسلمون بولايته وقد حقق عقبة خلال توليه إمارة الأندلس الهدوء والأمن في ربوع البلاد فنشر العدل ورد المظالم وحاسب العمال وعزل من ثبت ظلمه وحقبه وعاقبهم حسب جرمهم وولى مكانهم من اتصف بالعدالة والنزاهة والحرص على مصلحة الرعية وأمر العمال بتجنيد فرق لجباية الأمن والضرب على أيدي العابثين به . واهتم بدور العلم والعبادة فأسس كثيرا من المساجد والمدارس وعين لها من يقوم بشئونها وبتعليم الناس فيها ورصد لهم الأموال للانفاق منها . وكان لا يفرق في المعاملة بين الرعية فلا يجابي أحدا لإسلامه أو قرابته أو يظلمه لمخالفته له في الدين فاطمأن الناس في عهده وفرحوا بولايته .

وقد وجه عقبه جهوده الحربية أولا إلى شمال الأندلس عازما على تثبيت أقدام المسلمين فيها وجعلها سكنا لهم ففتح بنبلونة ومعظم جهات جليقية ، غير الصخرة التي لجأ إليها ملك جليقية وكان بها في ثلاثمائة راجل فما زال المسلمون يضيقون عليهم حتى صاروا ثلاثين رجلا وحتى فنيت أزودتهم ولم يتقوتوا إلا بعسل يحدونه في خروق الصخرة واعي المسلمين أمرهم فتركوهم ،^(١) . ولعلمهم استصغروا شأنهم وظنوا أنهم يهلكون ولا يكون لهم شأن فعاد عقبه ومن معه موجها جهوده تجاه جنوب فرنسا دون أن يتم القضاء عليهم كما رجح عنهم من قبل موسى بن نصير عندما استدعاه الخليفة . وإذا كنا نلتمس لموسى بن نصير عذرا في رجوعه عن القضاء على بلای وعصابته المعتصمة بالصخور بتلبيته لأمر الخليفة فإننا لا نجد عذرا يجعل عقبه بن الحجاج ومن معه يرجع عن بلای ومن معه دون أن يقضى عليه . فقد كان القضاء على بلای وعصابته خيرا مما قام به من بعد

(١) البيان المغرب ٢/ ٢٩٦

ذلك من تثبيت سلطان المسلمين في جنوب فرنسا . ذلك أن سلطان المسلمين سوف ينكمش ثم ينسحب من جنوب فرنسا كما سينكمش ثم ينسحب من شمال الأندلس ، غير أن الفرنسيين سوف لا يستطيعون مقاومة المسلمين في الأندلس بينما سوف يستطيع خلفاء بلاى وهصابتة مقاومة المسلمين في الأندلس بل سيحملون أحفاد المسلمين بعد ثمانية قرون على مغادرة الأندلس أو البقاء مع ترك عقيدتهم الإسلامية واعتناق المسيحية وزادوا الطين بلة بسلبهم حريتهم فصاروا عبيدا بعد أن كانوا سادة وحكاما .

ومهما كان الأمر فقد وجه هقبة جهود المسلمين الحربية بعد توطيد الأمن في شمال الأندلس تجاه جنوب فرنسا فتابع الجهاد خلال فترة ولايته التي استمرت أكثر من خمس سنوات فصارت أربونة موطننا للمسلمين ومكانا لسكنائهم ، أما مواقع القتال والحرب فكانت في الأماكن المكشوفة حتى نهر الرون حيث أقام المجاهدون في المراكز العسكرية ، الرباط ، من أجل الدفاع والاستشكشاف .

وفي سنة ١١٨ هـ / ٧٣٦ م توجه الجيش الإسلامي للاغارة على إقليم دوفينه (١) فاستولى على سان بول ، ودونزور وفالانس ، ومين وليون وغيرها وانتشرت طلائع الجيش الإسلامي في بوجونية مهددة عاصمة فرنسا ومحارلة استرجاع هيبة المسلمين والأخذ بشأر الجيش الإسلامي الذي استشهد قائده وبعض جنوده في بلاط الشهداء .

وكان شارل مارتيل مشغولا بمقاتلة الثأرين هاليه في الشمال فأرسل أخاه هلد براند بجيش لصد المسلمين واستنجد بهم وحايفهم لوتيران ملك اللوماردين ، في إيطاليا أيماونه في قتال المسلمين الذين تمسكوا من جبال

(١) دوفينه : مقاطعة في شمال بروفانس وعربي ساهو وشرقي ليون غرويات

دوفينة وبيمونت (١) .

وقد ضرب شلد براند بجيشه الحصار على المسلمين في افينون ولحق به شارل مارتيل بجيش ثان وجاء لتورانك ملك اللومباردين بجيش آخر من إيطاليا حيث تمكنوا من الاستيلاء على افينون بعد حصار طويل وقضوا على حاميتها المسلحة مما اضطر الحاميات الإسلامية المنتشرة في بعض الأربطة أمام هذا الجيش الهائل إلى الانسحاب والاعتصام في أربونة فتقدم شارل بجيشه الضخم وحاصرا بيونة فصمد له المسلمون فيها وردوا كل هجماته ورأى عقبة إنجاد المدينة حتى لا تقع في يد شارل مارتيل فأرسل إليها مدداً عن طريق البحر إلا أن شارل شعر به وتمكن من منعه عن الوصول إلى أربونة وأنزل به خسارة فادحة ولم ينج منه سوى عدد قليل لجأ إلى السفن وذلك في سنة ١١١٩ هـ / ٧٣٧ م ومع عدم تمكن هذه النجدة من الوصول إلى أربونة إلا أن المسلمين في أربونة صمدوا للحصار ودافعوا عن أربونة ببسالة نادرة مما حمل شارل مارتيل إلى أن يرحل عن أربونة ويرفع عنها الحصار وفي أثناء انسحابه نحو الشمال هدم كثيراً من الحصون والمدن التي كان يحتلها المسلمون فهدم مدينة بيزيه ، وأدج ، وماجلون ، وأحرق مدينة نيمه بآثارها الرومانية الفاخرة وهكذا حول البلاد إلى خراب بلقع بعد أن كانت عامرة مزدهرة أيام المسلمين وذلك ليمنع تقدم المسلمين إلى هذه البلاد وربما يشبه عمله هذا ما قامت به الكاهنة في شمال أفريقية عندما هزمت حسان بن النعمان .

وقد حاول المسلمون بقيادة عقبة بن الحجاج الاسترجاع هذه البلاد ثانياً

(١) بيمونت : هي البلاد الواقعة في شمال إيطاليا وتعرف باسم بيمونت

في سنة ١٢٠ ، ١٢١ هـ ولكن الفرنج بقيادة شارل مارتيل تكاثروا عليهم واضطروهم إلى الانسحاب من بروفانس ومعظم مدن ميسانيا ولم يبق للمسلمين سوى أربونة ورقعة من الأرض بين أربونة والبرنية .

وإذا كان هجوم المسلمين على جنوب فرنسا برأ قد اقي مقاومة عنيفة وصارت أراضي جنوب فرنسا في مد وجزر بين المسلمين والفرنج خلال حياة شارل مارتيل . فإن ذلك لم يمنع المسلمين من أن يتابعوا غزواتهم البحرية على المدن الواقعة على شواطئ فرنسا الجنوبية وعلى الجزر الغربية منها .

فقد أنشأ المسلمون منذ الفتح دور الصناعة لبناء الأساطيل البحرية في كثير من موانئ الأندلس عدا دار الصناعة العظيمة المقامة في تونس . وكان للمسلمين في الأندلس قائد للبحر يسمى أمير الماء وقد حرق بعد ذلك إلى أميرال .

ومع كل هذه الجهود الضخمة فلم يتمكن المسلمون من تحويل جنوب فرنسا إلى أرض إسلامية لأسباب ستحدث عنها فيما بعد .

وربما — أمام هذا الوضع — وهو عدم تمكن عقبة من الثبات في وجه العدو — ثار أهل الأندلس على عقبة بن الحجاج فعزلوه وولوا مكانه عبد الملك بن قطن للمرة الثانية . وقال ابن القطان : أن عقبة بن الحجاج لما حازت وفاته استخلف عبد الملك بن قطن على الأندلس سنة ١٢٢ هـ (١) .

(١) ابن حلدون ج ٤ ص ١١٩ ، البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩ ، ٣٠ نفع الطيب ص ٢٢٠ ، ٢٢١ ، مختصر تاريخ العرب ص ١٥٢ ، ١٥٣ ، غزوات العرب في فرنسا ص ٩١ — ١٠٨ ، دولة الإسلام في الأندلس ص ١١١ — ١١٥ .

ولاية عبد الملك بن قطن الثانية :

وكانت ولاية عبد الملك بن قطن الثانية فترة لقيام الثورات وانتشار الفتن واضطراب الأمور في الأندلس وقد كانت أسباب الاضطراب من خارج الأندلس وداخلها . فمن خارج الأندلس نجد أن المغرب الأقصى اضطربت الأمور فيه لانتشار مذهب الخوارج الصفرية وتزعيم ميسرة المدغرى ثورة البربر ضد الحكام المسلمين العرب حيث قتلوا حاكم طنجة وحاكم السوس ودعوا لمسيرة بالخلافة وقاتلهم وإلى أفريقية ولكن المسلمين هزموا في معركة الأشراف سنة ١٢٣ هـ بعد أن قدموا كثيراً من الأبطال فولى الخليفة هشام بن عبد الملك على أفريقية كلثوم بن عياض القشيري وأرسل معه جيشاً بقيادة بلج بن بشر القشيري لقتال البربر والقضاء على فتنة الخوارج في أفريقية وانضم إليهم جنود أفريقية وساروا نحو المغرب الأقصى حيث ألقوا بخوارج البربر تحت قيادة خالد بن حميد الزناتي في وادي سبو ودافع بين الفريقين معركة دهيبة انتصر فيها البربر واستشهد كلثوم بن عياض واشتد جموع العرب المسلمين فلحق بعضهم بالقيروان ولجأ بلج بن بشر في عشرة آلاف من أهل الشام إلى سبتة فتحصنوا بها فحاصروهم البربر واشتد عليهم الحصار فطلبوا من عبد الملك بن قطن أن يساعدهم في العبور إلى الأندلس فمأطلمهم في البداية خوفاً منهم على مركزه وسلطانه .

ولكن أحداث أفريقية التي انتصر فيها البربر في المغرب الأقصى كان لها تأثير في داخل الأندلس بين البربر والعرب فتطاول البربر في الأندلس على العرب في التي يكثر فيها البربر في الشمال في جليقية وغربها وكانوا العرب وطردوهم المناطق وكاد أن يحدث في الأندلس ما حدث في أفريقية . عند ذلك اضطرب عبد الملك ابن قطن أنه يسمح لبلج وأصحابه ويعاونهم في العبور إلى الأندلس ليستعين بهم في القضاء على ثورة البربر في الأندلس وشرط عليهم مقام سنة بالأندلس ثم يخرجوا عنها فرضوا بذلك وأخذ منهم رهائن أنزلهم بجزيرة أم حكيم .

وعبر بلج ومن معه إلى الأندلس سنة ١٢٣ هـ وقدم لهم ما يحتاجون إليه من الطعام واللباس واجتمعوا إلى جيش عبد الملك ثم انجموا إلى البربر المجتمعين في شذونة فمزموا البربر وأصاب بلج منهم غنائم كثيرة . ثم اتجهوا إلى قرطبة حيث ردوا جموع البربر عنها بعد قتال عنيف . فاجتمعت جموع كثيرة للبربر قريباً من طليطة فزحف إليهم عبد الملك وبلج بعرب الأندلس . وتمكن العرب من هزيمة البربر بوادي سليط وقتلوا منهم عدة آلاف وبذلك قضى على فتنة البربر في الأندلس وأشدت ساعد بلج وأصحابه (١) .

لم يكن القضاء على فتنة البربر بالأندلس بشيراً باستقرار الأمور بالأندلس وإنما أعقب ذلك فتنة بين العرب أنفسهم . فقد طلب عبد الملك بن قطن من بلج وأصحابه الرحيل عن الأندلس حسب الشرط الذي أخذه عليهم فقال بلج أحملنا إلى ساحل البيرة أو ساحل تدمير فقام لهم عبد الملك ايست لنا مراكب إلا بالجريرة قال له : إنما تريد أن تردنا إلى البربر (أى المغرب الأقصى) ليقتلونا في بلادهم . فلما ألح عليهم عبد الملك في الخروج ثر بلج ومن معه من أهل الشام وقبضوا على عبد الملك وقلوه في هلاك أحد الرهائن التي كانت تحت يده وتولى بلج إمارة الأندلس في أول ذي القعدة سنة ١٢٣ هـ (٢) .

ولاية بلج بن بشر ، وثلعة بن سلامة :

وفي ولاية بلج بدأ الصراع بين العرب أنفسهم فقد حشد أمية وقطن اسي عبد الملك جموعاً كثيرة في سرقسطة لمغت أكثر من مائة ألف وانهم إليها عبد الرحمن بن حبيب الفهري وعبد الرحمن بن علقمة النحدي حاكم

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠ ، ٣١ ، دولة الاسلام في الأندلس ص ١٢١ ،

١٢٢ .

(٢) المرجعان السابقان : الأول ج ٢ ص ٣٢ ، ٣٣ ، والثاني ص ١٢٢ .

أربونة وفارس الأندلس وكل من أنكر قتل عبد الملك بن قطن ، وسادت هذه الجموع إلى قرطبة حيث خرج إليهم بلج في عشرين ألفاً من أنصاره ودارت بين الفريقين معركة شديدة قتل فيها أحد عشر ألفاً وانتصر فيها الشاميون رغم قتلهم إلا أن بلجاً أصيب بجراح توفي منها بعد أيام . فولى أهل الشام في شوال سنة ١٢٤ هـ ثعلبة بن سلامة الجذامي إمارة الأندلس وقالوا إن ذلك كان بعهد من هشام بن عبد الملك أو من كلثوم بن عياض كما ذكروا ذلك في ولاية بلج^(١) قبل ذلك . وقد حاول ثعلبة إصلاح البلاد ونشر العدل إلا أن سلطة الحكومة المركزية في الأندلس كانت قد ضعفت ، وحاول حكام الولايات الوسطى والشمالية الاستقلال والانفراد بالتفوذ ، ونشبت الحرب مرة ثانية بين الشاميين بقيادة ثعلبة وبين أبناء عبد الملك بن قطن ومن انضم إليهم ودارت بينهما معارك حامية حول ماردة قتل فيها خلق كثير وانجملت الحرب عن انتصار ثعلبة على خصومه وأسر ألفاً منهم عاد بهم إلى قرطبة .

ولاية أبي الخطار الحسام بن ضرار الكلبى :

وفي مطلع سنة ١٢٥ هـ أرسل حنظلة بن صفوان وإلى أفريقية أبا الخطار الحسام بن ضرار الكلبى والياً على الأندلس فقدم إلى قرطبة وتسلم السلطة من ثعلبة وعفى عن الأسرى الذين كان يريد ثعلبة قتلهم . وقد حاول أبو الخطار أن يعيد الأمن والسكينة إلى البلاد وتمسك بالتسامح والعدل وأحبه الناس واجتمع عليه أهل الشام وعرب البلد وانقاد له الحكام الخارجون على سلفه فأحسن إليهم ومن أبى الانقياد له خرج من الأندلس . وقد فرق أبو الخطار جند الشام وأنزلهم في مدن مختلفة حسب المدن التي قدموا منها وكأنه يراعى هنا رابطة البلد والمكان الذى ينتسب إليه الفرد لارابطة القبيلة وأنهى

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٣ .

الحكم الذاتي الذي كانت تتمتع به تدمير (مرسية) بعد وفاة تيودمير لأنه رأى أن تلك المعاهدة التي عقدت معه كانت تتعلق بفترة حياة تيودمير ولا تتجاوز إلى أبنائه من بعده وبذلك ضمت تدمير إلى باقي إمارات الأندلس وبذلك تم للمسلمين بسط سلطانهم الفعلي على جنوب الأندلس كله .

كان شعور المسلمين بالمساواة من أبي الخطار بين جميع القبائل عاملاً أدى إلى الرضا عنه وتأثيره وطاعته من الجميع ولكن يذكر المؤرخون أن أبا الخطار مال بعد ذلك إلى اليمنيين وحالاهم على حساب المضريين مما أدى إلى اشتعال نار الفتنة بين العرب من جديد .

وابتدأ الشر بأسامة أبي الخطار إلى زعيم من زعماء المضرية هو الصميل ابن حاتم بن شمر ذي الجوشن وجده شمر من أهل الكوفة ومن اشترك في قتل الحسين بن علي رضي الله عنه وكان الصميل شجاعاً سخياً فالتف حوله المضرية وبعض الناقين على أبي الخطار من اليمنية كجندام ولخم فلما أهانه أبو الخطار بعث الصميل إلى خيار قومه فشكا إليهم ما حل به من هوان فثاروا معه وأيدته انخم وجندام من اليمنية . فقدموا عليهم ثوابه بن سلامة الجندامي واتجهوا نحو قرطبة فخرج إليهم أبو الخطار فمزموه وأسروه واتجه ثوابه ومن معه نحو قرطبة فدخل قصر الإمارة وأعلن اختيار ثوابه وهو يمني أميراً على الأندلس سنة ١٢٨ هـ بدلا من أبي الخطار ووافق على ذلك والي أفريقية عبد الرحمن بن حبيب الفهري الذي انزع ولاية أفريقية من حنظلة بن صفوان ، وقام ثوابه بضبط الأمور في الأندلس بمعاونة الصميل فاجتمع عليه جند الأندلس . وهنا نشير إلى ما يقوله معظم المؤرخين من أن العصبية القبلية بين اليمنيين والمضريين كانت هي السبب دائماً في إثارة الخلاف والحرب بين العرب في الأندلس فإن هذه الدعوى قد تقبل على إطلاقها إذا لم نجد شيئاً يدحضها : ومن ذلك إسناد الأندلس إلى ثوابه بن سلامة

الجزامى وهو يبنى مع أن معظم المنتصرين كانوا من مضر وفيهم الصميل بن حاتم ومن ذلك قتال جذام وهي يمنية مع الصميل قائد المضرية لأبي الخطار اليمنى والانتصار عليه ، وأسناد إمارة الأندلس إلى ثوابة بن سلامة الجزامى اليمنى بعد أن تحقق الانتصار يبنى أن الثورة سببها العصبية إذ المتوقع حينئذ . أن يتولى الإمارة رجل مضرى ولكن ذلك لم يحدث . وهذه الظاهرة تبين لنا أن هناك أسبابا أخرى كان يدور من أجلها الصراع فى الأندلس فى هذه الفترة الخرجة ، وأن كل فريق أو حزب كان يخوض الحرب لأنه يرى أن يولى الرجل الذى يطمئن إليه ويرتضيه ويحقق مطالبه سواء كانت هذه المطالب تتعلق بالدين أو بالسياسة أو بالشرف والكرامة وسواء كان الشخص يمنيا أو مضرى .

وقد تمكن أبو الخطار من الفرار من أسره وتمكن من حشد جمع كبير من اليمنى لقتال المضرية واسترجاع الإمارة وتقدم إلى قرطبة فخرج إليه ثوابة بمن معه من اليمنيين والمضريين ولكن جند أبى الخطار تفرقوا عنه فانسحب أبو الخطار ولم يلبث ثوابة أن توفي ن أوائل سنة ١٢٩ هـ .

وعندما توفي ثوابة ذر قرن الفتنة وعادت الحرب إلى ما كانت عليه . فقد أراد اليمنيون إعادة أبى الخطار إلى إمارة الأندلس ورفض ذلك المضريون بقيادة الصميل بن حاتم وحدث بين الفريقين صراع وقتال ظلت خلافة الأندلس أربعة أشهر بدون أمير وتولى الأحكام فيها عبد الرحمن بن كثير اللخمي برضاء من الفريقين .

آخر الولاية : يوسف بن عبد الرحمن الفهرى :

ولما تفاقم الأمر واشتد الخلاف خاف الزعماء من تطور الفتنة إلى أسوأ مما كانت عليه فانفقوا على تولية يوسف بن عبد الرحمن الفهرى المضرى .

الإمارة في ربيع الثاني سنة ٢٢٩ لمدة عام يتولى بعده أمير من اليمنية .
وهكذا تنبادل القبيلتان أو الحزبان بينهما الامارة فيكون الحكم لكل
منهما مدة عام . ولما استقام الأمر ليوسف عزل يحيى ابن حريث أحد
الحكام اليمنيين فغضب ودعا اليمنيين إلى الثورة معه وكاتب أبا الخطار فأجابه
وحشدت جموع اليمنية التي تؤيدها وزحفوا على قرطبة فخرج إليهما
يوسف والصميل في جموع المضريه والتفوا المشقة قريبا من قرطبة سنة
١٣٠ هـ حيث دارت بينهما معركة رهيبه انتهت بهزيمة اليمنية وقتل أبي
الخطار وابن حريث وكثير من زعماء اليمنية واستتب الأمر ليوسف الفهرى
بعد شققة فرضى عنه جند اليمن والشام ومضرو وعلا شأن الصميل فحشى
منه يوسف على إمارته وأسند إليه ولاية سرقسطة ليبعده عن مقر الإمارة
التي اضطربت شئونها وزاد في اضطراب الأمور أحداث المشرق وأفريقية
وسقوط الخلافة الأموية سنة ١٣٢ هـ وعجز سلطان العباسيين عن الوصول
إلى أفريقية والأندلس آنذاك .

وقد وجه يوسف الفهرى جهوده إلى إصلاح شئون الإمارة بعد هذه
الفن التي مرت بها وأدت إلى ضعف السطة المركزية لمحاولة استقلال
كثير من العمال بولاياتهم ، مما شجع النصارى في الولايات الشمالية إلى السعى
لإسراجاع السطة في أقاليمهم وزاد الطين بلة حلول القحط بالأندلس لفترة
زادت على أربع سنوا من ١٣١ - ١٣٥ هـ مما حمل كثيرا من الناس على
ترك الأندلس إلى أفريقية وخاصة من الولايات الشمالية فكان ذلك مشجعا
لنصارى في الشمال على الاستقرار في البلاد التي رحلوا عنها .

ولذلك لم يفت في ضد يوسف وأبدى همه عالياه قاوم بها الصعاب
والحن وطاف بالأقاليم بنظر في شئها ويقضى على الفوضى ويرد المظالم

وبعزل الحكام الجائرين . وعبد الطرق وأصلح نظام الضرائب فاقترض ثلث الدخل من كل ولاية وأمر بأن تجبي الضرائب عن الأحياء فقط وتسقط عن توفوا وأن تعدل السجلات تبعا لذلك وأحبه كثير من النصارى لهذه الإصلاحات . كما اهتم بالجيش وتدريبه وإصلاحه حتى يثبت سلطان إمارته . وقد وجه يوسف الفهمى جيشا إلى جنوب فرنسا بقيادة أحد أبنائه ليسترد هبة المسلمين ولكنه عاد دون أن يحقق الهدف الذى أرسل من أجله . وماظن أن ذلك كان أمرا ممكنا إذا علمنا الثورات التى قامت فى وجه يوسف وعمل على إخمادها فقد ثار عليه عبد الرحمن بن علقمة اللخمي حاكم أربونة وأزمع الخروج إليه فلم يلبث إلا يسيرا حتى أمكنه الله منه وثار عليه عروة ابن الوليد بياضة والتف حوله العرب والبربر وتحالف مع النصارى وتمكن من الاستيلاء على أشبيلية واتسع نطاق ثورته فخرج إليه يوسف ودارت بينهما معارك انتصر فيها يوسف وقتل عروة وكثير من أصحابه . وكان أشد الثورات وأخطرها ثورة تزعمها تميم بن معبد وعامر بن عمرو بن وهب العبدرى الذى يقال أنه كاتب الخليفة أباجعفر المنصور وطلب منه مرسوما بأمانة الأندلس حتى يدع له بالأندلس ويحكمها باسمه وانضم إليهما الحباب ابن رواحة الزهرى واجتمع عليهم كثير من المضربة والبنمية والبربر واتجهوا إلى سرقة حيث كان الصميل بن حاتم وضربا عليه الحصار ودارت معارك بينهما انتهت بانسحاب الصميل من سرقة وسقوطها فى يد الثوار سنة ١٣٦ هـ / ٧٥٣ م وأعان عامر أنه أمير الأندلس بموافقة أدهى أنها وصلتته من أبى جعفر المنصور وبسط سلطانه على ماحول سرقة فسار إليه يوسف فى سنة ١٣٨ هـ بجيش كبير أعده لذلك وتمكن من حصاره وهزيمته وقتله وبذلك قضى يوسف على كل الثورات التى قامت حده فى الأندلس ولكنه لم يكد ينتهى من ذلك حتى فوجئ بخطر جد جديد جاءه من المشرق

في غرة ربيع الأول سنة ١٣٨ هـ / ٧٥٥ م وهو الأمير عبد الرحمن بن معلوية بن هشام بن عبد الملك (الملقب بصقر قریش) الذي تمكن من نزع الأمانة منه والاستقلال بالاندلس وكان ذلك في نهاية عهد الولاة .

حالة الأندلس آخر عهد الولاة :

وإذا كان الولاة الأول قد وجهوا جهودهم إلى متابعة الفتح في جنوب فرنسا وقدموا الشهداء وحرصوا على الاحتفاظ بما فتحوه فإن آخر عصر الولاة وماشاع فيه من الفتن والاضطرابات والثورات قد فقد المسلمون فيه تلك المناطق التي روها بالكثير من دماء شهدائهم الأبرار .

فبينما كان يوسف الفهرى مشغولاً بالقضاء على هذه الثورات الضارية التي قامت ضده اغتتم الفرنج تلك الفرصة واستولوا على أراضيه ومدن سبتمانيا ولا نجدوك ، وكانت مأزول في أيدي المسلمين فقد ساريين بن شارل مارتل سنة ١٣٥ هـ / ٧٥١ م ، بجيش إلى لانجمدوك واستولى على نيم وأفت وماغلون وبيزيه وغيرها وخرّب مساجدها وهدم مستشفياتها وقتل من وجده فيها من المسلمين . ولم يجعل المسلمون من هذه البلاد في جنوب فرنسا في سهولة فقد دافعوا عن كل شبر فيها بدمائهم وقدموا الأبطال من شهدائهم .

ورغم عجز حكومة الأندلس آنذاك عن مساعدتهم فقد ظلوا ثلاثة أعوام يقاومون وينسحبون لعجزهم عن الصمود حتى لم يبق في أيديهم سنة ١٣٨ هـ / ٧٥٥ م سوى مدينة أربونة التي وصل إليها بين بجيشه القوى المنتصر وضرب عليها حصاراً طويلاً صمد له المسلمون طيلة أربعة أعوام ، إذ أن أربونة كانت في حصانة ومنعه وصمم المسلمون على الدفاع عنها حتى آخر جندي وتمسكوا من رد كل هجمات العدو المحاصر لهم مع عدم تمكن الحكومة المركزية من إمدادهم بما يحتاجونه ولم يصلهم سوى بعض المؤن والإمدادات عن طريق البحر .

وأمام تصعيد المدينة، الباسلة أخذها البيهين وتصميم حمايتها المسلمين على الدفاع عنها ، لحأ يمين إلى الخيانة والمسكر والخدعة ووجد فرصته في سكان المدينة من القوط المسيحيين الذين أرهقهم الحصار فاتفقوا معه على الغدر بالمسلمين ومساعدة جيشه على أن يكونوا مستقلين في بلدتهم وتكون لهم إدارة أم. رهم بحسب قوانين القوط وأعطاهم بين الموائيق على ذلك فوافقوا. وتم ذلك في غفلة من المسلمين وإذا بالثورة تشتعل ضرامها في داخل المدينة وينقض بعض القوط على حراس الأبواب المسلمين فيقتلوهم ويفتحوا الأبواب. فيتدفق جيش الفرنج المحاصر للمدينة عليها ويعمل الفرنج سوفهم في رقاب المسلمين رجالا ونساء وأطفالا ، ويهدموا مساجدها ومعاهدها ويدكوا معالمها وذلك سنة ١٤٢ هـ / ٧٥٩ م وكان ذلك إعلانا بسقوط كآخر معقل المسلمين فيها وراء جبال البرنية بعد وجود دام قرابة نصف قرن وأبقى الملك بيهين جيشا كبيرا لحراسة البلاد.

وفي ذلك الوقت الذي تمكن فيه بيهين من القضاء على سلطان المسلمين في جنوب فرنسا لانشغال المسلمين بفتحهم وحروبهم الداخلية نجد نصارى الأندلس من القوط الذين ألتفوا حول زعيمهم بلاي في استرقة وجيليقية يتمكنون من إقامة إمارة يسيطرون منها سلطانهم على بلاد المسلمين في الشمال وساعدهم القحط الذي حل بالأندلس في سنة ١٣١ - ١٣٥ هـ وجعل المسلمين يجلون عن تلك البلاد - على التوغل في الأرض الإسلامية فاستولوا على استرقة وغيرها من البلاد ولم ينته عصر الولاة حتى كانت تلك الولاية شوكة قرية تنغص كيان المسلمين ووجودهم في الشمال وأخذت تعمل بكل ما تملك لطرد المسلمين والاستيلاء على البلاد منهم (١).

(١) انظر : البيان المغرب ج ٢ ص ٣٤ - ٣٨ ، تاريخ ابن خلدون ج ٤

ص ١٢٠ ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٢٤ ، مختصر تاريخ العرب ص ١٦٠ - ١٦١ ، غزوات العرب في فرنسا ص ١١٢ - ١١٣ . دولة الاسلام في الأندلس ص ١٢٧

- ١٣٦ : تاريخ الاسلام السياسي ج ١ ص ٣٢٨ ، ٣٢٩ .

وينبغي قبل أن نترك عصر الولاية في الأندلس أن نلقى نظرة عامة على بعض الأحداث فيه المستشف منها مقدمات لتنتج عنها: فإثنا نجد أن السامح بن مالك ، من أتى بعده من الولاة الذين خاضوا الحرب في فرنسا ربما قد حازهم الصواب في التخطيط لها بدقة ومهارة كما ينبغي . فلم يلتق الجيش الإسلامي بجيش العدو المنجم لصد المسلمين والوقوف في وجههم في موقعة من الموانع إلا بعد أن يكون الجيش الإسلامي قد خاض بعض الحروب التي قد أنهكت قواه وترك بعض الحاميات منه في النواحي التي استولى عليها ثم أصبح مشغولا بالغنائم التي حصل عليها ، وكل ذلك كان ذا تأثير سيء في "ثقة التي يتمتع بها الجيش الإسلامي .

ولعل الوضع السليم كان يشمل في أن يعد الجيش لخوض غمار القتال في المعارك الكبيرة مثل الموقعة عند طلوشة وموقعة بلاط الشهداء ثم مرسل للقائد سرايا لفتح الملاد المجاورة والاستيلاء عليها . وأيضاً كان يحتاج الأمر إلى قوة احتياطية تكون مستعدة لنجدة أية حملة منها أول نجدة الجيش الكبير إذا تورط في وضع ما

وعند ذلك كان يلقي الجيش عدوه وهو في كامل عدته وفي درجة عالية وبروح معنوية على درجة عالية لم تتأثر بارهاق الحروب السابقة أو بالحرق على الغنائم التي حصلوا عليها ثم بالتالي يكون عنده الطائفة لمواصلة القتال أياماً عدة .

ولاشك أن المسلمين كانوا يملكون جيشاً احتياطياً كبيراً إذا نظرنا إلى امتداد رقعة بلاد المسلمين من الأندلس إلى دمشق ومن دمشق إلى السند .

وأمر آخر يتعلق بالقيادة وقد أرسى نواصيدها رسول الله ﷺ قبل خوض تلك الموانع بأكثر من قرن من الزمان . وذلك عندما عين خلفاء

للقائد الأعلى في موقعة مؤنة حتى لا يحصل تقهقر أو انسحاب من ميدان القتال إذا استشهد القائد الأعلى ثم أن ما حدث في مؤنة أيضا بعد استشهاد القواد الثلاثة واختيار ابن الوليد للقيادة كان يجب أن يكون درسا واضحا أمام المسلمين للسير في معاركهم بعد ذلك . ولكن للأسف أننا نجد في المعارك التي قتل فيها القائد الأعلى سواء في إفريقية أو الأندلس لم يبرز القائد الثاني الذي يتولى القيادة وينصرف بحكمة وهزم سوى في القليل النادر وفي كل الأحوال نجد أنهم ينسحبون فوراً إلى قواعد متأخرة أحيانا بهارة وحذق ومحافظة على قواتهم وأحيانا في صورة انهزام سريع مثل ما حدث في إفريقية .

ومع ذلك فإنني أرى أن العيون أو الجواسيس التي كان يرسلها القائد لتحري أحوال العدو واستطلاع حقيقته ربما قد أخطأت التقدير أو لم تصل إلى الأماكن التي كان يتجمع فيها العدو ويتمكن من معرفة حقيقة وضعه . ولذلك كان أخذ المسلمين على غرة قبل الوصول إلى الدرجة المطلوبة في الاستعداد الذي يتفق مع العدو الذي سيلاقونه . ولهذا لم تكن النتيجة في صالحهم عند اللقاء وخاصة عند استشهاد القائد الأعلى .

وملاحظة أخرى نراها في محاولة شارل مارتل استرداد أربونة ودفاع المسلمين عنها : فإننا بعد اطلاعنا على هذه الجهود الكبيرة التي بذلها المسلمون لمحاولة التمسك بالأقاليم التي فتحوها في فرنسا ، وتجمع كل أوروبا لمحاولة إيقافهم ومنعهم من التقدم ثم أصرار المسلمين على مواصلة الجهاد رغم هذه الظروف الصعبة من تغيير البيئة وبعد خطوط القتال وتجمع العدو من جهات كثيرة لا يقف تقدمهم — يتبين لنا أنه رغم ما يذكره المؤرخون من خلافات بين العرب أنفسهم وبين العرب والبربر ، فإنهم حاولوا الاستمرار والتمسك بما في أيديهم ، إلا أن ظروفهم الداخلية في الولاية

وما انتشر بينهم من خلاف ثم التجمع الكبير الخارجى اندوهم — يدفعهم
التعصب الشديد لنصرانيتهم — هو الذى قلل من نتيجة هذه الجهود .
ولنا أن نذكر للمسلمين فى عهد الولاة أنهم حاولوا مرات كثيرة مواصلة
الفتح حتى بعد بلاط الشهداء ، إلا أن الظروف الداخلية والمحلية فى الأندلس
وفى ولاية أفريقية القريبة منها وفى مقر السلطة العليا فى دمشق بجوار
التجمع الخارجى ، كل ذلك كان عاملا مساعدا لايقاف الفتح عند هذه
الاماكن من بلاد الفرنج .

ولنا أن نذكر أيضا أن الفتح فى جنوب المغرب لم يواصل بعد فتح
المغرب بقوة الجيش الفاتح . فصار الوضع فى شمال الأندلس وجنوب
فرنسا مثل الوضع فى جنوب المغرب وأيضا مثل الوضع فى الجهة الشرقية
فى آسيا . فلم يصل الإسلام إلى أندونيسيا والفلبين وجميع جنوب شرق آسيا
بجيش فاتح وإنما وصلت دعوته عن طريق الدعاة والتجار .

وقد تلى وقوف حدود المسلمين فى هذه الأماكن سقوط الأمويين
وقيام العباسيين ثم انفصال الأندلس عن جسم الدولة الإسلامية بما أضعف
مركز المسلمين فيها وجعلها عاجزة عن مواصلة الفتح فى أوروبا

ولاشك أن انفصال الأندلس عن جسم الدولة الإسلامية كان أكبر
عامل فى إيقاف مواصلة الفتح فى أوروبا ، وبدل ذلك على استطاعته المسلمين
فى أفريقية مواصلة الفتح فى البحر المتوسط والاستيلاء على صقلية بعد ذلك
بحوالى قرن من الزمن لأن الغالبية الذين قاموا بذلك تابعين للخلافة و مستمدون
من تبعيتهم لها قوة بخلاف الوضع فى الأندلس الذى آل أمره إلى الاشتقاق
عن مقر الخلافة فى بغداد . فكان يشعر بالضعف إذا ما حاول غزو فرنسا
وإن كان قد بذل جهودا كبيرة فى سبيل الاحتفاظ بالأندلس . وأيضا وإن
المسلمين قد استطاعوا أن ينشروا دعوتهم بدون قتال فى غرب أفريقية وفى

وسلما وأن يكتسبوا أرضا جديدة في تدبى بدعوتهم ولم يحدث ذلك في أوروبا
لأن أوروبا وقفت من اعتناق الإسلام موقف العداء وإن كانت قد بدأت
تقتبس من حضارته وتقدمه .

وهناك أمر آخر تنبه إليه ، وهو أن البعض يظن أن كثرة عدد الولاة
في الأندلس في عهد الولاة قد جعل المسلمين لا بذلون جهودا في مواصلة
الفتح . وهذا خطأ جسيم فإن دراستنا لعهد الولاة قد بينت لنا الجهود
الكبيرة والمضخمة التي بذلها المسلمون خلال هذه الفترة . وكثير من المؤرخين
يمرون على هذه الفترة من الكرام وكأنها لم يحدث فيها شيء سوى التلاحن
بين العرب بعضهم وبعض أو بين العرب والبربر ولم يحققوا شيئا سوى ذلك
والكثنا بعد دراستنا للجهود التي بذلوها في حرب أعدائهم واستماتتهم
في سبيل الانتصار عليهم يظهر لنا أن هناك مبالغة كبيرة فيما يصفه المؤرخون
من حدة وشك في وقوع الصراع والتلاحن بين العرب أنفسهم وبين العرب
والبربر .

ويمكننا أن نقول عند ذلك أن هذا التلاحن إنما هو حوادث فردية
ولكنها أكثر حدة وعنفا من الحوادث الفردية المعصية التي وقعت في عهد
الرسول ﷺ ، إلا أنها ليست بهذه الصورة البشعة المنقورة التي يصفها بها
المؤرخون . وإن كان قد ترتب عليها آثار سيئة وخطيرة بالنسبة لمستقبل
المسلمين في الأندلس .

الفصل السادس

قيام الدولة الأموية في الأندلس

١ - سقوط الدولة الأموية في المشرق :

في سنة ١٣٢ هـ تمكن الجيش العباسي الذي انتصر على ولاية الأمويين في المشرق أن يتقدم نحو الزاب حيث يعسكر آخر خليفة أموي مروان بن محمد وأن ينتصر عليه في ١١ من جمادى الآخرة ١٣٢ هـ ثم يتبعه إلى الشام ففلسطين فمصر حيث يقضى عليه فيها . وبذلك تنتهي الخلافة الأموية في المشرق وتقوم مقامها الخلافة العباسية التي حاولت أن يتم تقويضها للخلافة الأموية بالقضاء على أفراد تلك الأسرة ، ولذلك تبتلعهم في كل مكان لكي تقضى عليهم ، ولكن واحدا من الأمويين وهو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف^(١) تمكن من أن ينجو منهم ويصل إلى المغرب ليقوم الدولة الأموية فيها

ويورد ابن عذارى رأيا في اتصال دولة بني أمية في المشرق بدولتهم في المغرب إلى سنة ٤٢٤ هـ وأن الدولة لم تقطع وبين ذلك على أن عبد الرحمن ابن حبيب وإلى أفريقية من قبل بني أمية قد وصل عهد منه إلى يوسف بن عبد الرحمن الفهرى المتغلب على الأندلس الذي دخل عبد الرحمن بن معاوية الأندلس وهو أميرها وعلق على ذلك بأنه نسكتة غريبة وقاعدة عجيبة^(٢) .

(١) ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ص ٤

(٢) ابن عذارى البيان المغرب ج ٢ ص ٣٩

وكان يمكن أن يعتد بذلك وتكون الدولة الأموية في المشرق والمغرب متصلة لو أن يوسف بن عبد الرحمن الفهري انقاد لعبد الرحمن بن معاوية عند وصوله إلى الأندلس وسلم إليه إمارة الأندلس دون أن ينازعه عليها حتى تراق بينهما الدماء ، ولكن الحرب التي قامت بينهما تدل على أن الدولة الأموية في المشرق قد انتهت . وأن عبد الرحمن بن معاوية قد استطاع بمجموده الشاق أن يعيدها في المغرب بعد ست سنوات من انتهائها في المشرق .

ولذلك يجد أن أبا محمد بن حزم يذكر انتهاء الدولة الأموية في المشرق بمروان بن محمد ويصفها بأنها كانت دولة عربية لم يتخذ ملوكها قاعدة لأنفسهم وإنما كان سكن كل أمير منهم في داره وضياعته اللتان كانتا له قبل الخلافة وأنهم لم يكثروا من احتجان الأموال ولا بناء القصور ولم يطلبوا مخاطبة الناس لهم بالعبودية والملك ولا تقبيل أرض ولا يد ولا رجل ، إنما كان غرضهم الطاعة الصحيحة ، والتولية والعزل في أقصى بلاد الدنيا ، فكانوا يعزلون العمال ويولون غيرهم في السند والهند وفي خراسان وأرمينية ، وفي العراق واليمن وفي المغرب الأدنى والأقصى وبلاد السرس وبلاد الأندلس وبعثوا إليهم الجيوش وولوا عليها من ارتضوا من العمال وملكوا أكثر الدنيا فلم يملك أحد من ملوك الدنيا مملكة من الأرض إلى أن تغلب عليهم نضر العباس بالمشرق وانقطع بها ملكهم^(١) فابن حزم يذكر انقطاع ملكهم وهو الرأي الذي أميل إليه .

(١) المرجع السابق ج ٢ ص ٢٩

ولكن كيف انتهت الدولة الأموية في المشرق بسرعة وهي تتصف
بهذه الصفات القوية التي ذكرها ابن حزم ؟

وهنا نجد أنها مع تمنعها بهذه الصفات القوية في سلطانها فإن هناك أيضا
عوامل فساد قوية استطاعت أن تهدم هذا الكيان القوي المتراعى الأطراف.

فمن ذلك الظروف التي قامت فيها الدولة الأموية والآثار الدينية
والمعنوية التي أثارتها السياسة الأموية في أنحاء الدولة الإسلامية بالحد من
مبدأ مهم من مبادئ الإسلام وهو مبدأ الشورى .

كذلك الصراع الذي قام بين الأمويين وبين العلويين وأدى إلى مقتل
الحسين بن علي وكثير من آل بيته في كربلاء سنة ٦١ هـ ثم الحرب التي قامت
بين الأمويين وبين عبد الله بن الزبير إستنفدت كثيرا من قوة الدولة وشبابها .

كما كان لثورات الخوارج المتعددة والمنتشرة في أنحاء الخلافة في
المشرق والمغرب أثر كبير في ضعف الدولة وتششت قواها .

فإذا أضفنا إلى ذلك اضطرام العصبية بين القبائل الغريبة ثم شيوع
التنافس بين العرب وبين غيرهم من أبناء البلاد التي دخلت تحت سلطه
الدولة الإسلامية مع البعد في بعض الأحيان عن تحقيق العدالة التي ينشدها
الإسلام بينهم تبين لنا مدى الضعف الذي دب في أرجاء الدولة والعداوة
التي انتشرت بين سكانها .

ثم إن التنافس الممقوت على الساطة بين أفراد الأسرة الأموية كان من
العوامل الداخلية القوية التي أدت إلى سرعة زوالها .

وقد مكنت كل هذه العوامل السابقة العباسيين من أن يخططوا ويدبروا في سر وكتان وأن يستغلوا بعض هذه العوامل أو كلها ويجمعوا الأعوان والأناصر ويحشدوا كل العناصر المعادية للأمويين ليلتقوا بهم في ميادين القتال فيسكون انهيار الدولة الأموية على أيديهم وتقوم الدولة العباسية لتحل محله سنة ١٣٢ هـ (١)

٢ — عبد الرحمن بن معاوية ينجو من العباسيين ويتوجه إلى أفريقيا :

حاول العباسيون بعد انتصارهم على الأمويين والقضاء على مروان بن محمد آخر خليفة أموي أن يتبعوا بقية أفراد البيت الأموي ويقضوا عليهم حتى لا تقوم لهم قائمة ولا يتحرك أحد منهم ليشير الشغب عليهم فيذكر المؤرخون أنهم أخذوا يقتلون كل من يقع في أيديهم بما حمل أفراد البيت الأموي على التخفي والهرب .

وكان ممن تمكن من الفرار منهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان (٢) ومعظم المؤرخين القدامى والمحدثين يذكرون قصة هربه بصورة أسطورية كما يذكرون نبوءات تدور حول أنه سيجدد ملك بني أمية في المغرب وسوف أورد رواية صاحب أخبار مجموعة التي يوردها على لسان عبد الرحمن عن هذا الأمر ثم أعلق عليها بالنسبة لهربه وللتنبؤ بمستقبله يقول : أخبرني من سمع عبد الرحمن بن معاوية يحدث طائفة من

(١) أنظر : محمد عبد الله عنان دولة الإسلام في الأندلس ص ١٧٩

(٢) أول أمراء بني أمية بالأندلس يكنى أبا المظرف مولده بالشام سنة ثلاث

عشرة ومائة وأمه أم ولد اسمها راح هرب لما ظهرت دولة بني العباس ولم يزل مستترا إلى أن دخل الأندلس سنة ثمان وثلاثين ومائة زمن أبي جعفر المنصور

جنوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس للحميدى ص ٩٢٨

بدر حديث هربه قال : لما أمتنا وشاء ذلك ركبت متنزها فوقهم وهم وأنا غائب فرجعت إلى منزلي فنظرت فيما يصالح أهلي ويصالحني وخرجت حتى صرت في قرية على الفرات ذات شجر وغياص وأنا والله ما أريد إلا المغرب وكنت قد بلغتني رواية كان والدي رحمه الله قد هلك في زمن جدي رحمه الله وكنت صبيا إذ هلك فأقبل بي وبأخوتي إلى الرصافة إلى جدي ومسلمة بن عبد الملك رحمه الله لم يمض بعد فنحن وقوف ببابه على دوابنا إذ سأل مسلمة عنا فقيل أيتام معاوية فاغرو رقت عيناه بالدمع ثم دعا بنا الإثنين فالإثنين فأقبل يدعونا حتى قدمت إليه فأخذني وقبلاني ثم قال للقيم هاته فأنزلني عن دابتي وجعاني عن أمامه وجعل يقبلني ويبكي بكاء شديدا فلم يدع بعدى من كان أصغر من أخوتي وشغل بي فلم يفارقني فأنا أمامه على سرجه حتى خرج جدي فلما رآه قال ما هذا يا أبا سعيد فقال بنى لاني المغيرة رحمه الله ثم دنا من جدي فقال له تداني الأمر هو هذا قال أهو ؟ قال : أي والله قد عرفت العلامات والأمارات بوجهه وعنقه . قال ثم دعا القيم فدفعته إليه وأنا ابن عشر سنين يومئذ أو نحوها فكان جدي رحمه الله يؤثرنى ويتعاهدني بالصلة والبعثة التي في كل شهر وكنا بكورة قلشرين بيننا وبينه مسيرة يوم حتى مات مسلمة أبا سعيد قبله لستين فكانت تلك في نفسي مع أشياء كانت تذكر فإني لجالس في القرية في دار كنا فيها ولم يبلغنا بعد إقبال المسودة فكنت في ظلمة البيت وأنا أمد شديد الرمد ومعى حرفة سوداء أمسح بها فدا عيني والصبي سليمان - أي ابنه يلعب وهو ابن أربع سنين أو نحوها إذ دخل من باب البيت فترامى في حجرى فدفعته لما كان إلى ثم ترامى وحمل يقول لي ما يقول الصبيان عند الفزع قال فخرجت فإذا أنا برأيت مظلة فلم يرعنى إلا دخول أحمر فلان فقال يا أخى رأيت المسودة . كنت لما فعل بي الصبي ما فعل قد خرجت فرأيتهم فلم أدرك شيئا أكثر من دنائير تناوانها ثم خرجت

أنا والصبي أحي وأعلنت أخواني أم الأصمغ وأمة الرحمن بمتموجي وأمرتها أن يلحقني غلامي بما يصلحني أن سلمت فخرجت حتى اندست في موضع ناء عن القرية وأقبلوا فأحاطوا بالقرية ثم بالدار فلم يجدوا أثرنا ومضينا حتى لحقني بدر ثم خرجت حتى أتيت رجلا على شاطئ الفرات وأمرته أن يتناع لي دواب وما يصلحني فأنا أرقب ذلك إذ خرج عبد له أو أو مولى فدل علينا العامل فأقبل إلينا فوالله ما راعنا إلا بجملة الخيل إلينا في القرية فخرجنا نشدد على أرجلنا وأبصرتنا الخيل فدخلنا بين أجنة على الفرات واستدارت الخيل فخرجنا وقد أحاطت بالأجنة فتسادرنا مسبقتها إلى الفرات فترامينا فيه وأقبلت الخيل فصاحوا علينا . ارجعوا لا بأس عليكم فسيحت وسبح الغلام أخى فلما سرنا ساعة سبقته بالسباحة وقطعت قدر نصف المرات فالتفت لأرفق وأصبح عليه ليلحقني فإذا هو والله لما سمع تأمينهم إياه وعجل خاف الفرق فهرب من للفرق إلى الموت فتأديته أقبل يا حبيبي إلى فلم بأذن الله بسماعى فضى ومضيت حتى عبرت الفرات وهم بعضهم بالتجرد ليسبح في أثرى ثم بدا لهم وأخذوا الصبي فضربت رقبتة وأنا أنظر وهو ان ثلاث عشرة سنة رحمه الله ثم مضيت فهذا حديثه رحمه الله (١) .

تلك هي القصة التي ذكرتها المصادر القديمة ورددتها المراجع الحديثة للورخين المسلمين والمستشرقين (٢) وهم يحرصون على ذلك كل الحرص .

(١) أخبار بجمعة ص ٥١ - ٥٤

(٢) ابن قتيبة الدينوري الامامة والسياسة ج ٢ ص ١٢٦ ابن الأثير الكامل ج ٥ ص ٤٩٤ ابن خلدون العبر ج ٤ ص ١٢١ محمد عبد الله عنان دولة الإسلام في الأندلس المص ١٤٨ ، ٥ / عبد العزيز سالم تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ص ١٤٨ ، دوزى تاريخ مسلمي أسبانيا ص ١٨٤

وهروب عبدالرحمن من الشام إلى المغرب أمر وقع ولا شك فيه وإن كان إحاطة قصة الحرب بطلب خيل العباسيين له وأنهم أغروا عليه فألقى نفسه في الفرات وسبح وأن أخاه كان معه فعندما سمع الأمان المقدم إليه وعجز عن السباحة عاد إليهم فكان نصيبه القتل على مرأى من عبدالرحمن الذي كان قد وصل إلى الضفة الأخرى . فذلك أمر يدعو إلى الشك في الصورة التي حدث بها الحرب . لأن حرصهم على القبض عليه يدعوهم إلى أن يؤخروا قتل أخيه أمام عينيه حتى يطمئن إليهم ليقضوا عليه كما كان من السهولة بمكان أن يعثر خلف عبد الرحمن من يريد القبض عليه خاصة وهو عاز ولا يحمل سلاحا كما أن اختفائه بعد خروجه من النهر أمر صعب عليه يسهل مهمة القبض عليه ولكن شيئا من ذلك لم يحدث ولم يفكر فيه بما يدعو إلى الشك في حدوث الحرب بهذه الصورة التي يصر المؤرخون عليها ولذلك نجد ابن قتيبة لا يشير إلى شيء من ذلك وإنما يقول : إن عبد الرحمن ولى ذاهبا وخرج لا يدري متى خرج فالحق بالمغرب^(١) أى أن خروجه وهربه كان في سر وكنمان ولم يعلم به أحد ويقول ابن عذارى خرج متخفيا من من موضع إلى موضع وهم الأندلس^(٢)

الأمر الثاني الذي نلاحظ إصرار المؤرخين عليه الإشارة إلى قرب زوال دولة بني أمية والبشارة بأن عبد الرحمن بن معاوية هو محي دولتهم في المغرب . وكأن كل شيء يحدث في الدولة الإسلامية يتعلق بنبوءة من النبوءات ولولا ذلك ما كان هناك تحريك ذاتي وأنه لولا هذه النبوءة ما حرص عبد الرحمن على أن يقرم بما قام به وهو أمر غير مقبول . علينا أن نجد ناريخنا منه لأن العزيمة والإصرار وتحدي المصاعب الذي كان يتحلى

(١) ابن قتيبة الدينوري الامامة والسياسة ج ٢ ص ٤٧

(٢) ابن عذارى البيان المغرب ج ٢ ص ٤٠ ، ٤١

به عبد الرحمن ذو الذي سهل له الوصول إلى ما وصل إليه من تأسيس دولة في الأندلس. كذلك لو كانت النبوة قد حدثت بقرب زوال دولة بني أمية كما يزعمون لكان ذلك داعيا لهم لكي يأخذوا حذرهم وينبغوا أسباب الضعف حتى لا تصل الدولة إلى النتيجة التي وصلت إليها . ولكن ذلك لم يحدث مما يدعونا إلى الشك في مثل هذه النبوة عن سقوط الدولة في المشرق وعن قيام عبد الرحمن بإحيائها في المغرب .

تمكن عبد الرحمن بن معاوية أن ينجو من تتبع العباسيين له كي يصل إلى فلسطين فمصر حيث لحق به مولاه بدر وسالم مسؤولي شقيقته وكانا يحملان مالا وجوهرا أرسلته إليه أخته أم الأصغ وقد توجه بعد ذلك إلى برقة ويزل على أخواله من نفزة وهم من بربر طرابلس^(١) ، وكانت أمه بربرية منهم تدعى راح وكان يحكم إفريقية آنذاك عبد الرحمن بن حبيب الفهرى الذي سبق أن تحدثنا عنه في ولاية إفريقية وقد ثار الفهرى على حنظلة بن صفوان حتى رحل عن إفريقية وقدم الفهرى طاعته للأمويين ثم للعباسيين عند قيام دولتهم وحاول أن يكون مستقلا بإفريقية تحت هذه الطاعة الاسمية . ولذلك تراه يتبع الأمويين الذين لجأوا إلى إفريقية هربا من العباسيين فقتل بعضهم وهما ولدا الوليد بن يزيد كما تتبع بقية الأمويين ليقضى عليهم حتى يأمن خطرهم الذي يحذره وهو محاولتهم الثورة عليه وأخذ إفريقية منه لأنهم أصحاب ملك أخذ منهم سيعملون على إسترجاعه أو إحيائه في منطقة من مناطق دولتهم المسلوقة .

ويذكر المؤرخون^(٢) جدد عبد الرحمن بن حبيب في تقصى أخبار

(١) المقرئ نفح الطيب ١٣ ص ٢٠٧ .

(٢) انظر : ابن خلدون البيان المغرب ٢ ص ٤١ ، دوزى تاريخ مسلمي أسبانيا ص ١٨٧ ، د. أحمد إبراهيم شعراوى الأمويين أمراء الأندلس ص ٤٥ .

عبد الرحمن بن معاوية ومحاولة القمض عليه ويذكرون مرة أخرى نبوءة يهودى له بأن ابن معاوية سوف يملك إفريقية وهكذا يحاولون أن يجعلوا أحداث التاريخ الإسلامى قائمة على التنبؤات وذلك بعيد كل البعد عن حقيقة التاريخ الإسلامى الذى يرى أبناءه على أن الغيب لا يعرفه إلا الله سبحانه وتعالى مما يجعلنا نميل إلى أن الروايات التى تتعلق بالتنبؤات روايات ملفقة ومخرعة ولا أساس لها من الصحة .

حارل عبد الرحمن بن معاوية أن يتعد عن هذا الوالى الذى يتبع الأمويين فأخذ ينتقل من قبيلة إلى أخرى ومن بلد إلى آخر . فيذكرون أنه ذهب إلى موضع يقال له بارى فنزل فى قبيلة مسكناسة وقد نل فيها بعض الضيق^(١) وقيل أنه نزل بقبيلة مغيلة عند شيخ من رؤساء البربر يدعى وانسوس ويكى أبا قرّة ويبدو أن رسل ابن حبيب شعروا باختفاء عبد الرحمن عند وانسوس فعملوا على تفتيش منزله ولكن زوجته تكفأت البربرية عملت على إخفائه عنهم بحيلة ما ولكن ابس بالصورة التى يذكرها المؤرخون من أنها خبأتته تحت ثيابها لأن ذلك غير ممكن بالنسبة لرجل جاوز العشرين من عمره . وقد أحسن عبد الرحمن إلى وانسوس وزوجته بعد أن صار أميراً الأندلس ويأبى المقرئ إلا أن يورد طرفة عن الهيئة التى ذكرها لإخفاء عبد الرحمن آنذاك فيذكر أن عبد الرحمن قال لتكفأت مداعياً حين استظلت بظله فى الأندلس بعد أن صار أميراً لقد عدتني بريح إبطيك يا تكفأت على ما كان بي من الخوف وسطعتني بأثن من ريح الجيف فكان جوابها له مسرعة . بل ذلك كان والله ياسيدى منك ، خرج ولم تشعر به من فرط فزعك واستظرف حوامها وأغضى عن خواجتها بمثل ذلك وهذا

(١) أخبار بجموعة ص ٥٥

من آفات المزاح^(١) .

ويذكر ابن الأثير وابن خلدون والمقري أنه عندما اشتد عبد الرحمن عامل إفريقية في طلبه أتى مكناسة فلقى عندهم شدة ثم هرب من عندهم فأتى نفزاوة وهم أخواله وقيل أنى قوما من الزناتيين فأحسنوا قبره وأطمأن فيهم ثم لحق بمليانة وأخذ في تدبير المكائبة إلى الأمويين من أهل الأندلس^(٢) .

تلك هي الأماكن التي تردد عليها خلال فترة إقامته في إفريقية ويخطئ دوزي ويتمعه دكتور أحمد إبراهيم الشعراوي عندما يقول : أنه لاذ حيننا آخر بيلاط بنى رستم ملوك تاهرت لأن الدولة الرستمية لم تكن قد قامت بعد فكيف يلوذ بها^(٣) .

٣ - عبد الرحمن يتطلع إلى الأندلس .

مسكث عبد الرحمن بن معاذية يتنقل في إفريقية خمس سنوات لقي فيها كثيرا من الصعاب والعنت ، ولكن عبد الرحمن الفهري حاكم إفريقية الذي كان يطارده لم يستطع أن يقبض عليه ، وقد نزل ابن معاوية أخيراً عند قوم من زناته على شاطئ البحر قرب سبتة ، وكان أثناء إقامته في إفريقية يتطلع إلى الأندلس ويدرس أحوالها وأخبارها ويرقب فرص العبور إليها . كانت الأندلس في ذلك الوقت يسودها الاضطراب بسبب الفسـتن والمصـبـيات القبلية بين المضرية واليمينية ورأى عبد الرحمن بن معاذية أن

(١) المقري نفع الطيب ج ١ ص ٣١٣ ، عبد العزيز سالم تاريخ المسلمين وأثارهم ص ١٧٨ .

(٢) ابن الأثير ج ٥ الكامل ص ٤٩٤ ، ابن خلدون ج ٤ ص ١٢١ المقري ج ١ ص ٣٠٧ .

(٣) دوزي تاريخ معلى أسبانيا ص ١٨٨ أحمد إبراهيم الشعراوي الأمويون أمراء الأندلس ص ٦٤ .

يستغل هــا الوضع بأن يجذب بعضهم إليه ليؤيدوه حتى يصل إلى تحقيق ما يريد بأن يعيد الدولة الأموية في الأندلس ، فأرسل مولاہ بدرأ بكتاب في آخر سنة ١٣٦ هـ إلى موالى بنى أمية في الأندلس فقول بدر بقرية طرش من ساحل البيرة وكانت منزل جند الشام ويجتمع فيها موالى بنى أمية . وكانت رياستهم إلى أبى عثمان عبيد الله بن عثمان وصهره عبد الله بن خالد فاجتمع بدر بهما وقدم إليهما كتاب عبد الرحمن^(١) يشكو فيه ما ابتلوا به ويعظم عليهم حقه ونزوعه إليهم وما صنع به ابن حبيب ونقومه بإفريقية ويعلمهم أنه إن دخل إلى يوسف لم يأمنه ويعرض أنه إنما يريد الاعتزاز بهم وأن يمنعوه وإن تهيأ لهم ما فيه طلب سلطان الأندلس أن يعلموه^(٢) ،

وقد نشط موالى الأمويين لهذا الأمر واستشاروا الصميل زعيم القبسية في معاونة عبد الرحمن وتأيدده ولكن الصميل بعد أن استجاب لنصرة ابن معاوية عاد فأبدى تردداً وفتورا واقترح أن يتزوج عبد الرحمن من ابنة يوسف وأن يزل آمنا في ظله ثم صرفها . وقال : إن عبد الرحمن من نسل قوم لوبال أحدهم في هذه الجزيرة لفرقنا في بوله ولكن خار الله لكما في مولا كما وعلى ستر ما أودعتما في فستر عليهما وانصرفا^(٣)

عمل موالى بنى أمية بعد أن يئسوا من مساعدة مضر وربيعة على دعوة اليمينية لمناصرة عبد الرحمن بن معاوية فوجد اليمينيين الفرصة لأخذ ثأرهم من المضرية الذين انتصروا عليهم في موقعة شقندة وليستردوا مكانتهم التي فقدوها فرحبوا باستقبال الأمير الأموى وأبدوا استعداد المناصرته . وكان من الزعماء اليمينيين الذين استجابوا لذلك أبو الصباح اليحصبي شيخ اليمانية

(١) ابن عذارى البيان المغرب ٢ ص ٤١ ، ابن خلدون المغرب ٤ ص ١٢١

(٢) أخبار بمجموعة ص ٦٧

(٣) ابن القوطية تاريخ افتتاح الأندلس ص ٤٧ .

في غرب الأندلس ومسكنه قرية مورة، وعلقمة بن غياث اللخمي وأبـاعلاقة
الجذامي وزياـد بن عمر الجذامي جد بني زياد الشذونية وكانوا رؤساء الشاميين
بشذونه ومنهم رؤساء القحطانيين بالبيرة وجيان مثل جد بني أضحى
الهمذانيـن وجد بني حسان وبني عمر الغسانيـن وميسرة وقحطبة الطائيـن
يجيان كما انضم إليهم الحـصين بن الدجن العقيلي للتباعد الذي كان بينه وبين
وين الصميل بن حاتم ولم يـل من المضرية إلى عبد الرحمن بن معاوية
غيره (١).

عند ذلك طلب موالى الأمويين من بدر أن يحتاز إلى عبد الرحمن.
ليخبره بذلك واسكن عبد الرحمن أبدى حذره وقال : ليس تطيب نفسي
على دخول الأندلس إلا أن يكون معي واحد منهم (٢).

عاد بدر إليهم بجواب عبد الرحمن وكانت الأمور مهيئة لقدم
عبد الرحمن حيث أن يوسف الفهري خرج إلى سر قسطة لمحاربة عامر القرشي
الذي خرج عليه فابتاع موالى الأمويين مركبا ووجهوا فيه أحد عشر رجلا
مع بدر (٣) حيث وصل إلى الشاطئ الأفريقي ولقي بدر مولاة وقدم إليه
تقريرا سريعا عن ترحيب أنصاره به في الأندلس من موالى الأمويين وقبائل
البيـنيين كما قدم إليه الأشخاص الذين قدموا معه ومنهم تمام بن علقمة الذي
قال له عبد الرحمن ما اسمك قال تمام قال وما كنتك قال أبو غالب قال نعم
أمرنا وغلبنا عدونا واتخذناه بعد ذلك حاجبا له (٤).

(١) ابن القوطية تاريخ الأندلس ص ٤٥

(٢) المرجع السابق ص ٤٦

(٣) ابن عداري البيان المغرب ج ٢ ص ٤٤

(٤) أخبار مجموعة ص ٧٥

هم عبد الرحمن بالدخول إلى المركب ولكن العبر أقبلت إليهم لتمنعهم
من أخذ عبد الرحمن ففارق عليهم تمام بعض المال ثم اتجهوا إلى الأندلس
فنزل في المنكب في غرة ربيع الأول سنة ١٣٨ هـ^(١) ٧٥٥ م وعرف بعد
ذلك بعبد الرحمن الداخل لأنه أول من دخل من ملوك بني أمية
الأندلس^(٢).

عبد الرحمن الداخل في الأندلس

توجه عبد الرحمن إلى الأندلس مع الركب الذي قدم لصحبته حيث
أرست السفينة التي أقلته في المنكب من شاطئ الأندلس وكان في استقباله
أبو عثمان وعبد الله بن خالد اللذان رجبا به وصحبا به إلى الفنتين منزل عبد الله
بن خالد ثم توجهوا إلى مدينة طرش من كورة البيرة منزل أبي عثمان^(٣) وفيها
يكثر موالى بني أمية الذين أقبلوا إليه يعلنون تأييده ومناصرته وقد أعد
الأمير ما يصلحه من المركب والمنزل والملبس^(٤) فحافظ أمر ابن معاوية وأقبل
الناس من كل مكان إليه وازداد أمر قوة بعد أن أخذ وسف بن بخت البيعة
له من جند الأردن ، وأخذها تمام بن علقمة من جند فلسطين ، وعبد الله
بن خالد من جند حمص

وكانت رياة العرب بكورة رية إلى حدار بن عمرو القيسي جد بني عقيل
فذهب إليه أبو عثمان وعبد الله بن خالد وأعلماه بقدوم عبد الرحمن الداخل

(١) ابن عذاري البيان المغرب ج ٢ ص ٤٤ ويدكر صاحب أخبار مجموعة أنه

نزل في آخر ربيع الأول سنة ١٣٨ هـ ص ٧٥

(٢) ابن خلدون للملوك ج ٤ ص ١٢٢

(٣) ابن الفوطيه تاريخ افتتاح الأندلس ص ٤٧

(٤) ابن عذاري البيان المغرب ج ٢ ص ٤٤

فقال لهما : توافوني به مصلى أرجوزة يوم الفطر وترون ما يكون منى إن شاء الله .

فلما توافوا وأنى الخطيب قام إليه جدار فقال له : اخراج يوسف بن عبد الرحمن وأخطب له عبد الرحمن بن معاوية بن هشام فهو أميرنا وابن أميرنا ثم قال : يا أهل ربة ما تقولون ؟ فقالوا : نقول ما تقول نخطب وبابعوه عند انقضاء الصلاة^(١) . وهكذا ابتدأت بيعة عبد الرحمن الداخل أميراً في كورة ربة د في يوم الفطر سنة ١٣٨ هـ ثم أتى عبد الرحمن شذونه فبايعه غياث بن علقمة اللخمي ثم أتى مورور فبايعه إبراهيم بن شجرة عاملها ثم أتى أشبيلية فبايعه أبو الصباح يحيى بن يحيى^(٢) .

ويعصور ابن عذارى بدأ تكوين الجيش المؤيد لعبد الرحمن بأن تمام بن حلقمة قال دخلنا ربة في ستمائة فارس فخرجنا منها في ألفي فارس وخرجنا من أشبيلية إلى قرطبة في ثلاثة آلاف فارس^(٣) وعندما نزل عبد الرحمن بن معاوية الأندلس كان يوسف بن عبد الرحمن المتغلب على الأندلس قد انتصر على الثائرين عليه في سرقسطة وبدأ يتخلص من خصومه الذين يعارضون بعض تصرفاته حتى تكون الأندلس خالصة له ولولده من بعده ولسكنه فوجى . بقدم عبد الرحمن بن معاوية إلى الأندلس وتأيد موالى الأمويين والقبائل اليمانية له وكان عليه أن يضع الخطط للتخلص منه وقد شاور الصميل بن حاتم في أمره فأشار عليه بأن يتوجه إليه قبل أن يشتد ساعده

(١) ابن القوطية تاريخ افتتاح الأندلس ص ٤٧

(٢) ابن الأثير تاريخ الكامل ص ٥٥٤ وفي نفتح الطيب يسمى غياث

عتاب ج ١ ص ٣٠٧

(٣) ابن عذارى البيان المنزب ج ٢ ص ٤٦

بكثرة المناصرين له ولتمكن جيشه الذين كان قد فرغ من التغلب على الثائرين في سرقسطة رفض أن يتابع التقدم نحو عبد الرحمن الداخل مما اضطر يوسف إلى أن يذهب إلى قرطبة وينتظر انتهاء فصل الشتاء الذي قد بدأ ورأى يوسف الفهرى أن يرسل إلى موالى الأمويين يحذرهم ويخوفهم من متاعرة عبد الرحمن الداخل والخروج عليه فأجابوه بأن عبد الرحمن الداخل إنما أقبل إليهم يريد الذي كان لجده هشام وليس فيما يظن الأمير من الخروج عليه وقدموا إليه اعتذارهم ولم يخبروه بحقيقة بيعتهم لعبد الرحمن أميرا عليهم^(١).

كما أرسل يوسف إلى عبد الرحمن بن معاوية كتابا يحذره فيه من أتباعه الذين انضموا إليه وأنهم أهل غدر ونقض للإيمان المؤكدة ويعرض عليه المال وسعة السلطان والحماية وأنه لا يغدر به ومن نصوص هذا الكتاب : « أما بعد فقد انتهى إلينا نزولك بساحل المنكب وتأبش من تأبش إليك ونزع بحوك من السراق وأهل الختر والغدر ونقض الأيمان المؤكدة التي كذبوا الله فيها وكذبونا وبه - جل وعلا - نستعين عليهم ولقد كانوا معنا في ذرى كنف ورفاهية عيش حتى غمضوا ذلك واستبدلوا بالأمن خوفا وجنحوا إلى النقض والله من ورائهم محيط فإن كنت تريد المال وسعة الجناب فأنا أولى لك بمن لجأت إليه أكنفك وأصل رحمتك أنزلت معي إن أردت وبحيث تريد ، تم لك عهد وذمته في ألا أغدر بك ولا أمكن منك ابن عمي صاحب إفريقيه ولا غيره^(٢) » .

وإذا تأملنا هاتين الرسالتين وجدنا أن يوسف يحذر في الرسالة الأولى

(١) المرجع السابق ص ٤٤

(٢) ابن عذاري البيان المغرب ج ٢ ص ٤٥ ، ٤٦

أتباع عبد الرحمن من الانسياق خلفه وتأيبده وفي الرسالة الثانية يحذر عبد الرحمن من أتباعه ويخبره منهم وأنهم سينقضون عهده لأنهم أهل غدر ونقض للإيمان وأنه أولى من لجأ إليهم . وهو بهذا يحذر بعضهم من بعض ويريد أن يبدد بذور الشقاق بينهم .

وعندما لم يفلح هذا التحذير لعبد الرحمن والدؤدين له في إرجاعهم عما عزموا عليه أرسل إليه كتاباً آخر يعرض عليه فيه أن يزوجه ابنته ويسكنه في أي الجنتين شاء من دمشق أو الأردن أو يسكن بينهما ويصير إليه أمر الكورتين وبعث إليه بكسوتين ومطبتين وخمسمائة دينار ووجه إليه كاتبه خالد بن يزيد وقال له : « أعرف أمره وأي جند عنده وتأمل أخباره وأخبار من معه » فخرج في الليل مع أصحابه وأصبحوا على ابن معاوية بالمال والكسرة والمطبتين ووجه أيضاً إلى بدر فرساً ومائة دينار وكسرة فقبل ابن معاوية الهدية وكره التزويج فتكلم خالد بكلام غليظ لابن معاوية إذ أبي التزويج فأمر به فضم إلى وثاق ورد غيره إلى يوسف ولم يرد عليه جواباً^(١) .

ومن هذه الرواية التي يذكرها ابن عذاري نجد أن عبد الرحمن رفض التزوج من ابنة يوسف مما دعا خالد بن يزيد رسول يوسف أن يتكلم بكلام غير مقبول أدى إلى فشل مهمته . وإن كان صاحب أخبار مجموعة يذكر أن خالد بن يزيد عندما قدم الكتاب إلى عبد الرحمن دفعه عبد الرحمن إلى أبي هشمان وقال : اقرأه وأجب فيه بما تعلم من رأينا ويذكر أنهم كانوا وفاقين على ما عرضه يوسف إلا أن أبا هشمان عندما تهيأ ليرد على الخطاب قال له خالد بن يزيد : يا أبا هشمان لتعرقن إبطاك قبل أن تحبر فيه جواباً فضرب أبو هشمان بالكتاب وجه خالد وقال له : لا تعرقن لي فيه إبط ولا أجد فيه جواباً ثم قال خذوه فأخذوه وكبل من ساعته وقالوا : لعبد الرحمن هذا أول

(١) ابن عذاري البيان المغرب ج ٢ ص ٤٥٤

الفتح هذا سلطان يوسف كله (١).

وأميل إلى رواية ابن عذارى لأنه يذكر قبل ذلك أنه عندما أتاه كتاب الفهرى بما فيه المال والمطية وتزيجها بنته أشار عليه كل من أتاه من العرب والأميرين ألا يقبل ذلك منه إلا أن يعتزل له عن الملك ويبايعه وإلا حاكمه إلى الله وقالوا له : إنما بمكر بك ولا ينبغي لك بشيء لأن وزيره ومالك أمره الصبيل وهو غير مأمون (٢).

وهذا يدل على رفض أنصاره لعروض يوسف وأهم مصممون على أن يتنازل له يوسف عن الملك وإلا حاكمه إلى الله وهم يقصدون بذلك القتال وهكذا فشلت المحاولات التي أبدتها يوسف لخدمة عبد الرحمن ولم يبق إلا المواجهة في مبادي القتال.

هـ — مراقبة المصاراة والاستيلاء على قرطبة :

بدأ نكل من الفريقين يستعد للقتال عندما انتهى فصل الشتاء وفشلت محاولات الصلح بينهما وكان عبد الرحمن عندما وصل إلى إشبيلية قد بلغ تعداد جنده ثلاثة آلاف فارس وأقبلت عليه المتطوعة من كل صوب من المضربة واليمانية وجند الشام (٣) فعظم جنده وبدأ في تنظيمه وإعداد المعركة الفاصلة وكان يتكون من جند فلسطين وجند الأردن وجند حمص وكلها يمنية وانضم إليه من القيسية جماعة على رأسهم جابر بن العلاء بن شهاب وأبو بكر بن هلال العبدى والحصين بن الرجن . ولم يكن لعبد الرحمن لواء يحمي كانت الاجناد قد خرجت بألويتها فلما وصل إلى قرية قلنيرة بين إقليم طسانه من كورة اشبيلية قال شيء من الاجناد لإمام الالواء له خطأ في

(١) أخبار بجموعة ص ٨١

(٢) ابن عذارى ج ٢ ص ٤٦ البيان المغرب ج ٢ ص ٤٦ .

(٣) الفهرى ومع الملبب المجدد الأول ص ٣٠٨

الرأى وعزموا على العقد له فأقبل أبو الصباح بمجي اليحصي بقناة وعمامة
وهما الرجل من حضرموت ودعوا رجلا من الأنصار تقاتلوا باسمه وعقدوا
اللواء لعبد الرحمن بن معاوية بهذه القرية بين شجرتي زيتون وشهد ذلك
أبو الفتح الصدقوري العابد المجاهد كما شهدته فرقة السرقطسي^(٢) أننا ذلك
كان يوسف القمري قد جمع جيشه ومعظمه من القيسية والفهرية ثم صار
بحذاء الوادي الكبير لمقابلة عبد الرحمن في طشانة في أول ذي الحجة سنة
١٣٨ هـ فتناوشا والنهر بينهما وكان ماء النهر زائدا ففزعهما من عبوره ، وقبل
لعبد الرحمن أن عامة من في قرطبة من موالى بنى أمية وهم يؤيدونه فرأى
أن يسبق يوسف إليها وحاول إيهام يوسف بالبقاء فأرقد نادراً في معسكره
ثم رحل من جوف الليل وبينه وبين قرطبة خمسة وأربعون ميلاً فلم يسر
ميلاً واحداً حتى أتى يوسف من يعلمه بما أراد من مخالفته إلى قرطبة فأصبحا
كفرسى رهان والنهر بينهما ، حتى نزل يوسف في المصاراة ونزل عبد الرحمن
ببابش ، وكان جند عبد الرحمن في ضيق من العيش حتى أصبحوا يتقوتون
بالقول الأخضر ، بينما جند يوسف في رفاهية من العيش ، ومع ذلك فقد
انضم إلى عبد الرحمن كل من استطاع اللحاق به من اليمنيين وبنى أمية من
أهل قرطبة^(١) .

وقد نقص ماء النهر يوم الخميس ٩ ذي الحجة سنة ١٣٨ يوم عرفه فقال
عبد الرحمن لجنده : في أى يوم نحن ؟ فقليل له : يوم الخميس وهو يوم
عرفه فقال : يوم عرفه وغدا الأضحى والجمعة وأمرى مع فمري أرجو أنها
أخت مرج راهط^(٢) .

(٢) ابن القوطية تاريخ افتتاح الأندلس ص ٩٤ أخبار مجموعة ص ٨٤

(١) أخبار مجموعة ص ٨٦ ، د عبد العزيز سالم تاريخ المسلمين وآثارهم في

الأندلس ص ١٨٨ ، ١٨٩ .

(٢) ابن القوطية تاريخ افتتاح الأندلس ص ٩٤ : وكانت الواقعة يوم مرج =

ويبدو أن يوسف حاول عرض الصلح على عبد الرحمن حقنا لدماء المسلمين فدعا عبد الرحمن قواد جنده وقال لهم : إنا لم نجىء للمقام وقد دعانا هذا الرجل إلى ما علمتم وعرض ما سمعتم ورأى رأيكم تبع فإن كان عندكم صبر وجلد وحب للمساكفة فاعلموني وإن يكن فيكم جنوح إلى السلم والصلح فاعلموني فأصفت اليمن كلها بأسرها على الحرب ورأت ذلك موالي بني أمية. وعندما وثق عبد الرحمن من معرفة عزم جيشه على الحرب تظاهر برغبته في مقاضاة يوسف وميله إلى الصلح والمصالحة بما جعل يوسف يتخددع بما أبداه عبد الرحمن من رغبته في الصلح فلم يتعرض لجيشه عندما عبر النهر وعسكر بجواره في المصاراة .

كان عبد الرحمن قد نظم جيشه سرا قبل العبور فجعل على خيل أهل الشام عبد الرحمن بن نعيم الكلابي وعلى رجالة اليمن بلوثة اللخمي من جند فلسطين ، وعلى رجالة بني أمية ومن جاءهم من البربر عاصم بن عاصم العرياني وعلى خيل بني أمية حبيب بن عبد الملك القرشي وعلى خيل من صحبه من البربر إبراهيم بن شيرة الأودي وناول أبا عثمان اللواء ونزل جماعة بني أمية فحفوا به .

راسل يوسف عبد الرحمن في الصلح عشية الخميس وبات عبد الرحمن يتظاهر بحرصه على الصلح وعبر يوسف عن رغبته بذبح البقر والغنم وإعداد الطعام للمعسكرين بما جعل عسكر يوسف لا يشك أن الصلح قد تم . وفي الصباح من يوم الجمعة يوم الأضحى أفصح عبد الرحمن عن نيته

== راهط بين مروان بن الحكم والضحاك بن قيس الفهري قائد عبدالله بن الزبير في يوم الجمعة ويوم اضحى سنة ٦٤ ودارت الدائرة لمروان على الفهري وقتل معه سبعون ألفا من قيس وقبائلهم .

في الحرب وأنه لا يقبل المفاوضة إلا على أساس اعتراف يوسف له بالإمارة باعتباره ورثاً لبنى أمية على الأندلس وهكذا أفصح عبد الرحمن عن حقيقة مطالبه وما يسعى إلى تحقيقه وعند ذلك اشتبك الجيشان في قتال ضار عنيف وكان على خيل يوسف من أهل الشام ومضر عبيد بن علي وعلى الرجال كنانة بن كنانة الكنانى وجوش بن الصميل وعبد الله بن يوسف الفهري وعلى خيل غلمانه وصنائه من البربر خالد سردي .

أشتد القتال بين الفريقين وكثر القتل وكان عبد الرحمن يركب فرساً أشقر وبيده قوسه وحوله مواليه فقال لبعض رجال جيشه : غلام حدث فما يؤمننا أن يطير على هذا الفرس فنهلك فبلغه ذلك فنادى أبا الصباح فأقبل إليه فقال ليس في عسكرينا بطل أوفى من بطلك وإن هذا الفرس يقلق تحق فلا أقدر على ما أريد من الرمي من قوس فخذ فرسى وهات بطلك وإني أحب أن تكون تحتي دابة تعرف إن حال الناس فتبادلا الدابتين واطمأنت قلوب الخائفين واشتد القتال بين الجيشين حتى انتهى بهزيمة يوسف والصميل هزيمة شنعاء وقتل واداهما رقتل عبيد الله بن علي وكنانة بن كنانة وغيرهما من وجوه القيسية والفهرية وفر يوسف إلى طابطة وفر الصميل صوب جيان واستولى عبد الرحمن على عسكري يوسف وأكلوا الطعام الذي كان قد أعده ثم دخل قرطبة منتصراً ولم يقاومه أحد وحاول حمل جنوده ما استطاع على الاعتدال والقناعة كما عمل على حمايته أمر خصومه وحرهم وأموالهم من السلب والنهب مما حمل بعض اليمينية على الغضب منه ورموه بأنه تعصب لقومه وقد صلى عبد الرحمن الجمعة بالناس في المسجد الجامع وخطبهم لأول مرة ووعدهم بالعدل والاحسان وبويع في الحال بالإمارة ثم نزل قصر الإمارة وذلك في يوم الأضحى العاشر من ذى الحجة سنة ١٢٨ هـ

ويعتبر ذلك بداية قيام الدولة الأموية في الأندلس^(١) وقد دعا عبد الرحمن في بداية أمارته للمنصور عشرة أشهر ثم قطع الخطبة للمنصور وحمله على قطعها عبد الملك بن عمر المرواني الذي قال له : تقطع الخطبة وإلا قلت نفسي فقطعها^(٢).

ولاشك أن الانتصار في تلك الموقعة يدل على عبقرية عبد الرحمن ودهائه وحسن سياسته ومعرفته لنفسية رجاله الذين اتقى بهم في الأندلس وتمكن من أن يجذبهم إلى صفه بمشاورته ثم وبعث الطمأنينة في نفوسهم حتى يشقوا به ويعتمدوا عليه . وقد أحكم خطة التمويه في خداعه ليوسف حتى اعتقد أنه يميل إلى الصلح بينما هو يخطط ويدبر للحرب حتى تمكن من التغلب على يوسف وجيشه مع ما كان يتمتع به جيش يوسف من تناشق وآلاف ووفرة في العدة والعتاد والطعام والشراب .

وإذا كان يوم المصارة فاتحة الانتصار فقد كان فاتحة المكفاح لعبد الرحمن حيث كانت الأندلس آنذاك تموج بالفتن والعصبيات فلم تكن الخصومة قاصرة على المضرية واليمنية بل أصبحت كل قبيلة وكل بطان تلتف حول زعاماتها ومصالحها الخاصة وكانت تلك القوى المتفرقة المستقلة برأيها وهواها تنمusk بإستقلالها المحلي وتأبى الخضوع لاية سلطة عامة ، كما كان البربر يحرضون على الاحتفاظ بما انتزعوه خلال الفتنة من المواشي والضياع ، وكان هناك ما هو أشد خطراً من ذلك على المسلمين في الأندلس وهي المملكة النصرانية

(١) أخبار مجموعة ص ٨٦ ، ٩٠ ابن عدي البياض المغرب ح ٢ ص ٤٧ ،
د / عبد العزيز سالم تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ص ١٨٩ ، ١٩٠ ، عبد الله
عنان دولة الاسلام في الأندلس ص ١٥٢ د أحمد شعراوى الامويون أمراء
الأندلس ص ٨١ ، ٨٤ .

(٢) ابن الأثير تاريخ الكامل ح ٦ ص ١٠ ابن خلدون اليسر ح ٤ ص ١٢٢ .

في الشمال والتي استطاعت أن تتخطى بسرعة مرحلة الهزيمة والفوضى وكذلك مملكة الفرنجة التي تمكنت أثناء الفتنة من انتزاع الأراضي الإسلامية فيما وراء البرنية ، وقد حارل نصارى الشمال والفرنج الذين يقربون بالمسلمين في الأندلس أن يستغلوا فرصة الفرقة والضعف ليتصلوا ببعض الزعماء الخارجين عن الإمارة لتحقيق مشاريعهم في تمزيق الأندلس وانتزاع أطرافها .

كان على عبدالرحمن المنتصر في المصارة والذي لم يتجاوز السادسة والعشرين من عمره أن يواجه هذه الخطوب ويقارعها فقضى بقية عمره في كفاح مستمر يحرص المعارك ويقمع الثورات ويسحق الخارجين عليه وصمد لذلك بعزم وثبات وجلد وصبر حتى قبض على مصاير الأندلس بيده القوية وازدهرت الحياة في ظل الإمارة الأمرية وقدمكنه من ذلك تفرق خصومه فالتقى بهم في الميدان ورادى فأخذ ثورتهم وحطم قراهم حتى قضى عليهم جميعاً وازداد هو قوة ومنعة وخبرة وحنكة .

٦ - عقبات واجهت عبد الرحمن وتغلب عليها .

١ - يوسف الفهرى والصميل وكيف قضى عليهما .

لم يسكن انتشار عبد الرحمن في موقعة المصارة ودخوله قرطبة وبيعة الناس له إيذاناً بأن الأمور قد نمت له ، وإلما كان عليه تتبع يوسف ومعارنه الصميل حتى يقضى عليهما خاصة وأن يوسف قد توجه إلى طليطلة وحشد فيها ما استطاع من أنصاره وساعده في ذلك عامله عليها هشام بن عروة الفهرى ، كما توجه الصميل إلى جيان وجمع فيها أنصاره والمؤيدين له ثم اجتمعت القوتان وتوجهت إلى البيرة وكانت خطة يوسف والصميل أن أن يعملوا على جذب عبد الرحمن بن معاوية من قرطبة لقتالهما في جيان ثم يذهب عبد الرحمن بن يوسف الفهرى ليهتل قصر الإمارة في قرطبة .

وعندما علم عبدالرحمن بن معاوية بنزول يوسف والصميل في البيرة جمع جنده وترجع إليهما سنة ١٣٩ هـ بعد أن ترك قوة صغيرة لحماية قرطبة بقيادة أبي عثمان ، ولكنه لم يبعد كثيرا حتى هاجم عبد الرحمن بن يوسف الفهري الذي كان مقيما في ماردة . قرطبة واحتل قصر الإمارة وتمكن من القبض على أبي عثمان نائب عبد الرحمن في قرطبة وكبله بالأغلال . وصل ماحل قرطبة إلى عبد الرحمن فعاد مسرعا إلى قرطبة ففر ابن يوسف الفهري إلى أبيه في البيرة ومعه أبو عثمان عند ذلك عين عبد الرحمن على قرطبة عامر بن علي وكانت له حوله وسيادة عند اليمانية ثم عاد لمواجهة يوسف والصميل بالبيرة وحاصرهما فيها فلما شعرا بعدم قدرتهما على الصمود في وجه عبد الرحمن فاوضاه في الصلح وأن يعترفا بإمارته ولا ينازعاها فيها على أن يؤمنهما في النفس والمال والأهل وأن يؤمن حلفاءهما وأعوانهما ويسمح لهما بسكن قرطبة تحت رعايته ورقابته فقبل عبد الرحمن هذه الشروط على أن يقدم يوسف ولديه عبد الرحمن ومحمد أبا الأسود رهينة لديه يعتقلهما في قصر قرطبة حبسا جميلا - أي اعتقلا سياسيا - حتى تطمئن النفوس وتستقر الأمور ، وأن يفرج عبد الرحمن عن خالد بن زيد في مقابل أن يفرج يوسف عن أبي عثمان وتم عقد الصلح بين الفريقين في سنة ١٤٠ هـ (١)

وقفل يوسف والصميل مع عبد الرحمن إلى قرطبة وانفض جندهما ونزل يوسف بشرقي قرطبة في قصر الحر الثقي ونزل الصميل بداره بالربض وعمل عبد الرحمن على إكراههما وتقدير مكانتهما (٢) وأقام يوسف

(١) ابن عذاري البيان المغرب يزيد ذكر عبدالله غنان دولة الاسلام في الاندلس

ص ١٥٦ أنه في صفر سنة ١٣٩

(٢) أخبار مجموعة ص ٩٢ - ٩٤ ابن عذاري البيان المغرب ج ٢ ص ٤٨ ،

عبد العزيز سالم تاريخ المسلمين آثارهم في الاندلس ص ١٩١ - ١٩٣ ، محمد عبد الله

غنان دولة الإسلام ص ١٥٥ - ١٥٦ ، د أحمد الشيراوي الامويون أمراء

الاندلس ص ٦٢ - ٦٣ .

والصميل على أحسن حال يختلفان إلى عبد الرحمن ويحضرهما الرأى مرة بعد مرة ، ودخل يوسف الفهرى فى عسكر الأمير كأحد رجاله فأنزله على ماله وأطلق له عياله^(١) .

كان لسلوك عبد الرحمن مع يوسف والصميل وعفوه عنهما وتسامحه معها ومحاولته إزالة الأحقاد من النفوس أثر فى حب أهل الأندلس له وإقبال كثير من المشاركة عليه وأقبل من المشرق فى سنة ١٤٠ هـ كثير من بنى أمية ومواليهم فاستقبلهم الأمير استقبالا حسنا وأكرمهم وأحسن جوائزهم وأسند إلى كثير منهم بعض المناصب والولايات .

مضى عام حاول فيه أنصار يوسف السابقون حمله على الثورة على عبد الرحمن الذى أزال عنهم ما كانوا يتمتعون به من رفعة ومنزلة ومازالوا به يغرونه بالثورة على عبد الرحمن حتى كاتب الناس فأما أهل الأجناد فقالوا : لا والله ما نرجع إلى الحرب بعد السلم وكره الصميل وقيس ذلك وقالوا : حسبنا قد قضينا الذمام ، لا والله لا نخلعه^(٢) فلما يئس منهم كاتب أهل البلد^(٣) وأهل ماردة ولقنت فأجابوه وكتبوا إليه بدعوته إلى أنفسهم فمرب إليهم سنة ١٤١ هـ ناكثا لعهد ناقضا للأيمان بعد توكيدها فاجتمع إليه الناس وبلغ جمعه عشرين ألفا ولما علم عبد الرحمن يهربه أتبعه الخيل وقبض على ابنته واعتقل الصميل فاحتج أنه لا ذنب له ولو أنه أذن هرب معه فلم يأخذ عبد الرحمن باحتجابه وسجنه .

(١) أخبار مجموعة ص ٩٥ ، ابن عذارى البيان المغرب ج ٢ ص ٤٨

(٢) أخبار مجموعة ص ٩٥ ، ٩٦

(٣) البلديون هم العرب والبربر الذين قدموا إلى الأندلس أثناء الفتح والشاويون هم الذين قدموا الأندلس مع بلجس بشر

تقدم يوسف بجيشه نحو إشبيلية وحاصرها وكان والدها عبد الملك بن
عمر المرواني الذي طلب من ابنه والي مورور نجدة . وكان عبد الرحمن
يستعد للملاقاة يوسف ففك يوسف الحصار عن إشبيلية ليتوجه إلى عبد الرحمن
ووصل والي مورور إلى أبيه في أشبيلية وكثر جمعهما فزحفا خلف يوسف
الذي رأى أن يتخلص منهما أولا حتى لا يقع بين جيشهما وبين جيش
عبد الرحمن . ودامت الحرب بين يوسف وبين عبد الملك وبدأت الحرب
بالمبارزة فقتل مبارز يوسف . ثم حمل عبد الملك ومن معه حملة رجل
واحد فانهزم يوسف من ساعته وتفرق من معه وسار يوسف إلى طليطلة
ليحتمي بها عند ابن عروة والي طليطلة فأدركه عبد الله بن عمر الأنصاري
قبل طليطلة بأربعة أميال فقتله وأراح الناس من شره وحملت رأسه إلى
عبد الرحمن فأمر بقتل ابن يوسف عبد الرحمن المعتقل لديه كما خنق
الصميل في سجنه وبذلك تخلى عبد الرحمن عن يوسف والصميل وهي
أولى العقبات في سبيل استقرار إمارته وحكمه (١) . واستوثقت الأمور له
وأمر عبد الرحمن بن عقية على ولاية أربونة وما اتصل بها إلى طرطوسة
وولي طليطلة رجلا من ولد سعد بن عبادة الأنصاري كان ساكنا بها (٢)

(ب) ثوار من العرب والبربر والأقارب .

لم تستقر الأمور لعبد الرحمن بعد القضاء على يوسف والصميل وإنما
قامت عليه خلال عهده ثورات متعددة هي ثورة رزق بن النعمان الغساني

(١) أخبار مجموعة ص ٩٥ - ١٠٠ ؛ ابن عذاري البيان المغرب ج ٢ ص ٤٩ ،
عنان دولة الاسلام في الأندلس ص ١٥٦ ، ١٥٧ ، عبد العزيز سالم تاريخ
المسلمين وآثارهم في الأندلس ص ١٩٥ ، ١٩٦
(٢) ابن القوطية تاريخ انتاح الأندلس ص ٥٢

وثورة هشام بن عروة الفهرى ، طليطلة وثورة عبد الغافر اليماني بأشبيلية
وثورة العلاء بن مغيث اليحصى بأجة وثورة سعيد اليحصى المعروف
بالمطري بلبلة ، وثورة الصباح بأشبيلية ، وثورة الفاطمي بماردة ، وثورة
حيوة بين ملامس في أشبيلية ، وثورة أهل بته عليه ، وثورة عبد الرحمن
بن حبيب الفهرى بتدمير ، وثورة الرماحس بن عبد العزيز السكناني في
الجزيرة ، وثورة سليمان بن يقطان الأعراي والي برشلونة ، وثورة الحسين
بن يحيى في سرقطة ، وثورة محمد بن يوسف الفهرى في طليطلة ، وثورة
قاسم بن عبد الرحمن الفهرى (١) .

وهذه الثورات والمؤامرات ضد الأمير عبد الرحمن الداخل (٢) تدل
على حالة الفوضى المنتشرة في أنحاء الأندلس ومدى التنافس بين القبائل المختلفة،
والإحقاد المتأصلة بين زعماء تلك القبائل وحكام المدن والمغرد ، وأن نزعة
الانفصال كانت تهدد وحدة الأندلس ، مما أتاح لأعداء المسلمين في الأندلس خاصة
الممالك المسيحية في الشمال أن تحتل بعض المدن الشمالية وتهدد أمن المسلمين ،
وسهل التدخل الخارجي سواء من جانب الفرنج أو العباسيين ولولا بقظة
وحكمة عبد الرحمن وحزمه وسرعة مجابهة هذه الثورات والقضاء عليها
والعمل على تقوية الدولة والعمل على وحدتها لتفتت الأندلس وسقط
لقمة سائغة في يد أعدائه وسرى أن هذا الجهد والكفاح الدائب الذي
قام به عبد الرحمن قد جمع شتات القبائل ووحد فيما بينها وجعل حكمه بداية
عهد جديد في الأندلس سار عليه أبناؤه من بعده لتشييد ضريح الدولة الإسلامية
في الأندلس (٣) .

(١) أخبار مجموعة ص ١٠١-١١٢ ، ابن عذاري البيان المغرب ج ٢ ص ٥٠-٥٨

(٢) سمي الداخل لأنه أول من دخل الأندلس من بني مروان

(٣) أنظر د / أحمد الشعراوي الأمويون أمراء الأندلس الأول ص ١٠٦ ، ١٠٧

ولا نريد هنا أن نتبع هذه الثورات واحدة بعد أخرى وإنما سنعرض
بعض هذه الثورات وكيف قضى عليها عبد الرحمن حتى حقق وحدة
الأندلس وقوته .

١ — فقد ثار في طليطلة هشام بن عروة الفهري وهو قيسي من أتباع
يوسف الفهري فسار إليه عبد الرحمن وشدد عليه الحصار حتى اضطر إلى
طلب الصلح وقدم ابنه رهينة فقبل عبد الرحمن إذعانه ورجع عنه ، فعاد
هشام إلى نقض العهد فغزاه الأمير في السنة الثانية وشدد عليه الحصار ودعاه
إلى الرجوع فلم يذعن له فلما يئس منه أمر بأبنة الرهينة فضربت عنقه
وقذف الرأس بالمنجنيق في المدينة ورجع عنه لانشغاله بثورة العلاء بن مغيث
اليحصي وبعد أن قضى عليها ، بعث مولاة بدرا وتما من عاقمة سنة ١٤٧ هـ
في جيش كثيف إلى طليطلة فحاصرا هشام بن عروة حصارا شديدا منعاه فيه
الاقوات عن طليطلة حتى مل أهل المدينة الحصار واستنقلوا الحرب وكانوا
تماما وبذرا وسألوهما الأمان على أن يسلموا لهما ابن عروة وهشام بن حمزة بن
عبيد الله بن عمر بن الخطاب وحيوة بن الوليد التجيبي وكانوا بدأ واحدة
فتم ذلك وحملوا إلى قرطبة وفي الطريق حلفت رؤسهم ولحاهم وألبسوا
جيبا صوفية وحملوا على الحر ودخلوا قرطبة على هذه الحال وأمر عبد الرحمن
بقتلهم وكتب إلى البلدان بفتح طليطلة^(١) .

٢ — وفي سنة ١٤٦ هـ ثار العلاء بن مغيث اليحصي بباجة وكان من
وجوهها وله بها رئاسة وعصبة وكان أبو جعفر المنصور قد بعث إليه بسجل

(١) أخبار مجموعة ص ١٠١ ، ١٠٤ ابن عذاري البيان ج ٢ ص ٥٣ ،
عبد العزيز سالم تاريخ المسلمين وأثارهم في الأندلس ص ١٩٧ ، ١٩٩ عبدالله عان
دولة الاسلام في الأندلس ص ١٥٩ ، ١٦١

ولواء وقال له : إن كان فيك محل لمناهضة عبد الرحمن وإلا فأبعث إليك بمن يعينك^(١) ، وبذلك استطاع العلاء أن يسبغ على ثورته لونا من الشرعية بتبعيةها للحلافة العباسية فسعا إلى طاعة أبي جعفر المنصور ونشر الأعلام السود فتبعه خلق كثير ونطلع أكثر أهل الأندلس إلى خلع عبد الرحمن ولا سيما القفارية واليمانية وجند مصر وانضم إليه أمية بن قطن وأصحابه ، وأقبل إليه غياث بن علفمة اللخمي من شدونه مداهم .

فخرج عبد الرحمن من قرطبة في جميع قواته وبعث بدرا مولاه ببعض المقرات إلى شدونة فحاصرها فأذعن غياث لطلب الصلح ، وسار عبد الرحمن إلى قرمونه فتحصن بها ومعه ثقات مواليه وخاصته ، فسار إليه العلاء بجموعه وهاجم قرمونه مرارا وحاصره بها قريبا من شهرين فلما طال مقامهم انحزل عن العلاء أكثر من كان معه ووهنت روح قواته المعنوية ، وأدرك عبد الرحمن ذلك وكان في سبعمائة من أشداء الرجال ومشاهير الأبطال . فأمر بنار فأوقدت عند الباب المعروف بباب أشبيلية ثم أمر بأجفان سيوفهم فطرحت فيها ثم قال لهم : أخرجوا معي لهذه الجوع خروج من لا يحدث نفسه بالرجوع ، وتقدم الصفوف وخلفه رجاله فانقضوا على جيش العلاء ابن مغيث فمزقه شر ممزق وقتل العلاء مع ستة آلاف من أتباعه^(٢) وأمر عبد الرحمن بحز رأس العلاء ورءوس أشراف أصحابه ووضعت فيها صكوك بأسمائهم وحمل بعضها إلى القيروان فطرح في الليل في الأسواق وحمل البعض الآخر إلى مكة مع بعض التجار للنقا وفيه رأس العلاء ومعه السجل واللواء الذي أرسله إليه المنصور فوضعه أمام سرادق المنصور

(١) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ج ٤

(٢) ابن عذارى ج ٢ ص ٥٢ والمفرى في نفخ الطيب يذكر أنهم سبعة آلاف

الذى كان يحج ذلك العام سنة ١٤٧ هـ فلما نظر إليه المنصور قال : « إنا لله عرضنا بهذا المسكين للقتل الحمد لله الذى جعل البحر بيننا وبين هذا الشيطان » .

وبهذه الشجاعة النادرة التى أبداهما عيد الرحمن وأنصاره استطاع أن يقضى على هذه الثورة الخطيرة التى كانت تدعمها الخلافة العباسية معنويا وتضفي عليها ، الصبغة الشرعية وجمعت كثيرا من خصوم عيد الرحمن تحت لواء واحد (١) .

٣ — وفى سنة ١٥٢ هـ قامت ثورة من البربر فى شمال شرقى الأندلس وكان زعيمها داعية بربرى خطر يدعى شقنا بن عبد الواحد من بربر مكناسة وكان فقيها يعلم الصبيان وزعم أنه من ولد الحسن بن على رضى الله عنه وكانت أمه تسمى فاطمة فادعى أنه فاطمى وتسمى بعيد الله بن محمد فذاعت دعوته بين البربر فى تلك المنطقة وكانوا أكثرية ، وكانوا على استعداد لحمل السلاح إذا مدعاهم إلى ذلك أحد من بنى جنسهم فاستطاع بهم أن يستولى على شنت برية وجعلها مركزه العام ثم استولى على ماردة وقورية ومدلين ف معظم خطره وهزم الكتائب التى أرسلها إليها حاكم طليطلة . فزاد ذلك فى سلطانه وبغيه فسار إليه عبد الرحمن بنفسه واقتحم منطقة الثورة ونشبت بينه وبين البربر وقائع عديدة وامتنع الثائر بالجبال فرجع عبد الرحمن عن مطاردته إلى قرطبة وأرسل مولاة بدرًا يتابع القتال مع الثائر البربرى فاستمر الفاطمى متمعا بصحبه فى الجبال لا يريد لقاء الجيش المهاجم .

(١) ابن القوطية افتتاح الأندلس ص ٥٤ . ٥٥ أخبار مجموعة ص ١٠٢ - ١٠٣
ابن عذارى البيان ص ٢٠ - ٥١ . ٥٢ عنان دواة الإسلام ص ١٦٠ - ١٦١ عبد العزيز
سالم تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ١٩٧ - ١٩٨ ، أحمد الشعراوى
الأمويون أمراء الأندلس الأول ص ٩٧ - ٩٩ .

وقد فشلت الحملات المتوالية في القضاء على التأثير البربري في تلك المنطقة الوعرة فعاد عبد الرحمن سنة ١٥٥ هـ بجيش إلى شنت برية وقدم عليه هلال المديوني كبير البربر في شرق الأندلس فكتب له عهدا على قومه وأقره على موضعه وعهد إليه بولاية الأنحاء التي غلب عليها الفاطمي وفوض إليه أمر استخلاصها منه وكان لذلك أثره في بث الخلاف بين البربر ، فانفض عن الفاطمي كثير من انصاره واضطر أن ينسحب من شنت برية ليعتصم بالجبال في الشمال مرة أخرى وكانت مشاكل عبد الرحمن تدفعه إلى ترك هذا التأثير والعودة إلى قرطبة للبت في أمر دولته مما جعل هذه الثورة تظل مشتعلة قرابة عشر سنوات كما كان للأسلوب الذي يتبعه الفاطمي من تجنب المعارك والفرار إلى قمم الجبال إذا شعر بالخطر من عوامل بقائها كذلك ، ولم يتمكن عبد الرحمن من القضاء عليه إلا بمؤامرة دبرها له اثنان من أصحابه بمساعدة الزعيم البربري الآخر هلال المديوني فقتلاه وأخذ رأسه وحملها إلى عبد الرحمن في قرطبة، وبذلك انقضت جموعه وخبت ثورته بعد أن مكثت عشر سنوات تحمل الدمار وتسفك الدماء في شرق الأندلس وتمهد سلطان عبد الرحمن، وحقت الخيانة في لحظة واحدة مالم تحققه الحيل والبعوث المتعاقبة في أعوام طويلة وكان مصرع الفاطمي وانتهاء ثورته في سنة ١٦٠ هـ (١)

٤ - مؤامرات اشتركت فيها القوى الداخلية والخارجية :

بينما كان عبد الرحمن يواجه هذه الثورات المتلاحقة التي يقوم بها الثوار

(١) أخبار مجموعة ص ١٠٧ ، ابن عذاري البيان المغرب ٢٣ ص ٥٤ ، ٥٥ .
ابن خلدون العبر ج ٢ ص ١٢٣ . عبد الله عنان دولة الاسلام ص ١٦٢ - ١٦٥ ،
أحمد شعراوي الأمويون أمراء الأندلس ص ١٠٠ - ١٠٢ عبد العزيز سالم تاريخ
المسلمين وآثارهم في الأندلس ص ٢٠٠ .

بالداخل ويقضى عليها واحدة تلو الأخرى ويثبت دعائم إمارته ويقوى أركانها إذا ببعض الثوار يتحكم الحقد فيهم ويملا المدخل نفوسهم فلا يهتمون إلا بتحقيق أهوائهم ومصالحهم الشخصية فيتصلون بقوى خارجية من أجل القضاء على الإمارة الأموية .

فقد استعان عبد الرحمن بن حبيب الفهرى المعروف بالصقلبي - لطوله وزرقته وشقرته - بالبربر في إفريقية وعمر إلى تدمير وثار فيها ودعا للعباسيين وكان سليمان بن يقطان الكلبي (الأعرابي) وكان برشلونة ودعا إلى الدخول في أمره فأجابه : بأنه لا يدع عونه ولكنه ذلك لم يرق للثمرى وتوجه لغزوه ، ولكنه الأعرابي تمكن من هزيمته فعاد الفهرى إلى تدمير^(١) ، وواصل الثورة فيها فخرج إليه الأمير عبد الرحمن واشتد في قتاله فلجأ إلى الجبال يحتوى بها فبسط عبد الرحمن سلطانه في كوزة تدمير وتقدم إلى كورة بلنسية بعد أن أحرق المراكب بساحل البحر حتى لا يمكنه من الهرب ودس عبد الرحمن على الصقلبي مشكارا البربري فتمكن من اغتيال ابن حبيب الصقلبي وحمل رأسه إلى عبد الرحمن وبذلك انهارت دعوته وثورته سنة ١٦٢ ، ١٦٣ هـ^(٢) .

أما الثورة الثانية فقد قام بها سليمان بن يقطان الكلبي الأعرابي حاكم برشلونة ، والحسين بن يحيى بن سعيد بن عبادة الأنصاري والي سرقسطة ونحوهما على قتال عبد الرحمن وخطاه فأرسل إليهم عبد الرحمن جيشا بقيادة ثعلبة ابن عبيد الجزامي فمزقه سليمان وأسر قائد الجيش واتسعت الثورة في الشمال ولكنه سليمان لم يطمئن إلى هذا النصر خوفا من عبد الرحمن ورأى الاستعانة

(١) أخبار مجموعة ص ١١٠ .

(٢) ابن عذاري البيان ج ٢ ص ٥٦ ابن الأثير الكامل ج ٦ ص ٥٤

بملك الفرنج شارلمان فأرسل إليه يستقدمه إلى شمال الأندلس واعداد إياه بتسليم برشلونة أو سرقسطة إليه وبعدت إليه بالقائد المأسور ثعلبة بن عبيد، أغتنم شارلمان الفرصة فعبر جبال اليرانس بجيش كبير واستولى على برشلونة من البشكنس وكان يهفوا إلى أن يسيطر على شمال الأندلس . وقد استقبله سليمان وسار معه إلى سرقسطة وهما يعتقدان أنها ستفتح أبوابها لشارلمان . ولكن حاكمها الحسين بن يحيى الأنصارى خشى عاقبة مخالفة الأفرنج كما أن أهل سرقسطة صمموا على الصمود والقتال وقسموا الشهداء دفاعا عن مدينتهم مما جعل شارلمان يفكر في العودة بعد عجزه عن الاستيلاء على سرقسطة وقد شك في نية سليمان وموقفه فقبض عليه .

وأثناء عودته تعرضت مؤخرة جيشه لهجمات المسلمين بقيادة ابنى سليمان والبشكنس في جبال اليرنية فخلصوا الأسرى منهم ، كما فتكوا بمؤخرة الجيش وقتلوا كثيرا من كبار القواد .

عاد سليمان إلى سرقسطة وبعد فترة قتله الحسين الأنصارى الذى ظل نائرا ضد الأمير عبد الرحمن الذى خرج إليه فى جيش كبير وحاصره حصارا شديدا اضطر الحسين إلى طلب الصلح وأرسل ابنه رهينة فقبل منه عبد الرحمن ذلك وفك الحصار عن سرقسطة ولكنه عاد وغدر فى عهده فعاد الأمير إلى حصاره ونصب على المدينة ستة وثلاثين منجنيقا من كل جانب وضاق أهلها بالحصار فاتصلوا بعبد الرحمن وسلموا إليه الحسين بن يحيى الثائر فقتله وانتهت بذلك ثورته (١) .

(١) ابن عذارى البيان المغرب ج ٢ ص ٥٦، ٥٧ أخبار مجموعة ص ١١٢-١١٤
د عبد العزيز سالم تاريخ المسلمين وآثارهم ص ٢٠٢ — ٢٠٥ عنان دولة
الاسلام ص ١٦٦ — ١٨١ ، أحمد الشعراوى الأمويون أمراء الأندلس
ص ١٠٢ — ١٠٦ .

وقد حاول دوزي^(١) وتبعه عبد العزيز سالم، أحمد الشعراني أن يوجدا
ترابطا وتحملا بين ثورة سليمان بن يقظان وثورة عبد الرحمن الصقالي
وبربطوا كذلك بين العباسيين وشارلمان في هذا التحالف من أجل القضاء
على عبد الرحمن الداخل في الأندلس لمصلحة كل منهما في القضاء عليه .

ولاعمال إلى الأخذ بهذا الرأي الذي يطعن في الخلافة العباسية ويتهمها
بالتحالف مع الفرنجة للقضاء على عبد الرحمن الداخل في الأندلس حيث لم
تشر إلى ذلك المصادر العربية من قريب أو بعيد ، وإن يحمل العداء بين
العباسيين والامويين في الأندلس العباسيين على التحالف مع الأفرنج حتى
يقضوا على الأمويين في الأندلس لأن قضاء الأفرنج عليهم لن يسفر عن ضم
الأندلس إلى الدولة العباسية .

٧ - منزلة عبد الرحمن وإصلاحاته :

بعد عمر قارب الستين عاما توفي عبد الرحمن بن معاوية الأموي يوم
الثلاثاء لست بقين من ربيع الآخر سنة ١٧٢ هـ^(٢) بعد أن حكم الأندلس
ثلاثة وثلاثين عاما قضاه في حركة دائبة أقام فيها الإمارة الأموية في
الأندلس وأرسى دعائمها وحافظ عليها ضد الخارجين عليها حتى ثبتت
أركانها وعلا بنيانها وعاونته وأيده خلال رحلته بناء إمارته أنصاره من موالى
بنى أمية واليمانية وبعض القيسيين وأهل البلاد الأصليين

وكان عبد الرحمن راجح الحلم فاسح العلم ثاقب الفهم كثير الحزم نافذ
العزم بريئا من العجز سريع المضي في طلب الخارجين عليه متصل الحركة
لا يخلد إلى راحة ولا يسكن إلى دعة ولا يكل الأمور إلى غيره ثم لا ينفرد

(١) دوزي تاريخ مسلمي أسبانيا ص ٢٢٨ : ٢٣٣

(٢) ابن هذاري البيان ٢ ص ٥٨ .

في إبرامها برأيه شجاعا مقداما بعيد الغور شديد الحذر قليل الطعام أئينة بليغا مفوها شاعرا محسننا سمحا سخيا طلق اللسان (١).

ولاشك أن هذه الصفات الحميدة التي وصف بها ابن حيان عبد الرحمن قد استمدتها من سلوك عبد الرحمن وتصرفاته أثناء أمارته وتغلبه على المصاعب والأهوال خلال فترة حياته حتى حقق ما يصبوا إليه من إمارة قوية واسعة. وقد حملت صفات عبد الرحمن وأفعاله أبا جعفر المنصور العباسي على وصفه بصقر قریش فقد قال المنصور يوما لبعض جلسائه: أخبروني: من صقر قریش من الملوك؟ قالوا: ذاك أمير المؤمنين الذي راض الملوك وسكن الزلازل وأباد الأعداء وحسم الأدواء! قال: ما قلتم شيئا! قالوا: معاوية؟ قالوا: لا قالوا: فعبد الملك بن مروان؟ قال: ما قلتم شيئا. قالوا: يا أمير المؤمنين! فمن هو؟ قال: صقر قریش عبد الرحمن ابن معاوية الذي عبر البحر وقطع القفر ودخل بلدا أعجميا منفردا بنفسه فصر الأمصار وجند الأجناد ودرن الدواوين وأقام ملكا عظيما بعد انقطاعه بحسن تدبيره وشدة شكيمة إن معاوية نهض بمركب حملة عليه عمر وعثمان وذلالا له صعبه وعبد الملك يبيعة أبرم عقدها وأمير المؤمنين يطلب عثرته واجتماع شيعته وعبد الرحمن منفرد بنفسه مؤيد برأيه مستصحب لعزمه وطد الخلافة بالأندلس وافتتح الثغور وقتل المارقين وأذل الجبابرة للثأرين (٢).

وهي شهادة من خصم قارن فيها أبو جعفر بينه هو ومعاوية وعبد الملك وبين عبد الرحمن وحكم لعبد الرحمن بأنه الجدير بلقب صقر قریش لما اتصف به من صفات وقام به من أعمال.

(١) نقله المقري في نفح الطيب عن ابن حيان ج ٢ ص ٦٧ كما ذكره عنان دولة الاسلام ص ١٩٢

(٢) ابن عذاري ج ٢ ص ٥٩ ، ٦٠

وقد عمل عبد الرحمن على تغيير مفهوم الحكم بحيث يكون الانقياد والخضوع للدولة وليس للعصبية أو القبيلة وقد بذل في سبيل ذلك جهدا كبيرا منذ دخوله قرطبة منتصرا ، كما عمل على تنظيم الجهاز الحكومي فأنشأ منصب الحجابة وأسندها إلى تمام بن علقمة ثم ولاها يوسف بن بخت ثم عبد الكريم بن مهران ثم عبد الحميد بن مغيث ثم منصور فتاه الذي ظل فيها حتى وفاته . وكان يختص بمشورته ومعاونته في شئون الحكم أربعة يطلق عليهم ابن عذارى لقب وزراء (١) وهم عبدالله بن عثمان ، وعبدالله بن خالد ، ويوسف بن بخت ، وحسان بن مالك . وقد تولى قيادة عسكره مولاه بدر ، وتمام بن علقمة ، وعبد الملك المرواني وثعابة بن هبيد وغيرهم وقد كان عبد الرحمن يتولى بنفسه قيادة الجيش في معظم الوقائع والحروب التي قامت بينه وبين خصومه . كما أسند الولاية على المدن والأقاليم والشعور إلى من يثق فيهم من مؤيديه وذوى رحمه الوافدين عليه . وسار على سياسة الاعتدال والمهادنة بالنسبة للنصارى (المستعربين) وعين رئيسا عاما لهم باسم القمص (القومس) بقم إلى جواره في قرطبة ويستشيره في كثير من الأمور (٢) .

كما اهتم عبد الرحمن بالجيش وحشد له المتطوعة والمرتزة من كل صوب . وقد بلغت قواته نحو مائة ألف مقاتل عدا حرسه الخاص من الموالى والبربر . والرقيق ويبلغ قرابة أربعين ألفا واهتم في أواخر عهده بالقوات البحرية فأنشأ عدة قواعد لبناء السفن في طركونة وطرطوشة ، وقرطاجنة وأشبيلية .

(١) المرجع السابق ص ٤٨

(٢) ابن القوطية تاريخ افتتاح الاندلس ص ٥٨ ، أحمد بدر دراسات في

تاريخ الاندلس حضارتها ص ٩٧

وغيرها (١) .

ووجه عبد الرحمن عنايته لنشر العدل بين الرعية وفضل الخصومات بينها
وقلد القضاء في عهده يحيى بن يحيى النجيبى، ومعاوية بن صالح ، وعبد الرحمن
بن طريف وعمر بن تراجيل ، والمصعب بن عمران وكان له قاض خامس
في صرائمه يسمى جدار بن مسلمة بن عمرو المزحجى (٢) .

ومع كثرة الأعباء التي ألقيت على كاهل عبد الرحمن لم يغفل الناحية
المعمارية فاهتم بقرطبة عاصمة أمارته فحصرها بسور وجعلها وأنشأ في شمالها
قصرًا ضخمًا تحيط به الحدائق وسمى تلك الضاحية بالرصافة تخليداً لذكرى
الرصافة التي أنشأها جده هشام بالشام . وقد جعلها عبد الرحمن مقاما
ومنتزها ومركزا للإمارة .

وأنشأ في قرطبة وبقية المدن مساجد كثيرة وفي سنة ١٧٠ هـ بدأ بإنشاء
المسجد الأموى الجامع بقرطبة وكان موضعه كنيسة قوطية قديمة، وجلب إليه
الأعمدة الفخمة والرخام المنقوش بالذهب واللازورد وقد توفي عبد الرحمن
قبل إتمامه فأتمه ابنه هشام وزاد فيه ولاية بنى أمية من بعده حتى صار أعظم
مساجد الأندلس وقد انفق عليه عبد الرحمن في عهده مائة ألف دينار ،
كما أنشأ عبد الرحمن في قرطبة دارا للسكة تضرب فيها النقود حسب
ما كانت تضرب في دمشق أيام بنى أمية وزنا ونقشا (٣) .

وحسبى في النهاية أن أورد ما ذكره ابن حبان عنه : بأنه دون الدواوين

(١) المقرئ نفح الطيب ج ٢ ص ٦٧ ، ٧٤ نقلا عن عثمان دولة الاسلام

ص ١٩٦ ، ١٩٧

(٢) ابن هنادى البيان ج ٢ ص ٤٨

(٣) أنظر عثمان دولة الاسلام ص ١٩٧ ، ١٩٨

ورفع الأوابين ، وفرض الأعطية ، وعقد الألوية ، وجند الأجناد ، ورفع
العماد ، وأوثق الأوتاد فأقام الملك آله ، وأخذ للسلطان عدته ، فاعترف
له بذلك أكابر الملوك وحذروا جانبه ، وتحاموا حوزته ، ولم يلبث أن
دانت له البلاد واستقل له الأثر فيها ^(١) ، وقول أني جعفر المنصور عنه بأنه
« فتي قریش الاحوذى ^(٢) الفذ في جميع شئونه ، وعدمه لأهله ونشبهه ،
وتسليمه عن جميع ذلك ببعد مرقى همته ومضاء عزيمته ، حتى قذف نفسه في
لجج المهالك لا ابتناء مجده فاقنجم جزيرة شاسعة المحل نائية المطمع عصبية الجند ،
ضرب بين جندها بخصوصيته وقمع بعضهم ببعض بقوة حيلته ، واستمال
قلوب رعيته بقضية سياسية حتى انقاد له عهدهم وذل له أبيهم فاستولى فيها
على أريكته ملكا على قطيعته ، قاهرا لأعداته ، حاميا لذماره ، مانعا
لحوزته ، خالطا الرغبة إليه بالرهبة منه إن ذلك لحو الفتي كل الفتي .
لا يكذب مادحه .

وكان الداخل جم التواضع يقعد للعامة ويسمع منهم وينظر بنفسه
فيما بينهم ويتوصل إليه من اراده من الناس ، فيصل الضعيف منهم إلى رفع
ظلامته إليه دون مشقة ، وكان من عادته أن يأكل معه من أصحابه من أدرك
وقت طعامه ومن وافق ذلك من طلاب الخواج أكل معه ^(٤) .

واختم حديثي عن مؤسس الدولة بشعره العذب الرقيق الذي يصور
رقة نفسه وشدة حنينه إلى موطنه في الشام :

-
- (١) نقل عن نفح الطيب ج ١ ص ٣١٠
(٢) الاحوذى : السريع في كل ما أخذ فيه .
(٣) نقل عن نفح الطيب ج ١ ص ٣١٠
(٤) نفح الطيب للبقرى ج ١ ص ٣١٠ ، ٣١١

أيتها الراك الميم أرضي
أفر من بعضي السلام لبعضي
إن جسمي كما تراه بأرض
وفؤادي ومالكية بأرض
قدر البين بيننا فافترقنا
وطوى البين عن جفوني غمضي
قد قضى الله بالبعد علينا
فمسي باقترابنا سوف يقضي (۱)

الفصل السابع

امراء بني أمية في الأندلس بعد عبد الرحمن الداخل

١ - هشام بن عبد الرحمن^(١) ١٧٢ - ١٨٠ - ٧٨٨ - ٧٩٦ م

تولى إمارة الأندلس بعد عبد الرحمن الداخل ابنه هشام بعهد منه وكان لعبد الرحمن أحد عشر ولدا فأثر هشاما بولاية العهد لاقتناعه بأنه الجدير بولاية العهد من بين أبنائه . ويتفق على إسناد ولاية العهد إليه ابن الأثير^(٢) وابن خلدون^(٣) والمقرئ^(٤) وكان هشام حين وفاة أبيه مقبلا بماردة مقر ولايته ، وكان أخوه عبدالله المعروف بالبلنسي حاضرا بقرطبة لدى والده وكان أكبر إخوته سليمان بمدينة طليطلة وأبنا عليها . فلما توفى عبد الرحمن جدد عبدالله البيعة لأخيه هشام بعد أن صلى على والده وكتب إلى أخيه هشام يعرفه بموت والده والبيعة له فتوجه هشام إلى قرطبة فدخلها بعد ستة أيام وتولى مقاليد الإمارة وبابيه الخاصة والعامة .

هذا ما ميل إليه بالنسبة لإسناد ولاية العهد إلى هشام ولا تأخذ بما يذكره ابن عذاري بقوله : وقيل إن عبد الرحمن بن معاوية لما حضرته الوفاة وابنه هشام بماردة وابنه الآخر سليمان بطليطلة وكل ابنه عبدالله المعروف بالبلنسي وقال له : من سبق إليك من أخواتك فارم إليه بالخاتم والأمر فإن سبق هشام فله فضل دينه وعفافه واجتماع الحكمة عليه وإن سبق إليك سليمان

(١) ولد بمدينة قرطبة في شوال سنة ١٣٩ هـ وأمه أم ولد تسمى حلال وقيل جمال وتوفى في صفر سنة ١٨٠ هـ وكان عمره أربعين سنة .

(٢) السكامل ج ٦ ص ١١٢

(٣) المعبر ج ٤ ص ١٢٤

(٤) نفح الطيب ج ١ ص ٣١٣

فله فضل سنه ونجدهته وحب الشاميين لايه^(١) ، لأن ذلك ينافي مااتفق عليه ابن الأثير وابن خلدون ، ثم إن المعروف عن عبد الرحمن البت في الأمور فهو لا يترك أمر الإمارة يتحكم فيه من سبق إلى قرطبة ، ثم إن هذا الوضع يشير الفتنة بين الأخوة ويجعل المتأخر منهما في الوصول إلى قرطبة يطالبه السابق لإيها بحقه وهذا يؤيد أن ولاية العهد كانت لهشام وحده .

الثورات الداخلية في عهده :

عندما تمت البيعة لهشام وتولى مقاليد الامارة في قرطبة ثار عليه أخوه الأكبر سليمان وكان واليا على طليطلة فدعا لنفسه فيها وفيما جاورها ثم لحق به أخوه عبدالله البلنسى في طليطلة مما حمل هشاما على أن يذهب بجيش لحصارهما في طليطلة ولما كن سليمان خرج مستخفيا إلى قرطبة ليتولى الأمور فيها وقد فشل في ذلك لأن هشاما أرسل إليه ابنه عبد الملك في جيش لمطارده ففر إلى ماردة فطارده عامل هشام فلجأ إلى تدمير (مرسية) وبعد حصار دام شهرين لطليطلة عاد هشام إلى قرطبة وشعر عبدالله بفشل الثورة فقدم إلى هشام في قرطبة يلتمس صفحة فغفاه عنه وأكرم مثواه ، وأرسل هشام جيشا بقيادة ابنه معاوية إلى تدمير لعقب أخيه سليمان وضيق عليه الخناق حتى طلب الأمان فوافق هشام على طلبه على أن يعبر بأهله وولده إلى المغرب وأعطاه ستين ألف دينار مصالحة على تركه أبيه عبد الرحمن ، وسار معه أخوه عبدالله وأقاما بعدوة المغرب وانتهت بذلك ثورة الأخوين سنة ١٧٤ هـ^(٢) .

(١) ابن عذارى البيان المغرب ج ٢ ص ٦١

(٢) ابن الأثير الكامل ج ٦ ص ١١٦ ، ١١٧ ، ابن عذارى البيان ج ٢ ص ٦٢ .

٦٣ ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٤ عنان دولة الإسلام ص ٢٣١ ، ٢٢٢ .

وقد حاول بعض الموتودين من عبد الرحمن الثورة على ابنه هشام فقد ثار سعيد بن الحسين الأنصاري بطرطوشة وكان قد التجأ إليها حين قتل أبوه والتفت حوله اليمانية وأخرج عامل هشام يوسف العبسي فعارضه موسى بن فرتون في المضربة داعياً لهشام حتى تمكن منه وقتله^(١) ، كما ثار عليه مطروح بن سليمان بن يقظان بمدينة رشلونة وكثر جمعه فاستولى على سرقسطة ورشقه فبعث إليه هشام جيشاً بقيادة عبيد الله بن عثمان فضيق الحصار على سرقسطة حتى ضاق أهلها ذرعاً بالحصار. فخرج مطروح في بعض الأيام متصيداً فاغتاله أصحابه عمرو بن يوسف وابن صلتان واحتزوا رأسه وقدماه إلى ابن عثمان الذي تقدم إلى سرقسطة فدخاها وبعث الرأس إلى هشام سنة ١٧٥ هـ وانتهت بذلك الثورة في الشمال .

وهناك ثورة أخرى قام بها البربر في منطقة رندة المعروفة بإقليم تاكرنا سنة ١٧٨ هـ حيث خلع البربر الطاعة وأظهروا الفساد فدعاهم هشام إلى الطاعة فلم يمتثلوا فسير إليهم جيشاً كبيراً بقيادة عبد القادر بن أبان مولى معاوية بن أبي سفيان فشنت جموع البربر وقتل كثيراً منهم وخرب ديارهم حتى صارت بلقعا سبع سنين وبالقضاء على تلك الثورة استقرت الأمور الداخلية في البلاد^(٢) .

الحروب الخارجية :

كانت الثورات الداخلية التي قامت في الأندلس أيام عبد الرحمن وهشام دافعا للدول والإمارات المسيحية في الشمال لكي يغيروا على حدود الأندلس

(١) ابن الأثير السكامل ج ٦ ص ١١٧ : ١١٨

(٢) ابن الأثير السكامل ج ٦ ص ١٤٤ ، ابن عذاري البيان ج ٢ ص ٦٤

ويقتطعوا منها الأجزاء كما كان لبعض هذه الدول أصابع في تحريك بعض هذه الثورات وتشجيعها على مواصلة الفتنة . لذلك كان على هشام بعد أن استقرت أموره الداخلية أن يتوجه بجيوشه إلى تلك الدول التي تعمل على إثارة الفتن الداخلية وتعمل على إضعاف المسلمين والاستيلاء على أراضيهم .

وفي سنة ١٧٥ هـ سير هشام إلى الشمال جيشا كبيرا بقيادة عبيد الله بن عثمان فوصل إلى ألبة والقلاع حيث اصطدم بالنصارى فزهمهم وشتت جموعهم وقتل منهم تسعة آلاف ، كما سير في نفس العام جيشا آخر بقيادة يوسف بن نخت فتوجه إلى جليقية حيث التقى بملكها برمود الكبير ملك استوريش حيث دارت معركة عنيفة انتصر فيها المسلمون وقتلوا من عدوهم عشرة آلاف وغنموا منهم غنائم كثيرة .

وفي سنة ١٧٧ هـ أعد هشام جيشا كبيرا بقيادة حاجبه عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث فتوجه إلى الشمال حيث وصل إلى جرندة وكان بها حامية الفرنج فقتل رجالها وهدم أسوارها وأبراجها وفتحها ثم استولى على عدد من المعاقل والحصون ونفذ إلى سبتيمانيا زحف على أربونة قاعدة الثغر الاسلامي القديم فاستولى عليها وبقى الجيش شهورا يحوس خلال بلادهم يخرب الحصون ويحرق ويغنم وفر العدو ومن أمامه ثم عاد الجيش إلى قرطبة ظافرا محملا بالغنائم التي بلغ خمس السبي فيها خمسة وأربعين ألفا من الذهب وتعد هذه الغزوة من أشهر مغازي المسلمين بالأندلس وأرغم أسرى النصارى على حمل وجر أحجار من سور أربونة حتى قرطبة حيث بنى منها جزء في جامع قرطبة تخليدا لتلك الغزوة الشهيرة (١) .

وفي سنة ١٧٩ هـ أرسل هشام جيشا كثيفا إلى جليقية بقيادة عبد الكريم

(١) ان الأثير السكامل ج ٦ ص ١٣٥ ، ابن عذاري البيان ح ٢ ص ٦٤ ، ابن خلدون

العبر ح ٤ ص ١٢٥ ، ع. ان دولة الإسلام ص ٢٢٤

من عبد الواحد بن مغيث^(١) فتوغل في جليقية حتى بلغ استرقة وكان أذفونش ملك جليقية قد استعد للقاء المسلمين واستعان بحلفائه من البشكنس وأهل تلك النواحي وأمر سكان السهل بالنهوض إلى الجبال ووضع كائن ضخمة من درسا به في قمم الجبال حتى تأخذ المسلمين على غرة ولكن قائد المسلمين أدرك خطة العدو فقدم قائده فرج بن كنانة في أربعة آلاف فارس وسار على أثره فالتقوا بكمين الجلالة وتمكنوا من هزيمته وبثوا الخيل في القرى ثم تقدموا إلى وادي كوتية فالتقوا بكمين آخر من ثلاثة آلاف فارس بقيادة غندماره فانتصر المسلمون عليهم وأسروا قائدهم ثم تابعوا أذفونش ملك جليقية حتى وصل إلى عاصمة ملكه فتبعه فرج بن كنانة في عشرة آلاف فارس فلما قرب منه انهزم وأسلم جميع عدته ودخاره فغنمها المسلمون ثم عادوا إلى قرطبة بعد أن مزقت قرى الجلالة وقد حقت هذه الغزوة الغرض يبعث الذعر في نفوس الجلالة فسكنوا إلى حين وساد الأمن في الولايات الشمالية^(٢)

الإصلاحات في عهده:

في عهده قضى على الفتن الداخلية فساد الأمن والاستقرار في ربوع الأندلس وحمى حدود الدولة ورفع راية الجهاد ووجه الحملات المتتالية إلى أعدائه في الشمال فارتفعت راية الإسلام عزيزة قوية وهابه جيرانه حتى أن رجلا مات في أيامه فأوصى أن يفك أسير من المسلمين من تركته فطلب ذلك فلم يوجد في دار الكفار أسير يشترى ويفك لضعف العدو وقوة

(١) ابن الأثير الكامل ج ١٤٦ ص ١٤٦ ، وابن خلدون العبر ج ٤ ص ١٢٥ يذكر أن

أن اسم القائد هو أخوه الحاجب عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث

(٢) ابن عذاري البيان ج ٢ ص ٦٤ ، ٦٥ ابن الأثير الكامل ج ١٤٦ ص ١٤٦ ابن خلدون

العبر ج ٤ ص ١٢٥

المسلمين (١) ولم يستشهد في عهد هشام أحد من جنده في شيء من ثغوره أو جيوشه إلا الحق بلده في ديوان أرزاقه وخصص رزقا لاسرته (٢).

وقد اهتم هشام بالعمارة وأتم مسجد قرطبة الجامع الذي بدأ أبوه بإنشائه وتوفي قبل إتمامه كما أنشأ عدة مساجد أخرى وزين قرطبة بعدد من الأبنية والحدائق الفخمة وجدد قنطرة قرطبة وانفق في بنائها أموالا عظيمة وأشرف على بنائها بنفسه وعندما قال الناس: إنما بناها لتصده ونرهنه حلف حين بلغه ذلك ألا يجرز عليها إلا لغزو أو مصلحة وفي عهده جعلت اللغة العربية لغة التدريس ومعاهد النصارى واليهود وكان لذلك أثر عميق في التقريب بين أصحاب المذاهب المختلفة وبث روح التفاهم والوئام بينها ولا سيما بين المسلمين والنصارى مما جعل كثيرا من النصارى يعتنقون الإسلام بعد أن وقفوا على أصوله وتفصيله وقربت مسافة الخلاف بينهم وبين الفاتحين (٣). وقد عمل هشام على نشر العدل في أنحاء البلاد متحررا بالحكم بالسنة والكتاب فقبض الزكوات من طرقها ووضعها في حقها لم يأخذ في الله لوم ولا تعلق به ظلم، وكان يبعث إلى الكور قوما عدولا يسألون الناس عن سير العمال حتى ينتشر العدل وبما يدل على انتشار العدل في عهده أنه كان لبعض رجال هشام خصومة في دار عند القاضي مصعب بن عمران فسجل عليه القاضي فيها وأخرجها منها فنهض الرجل إلى هشام وقال له: إن القاضي سجل على في داري التي كنت أسكنها وأخرجني منها. فقال له هشام: وماذا تريد مني؟ والله لو سجل على القاضي في مقعدى هذا لخرجت عنه انقيادا منه للحق (٤). وفي عهده ذاع مذهب الإمام مالك الذي كان معاصرا له، وكان هشام

(١) ابن الأثير الكامل ٦ ص ١٤٨ (٢) أخبار مجموعة ص ١٢٠

(٣) عبد الله عنان دولة الإسلام ص ٢٢٦ .

(٤) ابن عذارى البيان ٢ ص ٦٦ .

كثير الإحلال لمالك ومذهبه فانتشر مذهب مالك في الأندلس وكانوا قبل ذلك يعلمون بذهب الأوزاعي إمام أهل الشام . وقد قرب الققهانة ورجال الدين وأسند إليهم كثير امن المناصب وكان صاحب شرطته . عبد الغافر بن أبي عبيدة ووزراؤه ثمانية و كتابه اثنان : فطيس بن عيسى وخطاب بن زيد . وقاضيه المصعب بن عمران (١) .

وتوفي هشام في صفر سنة ١٨٠ هـ وعمره أربعون سنة وأربعة أشهر وأربعة أيام ، وكان متصفا بالرأى والشجاعة والعدل وحب أهل الخير والصلاح ، والشدة على الأعداء والرغبة في الجهاد (٢) ،

٢ — الحكم بن (٣) هشام : ١٨٠ - ٢٠٦ ٧٩٦ هـ - ٨٢٢ م

تولى إمارة الأندلس بعد هشام ابنه الحكم بعهد منه في صفر سنة ١٨٠ هـ وعمره ست وعشرون سنة وهو ثالث أمراء بني أمية بالأندلس وقد عمل على حماية الدولة ونشر الأمن فيها فحارب الثوار في الداخل ودافع المهاجمين من الخارج بجيش قوى أعده لذلك وحرص على العدل والإنصاف بين الرعية حتى أذعن له الأندلس كلها بالطاعة ولم يختلف عليه فيها مختلف ولذلك خاطب ابنه عبد الرحمن ولي عهده في أواخر عهده بقوله :

فماك سلامى إننى قد تركتها

مهادا ولم أترك عابها منازعا

(١) المرجع السابق ص ٦١

(٢) ابن عذارى البيان ص ٢٥ ، ٦٦ ابن الأثير السكامل ص ٦٨ ص ١٤٨

ابن خلدون ص ١٢٥ عنان دولة الإسلام ٢٢٣ - ٢٢٤ .

(٣) كنيته أبو العاصى أمه زخرف ولد سنة ١٥٤ يوبوع وعمره ست

وعشرون سنة وتوفي سنة ٢٠٦ هـ بعد أن حكم ستا وعشرين سنة وأحد عشر شهرا .

انثورات الداخلية في عهده

كانت أولى الثورات التي واجهها الحكم عقب توليه الإمارة ثورة عميه سليمان وعبيد الله اللذين كانا قد نفيا إلى المغرب في عهد أبيه هشام. وعقب تولي الحكم الإمارة عبر عبد الله إلى الأندلس قاصدا الثغر الأعلى^(١) الذي يكن أهله كراهية للأمير الجديد فنزل سر قسطة عند ملول ابن مرزوق الثائر على الأمير الحكم سنة ١٨١ هـ ولكنه لم يجد هناك من يريد له مبايعته وعزل الحكم فبر جبال البرنية إلى بلاد الفرنج طالبا عون شارلمان أما سليمان فقد عبر إلى الأندلس سنة ١٨٢ هـ واستطاع أن يجمع جيشا ليهاجم به قرطبة ولكن الحكم تمكن من التغلب عليه ، فعادوا سليمان القتال والتقى مع الحكم في بنجيطه فهزم سليمان ولكنه مع ذلك عاود القتال للمرة الثالثة وجمع جيشا من البربر سنة ١٨٣ هـ وتوجه إلى استجة فسار إليه الحكم ودرات بينهم حروب شديدة لعدة أيام ثم انهزم سليمان بمن كان معه ولكنه عاود القتال في العام نفسه فهزم أيضاً ، وفي سنة ١٨٤ هـ حشد سليمان جيشا من شرق الأندلس واستولى به على جيان ثم البيرة وانضم إليه جماعة من سكانها فقصد الحكم بجيشه ودار القتال بينهما عدة أيام كادت الهزيمة أن تحل خلافا بالحكم إلا أنه تغلب في النهاية على سليمان الذي فر من المعركة بعد أن ترك على أرض المعركة عددا كبيرا من أنصاره ، وبعث الحكم في أثره أصبح بن عبد الله بن وانسوس فاحقه بحجة ماردة وقبض عليه وأتى به إلى الحكم فأمر بقتله سنة ١٨٤ هـ وطيف

(١) الثغر الأعلى يشمل عدا سر قسطة ، لاردة وعليلة وونقة وطرطوشة وطر كزنة وغيرها وتقابل أرجوان من ولايات اسبانيا الحديثة ، وسميت طابطة وأعمالها بالثغر الأوسط لجوارتها لمملكة ليرن النصرانية (جليقية) عمان دولة الإسلام ص ٢٨٨ .

برأسه في قرطبة ثم أمر الحكم بدفن عمه سليمان في مدافن الأسرة في قرطبة، أما عبد الله بن عبد الرحمن فبعد عودته من بلاد الفرنجة توجه إلى بلنسية حيث أيدته أهلها فأقام بها شبه مستقل بعد أن عفا عنه الحكم وصالحه سنة ١٨٦ هـ على أن يقيم بقية عمره في بلنسية ونجوى عليه أرزائه وقد ظل بها حتى عرف بعبد الله البلنسى وبعث عبد الله إلى الحكم بإبنة عبيد الله فزوجه الحكم أخته وولاه قيادة جيوشه فعرف بصاحب الصوائف ، وتخلص الحكم بذلك من أولى الثورات المعارضة لحكمه والتي أثارها الأحمق العائلي للسيطرة على الحكم. (١)

وفي سنة ١٩٠ هـ قامت ضد الحكم ثورة في ماردة بقيادة أصمغ بن عبد الله بن وانوس بسبب وشاية قام بها أحد أعداء أصمغ بين الحكم وبينه وخاف أصمغ وتوقع العقوبة والسطوة من الحكم فدخل ماردة وثار بها والتف حوله العرب، فخرج إليه الحكم وحاصره ولكنه اضطر لفك الحصار عنه والعودة إلى قرطبة لفتنة قامت فيها ثم تابع الحكم الحملات إلى ماردة سبع سنين وأخيرا استمال جماعة من أهل ماردة وبعض ثقاته أصمغ فقالوا إلى الحكم وفارقوا أصمغ مما دهاه إلى طلب الأمان من الحكم فأمنه وخرج من ماردة وأقام عند الحكم في قرطبة (٢).

وفي سنة ١٩١ هـ تمكن الحكم من الإيقاع بأهل ضابطلة التي كانت

(١) ابن عذاري ح ٢ ص ٧٠ ابن خلدون العبر ح ٤ ص ١٢٥ ، عنان دولة الإسلام في الأندلس ص ٢٢٠ ، أحمد الشعرأوى الأمويون أمراء الأندلس ص ٢٢٩ ، ٢٣٠ .

(٢) ابن الأثير ح ٦ ص ٢٠١ ، ابن عذاري البيان ح ٢ ص ٧٠ ، عنان دولة الإسلام ص ٢٣٤ .

مركزا للثورة وملجأ لكل خارج على الدولة منذ قيام الإمارة الأموية نظراً لخصائنها وكثرة المولدين والنصارى المعادين فيها وكان أهلها يهتزون بكبريتهم وثروتهم وحصانة مدينتهم وأنها كانت دار ملك القوط مما يدعوهم إلى التمرد والخروج المستمر على حكومة قرطبة وقد ثار فيها سنة ١٨١ هـ عبدة بن حميد وتمكن عمرو بن يوسف حاكم طليطلة وهـ من المولدين من القضاء عليه بطريق الغيلة بعد وقائع عدة خاضها ضده فسكنت الشرره فيها ، ولكن إلى حين ، مما دعا الحكيم إلى إعمال الحيلة في الظفر بهم ، واستعان بعمروس ابن يوسف من أهل وشقة الذي ظهر في الثغر الأعلى وأعلن انقياده للحكم وتأيده له فدعاه الحكيم إليه وبالحق في إكرامه وأطلعه على عزمه في الإيقاع بأهل طليطلة فراطاه على التدبير عليهم فولاه طليطلة وكتب إلى أهلها يقول: «إني قد اخترت لكم فلانا وهو منكم لتطمئن قلوبكم إليه وأعفيتكم عن تكرهون من عمالنا ومواليينا ولتعرفوا جميل رأينا فيكم»^(١) ، فغشى إليهم عمروس ودخل طليطلة وأنس به أهلها وأطمأنوا إليه وأحسن عشرتهم وتظاهر أمامهم ببغض بني أمية وبمرافقتهم على خلع طاعاتهم فقالوا إليه ووثقوا به ، فأنشأ بمرافقتهم قلعة حصينة في ظاهر طليطلة لإيواء الجند والموظفين فيها بعيداً عن أهل المدينة وحرصاً على راحتهم ، ثم سير الحكيم جيشاً بقيادة ولده عبد الرحمن لقتال نصارى الشمال في الظاهر ثم عرج هذا الجيش أثناء العودة على طليطلة وخرج عمروس ومعه أعيان المدينة للقاء قائد الجيش فأكرمهم عبد الرحمن وأحسن إليهم ، ثم أقام عمروس وليمة عظيمة في القلعة الجديدة دعا إليها الوفاء من أعيان وكبراء طليطلة وقرر أن يدخلوا من باب ويخرجوا من باب آخر ليقل الزحام فأتى الناس أفواجا وكان المستقبلون يقتادون المدعوين إلى غرف الطعام فوجا فوجا وكلما دخل

(١) ابن الأثير ٦ ص ١٩٩ .

فخرج أخذ إلى ناحية معينة في القلعة فضربت أعناقهم وألقيت - منهم في حفرة كبيرة أعدت لذلك . وأصوات الطبل والمزامير تحول دون سماع استغاثتهم ، فلما تعالى النهار أتى بعضهم فلم ير أحدا فقال أين الناس فقبل إنهم يدخلون من هذا الباب ويخرجون من الباب الآخر فقال مالم يقينى منهم أحد وعلم بالمكيدة فأعلم الناس هلاك أصحابهم فنجى من بقى منهم . وهلك فى تلك المذبحة التى عرفت بواقعة الحفرة ، سنة ١٩١ هـ عدد كبير من وحوه طلبة وأعيانها يقدره ابن عذارى بسبعمائة وابن القوطية وابن الأثير بخمسة آلاف وكانت طعنة قوية للمدينة النائرة قضت على زعمائها واهضعت شأنها فحسنت طاعتهم بقية أيام الحكم وأيام ولده عبد الرحمن (١) .

وثالث الثورات التى كادت تطيح بالحكم هى الثورة التى عرفت بثورة الربض (٢) وكان بدايتها سنة ١٨٩ هـ عندما دبرت مؤامرة الإطاحة بالحكم وكان من ورثتها الفقهاء الذين سخطوا على الحكم ورمسوه من فوق المنابر بالفسوق والخروج على أحكام الدين وبعض الأعيان الذين يتقدمون على الحكم صرامته وشدة واتفقوا على خلع الحكم وبيعة محمد بن القاسم القرشى المروانى ولكنه أفضى سرهم للحكم وعندما استوثق الحكم من صحة المؤامرة قبض على اثنين وسبعين منهم وصلبهم على شاطئ النهر تجاه القصر فأثار ذلك ارتياح الناس وملأ قلوبهم الخاصة والعامة بالبغض للحكم مما حمله على تحصين قرطبة وتزيم سورها وحفر خندقها .

وبعد ثلاثة عشر عاما كانت الثورة الخطيرة فى الربض فى رمضان

(١) ابن القوطية تاريخ افتتاح الأندلس ص ٦٥ ، ٦٧ ابن عذارى البيان المغرب ص ٢٣ ص ٦٩ ، ٧٤ ابن الأثير الكامل ص ٦ ص ١٩٩ - ٢٠١ ابن خلدون المعبر ص ٤ ص ١٢٦ عنان دولة الإسلام ص ٢٣٦ - ٢٣٧ .

(٢) للربض صاحبة من ضواحي قرطبة على الضفة للنهر الأخرى مقابل قرطبة

سنة ٢٠٢ هـ ويشير ابن الأثير إلى أن سببها يرجع إلى تشاغل الحكم باللاهو والصيد والشرب وقتل جماعة من أعيان قرطبة فسكره أهلها وصاروا يتعرضون لجنده ما لذى والسب حتى باغ الأمر بالغوغاء أنهم كانوا ينادون عند انقضاء الأذان الصلاة يا مخمور الصلاة وشافهم بعضهم بالقول وصفقوا عليه بالأكف ثم فرغ منه ضريبة العشر على المواد الغذائية كل سنة من غير خرص فسكره الناس ذلك (١) وابن عذاري يشير إلى اختلاف الروايات في سبب ثورة الربض ولكنه لا يذكر تلك الروايات سوى رواية يقول فيها : إن ذلك الهيج كان أصله الأشر والبطر إذ لم تسكن ثم ضرورة من إجحاف في مال ، ولا انتهاك لحرمة ، ولا تعسف في ملكة ، والحال تدل على صحة ذلك : فإنه لم يكن على الناس وظائف ولا مغارم ، ولا سخر ، ولا شيء يسكون سبباً لخروجهم على السلطان بل كان ذلك أشراً وبطراً وملا لالعافية وطبعاً جافياً ، وعقلاً غيباً وسعيّاً في هلاك أنفسهم . أعادنا الله من الضلال والخذلان وأسباب البور والخسران (٢) .

وهذا يدل على تطاول العامة والغوغاء للاتقاص من سلطة الأمير والغض من مكانته فشرع في تحصين قرطبة وعمارة أسوارها وارتبط الخيل على بابه واستكثر من المماليك ورتب جمعاً لا يفارقون باب قصره بالسلاح فزاد ذلك من حقد أهل قرطبة وبغضهم له .

وقامت الثورة عندما ذهب أحد ممالك الحكم إلى صيقل (حداد) وأعطاه سيفه ليصقله فمأطله الصيقل وتشاجرا فقتل المملوك الصيقل ، فثار العامة واجتمع أهل الأرباض بالسلاح وكان أشدهم هياجاً أهل الربض الجنوى في الضفة الأخرى من النهر وهي ضاحية قرطبة "جنوية المسماة شقندة

(١) ابن الأثير الكامل ج ٦ ص ١٩٨ ، ١٩٩ .

(٢) ابن عذاري البيان المغرب ج ٢ ص ٧٦ .

وزحف الثوار إلى قصر الإمارة من كل ناحية ، واجتمع الجند والأمويون .
والعبيد بالقصر وفرق الحكم الخيل والأسلحة وجعل أصحابه كتاب ووقع .
القتال بين الطائفتين فغلبهم أهل الربض فنزل الحكم من أعلى القصر وليس
سلاحه وركب وحرص الناس فقاتلوا بين يديه قتالا شديدا .

عند ذلك لجأ الأمير إلى الحيلة فأرسل عبيد الله بن عبيد الله البافسي
المعروف بصاحب الصوائف وإسحاق بن المنذر القرشي فثلم في السور ثلثة
وخرج منها ومعه قوة من الجيش وأتوا الربض فأشعلوا النار فيه وما كادت
السنة النار تظهر حتى هرع الكثير من أهل الربض إلى داره لحماية أهله
ومنزله فأخذتهم السيوف من أمامهم وخلفهم وقتلوا قتلا ذريعا وطاردهم
في كل مكان ونهبت دورهم وأسروا منهم عدد كبير انتقى منهم الحكم ثلثمائة
من وجوههم فقتلهم وصلبهم منسكين صفا واحدا من المرج إلى المصاراة
أرهابا لأهل قرطبة . وقد استمر القتل والنهب والحريق في أرباض قرطبة
ثلاثة أيام . ثم كف الجند عنهم ونودى بالأمان على أن يرحلوا عن قرطبة
ومن بقي بعد ثلاثة أيام قتل وصلب فتفرق أهل الربض في جميع أقطار
الاندلس وعمر جماعة إلى المغرب فأقاموا عدوة الأندلس في مدينة فاس ،
وتوجهت جماعة كبيرة منهم قوامها خمسة عشر ألفا في عدد من السفن إلى
المشرق ورسست في مياه الاسكندرية ، واستقروا فيها وبعد عشر سنوات
غادروا الاسكندرية إلى جزيرة أفریطش وأسسوا دولة استمرت زهاء قرن
وثلاث حتى استعاد البيزنطيون الجزيرة من المسلمين سنة ١٠٣٥ .

هذا قضى الحكم على الثورة التي كادت أن تطيح بحكمة وتعصف به وقد
تبين له أن حكمه لا يمكن أن يقوم على القوة العسكرية وحدها وإنما عليه
أن يهتم إلى ذلك تأييد رجال الدين يستعيد أهليته للحكم في نظر رعيته

ولذلك عفا الحكم بعد ذلك عن رجال الدين الذين فروا بين موقعة الرهص وقربهم إليه وأخذ يستشيرهم في أمور دولته (١)

الحروب الخارجية :

ابتدأ الحكم عامه سنة ١٨٠ هـ بتوجيه حاجبه عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث غازيا بالصائفة إلى ألبة والقلاع بجيش عظيم قسمه إلى ثلاثة أقسام وقدم على كل قسم قائدا وأمر كل واحد بالإغارة على الناحية التي قصدتها ووجه إليها فانطلقوا إلا ما وجهوا إليه وانحنوا في البلاد ورجعوا خائمين ظافرين . ثم عادوا ثانية إلى الإغارة فجاوزوا خليجا من البحر كان الماء قد جف عنه وكان الفرنج قد جعلوا أموالهم وأهلهم وراء ذلك الخليج ظنا منهم أن أحدا لا يقدر أن يعبر إليهم فجاءهم مالم يكن في حسابهم فغنم المسلمون جميع مالههم وأسروا الرجال وسبوا الحريم وطأوا سالمين (٢) .

وفي سنة ١٩٢ هـ تجهز الفرنج بقيادة لويس بن شلمان (٣) للإغارة على الثغر الأعلى وحصار طرطوشة فبعث الحكم جيشا كثيفا بقيادة ابنه عبد الرحمن وانضم إليه عمرو بن عبدون عامل الثغر ومعه أهل الثغر وتبعهم كثير من المتطوعين فالتقوا مع الفرنج في أطراف بلادهم قبل أن ينالوا

(١) ابن عذاري البيان ٢ ص ٧٦، ٧٧ ، ابن الأثير الكامل ٦ ص ٢٢٩ - ٣٠٠ .
عنان دولة الإسلام ص ٢٤٠ - ٢٤٢ عبد العزيز سالم تاريخ المسلمين وآثارهم في
الاندلس ص ٢٢٤ - ٢٢٥ أحمد الشعراوي الأمويون أمراء الاندلس ص ٢٣٨ - ٢٥٢ .
(٢) ابن الأثير الكامل ٦ ص ١٤٩ ، ١٥٠ ابن عذاري البيان ٢ ص ٦٩ .
(٣) يسميه ابن الأثير لذريق ٦ ص ٢٠٢ وابن عذاري لذريق ٢ ص ٧٢ .
ويذكر عبد الله عنان دولة الإسلام أنه لويس بن شلمان ص ٢٣٧ .

من بلاد المسلمين شيئا ودارت بينهم حروب شديدة ثبت الله فيها أقدام المسلمين وأنزل نصره عليهم فانهزم الفرنج وكثر القتل فيهم والأسر واستولوا على أموالهم وعنادهم وعاد المسلمون ظافرين غائبين^(١) ، ونلاحظ هنا معرفة المسلمين بتجهيز الفرنج في بلادهم وإرسال الجيش لقتالهم قبل أن يطوروا أرض المسلمين مما يدل على أنه كان لدى المسلمين جهاز مخبرات لمعرفة تحركات العدو وإفادتهم بها :

وفي أثناء إنشغال الحكم بالقضاء على ثورة ماردة تحرك ملك جليقية الفونس الثاني بحملات متوالية على أراضي المسلمين وعاث فيها قتلا ونهباً وسبياً وكانت حملاته موجهة إلى الشجر الأدنى بين نهري دويرة والتاجه وعانى المسلمون في هذه الانهزام غزوات النصاري المتتالية وصاحت امرأة في وادي الحجارة تقول : د واغوثاه يا حكم قد ضيعتنا واسلمتنا واشتغلت عنا حتى استأسد العدو علينا ، وسمع عباس بن ناصح الشاعر صراخ في المرأة فصاغه في شعر قدمه إلى الحكم يقول فيه :

تملت في وادي الحجارة مستمرا^(٢)

أراعي نجوما ما يرون تغيرا

إليك أبا العاصي نضيت مطبتي

تسير بهم ساربا ومهجرا

تدارك نساء العالمين بنصرة

فإنك أحرى أن تغيث وتنهرا

(١) ابن الأثير الكامل ٦ ص ٢٠٢ ابن عذاري البيان ٢ ص ٧٢ ، ابن خلدون

٤ ص ١٢٧ .

(٢) مستمدا : اسم فاعل من الاساد وهو سير الليل كله وهو أيضا السير المربع .

لجمع الحكم جنوده وسار بنفسه إلى أراضى جليقية سنة ١٩٦هـ (١) ،
وأوغل في بلادهم وافتتح الحصون وهدم المنازل وحرب البلاد ونهبها وقتل
الرجال وسبي الحرير وقصد أهل الناحية التي كانت المرأة وقدم لهم كثيرا
من الغنائم التي استولى عليها وقال للمرأة وسكان تلك الناحية : هل أغاثكم
الحكم ؟ فقالوا : شفا والله الصدور ونكى في العدو وما غفل عنا إذ بلغه
أمرنا فأغاثه الله وأعز نصره (٢) . فسر الحكم وقال :

ألم تر يا عباس أني أجبتها على البعد أفتاد الخيس المظفرا
فأدركت أوطارا وبردت غلة ونفست مكروها وأغنيت معسرا
وفي سنة ١٩٩هـ أرسل الحكم جيشا إلى برشلونة في الثغر الأعلى بقيادة
عمه عبد الله البانسي وكان الفرنج قد استولوا عليها فدارت بينهم معارك
شديدة انتصر فيها المسلمون وقتلوا منهم عددا كبيرا (٣) .

وكان آخر غزوة قام بها المسلمون إلى الشمال في عهد الحكم سنة ٢٠٠هـ
إذ أرسل الحكم حاجبه عبد الكريم بن مغيث إلى جليقية في جيش ضخم
فتوغل فيها وأهلك معانثها ومرافقها وحطم زروعها وهدم منازلها وحصونها
إنتقاما لما أنزلوه بالمسلمين وقد تجمع الجلائقة وحلفاءها وهم البشكنس ووزرات
بعدة نهر أرون وصار النهر حاجزا بينهم وبين المسلمين فلما أصبح نهض
عبد الكريم بمن معه إلى مخاض الوادي ونهض أعداء الله إليهم فقاتلوهم

(١) ابن الأثير وابن حلدون والمقرئ يجعلون تاريخها سنة ١٩٦هـ وابن
عذارى يذكرها سنة ١٩٤هـ .

(٢) أخبار مجموعة ص ١٢٩ ، ابن عذارى للبيان ص ٢٣ ص ٧٣ ، ابن الأثير
الكامل ص ٦ ص ٢٣٦ أحمد الشعراوى الأماويون أمراء الأندلس ص ٢٦٢ .

(٣) ابن عذارى للبيان ص ٢٣ ص ٧٤ .

على كل مخاضة منها فجأدهم المسلمون عليها مجالدة الصابرين المحتسبين واقتحم
أعداء الله النهر إياهم فاقتتلوا على مخاضته ثم حمل المسلمون عليهم حملة صادقة
في المضائق وأدخلوهم على غير طريق فأخذتهم السيوف والطعن بالرماح
والغرق في المياه فقتل من المشركين عدد عظيم لا يحصى كثرة ومات أكثرهم
بالتردى ودرس بعضهم بعضاً وصاروا بعد المطاعة والمجالدة بالرماح والسيوف
إلى القذف بالحجارة (١) ، وأسر المسلمون جماعة من ملوكهم وقامصتهم
وعاد الفريج يزمون جانب النهر يتمتعون المسلمين من جوارزه ومكثوا على
ذلك ثلاثة عشر يوماً يقتتلون كل يوم ثم كثرت الأمطار ومد النهر ونعذر
جوارزه فعاد عبد الكريم بالجيش ظافراً إلى قرطبة صباح ذي الحجة
سنة ٢٠٠هـ (٢) .

الإصلاحات في عهده :

نظراً للثورات الداخلية والحروب الخارجية التي كانت تحيط بالدولة وجه
الحكم عناية فائقة نحو الجيش والاهتمام به فهو أول من حشد بالأندلس
الأجناد والمرتزة وجمع الأسلحة والعدد واستكثر من الحشم والخوashi
وارتبط الخيول على باب (٣) واتخذ الممالك وكان يسميهم الخرس اعجمتهم
وبلغت عدتهم خمسة آلاف وكان يباشر الأمور بنفسه وكانت له عيون

(١) ابن عذاري البيان ج ٢ ص ٧٥ .

(٢) ابن الأثير الكامل ج ٦ ص ٣١٨ ابن خلدون المعبر ج ٤ ص ١٢٧ .

(٣) ذكر ابن عذاري ج ٢ ص ٧٩ أنه كان للحكم ألف فرس مرتبطة بباب

قصره على جانب النهر عليها عشرة من المرفأء تحت يد كل عريف مائة فرس فإذا
بلغه عن ثائر ثار في أطرافه عاجله مثل احتكام أمره فلا يشعر حتى يحاط به .

يطالعونه بأحوال الناس وكان يقرب الفقهاء والعلماء والصالحين وهو الذى وطأ الملك لعقبة بالأندلس^(١) . ولاشك أن ذلك يدل على اهتمامه بشئون رعيته وحمايتهم ومعرفة أحوالها حتى يمكن قضاء مطالبها ونشر الأمن بينها .

وقد اهتم الحـكم بالحكم بنشر العدل وسيادة الانصاف بين الرعية وكان يقول :
« ما تحلى الخلفاء بتمثل العدل ، وكان يسلط قضاته وحكامه على نفسه فضلا عن ولده وخاصته^(٢) » وسنذكر حادثتين تدلان على واقعية هذه الصفات فقد ذكر صاحب أخبار مجموعة : أن رجلا من أهل كورة جيان اغتصبه بعض عمال الحـكم جارية له فلما عزل العامل قدم الجارية إلى الحـكم فلما صارت عنده واتصل بالرجل المفضوب حال القاضى فى أحكامه واستخراج الحقوق للرعية من يدى الحـكم وأهل خاصته أتى الرجل إلى القاضى وهو مصعب بن عمران ، وشرح له خبره فدماه إلى إقامة البينة فشهد له من قبله على المعرفة بما قال به وتظلم منه ، وعلى معرفة عين الجارية فأوجبت السنة أن تحضر الجارية . فاستأذن القاضى للدخول على الحـكم فلما صار عنده قال : أيها الأمير إنه لا يتم عدل فى العامة دون إقامته فى الخاصة وحكى أمر الجارية وخبره فى إخراجها وإبرازها للسنة أو عزله عن القضاء فقال : أو خير من ذلك تبتاع من صاحبها بأنفس ثمنها وأبلغ ما يسأله فيهما قال : إن الشهود قد شخصوا من كورة جيان يطلبون الحق فى مظانه فلما صاروا بفنائك تصرفهم دون إنفاذ الحق لأهله فلعل قائلا أن يقول : باع مالم يملك بيع مفسر على نفسه ولا بد من إبراز الجارية أو نصير أمرك إلى من أحببت .

(١) ابن خلدون العبر ٤ ص ١٢٧ المقرئ نفح الطيب ١ ص ٣٢٠ .

(٢) ابن عذارى البيان ٢ ص ٧٩ .

فلم أرأى عزمه أمر بإخراجها من قصره وقد كانت وقعت من نفسه موقماً
فشهد على عيبتها وقضى بها لصاحبها . ثم قال له . إياك وبيتها ألا في بلدك
لتقوى بذلك الرعية على طلباتهم ، ويمنهم على استخراج حقوقهم^(١) .

هذه حادثة وقعت مع الحكم ونفذ القاضى حكمه عليه وكان القاضى
صريحاً في أن يقيم العدل أريعتل القضاء واستجاب الحكم لما حكم به القاضى
أما الحادثة الثانية فيذكرها صاحب أخبار مجموعة فيقول : كان عباس بن
عبد الله بن مروان القرشى من الخاصة بالأمير الحكم والمنزلة عنده بحيث
لم يدانه أحد في زمانه . فقام عليه رجل في ضيعة كانت له تحت يده فأثبتها
عند محمد بن بشير القاضى . فلما علم القرشى بأن القاضى هزم على أن يوجه
الحكم عليه عاذ بالأمير الحكم واشتكى إليه ما ناله من القاضى وسأله صرفه
إلى غيره وجعل يتوبغه ويقع فيه . فقال له الحكم : إن كان حقاً ما أقول
فامض بنفسك إليه في داره وهو غير قاعد للحكم فإن أخلاك نفسه وأدخلك
عليه فقد صدقناك وعزائنا . فقال : أفعل فوكل به الأمير الحكم بعض
فتياه ليمنعن ما يكون من القاضى . فخرج القرشى والأزقة تغض بموكبه
حتى أتى باب القاضى فقرع الباب فخرجت إليه عجوز فأعلمها بنفسه وأمرها
أن تسأله عليه . فلما علم به نهر العجوز وقال لها : قولى له إن كانت
له حاجة فتسكن في المسجد مع طلاب العرائج حتى أخرج إليك . فليس إلى
إدخالك من سبيل ، فتردد عليه وألحف . فلم يأذن له . فرجع الفتى إلى
الحكم فأعلمه بما كان من القاضى فطار به سروراً .

هاتان الحادتان تكفيان لتوضيح حرص الحكم على سيادة العدل بين
الرعية ، وأن الحاكم والمحكوم أمام العدل سواء .

(١) أخبار مجموعة ص ١٢٥ ، ١٢٦ .

وعندما وقعت المجاعة الشديدة بالأندلس سنة ١٩٩ هـ وعانى المسلمون منها ضروب الحرمان والمؤس ومات كثير من الناس جوعاً هادر الحكم إلى تخفيف ويلاتها عنهم ففرق عليهم الأموال الكثيرة حتى انكشفت غمتها وعادت للحياة لى طبيعتها (١) .

وكان يتولى الحجابة للحكم : عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث ووزراؤه وقواده خمسة اسحاق بن المنذر، والعباس بن عبدالله وعبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث وفطيس بن سليمان ، وسعيد بن حسان وكتابه ثلاثة : فطيس وخطاب بن زيد وحجاج بن العقيلي وقضائه : مصعب بن عمران ومحمد بن بشير ، والفرج بن كنانة وبشر بن قطن ، وعبيد الله بن موسى ، ومحمد بن تليد وحامد بن محمد بن يحيى (٢) .

وفي سنة ٢٠٦ هـ اشتد مرض الحكم بن هشام فأخذ البيعة لابنه عبد الرحمن ثم للمغيرة من بعده وكان ذلك في الحادى عشر من ذى الحجة سنة ٢٠٦ هـ وتوفي الحكم يوم الخميس ٢٦ ذى الحجة سنة ٢٠٦ هـ وعمره اثنتان وخمسون سنة وصلى عليه ابنه عبد الرحمن ودفن في مقبرة القصر المعروفة بالروضة (٣) بعد حياة حافلة وكفاح مستمر دعم به الدولة في الداخل وحماها من أعدائها في الخارج

٣ - عبد الرحمن بن الحكم ٢٠٦ - ٢٣٨ هـ ٨٢٢ - ٨٥٢ م

رابع أمراء بني أمية في الأندلس وقد ولد في طليطلة سنة ١٧٦ هـ عندما كان والده والياً عليها ويسمى بعبد الرحمن الثانى وعبد الرحمن الأوسط

(١) ابن عذارى البيان ٢ ص ٧٣ ، نفع الطيب ١ ص ٣١٩ .

(٢) ابن عذارى البيان ٢ ص ٦٨ .

(٣) ابن عذارى البيان ٢ ص ٧٧ ، عنان دولة الاسلام ص ٢٤٤ .

والأول هو جده عبد الرحمن الداخل والثالث هو عبد الرحمن الناصر وقد بويغ له في اليوم التالي لوفاة والده في أواخر ذي الحجة سنة ٢٠٦ هـ وقد عني أبوه بتربيته والاهتمام به وإعدادة للاضطلاع بالمهمة التي ستلقى على كاهله فكان يسند إليه أعمال الحكم المختلفة وينيبه عنه أثناء غيابه أو مرضه ، وقد أكسبه ذلك خبرة بثبوت الحكم والإدارة . فأحسن اختيار الرجال لمعاونته من البوراء والولاء ، والقادة والقضاة . وقد استمر في الحكم قرابة اثنين وثلاثين عاما حافظ فيها على الدولة الإسلامية في الأندلس وقضى على الثورات والفتن الداخلية ، ونم في عهده كثير من الإصلاحات والمنشآت وانتشر الأمن وساد الرخاء وازدهرت الحياة . ونمت الحضارة بشتى مظاهرها المادية والمعنوية (١) :

الثورات والفتن الداخلية :

في أوائل عهد خريج عليه عم أبيه عبدالله البلنسى وسار إلى تدمير والتف حركته جمع أراد التوجه به إلى قرطبة فتجهز له عبد الرحمن فلما بلغ ذلك عبدالله خاف وضعت نفسه فرجع إلى بلنسية ومات أثر ذلك ونقل عبد الرحمن أهله وأهله إليه بقرطبة وخلصت الإمارة بالأندلس لولد هشام بن عبد الرحمن (٢)

وفي سنة ٢٠٧ هـ قامت في تدمير فتنة بين المضرية والتمنية بسبب قتل عماني لمصرى أخذ ورقة دالية من جنان النني فاستفحل الشر بينهما وكانت بينهم موقعة بلورقة تعرف بيوم المصارة قتل منهم فيها ثلاثة آلاف رجل ، ووجه

(١) أنظر ابن الأثير الكامل ج ٦ ص ٣٧٨ ابن عذاري البيان ج ٢ ص ٨٠

ابن خلدون العبر ج ٤ ص ١٢٧ عنان دولة الاسلام ص ٢٥١

(٢) ابن الأثير الكامل ج ٦ ص ٣٧٦ ابن خلدون العبر ج ٤ ص ١٢٧

إليهم عبد الرحمن قائده يحيى بن عبد الله بن خاف في جيش فكانوا إذا أحسوا بقرب يحيى تفرقوا وتركوا القتال وإذا عاد عنهم رجعوا إلى الفتنة والقتال وقد تزعم اليمانية أبو الشياخ واستمرت الفتنة سبع سنين وكانت الدائرة تدور على اليمانية والقتلى منهم حتى فنى من المسلمين خلق كثير ولم تهدأ الفتنة إلا في سنة ٢١٣ هـ عندما أرسل الأمير قائده أمية بن معاوية بن هشام فتغلب عليهم وخضع أبو الشياخ وغيره من الزعماء وطلبوا الأمان وعادوا إلى الطاعة وصار أبو الشياخ من ولاء الأمير عبد الرحمن وثقاته وقد أمر الأمير بهدم إله حاضرة تدمير التي انبعثت منها إلى الفتنة وصارت مرسية مقرا لوالى تدمير^(١)

وفي سنة ٢١٣ هـ ثار أهل ماردة على عاملهم وقتلوه — بقيادة محمود ابن عبد الجبار البربري وسليمان بن مرتين من الموالدين — وعاثوا في الأرض فسادا فسير إليهم عبد الرحمن جيشا فحصرهم وأفسد زرعهم وأشجارهم فعادوا إلى الطاعة وأخذت منهم رهائن لضمان طاعتهم وخرب سور المدينة كي لا يعودوا إلى المعصية ثم طلب عبد الرحمن أن تنقل حجارة السود إلى النهر حتى لا يطمع أهلها في عمارة السور فلما رأوا ذلك عادوا إلى العصيان وأسروا العامل عليهم وجددوا بناء السور واتقنوه فسار إليهم عبد الرحمن بجيوشه سنة ٢١٤ هـ ومعه رهائن أهلها فافتك العامل ومن أسر معه برهائنهم ثم حاصرهم فامتنعوا عليه فرجع عنهم ثم تابع إرسال الجيوش إليهم حتى كانت سنة ٢٢٠ هـ فسار إليهم عبد الرحمن وشدد الحصار عليهم ودارت بينهم حرب انتصر فيها عبد الرحمن وافتتح ماردة وقتل كثيرا من الثائرين

(١) ابن الأثير الكامل ٦ ص ٣٨٤ ابن عذارى البيان ٢ ص ٨٢، ٨٣ ابن خلدون ح ٤ ص ١٢٧، أحمد شعراوى الأمويون امراء الاندلس ص ٣٠٦

وتتمكن محمد بن عبد الجبار وبعض الثأرين معه من الفرار فتتبعته قوات عبد الرحمن ولاكنه دخل جابية واستولى على حصن فيها ومكث فيه خمسة أعوام ثم حصرهم ملك الجلائفة أذفونس وافتتح الحصن وقتل محموداً وجميع أصحابه سنة ٥٢٢هـ (١).

وبينما كان عبد الرحمن مشغولاً بثورة ماردة قامت في طليطلة سنة ٥٢٤هـ ثورة تزعمها هاشم الضراب الذي كان في طليطلة عندما أوقع الحكم بأهله وأخذ هاشم إلى قرطبة من بين الرهائن فعمل حدادا وعرف بالضراب ثم رحل من قرطبة إلى طليطلة فاجتمع عليه أهل الشر والفساد وأثار فيهم روح الثورة فكثرت جمعه واشتدت شوكته وصار يغير بهم على العرب والبربر وتسامع أهل الشر به فهرعوا إليه حتى اجتمع له منهم عدد كبير وقد أوقع بالبربر بشت برية وانتصر عليهم في عدة وقائع ، وقد بعث عبد الرحمن إليه قائده محمد بن رستم عامل الثغر الأدنى بجيش فدارت بينهما عدة وقائع غير حاسمة مما أدى إلى تغلب هاشم على جانب من الثغر وتغلب على عدة مواقع وفي سنة ست عشرة ومائتين بعث عبد الرحمن جيشا كثيفا إلى عامله بالثغر محمد بن رستم فزحف إلى الثوار والتقى بهم بالقرب من حصن سمسطا بمجاورة رورية ودارت بينهم معركة استمرت عدة أيام هزم الثوار فيها وقتل هاشم الضراب وكثير من أنصاره أهل الشر وباعثي الفتنة

وقد استمر أهل طليطلة خارجين على الأمير غير مذعنين لطااعته وأرسل إليهم سنة ٥٢١هـ جيشا بقيادة أخيه أمية بن الحكم فحاصر طليطلة وقطع زرعها

(١) ابن القوطية افتتاح في لاندلس ص ٨٣ ابن الأثير الكامل ج ٦ ص ٤١٠ ،

٤١١ ابن عذاري البيان ج ٢ ص ٨٣ ، ٨٤ ابن خلدون العبر ج ٤ ص ١٢٨ .

عناق ص ١١١ لام ص ٢٨٤

وأثلف ثمارها وأمكن المدينة صمدت ولم تذعن له بالطاعة فرحل عنها وترك بعض الجند في قلعة رباح بقيادة ميسرة الفتي المعروف بفتى أبي أيوب فلما أبعد الجيش خرج جمع كثير من أهل طليطلة لعلمهم يجدون فرصة وغفلة من ميسرة فتنفخوا عليه وعلم ميسرة بالخبر فجعل لهم كائن في مواضع عدة وعندما وصل أهل طليطلة إلى القلعة للغارة عليها خرجت عليهم السكائن ووضعوا فيهم السيف فقتل كثير منهم وفر الباقون إلى طليطلة فاعتصموا بها وفي العام الثاني خرج عبد الرحمن بجيش إلى طليطلة فصمدت المدينة في وجهه فترك جندا في قلعة رباح وذهب للقضاء على ثورة ماردة ، وفي سنة ٢٢١ هـ خرج جماعة من طليطلة إلى قلعة رباح وانضموا إلى جيش عبد الرحمن واجتمعوا على حصار طليطلة وشددوا عليها الحصار وقطعوا عنها مرافقها حتى ضاق أهلها ونفذ صبرهم فسير إليهم عبد الرحمن حملة أخرى سنة ٢٢٢ هـ بقيادة أخيه الوليد بن الحكيك فواصل الحصار العنصر حولها حتى بلغ الجهد بأهلها كل مبلغ وضعفوا عن القتال فهاجم المدينة واقتحم أسوارها وتم فتحها يوم السبت ٨ من رجب سنة ٢٢٢ هـ وقام الوليد بتجديد القصر الذي كان بناء عمر وس أيام الحكم على باب الجسر وأقام بها إلى آخر شعبان سنة ٢٢٣ هـ حتى استقرت بها الأمور وعاد أهلها إلى الهدوء والطاعة (١) .

وفي أواخر عهد عبد الرحمن قامت في قرطبة فتنة لم تشر إليها المراجع العربية وإنما أشار إليها دوزي وسيد أمير على وغيرهما وذلك أن المجتمع في قرطبة كان يتكون من المسلمين من العرب والبربر والمسلمين الأسبان الذين يعرفون بالمولدين - أي الذين نشأوا من نزوج المسلمين بالأسبانيات ويكون أبناؤهم .

(١) انظر ابن الأثير الكامل ٦ ص ٤١٥ ، ٤٤٤ ، ٤٧٤ ابن عذاري البيان

ص ٢ ص ٨٣ ، ٨٤ ابن خلدون العبر ص ٤ ص ١٢٨ عنان دولة الاسلام .

مسلمين ثم من المستعربين وهم الأسباب الذين ظلموا على دينهم ولاكنهم
تكلموا العربية وتتقوا بها وبعضهم بلغ فيها شأوا بعيدا دفع المتعصبين وخاصة
من القسس إلى حمل الشباب على كراهية الثقافة العربية ثم تحول ذلك إلى
حملهم على مهاجمة الإسلام والطعن فيه والطعن في نبيه عليه الصلاة والسلام
ولم يكن هناك ما يدعو إلى ذلك حيث يسمح للمسيحيين بإقامة شعائرهم
الدينية بحرية تامة كما كان يشغل بعضهم أعلى المناصب المدنية والعسكرية
وغيرها من الوظائف الإدارية .

وقد بدأت الفتنة بحوار دار بين قسيس في قرطبة يسمى برافونكو مع
بعض المسلمين حول فضائل عيسى ومحمد وحميت المناقشة فتحوط إلى
جدال عنيف أدى إلى طعن القسيس في الإسلام ورسوله فقبض عليه
وحكم حسب القانون الإسلامي وحكم عليه بالإعدام واستغل ذلك بعض
القسس المتعصبين وخاصة أبولوخيرو وأتباعه الذين قاموا بدعايات ضد
الإسلام والمسلمين مما حمل بعض الشباب والشابات إلى الطعن في الإسلام
ونبيه بل اقتحم بعضهم المساجد وجاهر أمام المسلمين بذلك مما أدى إلى
إعدام كثير منهم لإصراره على الطعن أمام القاضى وعدم رجوعه عن الطعن
في الإسلام ونبيه .

وقد أخذت هذه الموجة في الانتشار مما حمل المعتدلين من المسيحيين أن
يعلنوا استنكارهم للحركة التي تزعمها أبولوخيرو وعميل عبد الرحمن على
النصدي لها . فعقد مجلسا من القسس من جميع أرجاء الإمارة وأصدر
الأساقفة قرارا بتحريم المجاهرة بسب بنى الإسلام وأن قذف بنى الإسلام
عمدا حبا للقتل ونيل الشهادة هو مخالف لروح الأنجيل . وقد اعتقلت
الحكومة أبولوخيرو وأتباعه من زعماء الحركة وأودعهم السجن ولاكن
ذلك لم يحل دون استمرار الفتنة إلى أن توفي الأمير عبد الرحمن ثم أفرج
عن أبولوخيرو وعين أسقفا لمدينة طليطلة فبدأت الفتنة قليلا ولاكنه عاد إلى

قرطبة ليواصل فتنته وعند ذلك أمر خليفة عبد الرحمن ابنه محمد بالقبض على أبولوخيرو وقتله وبهذا أخذت الفتنة تضعف شيئا فشيئا حتى زالت من تلقاء نفسها (١).

الحروب الخارجية في عهده :

إذا كان من الواجب على المسلمين أن يحموا جبهتهم الداخلية فيقضوا على الثورات الداخلية فإن من الواجب عليهم أن يحموا حدودهم الخارجية ويردوا كيد المغيرين أو المقرضين بهم الدوائر تأميننا لحدود الدولة ودفع الظالمين عن حدودها ، وقد قام المسلمون بمواصلة الغزوات الخارجية في عهد عبد الرحمن الثانى إلى جهات متعددة كما بذلوا الجهد في رد المغيرين عليها .

ففي منطقة ألبه والقلاع سير عبد الرحمن إليها جيشا سنة ٢٠٨ هـ بقيادة عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث تمكن من التوغل فيها وحاصروا عدة من الحصون ففتحوا بعضها وصالحهم بعضها على الجزية واطلاق أسرى المسلمين وقد غنموا أموالا كثيرة واستنقذوا من أسارى المسلمين وسبهم عددا كبيرا وأظهروا هيبة المسلمين في تلك المناطق ثم عادوا سالمين .

وفي سنة ٢٢٤ هـ أرسل عبد الرحمن إلى ألبه والقلاع جيشا بقيادة عبيد الله البلنسى فخرج إليه العدو في جمع كبير ودارت بينهم حرب شديدة انتصر فيها المسلمون وقتلوا وأسروا أعدادا كثيرة من العدو وقد خرج

(١) انظر سيد أمير على مختصر تاريخ العرب ص ٤٠١ ، ٤٠٢ ، شكيب أرسلان تاريخ غزوات العرب ص ١٥٧ ، ١٥٨ ، أحمد شعراوي الأمويون امراء الأندلس ٣٠٩ - ٣١٢ عنار دولة الاسلام في الأندلس ص ٢٦٣ - ٢١٧ .

لذريق ملك الجلائقة في عسكره وأغار على مدينة سالم فسار إليه موسى بن
فرتون في عسكر كبير فلقيه وقاتله وهزمه وسار فرتون إلى الحصن
الذي بناه أهل البه بالثغر ذكابة للمسلمين فافتحه وهدمه. وفي سنة ٢٢٩ هـ
أرسل عبد الرحمن ابنه محمد بالجيش إلى ينبلونة وأوقع بالمشركين عندها
وقتل غرسية صاحبها وهو من أكبر ملوك النصارى^(١).

وفي منطقة الشمال الشرقي التابعة للفرنج أرسل عبد الرحمن إليها في سنة
٢٢٦ هـ جيشا بقيادة عبيد الله البلفسى فلما كانوا بين أربونة وشرطانية
تجمعت الروم عليهم فقاتلوهم الليل كله وفي الصباح أزل الله نصره على
المسلمين فتمكنوا من هزيمة عدوهم ، ثم أرسل عبد الرحمن جيشا إلى
برشلونة فمات في نواحيها وأجاز الدروب التي تسمى البرت إلى بلاد الفرنجة
فقتل وأسرى من تصدى له وحاصر مدبنتها لمعظمى جريدة وعات في نواحيها
وقتل سالما^(٢).

أما في منطقة جليقية فقد سار عبد الرحمن إليها سنة ٢٢٥ هـ بجيش كبير
ففتح حصونها وجال في أرضها يخرب ويغنم ويقتل ويسبي وطال مقامه في
هذه الغزوة ثم عاد إلى قرطبة وفي العام التالي وجه عبد الرحمن ابنه مطرف
إليها بجيش ومعه القائد عبد الواحد بن يزيد الاسكندراني فوغل في بلاد
جليقية وبسط هيبة المسلمين فيها وفي سنة ٢٣١ هـ أرسل عبد الرحمن إليها
جيشا بقيادة ابنه محمد فقتلوا وأمروا وغنموا ووصلوا إلى مدينة ليون

(١) ابن الأثير الكامل ٦ ص ٣٨٧ ، ٥٠٧ ، ابن عداري البيان ٢ ص

٨١ - ٨٤ ابن خلدون العبر ٤ ص ١٢٨ ، ١٢٩ ، المقرئ فتح الطيب ١ ص ٢٢٣

(٢) ابن الأثير الكامل ٦ ص ٢٥٩ ، ابن خلدون العبر ٤ ص ١٢٩

المقرئ فتح الطيب ١ ص ٢٢٤ :

فحصروها ورموها بالمجانيق فتركها أهلها وخرجوا هاربين إلى الجبال
فغشم المسلمون منهم ما أرادوا وأحرقوا الباقي وأرادوا هدم سورها فوجدوا
سبعه سبعمائة ذراعاً فثلثوا فيه ثلثاً كبيراً وتركوه وعادوا سالمين بعد أن
حفظوا هيبته المسلمين في تلك المناطق (١).

لم يكف عبد الرحمن بإرسال القوات البرية لحماية دولته وإنما في سنة
٢٢٤ هـ أرسل قوة بحرية كبيرة إلى جزيرتي ميورقة ومنورقة وهما أكبر الجزائر
الشرقية (جزر البليار) لغزوهما والنكاية بسكانهما المجاهدين بنقضهم العهد
وإضرارهم بمن يمر عليهم من سفن المسلمين، فتمكن المسلمون من إخضاعهم
وفتح أكثر جزائرهم وأسر ذراريهم والاستيلاء على أموالهم، وقد بعث
أهلها إلى الأمير في العام التالي يطلبون الأمان ودفع الجزية فأجابهم الأمير
بكتاب يقول فيه: «أما بعد فقد بلغنا كتابكم تذكرون فيه أمركم وإغارة
المسلمين الذين وجهناهم إليكم لجهادكم، وإصابتهم ما أصابوا منكم من
ذراريكم وأموالكم، والمبلغ الذي بالغوه منكم، وما شفيعتم عليه من الهلاك
وسألتم التدارك لأمركم وقبول الجزية منكم وتجديد عهدكم على الملازمة
للطاعة والنصيحة للمسلمين والكف عن مكرهم، والوفاء بما تحملونه عن
أنفسكم، ورجونا أن يكون ما عوقبتم به صلاحكم، وقمعكم عن العود
إلى مثل الذي كنتم عليه، وقد أعطيناكم عهد الله وذمته» (٢).

ونختم حديثنا عن الحروب والغزوات في عهد عبد الرحمن الأوسط
بذكر غارات النرمان على الأندلس وتصدى المسلمين لها، وهم «الفيكنج».

(١) ابن الأثير الكامل ج ٦ ص ٥١٦ ج ٧ ص ٢٤ ابن عذاري البيان ج ٢ ص ٨٥،

٢٨٦، ابن خلدون المعبر ج ٤ ص ١٢٩.

(٢) ابن عذاري البيان ج ٢ ص ٨٩ عن دولة الاسلام ص ٢٦٢، ٢٦٣.

أو النرمانيون ووطنهم الأصلي هو اسكندنافيا وربما دانمارك وشواطئ
ألمانيا الشمالية ولذا عرفوا بالنرمانيين أي أهل الشمال ويسمى بهم المؤرخون
المسلمون بالمجوس .

فقد قـم النرمان في سنة ٢٢٠ هـ بأسطول مكون من ثمانين سفينة
وهاجموا أشبونة فتصدى لهم المسلمون بقيادة واليهم وهب الله بن حزم
وقامت بينهما معارك ضارية استمرت ثلاثة عشر يوما ثم سار النرمان إلى
قادس ثم إلى شذونة فكان بينهم وبين المسلمين دقات عدة ثم اخترقوا النهر
الكبير إلى أشبيلية ونزلوا على اثنين عشر فرسخا منها فخرج إليهم كثير من
المسلمين وتصدوا لقتالهم ودارت بينهم معارك رهبة انتهت في نهايتها
النرمان على أهل أشبيلية فأكثروا القتل والأسر والنهب فيهم ومكثوا فيها
سبعة أيام يشيعون الخراب والدمار فيها ثم انسحبوا إلى قرية طليطلة الواقعة
غرب أشبيلية ، وعندما اتصل الخبر بالأمير عبدالرحمن بعث قوات من الخيل
على عجل لنجدة أشبيلية بقيادة عبد الله بن كليب ومحمد بن رستم وغيرهما
تحت قيادة حاجبه عيسى بن شهيد وكتب إلى عمال الكور في استنفار الناس
فلجوا بقرطبة ونفر بهم نصر الفتي ، وتلقى النرمانيون مددا في سفن جديدة
قدمت عليهم ودارت بين الفريقين معارك ضارية تفوق فيها النرمان وعندما
تجمعت القوات التي أرسلها الأمير عبد الرحمن إليهم دافعوا عنهم ونصبوا المجانيق
عليهم فانهزم النرمان وقتل منهم نحو من خمسمائة رجل وأصيبت لهم أربعة
مراكب بما فيها فأمر ابن رستم بإحراقها وبيع ما فيها ، ثم كانت الموقعة
الفاصلة معهم في ٢٥ من صفر سنة ٢٣٠ هـ بقرية ضليطة فهزم المسلمون
النرمان بعد قتال عنيف وقتلوا منهم ألفا وأسروا أكثر من أربعمائة وأحرقوا
لهم ثلاثين سفينة وكان قاتلهم بين القتلى وارتد النرمان إلى سفنهم وتحصنوا

بها وقتل المسلمون أسراهم أمام أعينهم . عاقبهم في جذوع النخل . وأقلعت
سفن النرمان مفسدة والمسلمون من ورأهم يطاردونهم ويفتدون أسرى
المسلمين منهم بمختلف السلع وقد حاولوا الانتقام لأنفسهم أثناء انسحابهم
فأغاروا على ليلة واحدة ثم انتقلوا إلى أشبونة حيث غادروا شواطئ الأندلس
مع باقى سفنهم بعد أن مكثوا اثنتين وأربعين يوما أشاعوا خلالها الرعب
والفرع بين المسلمين وعانى المسلمون منهم عناء شديدا وعند انقشاع الغمة
أرسل الأمير عبد الرحمن بالسكتب إلى جميع الأفاق معلنة انتصار المسلمين
على العدو المغير وأرسل إلى من بطنجة من صنهاجة يعلمهم بما كان من صنع
الله في المجوس وبما أنزل فيهم من النعمة والهبة وبعث إليهم برأس أميرهم
ومائتين من رؤوس أكابر النرمانيين القتلى .

وقد أدت غزوة النرمانيين إلى الاهتمام بالأسطول والتحصينات البحرية
فأبنتى عبد الرحمن حون أشبيلية سورا ضخما وأنشأ بها دار صناعة واهتم
 بإقامة السفن الحربية وحشد لها المقاتلة المدربين من سائر أنحاء الأندلس حتى
نمى الأسطول الأندلسى وعظمت قواته البحرية (١) .

الإصلاحات فى عهده :

وقد تم فى عهد عبد الرحمن كثير من الإصلاحات الإدارية والمعمارية
والصناعة الزراعية فهو أول من رتب اختلاف الوزراء إلى القصر وإبداء
آرائهم فيما يعرض عليهم من الأعمال ، ورفع من شأن الوظائف العامة
وأحاطها بالهبة والمسئولية وجعل أحكام السوق منصبها مستقلا عن ولاية

(١) ابن الأثير الكامل ٧ ص ١٦ ، ١٧ ابن عذارى البيان ج ٢ ص ٨٧ ، ٨٨ ابن
خلدون العبر ج ٤ ص ١٢٩ المقرئ نفح للطيب ج ١ ص ٣٢٣ عنان درة الاسلام
ص ٢٦٠ أحمد شمر اوى الامويون فى الأندلس ص ٣١٥ — ٣٢٣

المدينة ، وقد زادت أموال الجباية في عهده فبلغت ألف ألف دينار في السنة .
وأنشأ داراً لسك النقود في قرطبة وجعلها أندلسية مستقلة بقيم وأوزان
جديدة .

وقد اهتم بالناحية المعمارية فأنشأ القصور والمنتزهات وجلب إليها المياه
من الجبال وجعل لقصره حوضاً يجتمع فيه ماء المطر وأقام الجسور وعبد
الطرق وبنى كثيراً من المساجد الجامعة في أنحاء الأندلس وزاد في جامع
قرطبة رواقين وهو أول من جلب الماء العذب إلى قرطبة وأدخله إليها
وجعل له حوضاً كبيراً يرده الناس ليستقوا منه ، وأقام دار صناعة باشبيلية
وأنشأ المراكب لتكوين أسطول بحري لحماية سواحل الأندلس وأمدّه
بالآلات والنفط . كما كان له خمسة آلاف مملوك من الموالى والصفالبة ثلاثة
آلاف فارس يرابطون بإزاء القصر فوق الرصيف وألفاً رجل على أبواب
القصر وكانوا يسمون الخرس لعجمتهم .

وكانت معظم أيامه أيام هدوء وسكون وأمن ورخاء فتقدمت الزراعة
والصناعة والتجارة وجلب إلى الأندلس كثيراً من الأمتعة والسلع الفاخرة
وكل نفيس غريب من جواهر ومتاع من بغداد وغيرها من البلاد . فزخرت
الأسواق بالهضائع وزاد الدخل زيادة كبيرة .

وقد عمل على إحقاق الحق ونشر العدل والأنقياد له ويذكر لنا ابن
القرطبية حادثة تدل على ذلك فقد غاب زهاب — الذي وفد على الأندلس
في عهده — يوماً صوته استعسبه . فقال : يؤمر الخزان أن يدفعوا إليه
ثلاثين ألف دينار . فأتاهم صاحب الرسائل بالعهد . وكان الخزان يومئذ
يتنافسون على الحجابة ، فظفر الخزان بعشمتهم إلى بعض فقال لهم موسى بن
جدير وكان شيخهم قولوا فقال له أصحابه : مالنا قول مع قولك . فقال لصاحب

الرسائل : نحن وإن كما خزان الأمير أبقاه الله فمحن خزان المسلمين نجى أموالهم ونفقتهم في مصالحهم ولا والله ما ينفذ هذا ، ولا مئامن يرضى أن يرى هذا في صحيفته غدا ، أن تأخذ ثلاثين ألفا من أموال المسلمين وتدفعها إلى مغل في صوت غناه يدفع إليه الأمير أبقاه الله ذلك مما عنده .

فانصرف صاحب الرسائل الخارج بالصك وقال للخليفة : نافق الخزان ثم دخل الخليفة وقال مثل ذلك للأمير . فقال زرياب ما هذا ، طاعة فقال عبد الرحمن بن الحكم : هذه هي الطاعة ولأولئهم الوزارة على هذا الأمر وصدقوا فيما قالوا . ثم أمر بدفعه إلى زرياب مما عنده .

وقد ارتفع شأن الأمانة الأموية في عهده وأصبحت الدول تخطب ودهاو تقيم معها علاقات سياسية ففي سنة ٢٢٥ هـ أرسل قيصر القسطنطينية ثيو فيداوس سفيرا يدعى قرطوس إلى الأمير عبد الرحمن ومعه كتاب وهدية ويطلب مواصلة فاستقبله عبد الرحمن استقبالا حافلا ورد عبد الرحمن على السفارة بإيفاد كاتبه الشاعر يحيى الغزال ويحيى بن حبيب إلى القسطنطينية بكتاب وهدية إلى الأمراء وتطور الدور السفارة حول العداوة القائمة بين القسطنطينية والعباسيين وبين العباسيين والأمويين ومحاولة إيجاد تعاون بينهم —

ويقال إن الثرمان بعد غزوهم الأندلس وهزيمتهم ومطاردتهم بمثل ملكهم رسله إلى عبد الرحمن بن الحكم يطلب المهادنة والصالح فأجابه عبد الرحمن إلى طلبه وبمثل الغزال مع الرسل إلى ملكهم يرد السفارة ويعلمه بقبول الصلح وتبين لنا هذه السفارات الميكانة التي وصلت إليها الإمارة الأموية في الأندلس في عهد عبد الرحمن الأوسط .

وقد تولى الحجابة لعبد الرحمن عبد الكريم بن عبد الواحد وتولى الوزارة تسعة رزق كل واحد ثلاثمائة دينار وتولى الكتابة ثلاثة عبد الكريم المذكور وسفيان بن عبد ربه وعيسى بن شهيد وقضائه أحد عشر منهم يحيى بن معمر ومرور بن محمد بن بشير وغيرهما والسبب في كثرة القضاء تدخل يحيى بن يحيى الليثي في توليتهم وعزلهم .

وفي ربيع الآخر سنة ٢٢٨ هـ توفي عبد الرحمن الأوسط بعد واحد وثلاثين عاماً من أمارته قضاهما في السهر على حماية الدولة ورد المغيرين والقضاء على الفتن والنوازل والقيام بكثير من الإصلاحات التي أدت إلى تقدم الدولة وازدهارها (١)

٤ - محمد (٢) بن عبد الرحمن بن الحكم ٢٣٨ - ٢٧٣ هـ ٨٥٢ - ٨٨٦ م

كان عبد الرحمن بن الحكم قد أظهر تفضيله لابنة محمد علي بقرية أبنائه باستخلافه بقصر الإمارة في سنة ٢٢٦ هـ ثم ولاه ثغر سرقطة فأحسن إدارته كما أسند إليه قيادة ميمنه جيشه في حملته المظفرة إلى بلبونة وأثنى عليه والده

(١) ابن القوطية افتتاح الأندلس ص ٧٨ ، ٨٢ ، ٨٤ ابن الأثير الكامل ج ٧ ص ٦٩ ، ٧٠ ابن عذاري البيان ج ٢ ، ٨٠ ، ٨٩ - ٩٣ ابن خلدون العبر ج ٤ ص ١٣٠ المقرئ نفح الطيب ج ١ ٣٢٤ - ٣٢٥ عنان دولة الإسلام ص ٢٧٠ - ٢٨٢ ، أحمد شعراوي الأماويون أمراء الأندلس ص ٣٢٤ - ٣٢٧ ، كارل بروكلمان تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٢٩١ .

(٢) ولد في ذي القعدة سنة ٢٠٧ هـ كنيته أبو عبد الله وأمه تسمى بهير وتوفي في آخر صفر سنة ٢٧٣ هـ وعمره خمس وستين سنة وأربعة أشهر وولايته أربعة وثلاثون سنة وعشرة أشهر وعشرين يوماً .

في كتاب الفتح تنويرها بشأنه وتمهيد الولاية عهده وأظهر للكبار رجال دولته بانه ولي عهده وأمرهم مع القاضى ورجال الشورى بالركوب إليه وغشيان مجلسه أيام الجمع في المسجد الجامع ، ولكنه مع ذلك لم يصدر مرسوما بولايته العهد لأن زوجته طروبا الأثيرة لديه كانت تريد تولية ابنها عبد الله ولذلك دارت بعد موت عبد الرحمن مناقشات عنيفة بين الفتيان الصقابة على من يولى الأمانة . ثم استقر الأمر على تولية محمد فاحضروه وبأيعوه ، وحضر أخوته وعمومته وأهل بيته فبياعوه ثم بايعه العامة في ربيع الآخر سنة ٢٣٨ هـ (١) .

ومنا نلاحظ تدخل الصقابة الذين يسمون بالفتيان في اختيار الأمير وترجيح من كان يميل إليه عبد الرحمن . وكان من الممكن أن يحدث صراع بين من يؤيد ابنه محمدا ومن يؤيد ابنه عبد الله لأن عبد الرحمن لم يعقد ولاية العهد لمحمد صراحة ، وهذا خطر عدم النص على من يولى العهد .

وقد وجه محمد عناية كبيرة للاهتمام بأمور الدولة الداخلية والخارجية حفاظا عليها من التأثيرين في الداخل والمغربين المتربصين بهامن الخارج وقضى وقت حكمه الطويل في غزوات متعاقبة وحملات مستمرة التأديب لشوار في الداخل وحماهم على الطاعة ورد كيد الإمارات النصرانية المجاورة حماية لشعور المسلمين واهتماما بصالحهم . كما اهتم بالإصلاحات الداخلية خلال عهده .

(١) ابن القوطية تاريخ افتتاح الأندلس ص ٩٢-٩٥ ، عزان دولة الاسلام

التوارث الداخلية :

قامت في عهد الأمير محمد ثوارث كثيرة ففي سنة ٢٣٨ هـ ثورة أهل طليطلة وفي سنة ٢٥٤ هـ ثورة ماردة وفي سنة ٢٥٥ هـ خروج سليمان بن عبدوس في مدينة سرية وفي سنة ٢٥٦ هـ غدر عمروس بعامل وشقة وفي سنة ٢٥٨ هـ وقعت ثورات في الثغر قام بها مطرف واسماعيل ابني اب ويونس ابن زباط فقبضوا على عامل تطيلة وعامل سرقسطة وفي سنة ٢٦١ هـ ثورة بني موسى في سرقسطة وتطيلة وفي سنة ٢٦٥ هـ فتنة كورة رية والجزيرة وتاكرنا وفي سنة ٢٦٧ هـ فتنة ابن حفصون في رية التي استمرت إلى عهد عبد الرحمن الناصر وفي سنة ٢٧٣ هـ خروج حارث بن حمدون من بني رفاعة في مدينة الحامة (١).

وسيطول الحديث بنا لو تتبعنا هذه الثوارث واحدة بعد أخرى وكيف قضى الأمير عليها ولكن سنتحدث عن ثورتين من هذه الثورات هي ثورة طليطلة وثورة ماردة .

ففي بداية عهده سنة ٢٣٨ هـ ثار عليه أهل طليطلة وقبضوا على عامله عليها حارث بن بزيع ورفضوا إطلاق سراحه حتى اطلقت رهاقهم من قرطبة فأطلقوه ، استمروا في فسادهم فخرّبوا سور قلعة زباح وقتلوا كثيرا من أهلها حتى افقرت وفر أهلها خوفا منهم فأرسل الأمير إليهم سنة ٢٣٩ هـ أخاء الحكيم بن عبد الرحمن في جند الصائفة إلى قلعة زباح فأصلح سورها وما خربوه فيها وأعاد إليها من فارقها من أهلها وتقدم الحكيم إلى طليطلة لمنازلتها وأرسل محمد في نفس العام إلى شندلة قائديه فاسم بن العباس وتمام

(١) أنظر ابن عذاري البيان المغرب ج ٢ ص ٩٤ - ١٠٦ .

ابن أبي العتاف صاحب الخيل ومعهم ما الحشم فلما حلا بأندو جر خرجت عليهم
كائن أهل طليطلة ودارت بينهم معركة عنيفة هزم فيها جند الأمير وأصيب
أكثر من فيه في شوال سنة ٢٣٩ هـ وشجع ذلك أهل طليطلة على مواصلة
العصيان . فساد إليهم الأمير محمد بنفسه في المحرم سنة ٢٤٠ هـ على رأس
قوة كبيرة حتى يخدم أجيج الثورة في طليطلة التي يقطنها أكثر الموالدين
والنصارى فلما علم أهلها بخروج الأمير إليهم ، استعدوا ملك حليقية وملك
البشكنس فأمداهم بقوة كبيرة . وعلم الأمير بذلك فليجأ إلى الحملة والسكيد
لهم فعبأ الجيوش ووضع السكائن بناحية وادى سليط وطلع عليهم في مقدمة
العسكر في قلة من العدد فلما شاهد ذلك أهل طليطلة رأوها فرصة يغتنموها
من الأمير فتحركوا هم وحلفاؤهم النصارى وهم مؤملون في الظفر والغنيمة
والتقى الجمان فخرجت السكائن عن يمن وشمال وأطبقت الخيل على الثوار
وحلفائهم من كل جانب فأخذتهم السيوف والرماح ومزقوا شرا ممزق وبلغ
عدد القتلى عشرين ألفا أثنى عشر ألفا من الثوار وثمانية آلاف من حلفائهم
وبعث الأمير محمد بأكثر رؤوس النصارى إلى قرطبة وإلى سواحل
البحر والعدوه .

وقد تابع الأمير إرسال حملاته إلى طليطلة ففي سنة ٢٤١ هـ شعن قلعة
رياح وطلبيرة بالحشم ورتب فيها الفرسان ليقفوا على تحرك أهل طليطلة
وفي سنة ٢٤٢ هـ وجه الأمير ابنه المند بالجيوش إلى طليطلة لحاصرها وأقام
عليها يساف معائشها ولم يجرؤ الثوار على مغادرة مدينتهم هذه المرة ، وفي
العام التالي خرج الثوار إلى طلبيرة لما اجتمعتا فخرج إليهم قائدها مسعود بن
عبد الله العريف وقتل وضع لهم كائن فتغاب عليهم وأكثرت القتل فيهم وبعث
إلى قرطبة بسبعمائة رأس من رؤوس أكابرهم .

وفي سنة ٥٢٤٤ هـ خرج الأمير محمد بن نفسه إلى طليطلة لمعاقتهم على تحرشهم على أهل طليطلة وحاصرهم فتأهب أهلها لقتله رغم ما حل بهم من هزائم سابقة ورأوا قتاله على القنطرة فجمع محمد العرفاء من السائين والمهندسين وأمرهم بهدم قواعد القنطرة مع تركها قائمة ثم انسحب بجنوده عنها فخرج أهل طليطلة لقتاله فلما اجتمعوا عليها اندقت بهم وتهدمت وسقطت من كان عليها من الحماة والسكاة ففرقوا عن آخرهم فعمل الأمير على ذلك حصون المدينة وتتبع الثأيرين فيها بالقتل والتشريد حتى طلبوا الأمان في العام التالي فعقدده لهم .

وهكذا انتصر الأمير على ثورة طليطلة وأطاعت طليطلة الإمارة الأموية في قرطبة بعد ثورة طال مداها ولكنهم عادوا بعد أكثر من عشر سنوات فثاروا ثانيا سنة ٥٢٥٩ هـ وخرج الأمير إليهم بنفسه وأرغمهم على العودة إلى الطاعة وعقد معهم أمنا ثانيا وأخذ فيه رهائنهم وفرض عليهم قطيعاً من العشور يؤدونه كل عام وهذا أهل طليطلة ولكن اختلفت أهواؤهم عندما أراد الأمير تواليه أخيه مطرف بن عبد الرحمن فطلب بعضهم تواليه طربيشه بن ماسويه فولى الأمير كل واحد منهما حانيا من طليطلة وأقالها ثم تنازع الواليان وأراد كل منهما الإفراد بالولاية ورجحت كفه المؤيدون لطربيشه فولاه الأمير المدينة^(١) .

أما الثورة الثانية فهي ثورة ماردة في سنة ٥٢٥٤ هـ وكان أهلها قد ثاروا في عهد عبد الرحمن الأوسط ثم قضى على ثورتهم وتفرق كثير من

(١) ابن الأثير الكامل ٧ ص ٨٣ ، ٢٦٥ ، ٢٧١ ابن عداري البيان ٢ ص ٩٤ ، ٩٦ ، ١٠١ ، ابن خلدون المعبر ٤ ص ١٣١ ، عمان دولة الاسلام ص ٢٨٧ — ٢٩١ عبد العزيز سالم تاريخ المسلمين وآثارهم ص ٢٤٥ — ٢٤٦ .

أهلها في البلاد . ثم تجمع أهلها تحت قيادة عبد الرحمن بن مروان الجلابي (وهو من المولدين) وثاروا فخرج إليهم الأمير محمد وتمسك من الوصول إلى ماردة دون أن يشعر أهلها وحصرهم وضيق عليهم ثم قاتلهم حتى أذعنوا إلى التسليم والطاعة فقبل منهم على أن يخرج فرسانهم وهم عبد الرحمن بن مروان وابن شاكر ومكحول وغيرهم إلى قرطبة بعيالهم وذرائعهم وولى عليها سعيد بن عباس القرشي وأمر بهدم سور المدينة ولم يبق إلا قصبتها مقراً للوالى :

وقد ظل ابن مروان في قرطبة إلى سنة ٢٦١ هـ حيث تمكن مع بعض مؤيديه من رجال ماردة من الهرب حيث استقروا بقلعة الحنش على بعد نحو ٢٠ كيلو متراً جنوب شرق ماردة وتحصن بها وعاث فيها حولها فساداً فخرج إليه الأمير محمد وحاصره وضيق عليه ثلاثة أشهر حتى أكل الدواب وقطع عنه الماء ورماه بالمجانيق حتى أذعن وطلب الأمان فأمنه محمد وطلب منه ابن مروان الانتقال إلى بطليوس والإقامة فيها فأذن له الأمير ، فابتى بطليوس وجعلها موطناً وحصناً أدخل فيه أهل ماردة وغيرهم من أهل الشر والفساد وأعلن الثورة ثانية فأرسل إليه الأمير ابنه المنذر ٢٦٢ هـ ومعه القائد هاشم بن عبد العزيز فخاف ابن مروان وانتقل من بطليوس إلى حصن كركر واستعان بزميله سعدون السرنباقي الذي استمد ملك جليقية فأمدّه بقوة توجه بها لمساعدة ابن مروان فخرج إليه هاشم بن عبد العزيز والتقى معه في معركة حامية كثر فيها القتل وأسرف فيها هاشم وهزمت قوات الأمير وكان المنذر محاصراً لابن مروان فشدد عليه الحصار أياماً ثم عاد ببقية الجيش إلى قرطبة وأرسل هاشم إلى ملك جليقية فكتب عامين أسيراً ثم افتداه الأمير سنة ٢٦٤ هـ بمائة وخمسين ألف دينار . وقد علا شأن ابن مروان وصار رئيس المولدين في الغرب وحاصر السرنباقي تابعاً له وقد عاث في الأرض .

فساداً فسلم إلى كورة اشيلية وتوسط أعمالها وغنم حصن طلياطة من فيه ثم تقدم إلى ابلة ، دخل إلى أكشونية وضبط بها جبلاً يقال له مننت شافر^(١) وقد حدث بعد ذلك أن اختلف معه بعض أصحابه وتركوه إلى بلدهم ماردة بعد أن حصلوا على أمان من الأمير وسير إليه الأمير سنة ٢٦٣ هـ ابنه المنذر في جيش كبير توجه إلى ماردة فلما علم ابن مروان بذلك ترك بطليوس فنزل بها قائد المنذر الوليد بن غانم فحرب ديارها وأسوارها واجأ ابن مروان إلى ملك جليقية فمكث عنده ثمانى سنوات ثم دب الخلاف بينهما وعاد ابن مروان إلى منطقته بطليوس سنة ٢٧١ هـ وأستأنف غاراته وفساده في النواحي المجاورة فسبر إليه الأمير ابنه المنذر في قوة كبيرة زحفت على بطليوس ففر منها ابن مروان ولجأ إلى جبل دأشير غره، فتحصن به فأحرق المنذر بطليوس ودمر حصونها وفي العام التالي أرسل إليه الأمير حملة أخرى واصلتها لم تحقق الهدف المقصود وانتهى الأمر إلى قبول شروط ابن مروان في الاستقلال بحكم بطليوس وماجاورها وأن يعفى من المغارم والإفروض^(٢)

الحروب الخارجية :

كما قام الأمير محمد بتوجيه الحملات إلى الثورات المتعددة التي وقعت في عهده في كافة أرجاء الإمارة نجده أن المسلمين قاموا خلال عهده الطويل بحملات وغزوات متعددة إلى الدول والإمارات المجاورة لهم لرد عدوانهم ، وحماهم على احترام الحدود الإسلامية وسنشير إلى تلك الحملات المتعددة ثم نلتصع جهة من الجهات التي توجهت إليها بعض هذه الحملات .

(١) ابن القوطية تاريخ افتتاح الأندلس ص ١٠١ - ١٠٢ .

(٢) ابن القوطية تاريخ افتتاح الأندلس ص ١٠٢ ، ابن الأثير الكامل ص ٢٨٨ ، ٣١٠ ، ٤١٦ ، ابن عذارى البيان ص ٢ - ١٠٢ - ١٠٥ ، ابن خلدون المبرر ص ٤ ، ١٣١ ، غنان دولة الإسلام ص ٢٩٩ - ٣١٢ ، عبدالمعز سالم تاريخ المسلمين وآثارهم و الأندلس ص ٢٤٦ - ٢٤٨ .

ففي سنة ٢٤١ هـ خرجت حملة إلى ألبة والقلاع وفي سنة ٢٤٢ هـ غزا
برشلونة وفتح حصن طراجة وفي سنة ٢٤٥ هـ تصدى لرد حملات النورمان
وفي سنة ٢٤٦ هـ غزا أرض بنبلونة ومسكن جيشه فيها اثنا عشر وثلاثين به ما
يجوس خلالها ويفتح حصونها ، وفي سنة ٢٤٧ هـ غزا برشلونة وملسكو
أرباضها ومرجين من أبراج المدينة وفي سنة ٢٤٩ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ غزا ألبة
والقلاع ، وفي سنة ٢٥٣ خرج الحكم بن محمد إلى حصن جرنيق ففتحته وفي
سنة ٢٥٩ هـ خرج الأمير محمد إلى برشلونة فوطى أرضها وفي سنة ٢٦٠ هـ
خرج المنذر إلى بنبلونة فجاء في أرضها وفي سنة ٢٦٤ هـ دخل البراء بن مالك
إلى جليقية وأذهب نعيمهم وفي سنة ٢٦٨ خرج المنذر ففتح حصونا كثيرة
في ألبة والقلاع (١) .

وهكذا نجد أنه خلال حكم الأمير محمد شعر جيرانه بقوة حكم المسلمين.
وأنه رد عاديتهم وسوف نتحدث بالتفصيل عن الحملات التي توجهت إلى ألبة
والقلاع ثم تصدى المسلمين لهجوم البرمان .

وفي سنة ٢٤١ هـ حشد الأمير محمد حشودا كثيرة وانضم إليه موسى بن
موسى وأهل الثغور فتوجه إلى ألبة والقلاع فعاث في أرجائها وافتتح كثيرا
من حصونها .

وفي سنة ٢٤٩ هـ توجه عبد الرحمن بن الأمير محمد بجيش كبير إلى
إلى حصون ألبة والقلاع وكان القائد عبد الملك ابن العباس فافتتحها وقتل
الرجال وهدم البيعان وأهلك زروعها فأرسل ملكها أردون أخاه بجيش
كبير من البصارى ليقطع على المسلمين مضيق الفج فقاتلهم المسلمون قتالا

(١) ابن عذاري البيان ٢ ص ٩٥ - ١٠٥ .

عنيفاً حتى انتصروا عليهم وقتلوا منهم عدداً كبيراً منه تسعة عشر قوماً من كبار قراةم .

وفي سنة ٢٥١ هـ^(١) خرج عبد الرحمن بن محمد بجيش وتقدم حتى حل على نهر دويرة ورتب عساكره فاحتل فج برذاش واسقولي على حصونه الأربعة وخر بها ولم يبق رذريق صاحب القلاع ولا لردمير صاحب توفة ولا لغند شلب صاحب برحية ولا لغومس صاحب مانقة حصن من حصونهم إلا وعمه الخراب ثم قصد الملاحه ، وكانت من أجل أعمال رذريق فخطم ماحوا اليها وغنما آثارها . وقد جمع رذريق جيشاً كبيراً واستعدده للقاء المسلمين عند عودتهم في فج يسمى وفج المركوبين ، قرب نهر ذبرة وحمير بجوارها خندقاً لإعاقة عودة المسلمين فعبا كل من المسلمين والمشركين قواتهما ودرت بينهما معركة عنيفة صدق المسلمون فيها اللقاء فمنحهم الله النصر وشتوا شمل أعدائهم ومزقوهم شرمزق وكثر فيهم القتل والأسر والغرق في النهر ثم سوى المسلمون الخندق حتى اجتازوه بسهولة ويسر وقد قتل من الأعداء أكثر من عشرين ألفاً وفي العام التالي خرج إليهم عبد الرحمن بن محمد في جيش فحاربهم وأفسد زروعهم حتى ضعف أهل ألبه والقلاي وامتنعوا عن التجمع والإحتشاد للإقاع بالمسلمين وفي سنة ٢٦٨ هـ تقدم المنذر بن الأمير محمد والقائد هاشم بن العزيز إلى ألبه والقلاع ففتحوا حصوننا كثيرة وأرهبوا العدو حتى لا يتجمع لمهاجمة المسلمين في تلك البقاع^(٢)

(١) اختلف في قائد هذه الغزوة ابن الأثير يذكر المنذر بن محمد ح ١ ص ١٦٢ وابن حديد بن يدكر الأمير نفسه ح ٤ ص ١٣١ أما ابن عذارى فيذكر عبد الرحمن بن محمد وقد أحدهما برأى بن عذارى لأنه هو قائد الحملة السابقة .

(٢) ابن الأثير الكامل ح ٧ ص ٨٠ ، ١٢٥ ، ١٦٢ ابن عذارى البيان ح ٢ ص ٩٥ - ١٠٥ ابن خلدون العبر ح ٤ ص ١٣١ عنان دولة الإسلام ص ٢٩٣

أما الحرب ضد النورمان فقد وقعت في سنة ١٤٤ هـ عندما قدم إلى سواحل الأندلس الغربية المجوس (النورمان) في اثنين وستين مركبا وكان المسلمون منذ حملة النورمان السابقة في أيام عبد الرحمن الأوسط قد أخذوا حذرهم وحرسوا شواطئهم وصارت سفنهم تحرس شواطئهم باستمرار ولذلك تصدت سفن المسلمين لسفن النورمان تجاه مدينته باجة فاستطاع المسلمون الاستيلاء على مركبين من مراكب النورمان بما فيها من الذهب والفضة والسبي والعدة . وسارت سفن النورمان نحو الجنوب حتى انتهت إلى مصب نهر إشبيلية وقد تحركت جيوش المسلمين لقتالهم ونهر الناس سراعا من كل جهة تحت قيادة عيسى بن الحسن الحاجب ودارت بين المسلمين وبين النورمان معارك مربة وبحرية رد النورمان فيها عن إشبيلية ، ثم نشبت بينهما معركة بحرية شديدة تجاه شاطئ شذونة أسر فيها المسلمون مركبين آخرين غير أن الأسطول النورماني تغلب على أحد جناحي الأسطول الإسلامي وقتل قائده ثم تقدم للنورمان نحو الجزيرة الخضراء فتغلبوا عليها وأحرقوا المسجد الجامع بها وأكثروا فيها الفساد ، ثم جازوا إلى عدوة المغرب وعاثوا فيه فسادا ، وانتقلوا منه إلى شاطئ الأندلس الجنوبي وتوجهوا إلى ساحل تدمير حتى وصلوا إلى حصن أريولة ودارت بينهم وبين المسلمين معارك شديدة مربة وبحرية ثم تقدموا إلى إفريجة فشتوا بها وأصابوا بها الذراري والأموال وتغلبوا على مدنها ، سكنوها وقد مضت قوة من النورمان خلال نهر ليرة حتى وصلوا إلى بنبلونة وأسروا صاحبها غرسيه وافتدى نفسه منهم بتسعين ألف دينار ثم انصرفوا إلى الأندلس وقد ذهب من مراكبهم أكثر من أربعين مركبا فلقى بهم أسطول المسلمين بريف شذونة فأحرقوا لهم مركبين وأخذوا مركبين آخرين وغنموا ما فيها من الأموار الكثيرة ومضت بقيه مراكب النورمان منسحبة من حيث أتت

بدون أن تحقق ما نصبوا إليه من نهب ديار المسلمين وذلك لحذر المسلمين
حمايتهم لشراطتهم^(١).

الاصلا حات في عهدہ :

بعد هذا العرض للشورات الداخلية والحروب الخارجية يتبين لنا مدى
الاهتمام بنشر الأمن والهدوء في الداخل وحماية الدولة من الأعداء في الخارج
والاهتمام بشئون الرعية والبحث عما يفيدها يقول الوزير هاشم بن عبد
العزیز : كان الأمير محمد يستشيرنا فنحن نمد ونقول ونحصل فإن أصبنا أمض
ذلك ، وإن كافي الرأي خلل قام فيه بالحجة^(٢) وهذا يبين مدى اهتمامه
بالشورى ويقول عنه ابن عذارى : كان مهتبا بأمر رعيته مراقبا لمصالحها ،
ووضع عن أهل قرطبة ضريبة الحشود والبعوث ، واكتفى بدعوتهم إلى
التطوع والجهاد في سبيل الله فأقبلوا على تأييده وتمنيده^(٣) . وقد ابتعدت
الدولة في عهدہ عن المورخ والترف ومالت إلى الاعتدال في الإنفاق وخفض
نفوذ الجوارى والصقالبة في القصر مما يدل على حزم الأمير وبهفته وكان
يسير الدولة الحهاز الإدارى الذى كان فى عهد آبائه من الحجاب والوزراء
والقواد والسكرتاب والقضاة ، وقد بلغ وزراؤه وقواده : اثنا عشر وحجابه
اثنا : ابن شهيد وابن أبى عبده وكتابه ثلاثة : عبد الملك بن أمية وحامدين

(١) ابن الأثير الكامل ج ٧ ص ٩٠ ابن عذارى البيان ج ٢ ص ٩٦ ، ٩٧
عنان دولة الإسلام ص ٢٩٢ ، ٢٩٣ .

(٢) ابن عذارى البيان ج ٢ ص ١٠٧ .

(٣) ابن عذارى البيان ج ٢ ص ١٠٩ .

محمد الزجالي وموسى بن أبان وقصائله : أحمد بن زياد ثم عمرو بن عبد الله ثم سليمان بن أسود الغافقي . وقد اهتم بأمر الجيش والأسطول وأمر بإنشاء المراكب بمر قرطبة وحملها إلى البحر المحيط وكان لها دور كبير في حماية الشواطئ من التورمان^(١) .

ويذكر ابن أبي دينار أن جيش المسلمين في عهده بلغ مائة ألف فارس منهم عشرون ألفاً بدروع الفضة وأنشأ في البحر سبع مائة غراب^(٢) . ويذكر ابن عذاري عن ابن حبان عدد الفرسان المستنفرين لغزو الصائفة المجردة إلى جليقية في مدة الأمير محمد مع عبد الرحمن ابنه على النحو التالي : كورة البيرة : ألفان وتسعمائة ، جيان : ألفان ومئتان ، فبرة : ألف وثمانمائة ، باغة : تسعمائة ، تاكرنا : مئتان وتسعة وتسعون ، الجزيرة : مئتان وتسعون ، استجة : ألف ومئتان ، قرمونة : مائة وخمسة وثلاثون ، شدونة : ستة آلاف وسبع مائة وتسعون ، ربة : ألفان وست مائة ، فحوص البلوط : أربع مائة ، مورور : ألف وأربع مائة ، تدمير : مائة وستة وخمسون ، رينة : مائة وستة ، قلعة رباح وأوريط : ثلاثمائة وسبعة وثلاثون فيكون مجموعهم ٢١٥٣٢ فارساً وتفر من قرطبة عدد لم يوقف على قدره وذلك بعد أن رفعت الضريبة التي كانت على أهل قرطبة وأقاليمها وغيرها من البلاد وقطع عنهم الخشود التي كانوا يؤخوذون بتجديدها في كل سنة للصوائف الغازية لدار الحرب وأسقطها عنهم ووكلهم إلى اختيار أنفسهم في الطوعية للجهاد من غير نعت وقد وقد حسن موقع ذلك منهم وتضاعف حمدهم له وشكرهم واغتياظهم بدوائمه^(٣) .

(١) ابن الأثير الكامل ج ٧ ص ٣٣٤ ابن عذاري البيان ج ٢ ص ١٠٣ ابن

خلدون العبر ج ٤ ص ١٣١ .

(٢) ابن أبي دينار المؤنس في أخبار إفريقية وتونس ص ١٠١ ، ١٠٢ .

(٣) ابن عذاري البيان ج ٢ ص ١٠٩ .

وقد وجه اهتمامه إلى حماية المدن والثغور فبنيت حصون في كورة رية .
ونواحي الجزيرة سنة ٢٦٦ هـ^(١) . كما بنى حصن شنت إشتين لحماية مدينة سالم
وبنى حصن طلمنكة وحصن بجريط بمنطقة وادي الحجارة للدفاع عن طليطلة
كما عني بمعرفة أخبار الثغور والبحث في مصالحهم^(٢) .

ومع كثرة الأعباء التي أقيمت على كاهل المسلمين للقضاء على الفتن
الداخلية والغزوات الخارجية في عهد الأمير محمد فقد اهتموا بالمنشآت
المعمارية ففي سنة ٢٤١ هـ جددت طرز الجامع بقرطبة وأُتقن نقشه وفي سنة
٢٤٢ هـ أجريت زيادة في المسجد الجامع بسر قسطة الذي أسسه ووضع محرابه
حنش الصنعاني من التابعين وفي سنة ٢٠٠ هـ كملت مقصورة المسجد الجامع
بقرطبة وبني فيها الأمير بدينا كشيروا في القصر الكبير والمبنى الخارجة عنه
امتازت بالجمال والأناقة كما عني بتجديد منية الرصافة التي أنشأها عبد الرحمن
الداخل واهتم بمحدثاتها وزيادتها بالأشجار النادرة وجعلها منتدي
بزه وأسماره^(٣) . وقد شجع العلماء والشعراء والفقهاء الذين كان لهم في
عهده نفوذ كبير في بلاط قرطبة^(٤) .

هذا النشاط الجهم الذي تم في عهد الأمير محمد جعله محبوبا
في جميع البلدان وكان محمد بن أفلح أمير قاهرت لا يقدم ولا يؤخر
في أموره ومعضلاته إلا عن رأيه وأمره وكذلك بنو مدرار أمراء سجلماسة ،
وكان هو شديد الاهتمام بهم وأخبارهم وأحوالهم ، وكان شارل الأصغر ملك

(١) المرجع السابق ص ١٠٢

(٢) عمان دولة الإسلام ص ٣٠٧ .

(٣) ابن عذري البيان ج ٢ ص ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٨ عمان دولة الإسلام ص ٣١٠ .

(٤) عمان دولة الإسلام ص ٣١١ .

فرنسا (أفرنجة) يقدر خلاله ويتودد إليه ويقدم له التحف والهدايا وكانت تربطه علاقة مودة بنى قسى سادة الشجر الأعلى الذين كانت لهم جهود طيبة فيها وراء جبال البرنية^(١).

وقد ظل الأمير محمد يدير شئون المسلمين في الأندلس بحكمة وحزم حتى أدركته الوفاة في ٢٩ من صفر سنة ٢٧٣ هـ بعد حياة حافلة بالكفاح والنضال وعمره خمس وستون سنة وأربعة أشهر ومدة إمارته أربع وثلاثون سنة وعشرة أشهر وعشرين يوما^(٢).

٥ — المنذر بن محمد^(٣) ٢٧٣ - ٢٧٥ هـ ٨٨٦ - ٨٨٨ م

كان المنذر المساعد الأيمن في حماية الدولة أثناء أماره أبيه محمد وقد وجهه أبوه كثير المقاتلة الخارجين على الدولة ومدافعة المهاجرين لها. ولذلك خصه أبوه بولاية العهد وقد توفي أبوه والمنذر يقاتل ابن حفصون أخطر الثائرين على الدولة فعاد المنذر إلى قرطبة حيث تمت بيعته في الثامن من ربيع الأول سنة ٢٧٣ هـ وكان متصفا بالشجاعة والعزم والحزم والصرامة مما جعل أبطال الرجال وأنجادهم من أهل الفتنة يذعنون إليه ويرسلون إليه بالطاعة قبل أن يطلبها ولو امتد به العمر لقضى على كل الثائرين ووطد الأمن في كل أرجاء الدولة وحوى المسلمين شر الفتنة.

وفي أول عهده فرق العطاء في الجند وتودد إلى الرعية بإسقاط عشر العام عنهم وما يلزمهم من جميع المغارم. وقد ذكر الرازي أن المنذر أرسل

(١) ابن عذاري البيان ج ٢ ص ١٠٨ عنان دولة الإسلام ص ٣٠٩.

(٢) ابن عذاري البيان ج ٢ ص ٩٤.

(٣) مولده بقرطبة سنة ٢٢٩ هـ وأمه تسمى أثل وتوفي في صفر سنة ٢٧٥ هـ.

محمد بن لب في بداية ولايته إلى ألبه والقلاع ومعه جموع المسلمين ففتح الله
للمسلمين وقتلوا من المشركين جمعا كثيرا .

وقد شمر المُنذر عد ساعد الجرد لمقاتلة الثائرين وكانت حصون رية قد
حصلت في طوع ابن حفصون فعبث إليها الجند وأعادها إلى الطاعة وقد
استغل ابن حفصون وهو من المولدين موت الأمير محمد ففسط سلطانه على
الحصون التي بينه وبين الساحل كلها وكان يدعو الناس إلى الثورة وتأفهم
ويقول : « طال ما عنت عليكم السلطان وانزع أموالكم وحملكم فوق
طاقكم وأذاتكم العرب واستعبدتكم وإنما أريد أن أقوم بشأركم وأخرجكم من
عبوديتكم^(١) » ولذلك فقد انضم إليه عدد كبير من أهل الحصون وكان أكثر
أتباعه شطار الناس وشرارهم وكان يمنيهم بفتح البلاد وغنائم الأموال وقد
امتد شر ابن حفصون إلى قبرة وقربة الجمالية وعلى أحواز جيان وأسر عبد الله
بن سماعة عامل باغنه واستولى أتباعه عن حصن آش من حوزرية^(٢) .

وقد أرسل الأمير المُنذر أصبغ بن فطيس في خيل كثيفة إلى حصن آش
ففتحته وقتلت من كان فيه من أتباع ابن حفصون كما أرسل المُنذر عبدا لله بن
محمد بن مضر وأيدون الفتي نخبل إلى ناحية لجانة من قبرة وكان بها مسلحة
لابن حفصون فنازلوهم وقتلوهم عن آخرهم . وقد ثار أهل طابطة وانضم
إليهم كثير من الثرثر المنفيين من ترجيلة فأرسل إليهم قوة هزمت الثوار
 وقتلت منهم ألوقا^(٣) .

وقب يخرج الأمير المُنذر بجيوشه إلى ابن حفصون في سنة ٢٧٤ هـ .

(١) ابن عذاري البيان ج ٢ ص ١١٤ .

(٢) المرجع السابق ص ١١٥ .

(٣) المرجع السابق ص ٣١٤ .

فاستولى على حصونه بركة وقبرة ثم توجه إلى ابن حفصون في بشت
حاضرتة فحاصره وضيق عليه وأفسد ما حوالاه ثم انتقل الأمير إلى أرشدونه
فحاصرها وضيق عليها حتى استولى عليها وقبض على عيشون التابع لابن
حفصون وفتح حصون بني مطروح في باغة وأرسل عيشون وبني مطروح
حرب وعون وطالوت إلى قرطبة فقتلوا هناك وكانوا اثنين وعشرين
رجلاً (١)

وقد خرج المنذر إليه مرة أخرى وعزم على حصاره في قلعتة ببشت
حتى يقضى عليه أو يستسلم وضيق عليه الخناق من كل جانب حتى يئس ابن
حفصون من شدة الحصار فليجأ إلى الحيلة بأن أظلم الخفوع والطاعة على
أن يكون من نخاعة جند الأمير ويسكن قرطبة بأهله وولده وأن يلحق أبناءه
في الموالى فقبل الأمير ذلك وأغدى عليهم العطايا وكتب له عهد الأمان
وطلب ابن حفصون من الأمير مائة بغل ليحمل عليها متاعه فأرسلها الأمير
إليه ورفع الحصار عنه وقفل راجعاً بجيشه إلى قرطبة وعند ذلك عاد
ابن حفصون إلى ببشت وتحصن بها وقد قويت نفسه بما حصل عليه من
الأمداد وقد غضب المنذر لتلك الخيانة وهاد مسرعاً إلى ببشت ليضرب
عليها الحصار مقسماً ألا يبرحها حتى يقبض على الثائر حياً وميتاً واستمر
الحصار ثلاثة وأربعين يوماً مرض في نهايتها المنذر فأرسل إلى أخيه عبداً
لينوب عنه في متابعة الحصار وفي منتصف صفر سنة ٢٧٥ هـ لفظ المنذر
أنفاسه تحت أسوار ببشت وهو محاصر لأن حفصون بعد قرابة عامين
من إمارته وحمل على جمل إلى قرطبة فدفن مع أجداده هناك (٢).

(١) ابن عذاري البيان ص ١١٧ .

(٢) ابن عذاري البيان ص ١١٨ ، ١١٩ .

وكان وزيراً المندب أحد عشر وكتابه اثنان : سعيد بن مبشر ، وعبد الملك بن عبد الله ابن أمية بن شهيد وحاجبه عبد الرحمن بن أمية بن شهيد وقواده سبعة وقاضيه : أبو معاوية عامر بن معاوية اللخمي^(١) ، وقد قال عنه الشيوخ : أنه لو عاش المندب عاماً واحداً آخر لم يبق برية منافق ولقد تمكن من القضاء على ابن حفصون وغيره من الثائرين ولأمنت الأندلس شر تفاقهما بعد ذلك : هذا يدل على مكانته ومنزاته^(٢) .

٦ - عبد الله^(٣) بن محمد بن عبد الرحمن ٢٧٥ هـ - ٣٠٠ هـ ٨٨٨ - ٩١٢ هـ .
تولى إمارة الأندلس بعد المندب أخوه عبد الله بن محمد وقد تولى في اليوم الذي توفي فيه أخاه في المحلة على يدشتر يوم السبت في النصف من شهر صفر سنة ٢٧٥ هـ وقد عاد إلى قرطبة ومعه جثمان أخيه المندب فدفن مع آباءه في مقبرة القصر المعروفة بالروضة وتمت البيعة لمحمد في قرطبة ولم يعارضه أحد من إخوته .

وكانت الأندلس عند ولاية محمد تخرج بالفن وكثر فيها الخسوارج والمتغلبون فصار في كل جهة متغلب ولم تزل كذلك طول ولايته^(٤) وقد تألب على المسلمين أهل الشرك ومن ضاهاهم من أهل الفتنة الذين جردوا سيوفهم على المسلمين فصاروا بين قتيل وبخروب ومحصور وانهطع الحرث

(١) المرجع السابق هـ ١١٣ .

(٢) المرجع السابق هـ ١٢٠ عن دولة الإسلام هـ ٣١٧ .

(٣) ولد في النصف من ربيع الآخر سنة ٢٢٩ هـ وأمه تسمى بهار وقيل عشار وتولى الإمارة وعمره ستة وأربعون سنة وتوفي سنة ٣٠٠ هـ ومدة إمارته خمس وعشرون سنة وخمسة عشر يوماً .

(٤) ابن الأثير الكامل ج ٧ هـ ٤٣٥ .

وكاد ينقطع الفسل ؛ وقد ناضل الأمير عبد الله بكل جهده وطاقته ليحافظ على المسلمين من أعدائهم وندر خروج المجاهدين إلى دار الحرب وصارت بلاد الاسلام بالآندلس هي الشجر المخوف (١) . وكان خراج الآندلس قبله ثلاثمائة ألف دينار مائة ألف منها للجيش ومائة ألف للنفقة في النواصب وما يعرض ومائة ألف ذخيرة ووفر فأنفقوا الوفر في تلك السنين وقل الخراج (٢) .

ولم تقتصر الثورات على المناطق الجبلية بل امتدت إلى السهول والمدن الكبيرة مثل أشبيلية وبطليوس وجيان ولورقة ومرسية وغيرها وشارك فيها المولدون وبعض زعماء القبائل العربية والبربرية وقامت معارك بين العرب والمولدين وبين العرب والبربر وبين العرب أنفسهم . واستقل زعماء المولدين بالشعر الأعلى وبطليوس وباجة وجيان ومرسية ، وغدت أشبيلية مسرحاً للصراع الدموي بين العرب البربر ، واستولى ابن حفصون على معظم الجهات الجنوبية الغربية من الآندلس وهكذا عمت الفتن معظم جهات الآندلس (٣) .

وقد بذل الأمير عبد الله قصارى جهده للقضاء على هذه الثورات وظل يكافح طوال مدة حكمه دون هوادة لا تقاذ الدولة من خطر الإنهيار محاولاً القضاء على الفتن وتوجيه الغزوات وخوض المعارك المستمرة التي استنفدت قوى الدولة ومواردها . وإذا كان لم يتمكن من القضاء على الثورات في جميع النواحي فقد وفق في تمزيق شمل كثير من الثوار واستئصال بعض زعمائهم الخطرين إليه وبسط سلطان الدولة من الناحية الإسمية على الأقل على بعض

(١) ابن عذارى البيان ج ٢ ص ١٢١ .

(٢) ابن خلدون المعبر ج ٤ ص ١٣٣ .

(٣) عنان دولة الإسلام ص ٣١٩ .

القواعد الهامة مثل اشبيلية وسرقسطة ، وكان لذلك أثره في تمديد الطريق
تتمكين خلفه عبد الرحمن الناصر من القضاء على عناصر الثورة والخلاف
وتوطيد سلطان الدولة (١) .

وقد بين الوزير المؤرخ ابن الخطيب أسباب انتشار الثورة في الأندلس
في عهد عبد الله بقوله : « والسبب في كثرة الثوار بالأندلس يومئذ ثلاثة وجوه :
الأول . منعة البلاد وحصانة المعاقل وبأس أهلها بمقاربتهم عدو الدين فهم
شوكة وحد بخلاف سواهم . والثاني . علو الهمم ، وشموخ الأنوف ، وقلة
الاحتمال لتقل الطاعة ، إذ كان من يحصل بالأندلس من العرب والبرابرة
أشراف بأنف بعضهم من الإذعان لبعض ، والثالث : الاستناد عند الضيقة
والاضطرار إلى الجبل الأشم ، والمعقل الأعظم من ملك النصارى الحريص
على ضرب المسلمين بعضهم ببعض فسكان الأمراء من بنى أمية يرون أن
اللجأ في أمورهم يؤدي إلى الاضلال وفيها فساد الأموال ، وتعدى الجباية
وتعربض الجيوش إلى الاتسكاب ، وأولياء الدولة إلى القتل ولا يقوم السرور
بغلبة الثائر بما يوازيه من ترحة هذه الأمور (٢) .

الثورات في عهده :

وقد تحدث ابن مغازي بالتفصيل عن جملة الثوار في الأندلس في عهد
الأمير عبد الله وسنشير إليهم بإيجاز ليتضح مدى خطورة هذه الثورات
وانتشارها ثم نلقى ضوءاً على ثورة ابن حفصون التي تعتبر من أخطر
الثورات في عهده .

(١) المرجع السابق ٣٣٩ ، ٣٤٠ .

(٢) أعمال الأعلام ص ٣٦ نقلاً عن عنان دولة الإسلام ص ٣٤٠ .

فقد ثار سوار بن حمدون بحصن منى شافر ، وثار سعيد بن جودي في سنة ٢٧٦ هـ بالعرب في البيرة ، وثار العرب بالثبيلية ، وتغلب إبراهيم بن حجاج على اشبيلية ، وثار ديسم بن اسحاق وغاب على مدينتي لورقة ومرسية ، وثار سعيد الله بن أمية وملاك كورة جيان ، وعبد الرحمن بن مروان ببعلبيوس وماردة ، وعبد الملك بن أبي الجواد بمدينة باجة ، وثار منذر بن إبراهيم ابن السليم بمدينة ابن السليم في شنونة ، ومحمد بن عبد الكريم بن إلياس بقلعة ورد من كورة شنونة ، وثار خير بن شاكر بحصن شوذر من كورة جيان ، وعمر بن مضم الهزولي فاستولى على قصبة هزول ، وسعيد ابن هذيل بحصن المنتلون من كورة جيان ، وسعيد بن مستنة بكورة باغة ، وثار بنو هابل الأربعة بيمض حصون جيان ، وثار اسحاق بن إبراهيم العقيلي بحصن منيشة ، وسعيد بن سليمان بن جودي أمرته عرب غرناطة والبيرة ، وثار محمد بن أضحي الهمداني من أكابر أبناء العرب بكورة البيرة ، وثار بسكر بن يحيى بن بسكر بمدينة شنت مرية من كورة أكشونية ، وثار ابنا مهلب من وجوه العرب بكورة البيرة ، وثار سليمان بن محمد الشذوني بشرش شنونة ، وثار ابنا جرح بحصن بسكور ، وثار أبو يحيى التجيبي المعروف بالأنقر بمدينة مرقسطة (١) .

ثورة ابن حفصون (٢) :

تعتبر ثورة ابن حفصون من أقوى الثورات التي قامت ضد الإمارة

(١) ابن عذاري البيان ٢ ص ١٢٣ — ١٢٧ .

(٢) هو عمر بن حفصون بن عمر بن جعفر بن دميان بن فرغلوش بن أذهوش القس ثار بالأندلس وفارق الجماعة أيام محمد بن عبد الرحمن سنة ٢٧٠ هـ فخرج بحمل يدهتم من ناحية رية ومالقة وانضم إليه الكثير من جند الأندلس من في قلبه =

الأموية في الأندلس وقد قاومها الأمير محمد وابنه المنذر الذي توفي وهو محاصر لابن حفصون في قلعة وعندما تولى عبد الله الأمارة بعث إلى ابن حفصون إبراهيم بن خمير لأخذ بيعته وبيعة أتباعه فتظاهر ابن حفصون بالقبول وأرسل ولده حفصاً وبعض أتباعه إلى الأمير ، فأخذت البيعة عليهم وردهم الأمير رداً جميلاً ومنحهم الهبات والعطايا ، واشرك مع ابن حفصون في ولاية رية عبد الوهاب عبد الرؤف واليامن قبله لإدارة شئون الولاية ولكن ذلك لم يدم سوى عدة شهور ثم انتقض ابن حفصون وطرد عبد الوهاب عامل الأمير وعاث في الأرض فساداً . فخرج إليه الأمير عبد الله في سنة ٢٧٦ هـ واجتاح منطقة بيشتر وحصون رية وخرّبها ثم عاد إلى قرطبة فخرج ابن حفصون في أثره وكثر المفسدون حوله فاحتلوا استجة فبعث إليهم الأمير جيشاً تغلب عليهم ونزل ابن حفصون واعترف بذنبه فمقدله الأمير أماناً ولكنه عاد فنقضه وقصد بيانة فخارب أهلها ثم أعطاهم أماناً فلما نزلوا إليه غدروهم وقتلهم (١) . وعندما ثار ابن شاكر بجيان أرسل إليه عبد الله الجند بقيادة أحمد بن أبي عبدة فحاصره وقتل جماعة من أصحابه وخرّب معظم دور جيان ثم عاد دون أخضاعه فأرسل ابن حفصون جماعة من أصحابه بحجة مساعدة ابن شاكر ولكمهم فتكوا به وحملوا رأسه إلى ابن حفصون فبعث بها إلى الأمير عبد الله مصانعة له ولكن الأمير لم يخضع بذلك (٢) .

== مرض في الطاعة وابتنى قلعة المعروفة به هنا لك واستولى على عرب الأندلس إلى رندة وعلى السواحل من المتجه إلى البيرة وظل ثائراً إلى أن هلك سنة ٣٠٦ هـ فحلفه أبناؤه من بعده إلى أن قضى على ثورته سنة ٣١٥ هـ ابن حلدون العبر ٤ ص ١٣٤ — ١٣٥ .

(١) ابن عذاري البيان ٢ ص ١٢٢ .

(٢) المرجع السابق ص ١٢٣ وعنان دولة الإسلام ص ٢٢٠ .

وقد انتشر شر ابن حفصون في كثير من الجهات حتى بلغ أحواز قرطبة وحاول فرسانه إحراق مخيم الأمير في ضاحية شقندة قرب قرطبة فخرج إليه الأمير في صفر سنة ٢٧٨ هـ في جيش بلغ تعداده ثمانية عشر ألفا وكان معه د جيش ابن حفصون ثلاثين ألفا ودارت بين الفريقين معركة عنيفة على نهر الفوشكة قريبا من حصن بلاى فهزم ابن حفصون وقتل كثير من جنده وفر الباقون وحاول ابن حفصون اللجوء إلى حصن بلاى ولكن لم يفده ذلك فارتد ابن حفصون إلى الجبال الجنوبية ودخل المسلمون حصن بلاى واستولوا على ما فيه من ذخائر ولم يطارد الأمير الثائر جنوبا ولكنه توجه إلى استجة التي كانت تابعة لابن حفصون فحاصرها حتى سلمت له وطلب أهلها العفو فغفاهم .

توجه الأمير بعد ذلك إلى ابن حفصون في بيشتر قاعدة الرئيسية التي لجأ إليها عقب الهزيمة وجمع كثيرا من أنصاره وأتباعه فيها ولكنه لم يخرج لملاقاة الأمير فعاث الأمير في تلك المنطقة وحين عودة الجيش إلى قرطبة اشتبك ابن حفصون مع مؤخرة الجيش في معركة هزم فيها ابن حفصون ورد على أعقابها في ربيع سنة ٢٧٨ هـ وقد اضعفت موقعة بلاى من قوة ابن حفصون وقللت من طغيانه ولما عاد وجمع أتباعه وخرج إلى البيرة فتغلب عليها فأخرج إليه الأمير جيشا بقيادة ابن أبي عبدة فتغلب على ابن حفصون وهزمه واضطر إلى طلب السلم فوافق الأمير على طلبه ولكنه سرعان ما نقض العهد فأرسل إليه الأمير سنة ٢٨٠ هـ ابنه مطرف بالجيش فحاصر ابن حفصون في بيشتر ودمر عمارتها وعاث في أنحائها وقد اعتصم ابن حفصون بمغله ولكنه اضطر إلى الخروج للقاء المطرف في موقعة هزم فيها وقتل أشجع

قواد ابن حفصون حفص بن المرة (١).

وفي سنة ٢٨٤ هـ جمع ابن حفصون أتباعه واستولى على استجة للمرة الثانية فجمع الأمير جنوده ووجههم إليه في سنة ٢٨٥ هـ بقيادة ابنه أيبان ومعه القائد أحمد بن أبي عبدة فدارت بينهم وبين قوات ابن حفصون عدة معارك ثم عاد الجيش إلى قـطـبة دون أن تسفر هذه المعارك عن نتيجة حاسمة .

وفي سنة ٢٨٦ هـ أظهر ابن حفصون ما كان يخفي من اعتناقه للنصرانية وتسمى صمويل وقد حمل ذلك كثيرا من أتباعه من المولدين الذين استقر الإسلام في قلوبهم إلى الإنصراف عنه ومنابدته وبعثوا بطاعتهم إلى الأمير عبدالله . وقد اشتد السخط على ابن حفصون في أنحاء الأندلس وجد المسلمون في قتاله ورأوا أن حربه جهاد وقد حاول ابن حفصون أن يقوى مركزه واستخدم شتى الطرق فعمد صداقات ومحالفات . مع الفونس الثالث ملك ليون وبني قسي ، وكان ابن الأغاب صاحب إفريقية وهاداه وأظهر دعوة العباسية بالأندلس وبعث ابن حفصون بطاعته للشيعة عندما تغلبوا على القيروان من يد الأغالية وأظهر بالأندلس دعوة عبيد الله الماهدي (٢) .

وقد تابع الأمير عبدالله إرسال الحملات المتتابعة في كل عام بقيادة أبنائه وقواده إلى ابن حفصون ليحاصروا ببشتر مقرة وغيرها من الحصون والمدن التابعة له وحققوا الهزائم المتتابعة عليه وعلى أتباعه وأنصاره وقتلوا

(١) ابن عذاري البيان ح ٢ ص ١٢٤ ، عنان دولة الإسلام ص ٣٣٢ عبد العزيز

الم تاريخ المسلمين وآثارهم ص ٢٦٢ .

(٢) ابن عذاري البيان ح ٢ ص ١٣٩ ، ابن خلدون الأمير ح ٤ ص ١٣٥ عنان

دولة الإسلام ٣٣٣ .

خلالها كثيرا من جنده وعائرا في المناطق التي كان يستولى عليها فسادا واستمر ذلك إلى نهاية عهد الأمير عبد الله سنة ٣٠٠ هـ ومع استمرار الدولة في عهد عبد الله على قتال ابن حفصون وانهاك قواه فإنها لم تنجح في القضاء عليه وإخماد ثورته التي استطاع أن يحمل لواءها بقوة وجلد وعزم لا مثيل له ولم يقضى على ثورته إلا في عهد حفيده الذي تولى بعده عبد الرحمن الناصر سنة ٣١٥ هـ^(١).

وقد وقعت مجاعة شديدة في عهد الأمير عبد الله في سنة ٢٨٥ هـ قاسى الناس منها كثيرا من المصاعب والأهوال .

حروب خارجية :

شغل المسلمون خلال عهد عبد الله بالقضاء على الفتن الداخلية في الأندلس ومحاربة الثائرين فيها ضد دولة الأمويين في الأندلس . ولكنهم مع ذلك بذلوا جهودهم لحماية حدودهم الخارجية وغزوا جيرانهم بحملات قليلة واستولوا على بعض الجزر وقد اضطلع بذلك بعض الولادة الذين كانوا يتولون الأطراف دون أن يصل إليهم مدد من مقر الدولة في قرطبة .

ففي سنة ٢٨٤ هـ غزا عباس بن عبد العزيز إلى حصن كركي وجبل البرانس وقتل ابن يامين وابن موجل وأخذ حصونهما وتقدم لبني محمد من بني قسي الذي أقره الأمير عبد الله على حكم تطيلة وطرسونة وما حولها من تطيلة إلى حيز جيان - ونازل حصن قسطلونة وكان فيها نصارى يحاربون عبيد الله بن أمية المعروف بابن الشالية فأخذ الحصن وقتل العجم^(٢).

(١) ابن عذاري البيان ٢ ص ١٣٩-١٤٩ ، ابن خلدون العبر ٢ ص ١٣٥
عنان دولة الإسلام ص ٣٢٣ ، ٣٣٤ عبد العزيز سالم تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ص ٢٥٩ - ٢٦٥ .

(٢) ابن عذاري البيان ٢ ص ١٣٨ ، ١٣٩ .

وفي سنة ٢٩٠ هـ غزا الب بن محمد أرض إيون واستولى على بعض حصونها وهزم الفونس الثالث في معركة نشبت بينهما^(١) وفي سنة ٢٩١ هـ خرج لب بن محمد إلى بايش من أحرار ألبة ففتح حصون إيلاس وقشتيل سنت ومولة وقتل بهذه الحصون نحو سبعمائة عالج وسبي نحو ألف سبية ، وفي العام التالي خرج لب لمحاصرة سرقة وردد الخندق المجاور لسورها وشرع في البنيان عليها فلما تم له ذلك رحل عنه وترك إليه بعض رجاله^(٢) ، وفي سنة ٢٩٤ هـ غزا الب بن محمد نافار وخرج إلى ناحية بنيلونة وشرع في البنيان بحصن هريز فحشد سائس (شانية) ملك نافار جميع أهل بلده ووضع له السكائن وقد تغلب لب على بعض هذه السكائن وفي النهاية أهدت به السكائن وتمكنت من التغلب عليه وقتله في الثاني عشر من ذي الحجة وهو ابن ثمان وثلاثين سنة وكان لب زعيما مقداما وافر الجرأة والشجاعة . وخلفه في حكم تطيلة أخوة عبد الله بن محمد بن لب مطيعا للإمارة في قرطبة وتابع الإغارة على أرض النصارى^(٣) . وقد ظهر في هذه السنة محمد بن عبد الملك بن شبرط المعروف بالطويل لطوله الفائق وهو من أكار أسر المولدين بالغر وكان منزلهم بوشقة وبربشتر وقد استولى على حصن بربشتر والقصر وبرطانية وفي العام التالي سنة ٢٩٥ هـ دخل الطويل حصن منثشون بمدينة لاردة في المحرم ثم خرج إلى برطانية وافتتح حصونا جمعة وسى سيبيا كثيرا وقد استمر الطويل بعد ذلك في الإغارة على أراضي النصارى المجاورة وفي العام التالي سنة ٢٩٦ هـ خرج الطويل إلى منطقة بليارش في شهر رمضان فمات فيها وقتل كثيرا من النصارى وروى عليه رسل حصن روطة يرغبون في الصلاح

(١) عيان دولة الإسلام ص ٣٣٧ .

(٢) ابن عذارى البيان ص ٢٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ .

(٣) المرجع السابق ص ١٤٣ عيان دولة الإسلام ص ٣٣٧ .

ويسمحون بالرهائن والجزية فلم يجيبهم فخرجوا هاربين من الحصن وأخلوه فتقدم اليه وهدمه ثم استولى على حصن منبى بطروش وهو المعروف بجبل الحجارة وفي العام التالى سنة ٢٩٧ هـ خرج الطويل إلى منطقة بليارش ففتح حصون أوريولة ، وغاتير والغيران وهدمها وقتل كثيرا من المشركين وسبى نساءهم وبلغ الفىء فى هذه الغزوة ثلاثة عشر ألفا (١) .

وفى سنة ٢٩٨ هـ خرج الطويل وقد اتفق مع عبدالله ابن لب إلى أرغون (نافار) للزحف على عاصمتها بنبلونة وسار كل منهما فى طريق وأغار الطويل على بعض الحصون وحرقها وهدم الكنائس ولكنه انسحب عندما علم بأن شانيجه يسير لقتاله وعندما هلم ابن لب بإنسحاب ابن الطويل أعرض عن ملاقات شانيجه ونزل على حصن لوازة من حصون شانيجه فقتل جماعة منهم وكر راجعاً فالتقى ببعض خيل شانيجه فقتل منهم وسبى وفى العام التالى سنة ٢٩٩ هـ غزا الطويل وادى برشلونة وأغار على وادى طراجة ونشبت بينه وبين حاكمها السكونت شنير معركة هزم فيها السكونت وقتل كثيراً من أصحابه (٢) .

وفى سنة ٢٨٠ هـ استولى الفونس الثالث ملك ليون على مدينة سمورة وأسكنها النصارى وصار يغير منها على الأراضى الإسلامية المجاورة وقد خرج فى سنة ٢٨٨ هـ أحمد بن معاوية من ولد هشام بن عبد الرحمن ويعرف بابن القط ودعا لنفسه فى أحواز طليطلة وطلميرة ثم أعلن الجهاد وتوجه إلى سمورة لافتتاحها فقابله الفونس بقواته فهزم النصارى أولا ولسكنهم تمكنوا من التغلب على ابن معاوية وقتله بعد أن قاتل ببسالة وشجاعة وبذلك

(١) ابن عدارى البيان ص ٢ ص ١٤٤ - ١٤٦ .

(٢) المرجع السابق ص ١٤٨ ، ١٤٩ عنان دولة الإسلام ص ٣٣٩ .

انهارت حركته ووطد الفونس سلطانه في تلك الانحاء^(١).

وفي سنة ٢٩٠ هـ أرسل الأمير عبد الله عصام الخولاني بأسطول بحري من المجاهدين إلى الجزائر الشرقية (جزر البليار) ميورقة وغيرها فحاصرها أياماً ثم تمكن من فتحها حصناً حصناً إلى أن تم فتحها وولاه الأمير عليها وصارت تابعة للمسلمين وبني فيها المساجد والفنادق والحمامات^(٢).

الإصلاحات في عهده :

ملك الأمير عبد الله في الحكم خمسة وعشرين عاماً قضاه في مقاومة الفتن والقضاء عليها ، ومحاربة الثوار وقتالهم ، وحاول جهد طاقته المحافظة على حدود الدولة وقد تولى حجابته عبد الرحمن بن شهيد وسعيد بن السليم ثم عزله ولم يول الحجابة أحداً . ووزراؤه ستة وعشرون ، وكتابة ثلاثة وكان يعاونه من يتولى القضاء ومن يتولى الشرطة ويتولى قيادة الخيل وولاية المدينة ، وولاية السوق .

وكان عبد الله يجالس وزراءه وكبار رجال دولته أكثر أيامه لمناقشتهم في أمور الدولة واتخاذ الخطط للقضاء على الفتن ، وعمل عبد الله على نشر العدل ورفع الظلم والبغى وفتح باب حديد مشرجاً في القصر سماه باب العدل يقعد فيه للناس يوماً معلوماً من كل جمعة ليباشر أحوال الناس بنفسه ولا يجعل بينه وبين المظلوم ستراً ، فلا يتعذر على ضعيف إيصال بطاقة بيده إليه ولا إنهاء مظلمة على لسانه وكان أهل المكنات وذرى المنازل والأقارب يتحفظون من كل أمر يوجب الشكوى منهم ولا يتعاملون على من دونهم ويهابون عقابه ويتحرون موافقة مذاهبه . وكان الأمير عبد الله مقتصدًا في ملبسه ومظاهر

(١) ابن عسار البيان ٢٣ ص ٢٢٤ ، ١٤٠٠ عنان دولة الإسلام ص ٣٤٠ ، ٣٤١

(٢) ابن خلدون ص ١٦٤ عنان دولة الإسلام ص ٣٤١ ، ٣٤٢ .

حياته وجميع أحواله محتشما في حياته الخاصة . ورعا محبا للخير وأهله كثير التواضع منكر للسرف وأهله كثير البر على الفقراء والمحتاجين وخصص لهم سهما من الخبايا . وكان حافظا للقرآن كثير التلاوة له دائم الخشوع والذكر لله بصيرا باللغات حافظا لأشعار العرب وأيامها وسير الخلفاء فكانت اللذات في أيامه مهجورة وكان لذلك أثر كبير في تقويم الأخلاق ودعم الفضيلة والإقتصاد في اللهو والملاذ في عصر كثر فيه الخطوب والمحن .

والكثرة الثورات والفتن وانشغال الدولة بالقضاء عليهم لم يقم في عهده أعمال إنشائية سوى : السباط ، الموصل بين القصر والمسجد الجامع وهو ممر مسقوف مبني فوق عقد كبير ينفذ من القصر إلى الجامع ويتصل به على مقربة من المحراب . كما استقر جماعة من البحريين في بجانة وبنوا سورها فأما الناس من كل مكان وأقبلوا يسكنونها فراراً من الفتنة في الأندلس وفي سنة ٢٧٥ هـ كتب البحريون الذين اختطوا مدينة بجانة إلى الأمير عبد الله يسألونه إقرار واليهم عليهم وإعفاءهم من غيره وإباحتهم البنيان حول قصبة بجانة والتوسع في عمرانها ومرافقها لتكاثر الناس في المدينة فأجابهم إلى ذلك . فتوسعوا في الاختطاط بأرض بجانة في بداية عهده وأقاموا حولها عشرين حصناً منها وادي بجانة والحامة والحايبة ، وبنى طارق في الغرب وحصن ناشر في الشرق وحصن برشانة في الشمال بجوار جبال الرخام وحصن عالية .

وفي ليلة الخميس مستهل ربيع الأول سنة ٣٠٠ هـ توفي الأمير عبد الله بن محمد ، دُفن بالقصر مع آبائه وأجداده وهو ابن اثنتين وسبعين سنة بعد حكم استمر خمساً وعشرين سنة قضاهم مكافحاً مناضلاً للقضاء على الفتن والحفاظ على حدود الدولة بقول ابن عذاري وكانوا يعدونه من أصالح خلفاء بني

أمية بالاندلس وأمثالهم طريفة رأتهم معرفة وأمتهم ديانة إلا أنه كان
منخص الحال بدوام الفتنة وتضييق نطاق الخطاة ونقصان مقدار التزكية ،
حتى كان يتخاله الرباء تحت قناع تقواه والبخل يلوقة طبيعة ليست له تخط
من هواه وغمص دينه لما كان من هوان الدماء عليه بسبب الفتن الطارئة حتى
من ولديه .

وقال عنه الفقيه محمد بن حزم : « إنه كان قنالا تهون عليه الدماء مع
كثرة إقباله على الخيرات وإعراجه عن المنكرات » . ثم بهم بقتل أخيه
المزور وقتل ولديه محمد والمطرف وقتل أخوين له هشاما والقاسم ويعلق ابن
هنادى على ذلك بقوله والله أعلم بحقيقة أمره (١) .

والذى يبدو لى أنه قد بذل جهدا كبيرا فى مقاومة الفتن والمحافظة على
الدولة ومقاومة الخارجين عليها ولم يتوان فى ذلك بل بذل كل جهده وطاقته
حفاظا على الدولة وحماية لها حتى تولاه حفيده عبد الرحمن الناصر الذى
أعاد للدولة وحدتها وقوتها وتقدمها وازدهارها وذلك ما سنتحدث عنه فى
الجزء الثانى إن شاء الله .

(١) ابن عدارى ج ٣ ص ١٥٢ ، ١٥٦ عنان دولة الإسلام ص ٣٤٢ - ٣٤٧

عبد العزيز سالم تاريخ المسلمين وأثارهم ص ٢٧٤ - ٢٧٥ .

ثبت ببعض المصادر والمراجع

- ابن الأبار : أبو عبدالله محمد بن عبدالله (ت ٦٥٨ هـ - ١٢٦٠ م)
الحلة السراء : جزءان : نشر حسين مونس (القاهرة ١٩٦٣ م)
- إبراهيم شعوط دكتور :
أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ دار الطباعة المحمدية ١٩٦٥ م
- إبراهيم العدوي دكتور :
— موسى بن نصير أعلام العرب عدد أغسطس سنة ١٩٦٧ م
- ابن الأثير أبو الحسن علي بن محمد الجزري (ت ٦٢٠ هـ / ١٢٢٣ م)
— أسد الغابة في معرفة الصحابة ١٠ نشر مطابع الجمعية التعاونية
— السكامل في التاريخ دار صادر بيروت ١٩٦٥
- أحمد إبراهيم الشعراوي دكتور :
— الأمريون أمراء الأندلس الأول دار النهضة العربية ١٩٦٩ .
- أحمد بدر دكتور :
— دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها مطابع ألف باء الأدب
دمشق سنة ١٩٦٩ م
- أرسلان الأمير شكيب أرسلان
— تاريخ غزوات العرب في فرنسا سويسرا وإيطاليا وجزر البحر المتوسط
مطبعة الحلبي
- الاصطخري أبو اسحق إبراهيم بن محمد الفارسي توفي في النصف الأول من القرن
الرابع الهجري
- المسالك والممالك تحقيق محمد جابر عبد المال نشر دار القلم سنة ١٩٦١ م
- الباجي : أبو عبدالله محمد الباجي المسعودي :
— الخلاصة النقية في أمراء أفريقية مطبعة الدولة التونسية بتونس سنة

ابن بشكوال : أبو القاسم خلف بن عبد الملك
— الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم
٢، ١ طبع في مجريط رونس سنة ١٨٨٢ م
البلاذري أحمد بن جابر ت ٢٧٩ هـ

— فتوح البلدان نشر د . صلاح المنجد مكتبة النهضة
ابن حرم أبو محمد علي بن سعيد ت ٤٥٦ هـ
— جمهرة أنساب العرب تحقيق لينى بروفنسال دار المعارف مصر

حسن إبراهيم حسن دكتور
— تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي مكتبة النهضة ١٩٧٤
— تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب مكتبة
النهضة المصرية سنة ١٩٦٤

حسن حسنى عبد الوهاب
— خلاصة تاريخ تونس الطبعة الثانية

حسن سليمان محمود
— ليبيا بين الماضي والحاضر

حسين مؤنس دكتور :
فتح العرب للمغرب الناشر مكتبة الآداب بالجماميز
الحيدى . أبو عبد الله محمد بن أبي نصر الأزدي ت ٤٨٨ هـ
.. جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس المكتبة الأندلسية الدار
المصرية للتأليف والترجمة سنة ١٩٦٦ م

ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد بن خلدون المغربي
— العبر ودوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم
من ذوى السطان الأكبر مؤسسة الإعلبي بيروت سنة ١٩٧١ م

ابن خلكان شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد الشافعي
— وفیات الاعیان تحقیق الشیخ محی الدین عبدالحمد مكتبة النهضة المصرية
سنة ١٩٤٨ م

الدباغ عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الانصاري
— معالم الإيمان في معرفة أهل القبروان مكتبة الخانجي سنة ١٩٦٨
دبوز : محمد علي دبوز

— تاريخ المغرب ٢ طبع دار أحياء الكتب العربية ١٩٦٣
ابن أبي دينار محمد بن أبي القاسم بن عمر القيرواني ت ١١١٠ هـ
— المؤنس في تاريخ أفريقيا وتونس تحقيق محمد شمام المكتبة العتيقة بتونس
الديوي : أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ت ٢٧٦ هـ
— الإمامة والسياسة

الرقيق القيرواني أبو اسحق إبراهيم بن القاسم ت في القرن الخامس الهجري
— تاريخ افريقية والمغرب تحقيق المنجي الكعبي مطبعة الوسط بتونس
ابن سعد محمد سعد كاتب الواقدي

— الطبقات الكبرى دار التحرير للطبع والنشر
السلوي . أحمد بن خالد الناصري
— الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى المطبعة البهية بالقاهرة ١٣١٢ هـ
سيد أمير علي

— مختصر تاريخ العرب ترجمة عفيفي البعلبكي دار البلايين سنة ١٩٦٧
السيد عبد العزيز سالم دكتور

— المغرب الكبير ٢ الدار القومية للطباعة والنشر سنة ١٩٦٦ م
— تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس دار المعارف بيروت سنة ١٩٦٢ م

شكري فيصل دكتور

— حركة الفتح الإسلامى فى القرن الاول دار العلم للملايين سنة ١٩٥٢ م

الطاهر أحمد الزاوى الطرابلس

— تاريخ الفتح العربى فى ليبيا دار المعارف سنة ١٩٦٣

الطبرى ابو جعفر محمد بن جرير الطبرى ت ٣١٠ هـ

— تاريخ الامم والملوك دار المعارف سنة ١٩٧٢

ابن عبد الحكم ابو القاسم عبدالرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم القرشى المصرى ت ٢٥٧ هـ

— فتوح مصر وأخبارها طبع ايدن بمطبعة بريل سنة ١٩٣٠ م

العبادى : عبد الحميد العبادى

— المجلد فى تاريخ الاندلس مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٨ م

العبادى : احمد مختار العبادى

— دراسات فى تاريخ المغرب والاندلس مطبعة المصرى اسكندرية ١٩٦٨ م

على حبيبة دكتور

— مع المسلمين فى الاندلس مكتبة الشباب سنة ١٩٧٢ م

على حمودة دكتور

— تاريخ الاندلس السياسى والعمرانى والاجتماعى

عنان : محمد عبدالله عنان

— دولة الإسلام فى الاندلس مطبعة الخانجى ١٩٦٠ م

ابن عدارى ابو عبدالله محمد المراكشى

— البيان المغرب فى اخبار الاندلس والمغرب تحقيق لىنى بروفيسال الدار

التونسية للنشر سنة ١٩٦٨

أبو العرب تميم محمد بن أحمد التميمي الفيرواني ت ٣٣٣ هـ
— طبقات علماء إفريقية وتونس تحقيق علي الشاذلي ونعيم حسن اليافي الدار
التونسية للنشر سنة ١٩٦٨

غستاف لوبون
— حضارة العرب - ترجمة عادل زعير دار أحياء الكتب العربية القاهرة
١٩٥٦ م

ابن القوطية أبو بكر محمد بن عمر ت ٣٦٧ هـ
— تاريخ افتتاح الاندلس تحقيق إبراهيم الإبياري مطبعة النهضة مصر
القاهرة ١٩٨١

ابن الفرض أبو الوليد عبدالله بن محمد الأزدي
— تاريخ علماء الاندلس المكتبة الاندلسية الدار المصرية للتأليف والترجمة
سنة ١٩٦٦ .

كارل بروكلمان
— تاريخ الشعوب الإسلامية دار العلم للملايين بيروت ١٩٦٠ م
السكندى أبو هرير محمد بن يوسف بن يعقوب
— كتاب الولاية والقضاء مطبعة الآباء اليسوعيين بيروت سنة ١٩٠٨ م
المالكي أبو بكر عبدالله بن أبي عبدالله المالكي
— رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية نشر حسين مؤنس
مكتبة النهضة المصرية ١٩٥١ م

مبارك محمد الهلالي الميلي
— تاريخ الجزائر في القديم والحديث مكتبة النهضة الجزائرية

أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغري بردي الانابكي
— النجوم الزاهرة في ملوك القاهرة دار الكتب المصرية ١٩٢٩

محمد الفهامي

— التعريف بالمغرب طبع معهد الدراسات العربية سنة ١٩٦١ م

محمود شيت خطاب

— قادة فتح المغرب العربي دار الفتح للطباعة والنشر بيروت ١٩٦٦ م

المراكشي محي الدين أبو محمد عبد الواحد بن علي التميمي

— المعجب في تلخيص أخبار المغرب تحقيق محمد العريان مطبعة الاستقامة

القاهرة ١٩٤٩ م

المقدمي شمس الدين أبو عبد الله محمد الشافعي المعروف بالبشاري

— أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم مطبعة بريل بليدن ١٩٠٦ م

الوافدي أبو عبد الله محمد بن عمر الواقدي ت ٢٠٧

— فتوح الشام مطبعة الحلبي سنة ١٩٥٤ م

ياقوت شهاب الدين أبو عبد الله الحموي الرومي البغدادي

— معجم البلدان مطبعة السعادة

اليقوي أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح

— تاريخ اليقوي دار صادر بيروت ١٩٦٠ م

الفهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٣
تمهيد في معنى لفظ إفريقية والمغرب وحدودهما	٥
الفصل الأول	٨ - ٦١
الفتح الإسلامي في إفريقية	
فتح برقة	٧
فتح طرابلس	١٠
فتح إفريقية	١٤
غزوة عبد الله بن سعد بن أبي السرح	١٤
غزوة معاوية بن حديج	٢٣
عقبة بن نافع في إفريقية	٢٦
أبو المهاجر دينار	٢٩
عقبة بن نافع في إفريقية ثانياً	٣٢
زهير بن قيس البلوي يسترد القيروان	٤١
حسان بن النعمان الغساني يثبت أقدام المسلمين في إفريقية ويقضى على مقاومة الروم والعبر	٤٨
الفصل الثاني	
الحالة السياسية في إفريقية بعد أن تم فتحها	٦٢ - ٨٢
عصر الولاة من بني أمية وبني العباس	٦٢
ولاية موسى بن نصير	٦٢
ولاية محمد بن يزيد وإسماعيل بن عبيد الله	٦٤
ولاية يزيد بن أبي مسلم ويشر بن صفوان السكبي	٦٥
ولاية عبيدة بن عبد الرحمن السلمي	٦٦

الموضوع	الصفحة
ولاية عبيد الله بن الحبحاب	٦٧
ولاية كلثوم بن عياض القشيري	٦٩
ولاية حنظلة بن صنوان المكي	٧٠
ولاية عبد الرحمن بن حبيب الفهري	٧٢
ولاية محمد بن الأشعث الخزاعي	٧٤
ولاية الأغلب بن سالم التميمي	٧٥
ولاية عمر بن حفص	٧٦
ولاية يزيد بن حاتم	٧٧
ولاية روح بن حاتم ونصر بن حبيب المهلب	٧٨
ولاية الفضل بن روح وهرثمة بن أعين	٧٩
ولاية محمد بن مقاتل السعكي	٨٠

الفصل الثالث

عصر الأغالبة	٨٣ - ١٤٨
قيام دولة الأغالبة	٨٣
إبراهيم بن الأغلب يثبت أركان دولته	٩٤
أمراء دولة الأغالبة	٩٩
زيادة لملة الأول	١٠٠
محمد الأول	١٠٣
أحمد بن محمد وزيادة الله الأصغر ومحمد بن أحمد	١٠٤
إبراهيم بن أحمد	١٠٥
فتوحات دولة الأغالبة	١١١
أهمية موقع صقلية	١١٢
حالة المجتمع الصقلي	١١٣
محاولة المسلمين غزو صقلية وما حولها	١١٥
أسباب فتح صقلية	١١٦

الصفحة	الموضوع
١١٩	حملة الفتح
١٢٣	استمرار الجهاد
١٢٨	من قصر يانة إلى سقوط سرقوسة
١٣٢	نتائج فتح صقلية
١٣٥	علاقاتها بجيرانها وسقوطها
١٣٥	جيرانها من الغرب والشمال
١٣٧	جيرانها من الشرق
١٤٠	الأسباب الداخلية لسقوط الدولة
١٤٣	الأسباب الخارجية لسقوط الدولة
١٤٦	استيلاء أبي عبد الله الشيعي على رقادة والقيروان
	الفصل الرابع
١٤٩ - ١٩٠	فتح الأندلس
١٤٩	حالة الأندلس قبل الفتح الإسلامي
١٥٤	المسلمون يفتحون الأندلس
١٥٤	أسباب فتح الأندلس
١٥٦	الموامل المساعدة والممهدة للفتح
١٥٧	كيف تم فتح الأندلس
١٦٢	حرق طارق للسفن
١٦٥	إنهاء فتح الأندلس
١٧٠	ما يتحدث عنه المؤرخون من أمور وقعت أثناء الفتح
١٨٠	نتائج فتح الأندلس
١٨٠	الوضع السياسي
١٨٢	الوضع الاقتصادي
١٨٣	الوضع العسكري والوضع الديني
١٧٤	التقسيم الإداري

الموضوع	الصفحة
الوضع الاجتماعى	١٨٥
الفصل الخامس	
الاندلس فى عهد الولاة	١٩١ - ٢٣٢
عبد العزيز بن موسى بن نصير	١٩١
المصون مالك الخولاني	١٩٤
عنيسة بن سجين السكافى	١٩٩
عبد الرحمن بن عبد الله الخافقى	٢٠٦
موقعة بلاط الشهداء	٢٠٧
منزلة هذه المعركة	٢١٠
عبد الملك بن قطن الفهرى	٢١٤
عقبة بن الحجاج	٢١٥
ولاية عبد الملك بن قطن الثانية	٢٢٠
ولاية باج بن بشر و ثعلبة بن سلامة	٢٢١
ولاية أبى الخطار الحسام بن ضرار الكلبى	٢٢٢
آخر الولاة يوسف بن عبد الرحمن الفهرى	٢٢٤
حاله الاندلس آخر عهد الولاة	٢٢٧
الفصل السادس	
قيام الدولة الاموية فى الاندلس	١٣٣ - ٢٧٠
سقوط الدولة الاموية فى المشرق	٢٣٣
عبد الرحمن بن معاوية ينجو من العباسيين ويتوجه إلى إفريقية	٢٣٦
عبد الرحمن يتطلع إلى الاندلس	٢٤٢
عبد الرحمن الداخلى فى الاندلس	٢٤٥
موقعة المصارع والاستيلاء على قرطبة	٢٤٩
عقبات واجهت عبد الرحمن وتغاب عليها	٢٥٤
منزلة عبد الرحمن وإصلاحاته	٢٦٥

الفصل السابع

أمرأة بنى أمية في الأندلس بعد عبد الرحمن الداخل - ٢٧١ -

٢٧١	هشام بن عبد الرحمن
٢٧٢	الثورات الداخلية في عهده
٢٧٣	الحروب الخارجية
٢٧٥	الاصلاحات في عهده
٢٧٧	الحكم بن هشام
٢٧٨	الثورات الداخلية في عهده
٢٨٤	الحروب الخارجية
٢٨٧	الاصلاحات في عهده
٢٩٠	عبد الرحمن بن الحكم
٢٩١	الثورات والفتن الداخلية
٢٩٦	الحروب الخارجية في عهده
٣٠٠	الاصلاحات في عهده
٣٠٣	محمد بن عبد الرحمن بن الحكم
٣٠٥	الثورات الداخلية
٣٠٩	الحروب الخارجية
٣١٣	الاصلاحات في عهده
٣١٦	المؤثر بن محمد
٣١٩	عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن
٣٢١	الثورات في عهده
٣٢٢	ثورة ابن حفصون
٣٢٦	حروب خارجية
٣٢٩	الاصلاحات في عهده
٣٣٢	المصادر والمراجع
٣٤٣	المقاييس

خريطة المغرب وخريطة الأندلس

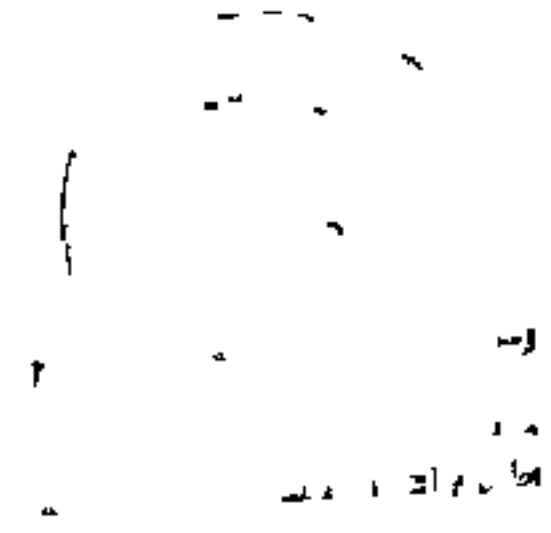
للمؤلف

- ١ - المسلمون في الفلبين جهادهم ومشكلاتهم - دار الوفاء للطباعة سنة ١٩٨٢ م
- ٢ - أضواء من سيرة محمد ﷺ بالاشتراك مع الدكتور عبد العزيز غنيم دار الوفاء للطباعة ، الطبعة الثانية سنة ١٩٨٢ .
- ٣ - الخلفاء الراشدون بالاشتراك مع الدكتور عبد العزيز غنيم ، دار الوفاء للطباعة سنة ١٩٨١ .
- ٤ - تاريخ الدولة العباسية وحضارتها مطابع دار الهلال الرياض ١٩٧٨ .
- ٥ - دراسات في تاريخ مصر الإسلامية دار الوفاء ١٩٨٣
- ٦ - مشكلة مسلمي الفلبين منذ الاحتلال الإسباني حتى الوقت الحاضر (بحث قدم إلى المؤتمر الجغرافي الإسلامي الأول الذي عقد في جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض سنة ١٩٨٩)
- ٧ - العلاقات الثقافية بين القيروان وبين مراكز الفسك في الشرق حتى منتصف القرن الرابع الهجري (مجلة كلية العلوم الاجتماعية جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض العدد الأول ١٩٧٧) من ص ٣٦٧ إلى ص ٣٨٣
- ٨ - تحليل تاريخي لما يذكره المؤرخون عن موسى بن نصير في فتح الأندلس (مجلة كلية العلوم الاجتماعية جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض العدد الثاني سنة ١٩٧٨ من ص ٣٥٠ إلى ص ٣٦٨
- ٩ - العلاقات الثقافية بين القيروان وبين المراكز الفكرية في المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري (مجلة كلية العلوم الاجتماعية جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض العدد الثاني ١٩٧٩) من ص ١٩١ إلى ٢٠٦

- ١٠ - الفتح الاسلامي للاندلس دراسة وتحليل (مجلة كلية العلوم الاجتماعية جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية بالرياض العدد الرابع سنة ١٩٨٠) من ص ٣٠٣ إلى ٣٣٢ .
- ١١ - عائد من الفلبين مجلة الازهر عدد أبريل وأغسطس سنة ١٩٦٦ ، ١٩٦٧
- ١٢ - مع بعثه الفقهاء إلى شمال إفريقيا مجلة الهدى الاسلامي ليبيا سنة ١٩٧٠
- ١٣ - المسلمون في المغرب والاندلس الجزء الاول دار الوفاء للطباعة
- ١٤ - موقف المجتمع المكي من الدعوة دار الوفاء للطباعة
- ١٥ - تأثير الازهر في الخارج بين الماضي والحاضر ، مجلة الازهر رمضان ذي الحجة سنة ١٤٠٣ هـ
- ١٦ - الحياة الفكرية في القيروان بين التأثر والتأثير حواصة كلية اللغة العربية سنة ١٩٨٣ .

تحت الطبع :

- الجانب الحضاري لرحلة ابن بطوطة في جزيرة العرب .
- مواقف مشرقة لعلماء القيروان .



المكتبة الوطنية - الرياض
National Library - Riyadh
المكتبة الوطنية - الرياض

رقم الإيداع بدار المكتبة ٨٣/٤٢٥٦

